فريدريك باكمان

Fredrick Backman

رَجُلٌ يُدعى أوڤ

A Man Called Ove

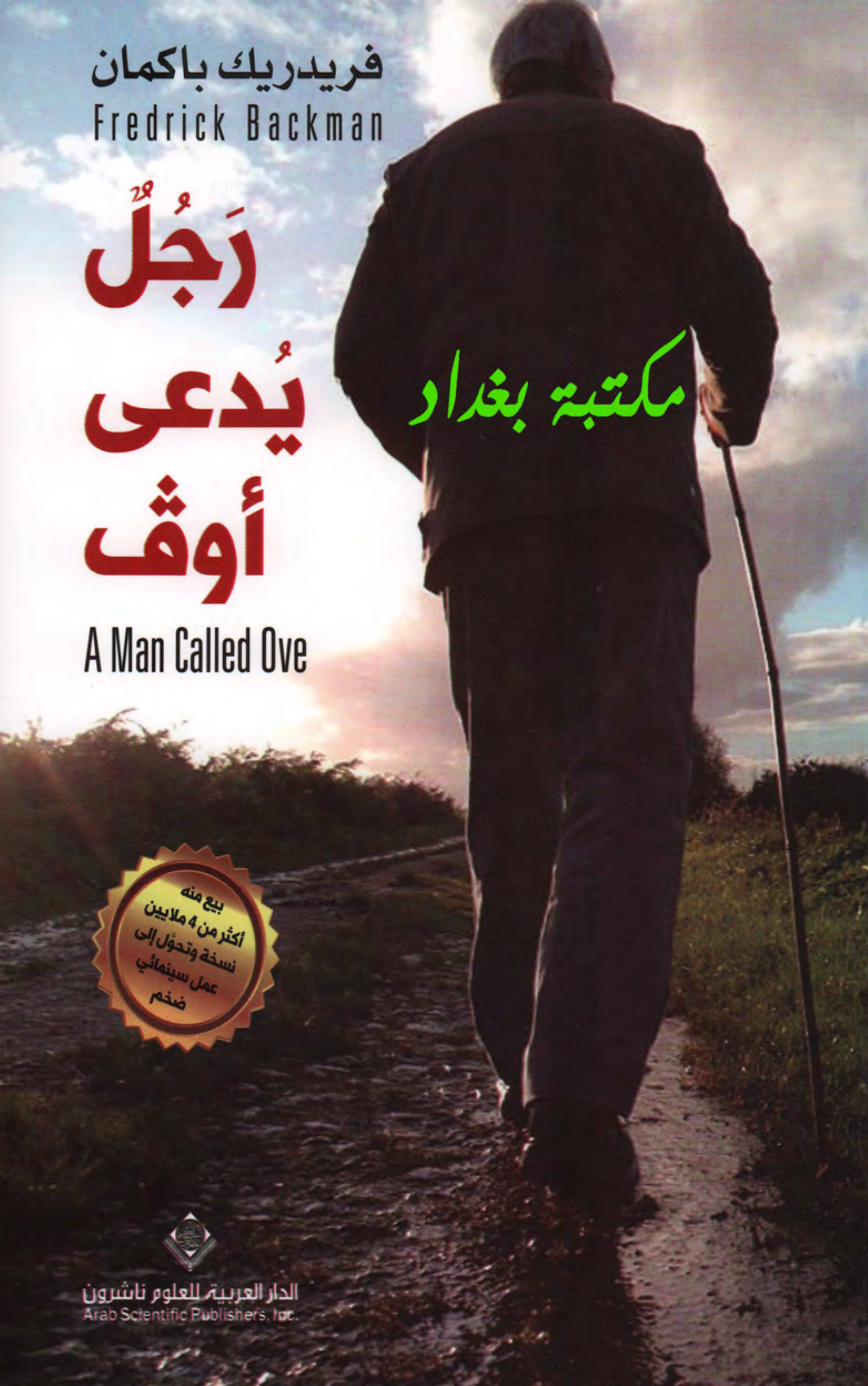

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

رَجُلٌ يُدعى أوڤ

A Man Called Ove

فريدريك باكمان

Fredrick Backman

تمت الترجمة من جانب شركة

Live World Translation

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
A Man Called Ove
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
by Sceptre
an imprint of Hodder & Stoughton, An Hachette UK company
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.
Copyright © 2014 by Fredrick Backman
All rights reserved
Arabic Copyright © 2015 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى
2016 م - 1437 هـ

ردمك 978-614-01-1803-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش.م.ل

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

الإهداء 7

رجلٌ يُدعى أوف يشتري «كمبيوتر» ولكنه ليس جهاز كمبيوتر 9

(قبل ثلاثة أسابيع) رجلٌ يُدعى أوف يقوم بجولة تفقّدية في بلدته 13

رجل يدعى أوف ينعطف بمقطورة ليعكس اتّجاهها 22

رجلٌ يُدعى أوف لا يدفع ثلاث كرونات كثمن إضافي 32

رجلٌ يُدعى أوف 43

رجل يدعى أوف، والدراجة التي كان ينبغي أن تُترَك حيث تُترك الدراجات 53

رجلٌ يُدعى أوف يثقب السقف ليثبِّت عقيفة مشنقة 61

رجل كان يُدعى أوف وزوج حذاء قديم 76

رجلٌ يُدعى أوف ينفّس الهواء من جهاز تدفئة 84

رجلٌ كان يُدعى أوف وبيت بناه أوف 89

رجلٌ يُدعى أوف نحيفٌ، ولا يمكنه فتح نافذة من دون أن يقع عن السلّم 98

رجلٌ كان يُدعى أوف وفي يومٍ من الأيام طفح كيله 109

رجلٌ يُدعى أوف ومهرّج يُدعى بيبو 116

رجلٌ كان يُدعى أوف وامرأة على متن قطار 127

رجل يدعى أوف وقطار متأخر 135

رجل كان يُدعى أوف وشاحنة في الغابة 145

رجلٌ يُدعى أوف وإزعاج هرّ 152

رجلُ كان يُدعى أوف وهرٌّ اسمه إرنست 161

رجل يُدعى أوف والهرّ الذي كان محطّماً عندما جاء 165

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رجل يُدعى أوڤ والدخيل 169
الرجل الذي كان يُدعى أوڤ والدول التي صدحت فيها الموسيقى الأجنبية
في المطاعم 178
رجل يدعى أوڤ وشخص في المرأب 182
رجلٌ يُدعى أوڤ والحافلة التي لم تصل إلى هناك 190
رجل يدعى أوڤ والشقيّ الذي يَطلي بالألوان 196
رجل يدعى أوڤ وقطعة الحديد المموّجة 203
رجل يدعى أوڤ والمجتمع الذي لم يعد أحدٌ فيه قادراً على إصلاح دراجته
بنفسه بعد الآن 212
رجلٌ يُدعى أوڤ ودَرسٌ في قيادة السيارة 219
رجل كان يُدعى أوڤ ورجل كان يُدعى رون 227
رجل يُدعى أوڤ وشخص غير سويّ 235
رجل يُدعى أوڤ ومجتمع من دونه 246
رجل يُدعى أوڤ يرجع مقطورة تسير في الاتّجاه المعاكس؛ مجدّداً 253
رجل يُدعى أوڤ لا يُدير فندقاً لعيناً 261
رجلٌ يُدعى أوڤ وجولة تفقديّة غير اعتياديّة 268
رجلٌ يُدعى أوڤ وفتى من المنزل المجاوِر 274
رجلٌ يُدعى أوڤ وعجز الخدمات الاجتماعيّة 282
رجلٌ يُدعى أوڤ وزجاجة شراب 289
رجلٌ يُدعى أوڤ وأنذالٌ كُثر يحشرون أنوفهم في ما لا يخصّهم 294
رجلٌ يُدعى أوڤ ونهاية قصّة 300
رجلٌ يُدعى أوڤ 307
رجلٌ يُدعى أوڤ والخاتمة 313

الإهـــداء

إلى جميع الجيران الطيبين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

1

رجلٌ يُدعى أوڤ يشتري «كمبيوتر» ولكنه ليس جهاز كمبيوتر

أوڤ في التاسعة والخمسين من عمره، ويقود سيارة صعب. وهو من النوع الذي يشيرُ إلى الناس الذين لا يحبُّ نظراتهم وكأنّهم لصوص، وإصبعه تشبه مصباح الشرطي. وقف أمام منضدة في متجرٍ حيث يأتي أصحاب السيارات اليابانية لشراء «الكابلات» البيضاء، وحدّق إلى مساعد المبيعات لفترة طويلة قبل أن يهزّ علبة بيضاء متوسطة الحجم أمام وجهه، ويسأله:

«إذاً، هذا واحد من هذه «الأو- باد» أليس كذلك؟».

مساعد المبيعات شابّ بفهرس كتلة جسمٍ أحاديّ الرقم، لذا كان يبدو وكأنه مريضٌ. ومن الواضح أنّه يحاول جاهداً السيطرة على رغبته الملحّة في انتزاع العلبة من يد أوڤ.

«نعم، بالضبط. آي- باد. هل تعتقد أنه بإمكانك التوقّف عن هزّ العلبة هكذا؟».

نظر أوڤ إلى العلبة نظرة متشكّكة وكأنها علبة مُريبة جداً؛ وتخيّلها علبة تركب «سكوتر» وترتدي ثياباً رياضيّة، ودعت أوڤ «صديقي» قبل أن تعرض عليه شراء ساعة ما.

«فهمت. إذاً، إنه جهاز كمبيوتر، أليس كذلك؟».

أومأ مساعد المبيعات، ثم تردّد وهزّ رأسه بسرعة وقال:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«نعم... أو ما أعنيه هو... إنه آي- باد. بعض الناس يطلقون عليه اسم «جهاز لوحي» والبعض يسمّونه جهاز تصفّح. هناك طرائق مختلفة للنظر إلى ذلك...».

نظر أوف إلى مساعد المبيعات وكأنه تحدّث بتردّد، قبل أن يهزّ العلبة مرّة أُخرى.

«لكن، هل هذا الشيء جيّد؟».

فأومأ المساعد بارتباك وأجاب: «نعم. أو... ماذا تقصد؟».

تنهّد أوف، وبدأ يتحدّث ببطء، ويلفظ كلماته مشدّداً على الحروف؛ وكأن المشكلة الوحيدة هنا هي ضعف السمع لدى خصمه.

«هل هو جيد؟ هل هو كمبيوتر جيد؟».

حكّ المساعد ذقنه.

«حسناً... نعم... إنه جيد بالفعل... لكنّ ذلك يعتمد على نوع الكمبيوتر الذي تريده».

نظر إليه أوف نظرة ساخطة.

«أريد «كمبيوتر»، «كمبيوتر» عادياً لعيناً!».

خيّم الصمت على الرّجُلَين لفترة قصيرة، ثم تنحنح المساعد وقال:

«حسناً... في الحقيقة، إنه ليس حاسوباً آليّاً عاديّاً. ربما من الأفضل لكَ أن تشتري...»

وتوقّف المساعد عن الكلام، وبدا وكأنه يبحث عن كلمة تقع في حدود مستوى فهم الرجل المقابل له، ثم تابع:

«... جهاز كمبيوتر محمولاً».

هزّ أوف رأسه بعنف ومال نحو المنضدة مهدِّداً.

«كلا. لا أريد «كمبيوتر» محمولاً. أريد جهاز كمبيوتر».

أومأ المساعد وقال:

«الكمبيوتر المحمول جهاز كمبيوتر».

رمقه أوف بنظرةٍ ساخطة وهو يشعر بالإهانة، ووجّه إصبعه نحو المنضدة.

«أتعتقد أنني لا أعلم ذلك؟!».

خيّم الصمت مجدّداً، وكأن الرجلين أدركا فجأةً أنهما نَسِيا إحضار مسدّسيهما. نظر أوف إلى العلبة لفترة طويلة، وكأنه ينتظر منها أن تعترف، ثم تمتم أخيراً:

«من أين تُسحب لوحة المفاتيح؟».

مرّر مساعد المبيعات كفّيه على حافّة المنضدة، ثم نقل وزنه بعصبيّة من القدم إلى أخرى كما يفعل غالباً الشبان العاملون في منافذ البيع بالتجزئة عندما يفهمون أن شيئاً ما سيأخذ وقتاً أكثر مما كانوا يأملون في البداية.

«حسناً، في الواقع، هذا لا يملك لوحة مفاتيح».

رفع أوف حاجبيه وتمتم: «آه، بالطبع، لأنه يجب شراؤه كَإضافة، أليس كذلك؟».

«لا. ما أعنيه هو أن هذا النوع من الكمبيوتر ليست لديه لوحة مفاتيح منفصلة. إذ يمكنك التحكّم بكلّ شيء من الشاشة».

هزّ أوف رأسه غير مصدّق، كما لو أنّه رأى للتوّ مساعد المبيعات يتمشّى حول المنضدة ويَلعَقُ خزانة العرض ذات الواجهة الزجاجية.

«ولكن، يجب أن تكون لديّ لوحة مفاتيح. هل تفهم ذلك؟».

تنهّد الشاب بعمق، وكأنه يعدّ بصبر إلى الرقم عشرة.

«حسناً، أنا أفهم. في هذه الحالة، لا أظنّ أنه عليك أن تختار هذا الكمبيوتر، بل أعتقد أنه يجب عليك أن تشتري شيئاً آخر مثل ماك بوك بدلاً منه».

«ماك بوك؟!». قال أوف بعيداً عن الاقتناع. «أهو واحدٌ من «أجهزة القراءة الإلكترونية» التي يتحدّث عنها الجميع؟».

«كلا. جهاز ماك بوك هو... هو... كمبيوتر محمول مع لوحة مفاتيح».

«حسناً!». همس أوف، وتأمل المحل حوله قليلاً.

«إذاً، هل هو جيد؟».

نظر مساعد المبيعات إلى الأسفل نحو المنضدة بطريقة تكشف عن رغبة شديدة- بالكاد يسيطر عليها- في خدش وجهه الخاص. ثم أشرق وجهه فجأةً بابتسامة حيوية وامضة، وقال:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أتعلم؟ دعني أرى ما إذا كان زميلي قد أنهى عمله مع زبائنه كي يأتي ويشرح لك».

تحقّق أوف من ساعته، ووافق على مضض؛ مذكِّراً المساعد أن بعض الناس لديهم ما يفعلونه أهمّ من الوقوف منتظرين طوال اليوم. فأومأ له المساعد بسرعة، ثم اختفى وعاد بعد لحظات قليلة مع زميله. كان زميله يبدو سعيداً جدّاً؛ تماماً كما يفعل أولئك الذين لم يعملوا بعد لمدّة كافية من الوقت كمساعدي مبيعات.

«مرحباً، كيف يمكنني مساعدتك؟».

وجّه أوف إصبعه كمصباح الشرطي نحو المنضدة وقال:

«أريد «كمبيوتر»!».

لم يعد الزميل يبدو سعيداً جداً، ورمق مساعد المبيعات الأوّل بنظرة متملّقة وكأنه يقول له إنّه سيدفع له مقابل بقائه هنا.

في هذه الأثناء، تمتم مساعد المبيعات الأول قائلاً: «لا أستطيع أن أتحمّل أكثر، أنا ذاهب لتناول الغداء».

فتذمّر أوف: «الغداء! هذا هو الشيء الوحيد الذي يهتمّ الناس به هذه الأيام».

«عذراً؟». قال الزميل وهو يستدير.

«الغداء !». سخر أوف، ثم رمى العلبة على المنضدة وخرج بسرعة.

2

(قبل ثلاثة أسابيع)
رجلٌ يُدعى أوڤ يقوم بجولة تفقّدية في بلدته

كانت الساعة السادسة صباحاً إلاّ خمس دقائق عندما التقى أوڤ الهرّ للمرّة الأولى. كره الهرّ أوڤ فوراً كرهاً شديداً، وكان الشعور متبادلاً.

كان أوڤ، كالعادة، قد نهض قبل عشر دقائق. فهو لا يستطيع تحمّل الناس الذين ينامون كثيراً، ويلقون اللوم على «المنبّه الذي لم يرنّ». لم يملك أوڤ منبّهاً طوال حياته. وكان يستيقظ عند الخامسة وخمس وأربعين دقيقة يوميّاً.

كلّ صباح تقريباً من العقود الأربعة التي عاشاها في هذا البيت، كان أوڤ يضع مرشحة القهوة، مستعملاً بالضبط كمية القهوة نفسها مثل أي صباح آخر، ومن ثم كان يحتسي كوباً مع زوجته. مقياس واحد لكل كوب، وواحد آخر للإبريق؛ لا أكثر ولا أقل. لم يعد الناس يعرفون كيفية القيام بذلك الآن؛ أي طَحن بعض حبوب البِن وتحضير القهوة الجيّدة. تماماً كما لم يَعُد أحدٌ في هذه الأيام قادراً على أن يكتب بالقلم لأنّ كلّ شيء أصبح يعتمد على أجهزة الكمبيوتر. أجهزة كمبيوتر وآلات اسبريسو! إلى أين يسير العالم إذا لم يعد بإمكان الناس الكتابة حتى أو تحضير القليل من القهوة؟

فيما كان كوب من القهوة الجيدة يتحضّر، لبس سرواله ذا اللون الأزرق الداكن وسترته، وانتعل قبقابه الخشبي، ودفع يديه في جيبيه بطريقة خاصّة برجل في منتصف العمر يتوقّع من العالم الخارجي الذي لا قيمة له أن يخيّب آماله. ثم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قام بجولته التفقديّة الصباحية للشارع. كانت المنازل ذات السطيحات المحيطة بمنزله غارقة في الصمت والظلام عند خروجه من الباب، ولم يكن هناك أحد في الخارج. كان يجب أن أعلم هذا! فكّر أوف في سرّه. في هذا الشارع، لا يتكبّد أحدٌ عناء الاستيقاظ في وقت أبكر من الوقت المحدّد. وفي هذه الأيام، هناك فقط نوعان من الناس يعيشون هنا؛ أولئك الذين يعملون لحسابهم الخاص، وآخرون سيّئو السمعة لا غير.

جلس الهرّ في منتصف الممر بين البيوت وعلى وجهه تعبير غير مبالٍ. كان لديه نصف ذيل وأذن واحدة فقط. وكانت بقع من شعره مفقودة هنا وهناك، وكأن شخصاً ما قد شدّه. لم يكن هرّاً مثيراً للإعجاب كثيراً.

تقدّم أوف إلى الأمام، فوقف الهرّ، وتوقّف أوف. وقفا هناك يتأملان بعضهما بعضاً لبضع لحظات؛ مثل اثنين من مثيري الشغب المحتملين في مقهى بلدة صغيرة. فكّر أوف في خلع فردة قبقابه ورميها عليه. وبدا الهرّ وكأنه يأسف لعدم إحضاره قبقابه الخاص للردّ.

«انصرف!». صرخ أوف بشكل مفاجئ؛ لدرجة أن الهرّ قفز إلى الوراء. تأمل الهرّ الرجل البالغ من العمر تسعة وخمسين عاماً والذي ينتعل قبقاباً لفترة وجيزة، ثم التفت ومشى سريعاً. كاد أوف يُقسِمَ إنّ عينَي الهرّ قد انقلبتا قبل ذهابه.

يا له من هِرٍّ مزُعج! فكّر أوف وهو ينظر إلى ساعته نظرة عابرة. إنها السادسة ودقيقتان. حان وقت الذهاب؛ لقد نجح الهرّ اللعين في تأخير جولته التفقدية كلّها.

بدأ يسير على طول الممرّ بين البيوت. توقّف عند اللافتة التي تحظّر على السائقين دخول المنطقة السكنيّة. ركل العمود المعدني ركلةً ثابتة؛ ليس لأنه كان متزعزعاً أو ما شابه، ولكن من الأفضل دائماً أن تتحقّق من الأُمور؛ وأوف من الرجال الذين يتحققون من حالة الأشياء كلها بركلها ركلة قويّة. مشى عبر منطقة وقوف السيارات، وتمشّى ذهاباً وإياباً على طول كلّ المرائب ليتأكّد من أنها لم تتعرّض للسطو في الليل أو لم تُضرِم فيها عصابات من المخرّبين النار. لم تحدث مثل هذه الأمور يوماً هنا، ولكن أوف لم يستطع قط أن يتخطّى يوماً إحدى جولاته

التفقدية أيضاً. شدّ بعنف مقبض باب مرأبه ثلاث مرات، حيث كانت سيارته مركونة؛ تماماً مثلما يفعل كل صباح.

بعد ذلك، التفّ حول منطقة وقوف سيارات الزائرين؛ حيث يمكن أن تترك السيارات لمدة تصل إلى أربع وعشرين ساعة فقط. دوّن بعناية كل أرقام لوحات التسجيل على دفتره الصغير الذي يحتفظ به في جيب سترته، ثم قارنها مع التسجيلات التي دوّنها في اليوم السابق. وفي حالات تكرار أرقام التسجيل نفسها، كان يعود إلى بيته ويتّصل بسلطة ترخيص المركبات للبحث عن تفاصيل عن مالك السيارة التي أخلّت بالنظام، وبعد ذلك يتّصل بهذا الأخير ويبلغه بأنه أبله لعينٌ وعديم الفائدة لا يمكنه حتى قراءة اللافتات. لم يكن أوف مهتمّاً حقاً بمن كان يقف في منطقة وقوف سيارات الزائرين طبعاً، لكنها مسألة مبدأ. وإذا كُتِبَ على اللافتة أربع وعشرون ساعة فقط، فإذاً هذه هي المدّة التي يسُمح لك بها بالبقاء هنا. كيف سيكون الحال إذا توقف الجميع أينما يشاءون؟ ستعمّ حالة من الفوضى بالتأكيد، وستكون هناك سيارات لعينة في كلّ مكان.

اليوم، لحسن الحظ، لم تكن هناك أيّ سيارات غير مصرّح بها في موقف سيارات الزائرين، وكان أوف قادراً على الانتقال إلى المرحلة التالية من التفتيش اليوميّ؛ غرفة حاويات النفايات، مع أنها لم تكن فعلاً من مسؤولياته. كان قد عارض بحزم منذ البداية الهُراءَ المُنتشر بين الناس، وهو أنّ نفايات المنازل «يجب أن يتمّ فرزها». لكن، بما أن القرار قد اتُّخِذَ لصالح فرز النفايات، كان لا بدّ أن يضمن شخص ما تطبيق القرار فعليّاً. لم يطلب أحد من أوف القيام بذلك، ولكن إذا لم يأخذ الرجال أمثال أوف المبادرة فستعُمُّ الفوضى، وستكون هناك أكياس من النفايات منتشرة في كلّ مكان. ركل الصناديق قليلاً، ثم شَتَمَ، وسحب جرّة من حاوية إعادة تدوير الزجاج، وتمتم قائلاً «غير أكفّاء» بينما كان يفك غطاءها المعدني. أسقط الجرّة مجدداً في حاوية إعادة تدوير الزجاج، ورمى الغطاء المعدني في حاوية إعادة تدوير المعادن.

عندما كان أوف رئيس جمعية السكان المقيمين، ضغط كثيراً على اللجنة لتركيب كاميرات مراقبة كي يتمكّنوا من مراقبة غرفة حاويات النفايات، ومنع الناس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

من رمي القمامة غير المصرّح بها. لسوء حظ أوف، تمّ التصويت ضدّ اقتراحه. فقد شعر الجيران «بعدم الارتياح قليلاً» حيال ذلك، بالإضافة إلى أنهم شعروا أنّ أرشفة جميع أشرطة الفيديو ستسبّب صداعاً؛ هذا على الرغم من مجادلة أوف مراراً بحجّة أنّ ذوي «النوايا الصادقة» ليس لديهم ما يخشونه من «الحقيقة».

بعد ذلك بعامين، وبعد أن عُزِلَ أوف من منصبه كرئيس للجمعية (وهي خيانةٌ أشار إليها لاحقاً على أنّها انقلاب)، طُرِحَت المسألة مجدداً. وأوضح الفريق التوجيهي الجديد للسكان بسرعة أن هناك نوعاً جديداً من الكاميرات المتاحة، وأنها تعمل من خلال أجهزة استشعار الحركة، وترسل اللقطات إلى شبكة الإنترنت مباشرة. وبمساعدة هذه الكاميرات يستطيع المرء مراقبة منطقة وقوف السيارات أيضاً وليس فقط غرفة حاويات النفايات. وبالتالي، يمكن منع التخريب المتعمد والسطو. والأفضل من ذلك أنّ مواد الفيديو تُمحى تلقائياً بعد مرور أربع وعشرين ساعة، وبالتالي يتم تَجنّب أي «خرق لحق السكان في الخصوصية». كانت هناك حاجة إلى قرار بالإجماع للمضي قدماً في عملية تثبيت الكاميرات، وصوّت عضو واحد فقط ضدّ هذا القرار.

وذلك لأنّ أوف لا يثق بالإنترنت. وكان يلفظ الكلمة مشدداً على المقطعين الصوتيين «إن» و«نت»، على الرغم من أنّ زوجته ألحّت عليه مراراً للتركيز باللفظ على المقطع الصوتي «إنتر». وفي النهاية، لم يتم تركيب أي كاميرات؛ تماماً كما اعتقد أوف. كان التفتيش اليومي أكثر فعالية على أي حال. فبإمكانك أن تعرف من يقوم بماذا، ومن يُبقي الأمور تحت السيطرة. وباستطاعة أي شخص لديه نصف دماغ أن يفهم معناه.

عندما انتهى من تفقّد غرفة حاويات النفايات أغلق الباب؛ تماماً كما كان يفعل كل صباح، وهزّه ثلاث مرات بقوة لضمان إغلاقه بشكل صحيح. ثم استدار ولاحظ وجود دراجة تتكئ على الجدار خارج مرأب الدراجات؛ على الرغم من وجود لافتة ضخمة لإرشاد المقيمين إلى ضرورة عدم ترك دراجاتهم هناك. كان أحد الجيران قد ألصق بجانبها ملاحظة خطية تدل على الغضب: «هذه ليست منطقة وقوف الدراجات! تعلّم قراءة اللافتات!». تمتم أوف شيئاً ما عن البلهاء غير

الفعّالين، ثم فتح مرأب الدراجات، وأمسك الدراجة ووضعها بدقة في الداخل. وبعد ذلك، أقفل الباب وهزّ مقبضه ثلاث مرات.

انتزع الملاحظة الخطية عن الجدار. كان يودّ أن يقترح على اللجنة التوجيهية وضع لافتة «ممنوع لصق المنشورات» على هذا الجدار. ففي هذه الأيام، يعتقد الناس أنه بإمكانهم التجول لإلصاق الشعارات التي تعبر عن غضبهم هنا وهناك، وفي أي مكان يشاءون. وهذا جدار، وليس لوح لافتات لعينة.

مشى أوف في الممر الصغير بين البيوت، وتوقف قليلاً خارج بيته، ثم انحنى فوق الحجارة المبلّطة وتنشق بشدّة على طول الشقوق.

بول. إنّها رائحة بول.

وبعد هذه الملاحظة، عاد إلى منزله وأغلق بابه وشرب قهوته.

وعندما انتهى، ألغى استئجار خطّ هاتفه واشتراك صحيفته، ثم صلّح صنبور خلّاط المياه في الحمام الصغير، ووضع مسامير جديدة في مقابض الأبواب بدءاً من باب المطبخ ووصولاً إلى باب الشرفة. ثم أعاد تنظيم الصناديق في العلية، وأعاد ترتيب أدواته، ونقل إطارات سيارته الشتوية إلى مكان جديد. والآن، ها هو.

لم يكن يتوقع مطلقاً أن تصبح الحياة هكذا.

إنها الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ثلاثاء في شهر نوفمبر (تشرين الثاني). لقد أطفأ أجهزة التدفئة وآلة ترشيح القهوة وكل المصابيح، ثم زيّت الجزء الخشبي في المطبخ؛ على الرغم من قول أولئك العنيدين في ايكيا (IKEA) إن الخشب لا يحتاج إلى التزييت. في هذا البيت، جميع أسطح العمل الخشبية تحصل على التزييت كل ستة أشهر، سواء أكان ذلك ضرورياً أو لا، ومهما قالت إحدى الفتيات المرتديات قمصاناً صفراء في مستودع الخدمة الذاتية عن ذلك.

وقف في الجزء الخلفي من غرفة المعيشة في المنزل المؤلّف من طابقين، وذي الشرفة مع علية بنصف حجم الغرفة، محدقاً من النافذة. أتى المتصنّع المتأنّق البالغ من العمر أربعين عاماً وذو اللحية المشابهة للقشّ من ذاك المنزل مهرولاً عبر الشارع. اسمه آندرز على ما يبدو. وهو من الواصلين حديثاً. ربما لم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يعش هنا لأكثر من أربع سنوات أو خمس على الأكثر. سبق له أن تمكّن من التملّق ليشق طريقه إلى الفريق التوجيهي لجمعية السكان المقيمين. الثعبان يعتقد أنّه يمتلك الشارع. فعلى ما يبدو، انتقل بعد طلاقه، وقد دفع مبلغاً باهظاً. إنه نموذجٌ مثاليّ عن أولئك الأوغاد الذين اعتادوا أن يأتوا إلى هنا ويرفعوا أسعار العقارات بالنسبة إلى الناس الشرفاء. وكأنّ هذه المنطقة نوعٌ من مناطق الطبقة العليا. وهو أيضاً يقود سيارة أودي كما لاحظ أوف. كان من الممكن أن يتوقع هذا. فالناس الذين يعملون لحسابهم الخاص والحمقى الآخرون يقودون جميعهم سيارات أودي. شدّ أوف قبضتَي يديه في جيبيه، ووجّه ركلة قوية إلى الحافة الملتوية. هذا المنزل المزوّد بسطيحة (ترّاس) كبيرٌ جدّاً نوعاً ما بالنسبة إلى أوف وزوجته. يمكنه أن يعترف بذلك حقاً. ولكن كلّ شيء مدفوع ثمنه. لم يَتَبَقَّ هناك أيّ قرش ينبغي تسديده لأجل القروض. وهذا بالتأكيد أكثر ممّا يستطيع المرء أن يقوله. أصبح كلّ شيء يعتمد على القروض في هذه الأيام، والجميع يعرفون ذلك. أوف قد دفع قرضه. قام بواجبه. فقد ذهب إلى العمل دائماً، ولم يحصل على إجازة مرضية يوماً. لقد تحمّل نصيبه من العبء، تحمّل القليل من المسؤولية. لم يعد أحدٌ يفعل هذا في هذه الأيّام، لا أحد يتحمّل المسؤولية. الآن، أصبح كلّ شيء يعتمد على أجهزة كمبيوتر ومستشارين وشخصيات مجالس هامة يذهبون إلى الأندية ويبيعون عقود الإيجارات تحت الطاولة. الملاذات الضريبية والحصص الحقيبية. لا أحد يريد أن يعمل. إنه بلدٌ مليء بالناس الذين يريدون فقط تناول الطعام طوال اليوم.

«ألن يكون أمراً لطيفاً أن تخفّف عن نفسك أعباء العمل؟». قالوا ذلك لأوف أمس في العمل، موضّحين أن هناك نقصاً في فرص العمل، وبالتالي فهم «يقيلون الجيل الأكبر سناً». ثلث قرن أمضاه في مكان العمل نفسه، وهذه هي الطريقة التي يشيرون بها إلى أوف. فجأة، أصبح من «الجيل» اللعين؛ كما لو أن الناس في هذه الأيام جميعهم في الحادية والثلاثين من العمر، ويرتدون السراويل الضيقة جدّاً، ولا يشربون القهوة العادية، ولا يريدون تحمّل المسؤولية. هناك عدد هائل من الرجال ذوي اللّحى الدقيقة، الذين يغيّرون الوظائف والزوجات و«ماركات» سياراتهم بكلّ

بساطة؛ كلّما شعروا برغبة في ذلك.

نظر أوف من النافذة نظرةً ساخطة. المتصنّع يركض. لم يغتظ أوف من الركض، لا، على الإطلاق. إذ لا يمكن لأوف أن يهتمّ بالناس المهرولين. ولكنّ ما لا يمكنه فهمه هو لماذا عليهم أن يعظّموا الأمر إلى هذه الدرجة. مع تلك الابتسامات المتعجرفة على وجوههم. وهم إمّا يسيرون بسرعة أو يهرولون ببطء، هذا ما يفعله العدّاءون. إنها وسيلة رجل يبلغ من العمر أربعين عاماً ليقول للعالم إنه لا يستطيع فعل أيّ شيء بطريقة صحيحة. هل من الضروري حقّاً أن يرتدي ملابس لاعب «جمباز» روماني يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً لكي يكون قادراً على القيام بذلك؟ أو كعضو في فريق التزلّج الأولمبي؟ فقط لأن أحدهم يتجول بلا هدف حول الحيّ لمدّة ثلاثة أرباع الساعة؟

والمتصنّع لديه صديقة أصغر منه بعشر سنوات؛ «العُشبة الشقراء» كما يدعوها أوف. وهي امرأة تترنح في الممرات مثل الباندا، منتعلة حذاء ذا كعب عالٍ بطول مفكّات البراغي، وهناك طلاء مهرّج على كل وجهها، وتضع نظارة شمسية كبيرة حيث لا يمكن معرفة ما إذا كانتَ نظارة فعلاً أو نوعاً من الخوذ. ولديها أيضاً واحدٌ من تلك الحيوانات التي تتسعُ لها حقيبة يَد. كان يركض ويَشِدُّ السلسلة الممتدة من الطوق حول عنقه، ويتبوّل على حجارة الرصيف خارج منزل أوف. إنها تعتقد أن أوف لا يلاحظ هذا، ولكنّه يلاحظ هذا دائماً.

لم يكن من المفترض قط أن تكون حياته هكذا. نقطة. «ألن يكون أمراً لطيفاً أن تخفّف عن نفسك أعباء العمل؟» هذا ما قيل له أمس في العمل. والآن، يقف أوف هنا قرب منضدة المطبخ المزيّتة. ليس من المفترض أن تكون هذه وظيفة بعد ظهر الثلاثاء.

نظر من النافذة إلى المنزل المقابل لمنزله والمماثل له، والذي انتقلت إليه للتوّ أسرة مع أطفال. إنهم أجانب حسبما يبدو. وهو حتّى الآن لا يعرف أيّ نوع من السيارات يملكون، ربما نوعاً يابانياً، فليكن الله في عونهم. أومأ أوف لنفسه، وكأنه قال للتو شيئاً يوافق عليه بشدّة. نظر إلى سقف غرفة المعيشة، حيث سيضع اليوم عقيفة مشنقةٍ في الأعلى. وهو لا يعني أي نوع من المشانق؛ إذ إن أي استشاري

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تكنولوجيا قد يضع عقيفة عادية، ويعلق مشنقة عادية تماماً. لكن مشنقة أوف ستكون صلبةً مثل الصخرة. سوف يثبت العقيفة جيداً لدرجة أنه عندما يتمّ هدم المنزل ستكون آخر شيء معلّق وصامد.

في غضون أيام قليلة، سيكون هناك وكيل عقاري مُزدرٍ يقف هنا مع ربطة عنق ذات عقدة كبيرة بحجم رأس طفل، وهو يُثرثر بضجيج مُدَوٍّ عن «إمكانية التحديث» و«الكفاءة المَكانيّة»، وستكون لديه كلّ أنواع الآراء حول أوف، النذل. لكنه لن يكون قادراً على قول كلمة عن مشنقة أوف.

على الأرض في غرفة المعيشة واحدٌ من صندوقَي «الأشياء المفيدة» الخاصة بأوف. بهذه الطريقة يقسّمان المنزل. كل الأشياء التي اشترتها زوجة أوف «جميلة» أو «منزلية»، وكل شيء اشتراه أوف «مفيد»؛ شيء له وظيفة. وهو يحتفظ بهذه الأشياء في صندوقين مختلفين، واحدٌ كبير وواحد صغير. هذا الصندوق الصغير مليء بالمسامير ومجموعات البراغي وهذا النوع من الأشياء. لم يعد الناس يملكون أشياء مفيدة، فليس لديهم سوى مجرّد هُراء. البيوت مليئة بأفران المايكروويف والتلفزيونات ذات الشاشات المسطّحة، إلا أن أصحابها لم يتمكّنوا حتى من القول لك أي قابس يتم تثبيته في جدار إسمنتيّ.

لدى أوف علبة داخل صندوق الأشياء المفيدة مخصّصة فقط لمقابس الجدار الإسمنتي. وها هو يقف هنا وينظر إليها وكأنها قطع من الشطرنج. إنه لا يتوتّر بشأن القرارات المتعلقة بمقابس جدار الإسمنت. إذ يجب أن تأخذ الأمور وقتها؛ فكل قابس عبارة عن عملية، ولكل واحد استخدامه الخاص. لم يعد لدى الناس أي احترام للعمل اللائق، وهم سعداء طالما أن كل شيء يبدو أنيقاً ومدهشاً على الكمبيوتر. لكن أوف يقوم بالأشياء بالطريقة التي يفترض به القيام بها.

جاءوا إلى مكتبه يوم الاثنين، وقالوا إنهم لم يرغبوا في إخباره يوم الجمعة لأن ذلك قد «يُفسِدُ عطلة نهاية الأسبوع الخاصة به».

«سيكون من المفيد لك أن تخفّف عن نفسك قليلاً». تخفّف!؟ ما الذي يعرفونه عن الاستيقاظ من النوم يوم الثلاثاء من دون أن يكون لديك أي هدف؟ مع الإنترنت وقهوتهم الاسبريسو، ما الذي يعرفونه عن تحمّل القليل من المسؤولية؟

نظـر أوف إلـى السـقف، وأغمـض عينيه نصف إغماضـة. من المهم أن تكون المشنقة في الوسط، قرّر هذا.

وبينما هو يقف هناك منغمساً في التفكير بأهمية ذلك، قاطعه بلا رحمة صوت كَشطٍ طويل. إنه صوت يصدره أحمق كبير يجرُّ سيارة يابانية موصولة إلى مقطورة يكشطها على الجدار الخارجيّ لمنزل أوف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

3

رجل يدعى أوف ينعطف بمقطورة ليعكس اتّجاهها

فتح أوف الستائر الخضراء بسرعة، والتي ضغطت عليه زوجته لسنوات عديدة وبإلحاحٍ لجوجٍ ليغيّرها. رأى امرأة قصيرة، سوداء الشعر، ومن الواضح أنها أجنبية، يُناهز عمرها الثلاثين عاماً. كانت تقف هناك، وتومئ بغضب لرجل أشقر وضخم في مثل سنها، طويل القامة، ومحشور على مقعد السائق في سيارة يابانية صغيرة وسخيفة تجرّ مقطورة، وتحتكّ الآن بالجدار الخارجي لمنزل أوف.

ويبدو أن الرجل يريد أن يُفهِم المرأة عن طريق الإيماءات والإشارات الخفية أن هذا الأمر ليس تماماً بالسهولة التي تعتقدها. فيما بدت المرأة– بإيماءات واضحة بعض الشيء– وكأنها تريد أن تُبلِغه أن ذلك قد تكون له علاقة بغبائه.

«اللعنة، سأكون...» توعّد أوف من وراء النافذة بينما كانت عجلات المقطورة تتحرك على أزهاره. وبعد بضع ثوان، بدا باب منزله وكأنه فُتِحَ من تلقاء نفسه، وكأنّه يخشى أن يمرَّ أوف مباشرة عبره.

«ما الذي تفعلينه بحقّ الله!؟». صرخ أوف في وجه المرأة.

فأجابته صارخة: «هذا ما أسأل نفسي عنه!».

فقَدَ أوف توازنه لبضع لحظات وهو ينظر إليها نظرة ساخطة، فيما كانت تبادله النظرة نفسها.

«لا يمكنك قيادة سيارة هنا! ألا تحسنين القراءة؟».

تقدّمت المرأة الأجنبية الصغيرة بضع خطوات نحوه، وعندها فقط لاحظ أوف أنها إما حامل أو تعاني ممّا قد يصنّفه أوف السمنة المفرطة.

«لست أنا من يقود السيارة، أليس كذلك؟».

حدّق أوف إلى وجهها بصمت لبضع ثوان، ثم التفت إلى زوجها الذي تمكّن للتو من انتزاع نفسه من السيارة اليابانية، واقترب منهما ويداه مرتفعتان بصراحة في الهواء، وهناك ابتسامة اعتذارٍ مُلصَقة على وجهه. كان يرتدي سترة محبوكة، وتبدو وقفته وكأنها تشير إلى وجود نقصٍ واضح في الكالسيوم لديه. طول قامته قد يصل إلى المترين، ويشعر أوف بتشكيك فطري تجاه جميع الناس الذين يتخطّى طول قامتهم متراً وخمسة وثمانين سنتمتراً؛ إذ لا يمكن أن يصل الدم فعلاً إلى أدمغتهم.

استفسر أوف: «ومن تكون أنتَ؟».

فقال الرجل النحيف بفصاحة: «أنا السائق».

«أوه، حقّاً؟ لا يبدو هذا واضحاً!». اغتاظت المرأة الحامل التي من المحتمل أن تكون أقصر منه بنصف متر، وحاولت صفع ذراعه بكلتا يديها.

«ومن هذه؟». سأل أوف محدقاً إلى وجهها.

«هذه زوجتي». أجاب الرجل مبتسماً.

«لا تكن واثقاً من أنني سوف أظلّ كذلك». قالت بسخرية فيما بطنها يثب صعوداً وهبوطاً.

«الأمر ليس سهلاً كما يـ...» حاول الرجل النحيف أن يتكلم، ولكنه قوطع على الفور.

«قلتُ إلى اليمين، ولكنك بقيت تستدير نحو اليسار! أنت لا تُصغي! لا تُصغي أبداً!».

بعد ذلك، استغرقت في خطاب مدته نصف دقيقة عما يمكن لأوف الافتراض أنه عرض للشتائم المعقدة العربية.

أومأ لها الزوج مبتسماً ابتسامة متناغمة لا توصف؛ ذاك النوع بالذات من الابتسامات التي تجعل المرء اللطيف والمحترم يرغب في صفع وجه أحدهم؛ فكّر أوف في سره.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«آه، هيا. أنا آسف». قال الرجل بمرح وهو يسحب علبة تبغ للمضغ من جيبه، ويأخذ منها القليل، ويجعله على شكل كرة بحجم حبّة الجوز، ثم تابع: «كان مجرّد حادث صغير، سنسوّي المسألة!».

نظر أوف إلى الرجل النحيف كما لو أنّ هذا الأخير قد قرفص على غطاء محرّك سيارة أوف وترك كتلة من الغائط عليه.

«نسوّي المسألة! أنت تدوس على أزهاري!».

نظر النحيف بضجرٍ إلى عجلات المقطورة وقال:

«هذه بالكاد أزهار، أليس كذلك؟». ثم ابتسم بهدوء، وتابع: «كلا، هيّا، هذه مجرّد تربة». أصرّ وكأنّ أوف يمازحه.

قطّب أوف جبينه فأصبح أكثر تجعّداً، وحمل تهديداً كبيراً.

«إنها أزهار».

حكّ النحيف رأسه وكأن بعض التبغ قد علق في خصلات شعره المتشابكة.

«لكنك لم تزرع أيّ شيء فيها...»

«لا تتدخّل أبداً في ما أفعله في حديقتي الخاصة!».

أومأ النحيف بسرعة، وهو حريص بشكل واضح على تجنّب المزيد من الاستفزازات من هذا الرجل المجهول، ثم التفت إلى زوجته وكأنه يتوقّع منها مساعدته. ولكن، يبدو أن لا نيّة لديها للقيام بذلك. نظر النحيف إلى مجدداً.

«الحَمْل، كما تعلم. الهرمونات وكل ذلك...» حاول مبتسماً.

غير أن المرأة الحامل لم تبتسم، ولا أوف أيضاً، بل شبكت ذراعيها على صدرها، فيما دسّ أوف يديه تحت حزامه. من الواضح أن النحيف لا يعرف ما الذي يجدر به فعله بيديه الضخمتين، ولذلك راح يؤرجحهما ذهاباً وإياباً بشكلٍ مخجل، كما لو أنّهما مصنوعتان من القماش وترفرفان مع النسيم.

«سأحرّكها وأحاول مرّة أخرى». قال أخيراً، وابتسم لأوف مجدّداً باستسلام.

غير أن أوف لم يبادله ابتسامته.

«السيارات ممنوعة في المنطقة. هناك لافتة تنبه إلى ذلك».

تراجع النحيف إلى الوراء وهو يومئ بلهفة، ثم هرول عائداً إلى السيارة اليابانية الصغيرة، وحشر جسده فيها مرة أخرى. «يا إلهي». تمتم أوف والمرأة الحامل بسأمٍ وانسجامٍ تام؛ ممّا جعل أوف في الواقع يكرهها بشكل أقلّ.

تقدّم النحيف أمتاراً قليلة، فاستطاع أوف أن يرى بوضوح أنه لا يسوّي المقطورة بشكل صحيح. ثم بدأ بالرجوع مرّة أخرى؛ مباشرة نحو صندوق بريد أوف، مسبّباً التواء الصفائح المعدنية الخضراء.

عندها، توجّه أوف بسرعة نحو السيارة، وفتح الباب بعنف.

فبدأ النحيف بتحريك ذراعيه مرّة أخرى.

«هذا خطئي، خطئي! آسف على ذلك، لم أرَ صندوق البريد في مرآة الرؤية الخلفية كما تعلم. إن نقل هذه المقطورة أمر صعب، لا يمكنني بكل بساطة معرفة الاتّجاه الذي ينبغي لي تحريك عجلة القيادة إليه...»

ضرب أوف بقبضته على سقف السيارة بقوّة؛ لدرجة أن النحيف قفز وصدم رأسه بإطار الباب. «اخرج من السيارة!».

«ماذا؟».

«قُلت: اخرج من السيارة!».

رمق النحيف أوف بنظرة مندهشة بعض الشيء، ولكن لم يبدُ أن لديه الجرأة للردّ. وبدلاً من ذلك، خرج من السيارة ووقف بجانبها مثل تلميذ مدرسة يقف في زاوية الأغبياء. أشار أوف إلى الممر بين البيوت المتلاصقة؛ نحو مرأب الدراجات ومنطقة وقوف السيارات.

«اذهب وقف هناك حيث لا تعترض الطريق».

فأومأ النحيف بحيرة.

«يا للهول! باستطاعة شخص مبتور الذراع وضعيف النظر أن يُرجع هذه المقطورة بدقّة أكثر منك». تمتم أوف بينما كان يصعد إلى السيارة.

كيف يمكن لأي شخص أن يكون عاجزاً عن الرجوع بمقطورة!؟ تساءل أوف في سره. كيف؟ ما مدى صعوبة فهم أساسيات اليمين واليسار ثم فعل العكس؟ كيف يشقّ هؤلاء الناس طريقهم في الحياة؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بالطبع، إنها مقطورة أوتوماتيكية أيضاً، كما لاحظ أوف. كان من السهل أن يعرف هذا؛ فهؤلاء الحمقى يفضّلون عدم قيادة سياراتهم على الإطلاق، ناهيك عن إرجاعها إلى أماكن وقوف السيارات بأنفسهم. حرّك ذراع التوصيل وجعلها على وضعية الانطلاق وتقدّم بوصة. تُرى، هل يجب أن يحصل المرء على رخصة قيادة حقّاً إذا كان لا يستطيع قيادة سيارة حقيقية بدلاً من إحدى السيارات الأوتوماتيكية اليابانية؟ تساءل أوف، حتى إنه شكّك في ما إذا كان ينبغي أن يُسمح بالتصويت للذين لا يستطيعون إيقاف السيارة بشكل صحيح.

عندما تقدّم واستقام بالمقطورة– كما يفعل الناس المتحضّرون قبل الانعطاف بالمقطورة– وضعها بالاتّجاه المعاكس. وعلى الفور، بدأت بإحداث صوت زعيق، فنظر أوف في الأنحاء بغضب.

«ما هذا بحقّ الله؟! لماذا تصدر هذا الضجيج؟». همس وهو ينظر إلى لوحة القيادة ويضرب عجلة القيادة.

«كُفّ عن ذلك قلتُ لك!». صرخ مخاطباً ضوءاً أحمر وامضاً بشكلٍ لافت.

وفي الوقت نفسه، ظهر النحيف إلى جانب السيارة، وراح يقرع على زجاج النافذة بحذر، فأنزل أوف زجاج النافذة ورمقه بنظرة غضب.

«إن جهاز استشعار الرجوع هو الذي يصدر هذا الصخب». قال النحيف وهو يومئ.

«ألا تعتقد أنني أعرف ذلك؟». اغتاظ أوف.

«هذه السيارة غير عاديّة بعض الشيء. لذا، كنت أفكّر في أنّه بإمكاني أن أُريكَ مفاتيح التحكّم إذا أردت...»

«لستُ غبيّاً كما تعلم!». تذمّر أوف.

فأومأ النحيف بلهفة.

«لا، لا، بالطبع لا».

نظر أوف إلى لوحة القيادة، وسأل:

«ما به الآن؟».

فأومأ النحيف بحماسة وهو يجيب:

«إنّـه يقيسُ مـدى الطاقـة المتبقيّة فـي البطارية. كما تعلم، قبـل أن يتحوّل من المحرّك الكهربائي إلى محرّك البنزين. لأنه هجين...»

لم يجب أوف، بل رفع زجاج النافذة ببطء، تاركاً النحيف وفمه نصف مفتوح. تحقّـق أوف مـن المـرآة اليُسـرى ثـم المـرآة اليُمنى، وبعد ذلك رجع بينما السـيارة اليابانية تصرخ برعب. حرّك المقطورة تماماً بين بيته وبيت جاره الجديد غير الكفوء، ثم خرج من السيارة، ورمى للأحمق مفاتيحه.

«جهـزة استشـعار وكاميـرات وحماقـات كهذه. الرجـل الذي يحتاج إلى كلّ ذلك لعكس اتجاه مقطورة لا ينبغي له أن يفعل ذلك أصلاً».

فأومأ النحيف، ونظر إليه مبتهجاً، وصرخ:

«شـكراً علـى المسـاعدة». وكأن أوف لـم يمـضِ الدقائق العشـر الأخيرة وهو يهينه.

«لا يجب أن يُسمح لك حتى بترجيع شريط كاسيت إلى الوراء». تذمّر أوف، فيما كانت المرأة الحامل تقف هناك فقط وذراعاها مشبوكتان، ولكنها لم تَعُد تبدو غاضبة جدّاً. شكرته بابتسامة ساخرة وكأنها تحاول كبت رغبتها في الضحك. لديها أكبر عينين بنيتين رآهما أوف على الإطلاق.

«إن جمعية السـكان المقيمين لا تسـمح بمرور أي سـيارات في هذه المنطقة، وعليك أن تلتزم بذلك». قال أوف بانزعاج قبل أن يعود إلى منزله.

توقّف في منتصف الطريق بين المنزل ومخزنه، ثم جعّد أنفه كما يفعل الرجال من سنّه. ثم ركع على ركبتيه، ووضع وجهه بالقرب من الحجارة التي يزيلها ويعيد وضعهـا بدقّـة وبـدون اسـتثناء كلّ عـام، سـواء أكان ذلك ضرورياً أو لا. وشـمّ مرّة أُخرى، ثم أومأ لنفسه ووقف.

لا يزال جاراه الجديدان يراقبانه.

«بول! هناك بول في كلّ مكان هنا!». قال أوف بفظاظة.

وأشار إلى الحجارة.

«حَــ... سَناً». قالت المرأة ذات الشعر الأسود.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«لا! لا شيء حسنٌ في أيّ مكان هنا!».

وبعد قوله ذلك، عاد إلى منزله وأغلق الباب.

جلس على الكرسي الخشبي في الردهة، وبقي هناك لفترة طويلة. امرأة لعينة. لماذا عليها أن تأتي هي وعائلتها إلى هنا إذا لم يكن بإمكانها هي وزوجها قراءة لافتة معلقة مباشرة أمام أعينهما؟ لا يسمح لك بقيادة السيارات داخل الحيّ. الجميع يعرف ذلك.

ذهب أوف ليعلّق معطفه على المشجب، بين بحرٍ من معاطف زوجته. وتمتم «الحمقى» وهو يقف أمام النافذة المغلقة، في الجانب الآمن. ثم ذهب إلى غرفة المعيشة وحدّق إلى سقفها.

لا يعرف كم من الوقت يمضي وهو يقف هناك عادةً. إذ يستغرِق في أفكاره الخاصة، ويطفو بعيداً وكأنّه وسط الضباب. لم يكن يوماً من النوع الذي يفعل ذلك، لم يكن حالماً على الإطلاق. ولكنْ في الآونة الأخيرة، يبدو وكأن شيئاً ما قد التوى في رأسه، وصار يجد صعوبة متزايدة في التركيز على الأشياء؛ وهو لا يحبّ ذلك على الإطلاق.

عندما رُنّ جرس الباب، شعر وكأنه يستيقظ من سباتٍ عميق، ففرك عينيه بصعوبة، ونظر حوله وكأنّه قلق من أن يكون شخصٌ ما قد رآه في هذه الحالة.

رُنّ جرس الباب مجدداً، فالتفت أوف وحدّق إليه وكأنّه يجب أن يخجل من نفسه. مشى بضع خطوات في القاعة، ولم يستطع معرفة ما إذا كان الصرير قادماً من الألواح الأرضية أو لا. «ماذا الآن؟». سأل الباب قبل أن يفتحه؛ كما لو أنه يملك الجواب.

«ماذا الآن؟». كرّر وهو يفتح الباب بكلّ قوّته، لدرجة أن طفلةً تبلغ من العمر ثلاث سنوات ارتدّت إلى الوراء ووقعت بشكل غير متوقّع على مؤخرتها.

كانت هناك فتاة تبلغ من العمر سبع سنوات تقف قرب الطفلة الصغيرة وهي تبدو مذعورةً تماماً. كان شعرهما أسود داكناً، ولديهما أكبر العيون البنية التي رآها أوف على الإطلاق.

«ماذا تريدان؟». قال أوف.

كانت الفتاة الأكبر سناً تبدو حذرة. ناولته وعاءً من البلاستيك، فقبِله أوف على مضض. إنّه دافئ.

«أرزّ!». أعلنت الفتاة البالغة من العمر ثلاث سنوات بسعادة وهي تقف بخفّة على قدميها.

«مع الزعفران والدجاج». قالت الفتاة البالغة من العمر سبع سنوات وهي تومئ حذرة منه أكثر بكثير.

تفحّصها أوف بشكلٍ مريب.

«هل تبيعانه؟».

بدت الفتاة البالغة من العمر سبع سنوات مهانة.

«نحن نعيش هنا كما تعرف!».

لزم أوف الصمت للحظة، ثم أومأ وكأنه قادر على قبول هذه الفرضية كتفسير.

«حسناً».

أومأت الصغيرة بارتياح أيضاً، ورفرف كمّاها الطويلان قليلاً.

قالت أمي إنك كنت: «جائعاً!».

شعر أوف بحيرةٍ تامّة، ولم يفهم كلامها.

«ماذا؟».

«قالت أمي إنك كنت تبدو جائعاً، ولذلك علينا أن نعطيك العشاء». وضّحت الفتاة البالغة من العمر سبع سنوات مغتاظة، ثم أضافت ممسكة يَدَ شقيقتها ومبتعدةً، بعد توجيهها نظرة استياءٍ إلى أوف.

«هيّا، يا نسانين».

ظل أوف يراقبهما وهما تسيران، ورأى المرأة الحامل واقفةً بانتظارهما في المدخل، وابتسمت له قبل أن تدخل الفتاتان المنزل. التفتت الفتاة البالغة من العمر ثلاث سنوات ولوّحت له مبتهجة، ولوّحت له والدتها أيضاً، ثم أغلق أوف الباب.

وقف في القاعة مرّة أُخرى، وحدّق إلى الوعاء الذي يحتوي على الدجاج الساخن مع الأرز والزعفران كما قد ينظر المرء إلى علبة من النيتروجلسرين، ثم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذهب إلى المطبخ ووضعها في الثلاجة. لم يكن عادةً يميل إلى تناول أيّ طعام يقدّمه له أطفال أجانب مجهولون وهم يقفون عند عتبة منزله، ولكن في منزل أوف لا أحد يرمي الطعام؛ باعتبار ذلك مسألة مبدأ.

ذهب إلى غرفة المعيشة، وأقحم يديه في جيبيه، ونظر إلى السقف. وقف هناك فترةً طويلة، وفكّر في نوع القابس الأنسب لجدار إسمنتي، والذي يَفي بالغرض. وقف هناك محدّقاً إلى أن بدأت عيناه تؤلمانه. ثم نظر إلى ساعة يده المعوجّة حائراً قليلاً، وبعد ذلك نظر من النافذة مرّة أُخرى، وأدرك أن الغسق قد حلّ؛ فهزّ رأسه باستسلام.

لا يمكنك البدء بالثّقب بعد حلول الظلام، والجميع يعرفون ذلك. وإن فعل ذلك الآن فسيتعيّن عليه إضاءة جميع المصابيح، وعندها لا يستطيع أحد أن يعلم متى قد تُطفأ مجدداً. وهو لن يُعطي شركة الكهرباء متعة جني ألفَي كرونة أُخرى بسبب ذلك. يمكنهم نسيان الأمر. حمل أوف صندوق الأشياء المفيدة، وأخذه إلى ردهة الطابق العلوي الكبيرة. جلب مفتاح العليّة من مكانه وراء مكيف الهواء في الردهة الصغيرة، ثم رفع يده وفتح باب العليّة. أنزل السلّم، وصعد إلى العلية، ووضع صندوق الأشياء المفيدة في مكانه وراء كراسي المطبخ التي أجبرته زوجته على وضعها هنا لأنها تصدر صريراً قويّاً. لم تكن تصدر صريراً على الإطلاق. ويعرف أوف جيّداً أن ذلك كان مجرّد عذر؛ لأن زوجته أرادت الحصول على كراسٍ جديدة. كما لو أن ذلك كان ما تتمحور حوله الحياة بأكملها؛ أي شراء كراسي المطبخ وتناول الطعام في المطاعم والاستمرار بذلك.

بعد ذلك، نزل إلى الأسفل مجدداً، وأعاد مفتاح العليّة إلى مكانه وراء المكيف في الردهة الصغيرة. «خفِّف عن نفسك»، هذا ما قالوه له. الكثيرون من المتباهين في أوائل العقد الثالث من أعمارهم، العاملون خلف أجهزة الكمبيوتر، والرافضون شرب القهوة العادية. مجتمعٌ بأكمله، حيث لا أحد يعرف كيف يعكس اتّجاه مقطورة. ثم يأتون قائلين له إنهم ليسوا بحاجة إليه بعد الآن. هل هذا معقول!؟

نزل أوف إلى غرفة المعيشة وشغّل التلفزيون. إنه لا يشاهد البرامج، ولكن لا يمكنه أن يمضي أمسياته جالساً وحده مثل المعتوه، وهو يحدّق إلى الجدران.

أخرج الطعام الأجنبي من الثلاجة وأكل بالشوكة، مباشرةً من الوعاء البلاستيكي.

إنها ليلة الثلاثاء، وهو قد ألغى اشتراكه بالصحيفة، وأوقف أجهزة التدفئة، وأطفأ كل المصابيح.

وغداً سيعلّق المشنقة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

4

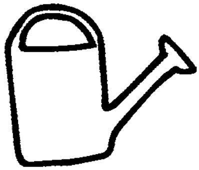

رجلٌ يُدعى أوڤ لا يدفع ثلاث كرونات كثمن إضافي

أعطاها أوڤ شتلتين. بالطبع لم يكن من المفترض أن تكون هناك اثنتان منها، ولكن في مكان ما على طول الخطّ يجب أن يكون هناك حَدٌّ ما في نهاية المطاف. كانت مسألة مبدأ، شرح لها أوڤ. ولهذا السبب اشترى شتلتين من الأزهار في نهاية المطاف.

«لا تسير الأُمور جيّداً عندما لا تكونين في المنزل». تمتم، ثم ركل التراب المتجمّد.

زوجته لا تجيب.

«سوف يتساقط الثلج الليلة». قال أوڤ.

قالوا في نشرة الأخبار إن الثلج لن يتساقط، ولكن كما يشير أوڤ غالباً، كلّ ما يتوقعونه لا يحدث. قال لها ذلك ولكنها لم تجب. وضع يديه في جيبيه وأومأ لها بسرعة.

«ليس من الطبيعي أن أتجول في جميع أنحاء المنزل الشاسع وحدي طوال النهار عندما لا تكونين هنا. إنها ليست طريقة جيدة للعيش. هذا كل ما لديّ لأقوله».

لم تردّ على ذلك أيضاً.

أومأ وركل التراب مجدداً. إنه لا يفهم الناس الذين يتوقون إلى التقاعد. كيف يستطيع أيّ شخص أن يقضي حياته كلّها متشوّقاً إلى اليوم الذي سيصبح فيه من

دون منفعة، وعبئاً على المجتمع، وسيتجوّل من دون هدف؟ أيّ نوع من الرجال يرغب في ذلك؟ في البقاء في المنزل بانتظار الموت، أو ما هو أسوأ من ذلك؛ انتظار إخراجه من بيته ووضعه في مأوى، والاعتماد على الآخرين للوصول إلى المرحاض. لا يستطيع أوف أن يفكّر في أيّ شيء أسوأ من ذلك. غالباً ما تمازحه زوجته، وتقول إنّه الرجل الوحيد الذي تعرفه والذي يفضّل أن يوضع في تابوتٍ على أن يُسافر في عربة تقدم له خدمات التنقّل. وقد تكون محقّة في ذلك.

استيقظ أوف عند السادسة إلّا ربعاً، وحضّر القهوة لزوجته ولنفسه، ثم ذهب ليتفحّص أجهزة التدفئة ويتأكد من أنها لم ترفع حرارتها خلسة. لم تتغيّر حرارة أيّ منها منذ البارحة، ولكنّه خفّفها قليلاً ليكون فقط على برّ الأمان، ثم أخذ سترته من المشجب في الردهة، من التعليقة الوحيدة بين التعليقات الستّ الأخرى التي لم تكن ممتلئة بملابسها، وانطلق في جولته التفقديّة. لاحظ أنّ الطقس بدأ يصبح أكثر برودةً. حان الوقت تقريباً لاستبدال سترته كحليّة اللون الخريفية بسترته الكحليّة الشتوية.

إنه يعرف دائماً متى يكون الثلج على وشك أن يتساقط حين تبدأ زوجته بالتذمّر من درجة الحرارة في غرفة النوم، وتقول له إنه من الضروري رفعها. هذا جنون، يؤكد أوف ذلك كلّ عام. لماذا يجب أن يستفيد مديرو شركة الكهرباء من الطقس؟ إن رفع درجة الحرارة خمس درجات يكلّف آلاف الكرونات سنويّاً. وهو يعرف ذلك لأنه قام بحساب التكلفة بنفسه. كلّ شتاء، كان يجرّ من المخزن مولّد ديزل قديماً كان قد حصل عليه من مزاد للأعمال الخيرية بعد مقايضته مع غراموفون. وقد وصله بمروحةِ تدفئةٍ اشتراها من مزاد بتسع وثلاثين كرونة. وبمجرّد أن يشحن المولّد مروحة التدفئة، فهي تعمل لمدّة ثلاثين دقيقة على البطارية الصغيرة التي وصلها بها أوف. وزوجته تحتفظ بها إلى جانبها من السرير. يمكنها أن تشغّلها بضع مرّات قبل أن تذهب إلى السرير، ولكن فقط بضع مرّات؛ فلا داعي لكي نكون أكثر سخاء حيال ذلك («الوقود ليس مجانياً كما تعلمون»). وتفعل زوجة أوف ما تفعله دائماً؛ إذ تومئ وتوافق على أنّ أوف محقّ ربما، ثمّ تجول على مدار فصل الشتاء في المنزل، وترفع درجة الحرارة في أجهزة التدفئة خلسة. كل عام يحدث

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشيء اللعين نفسه.

ركل أوف الأرض مرّة أخرى، وهو يفكّر في إخبارها عن الهرّ. هذا إذا كان بالإمكان تسمية ذاك المخلوق الأجرب نصف الأصلع هرّاً. كان يجلس هناك مرّة أُخرى عندما عاد أوف من جولته التفقّدية، فعليّاً، مباشرة خارج بابهما الأمامي. أشار إليه أوف وصاح بصوت عالٍ، لدرجة أن صوته تردّد بين البيوت. غير أن الهرّ جلس هناك ببساطة وهو ينظر إلى أوف، ثم وقف وكأنه يُظهر له أنه لم يكن مغادراً بسببه، وإنما لأن هناك أشياء أفضل ليقوم بها، واختفى في زاوية الشارع. قرر أوف عدم ذكر الهرّ أمامها، إذ افترض أنها سوف تستاء منه لإبعاده إياه. ولو كان الأمر عائداً إليها لامتلأ البيت كلّه بالمشرّدين، سواء أكانوا من النوع الذي لديه فراء أم لا.

كان يرتدي بذلته الزرقاء، وقد زرّر القميص الأبيض حتى الزرّ العلويّ. إنها تطلب منه دائماً أن يترك الزرّ العلوي مفكوكاً إذا لم يكن يضع ربطة عنق، وهو يقابل ذلك دوماً بالاحتجاج والقول إنه ليس ولداً صغيراً يؤجّر كراسي الاسترخاء، ثم يزرّره بتحدّ. وكان يضع ساعة يده القديمة المعوجّة التي ورثها والده من والده عندما كان عمره تسعة عشر عاماً، والتي انتقلت إلى أوف بعد ذكرى ميلاده السادسة عشرة؛ أي بعد أيام قليلة من وفاة والده.

تحبّ زوجته هذه البذلة، وتقول له دائماً إنّه يبدو وسيماً جداً فيها. ومثل أيّ شخص عاقل، يرى أوف بوضوح أنّ المتباهين فقط هم الذين يرتدون أفضل ملابسهم طوال أيّام الأسبوع. ولكنه هذا الصباح قرّر أن يقوم باستثناء. حتى إنّه انتعل حذاءه الأسود المخصّص للخروج، ولمّعه باستخدام كمية مدروسة من ملمّع الأحذية.

وبينما كان يتناول سترته الخريفية من المشجب في الردهة قبل أن يخرج، ألقى نظرةً متأملة على مجموعة معاطف زوجته، وتساءل: كيف يمكن لإنسان صغير مثلها أن يملك هذا العدد من المعاطف الشتوية؟! وقد قالت مرّة صديقة زوجته ممازحة: «تكاد تتوقّع إذا دخلتَ في هذه المجموعة أن تجدَ نفسك في نارنيا». لم تكن لدى أوف أدنى فكرة عمّا كانت تتحدّث، ولكنه وافق على أنه كان هناك الكثير من المعاطف.

خرج من المنزل قبل أن يستيقظ أيّ شخص في الشارع، وتمشّى نحو المنطقة المخصصة لوقوف السيارات، ثم فتح باب مرأب سيارته بمفتاح. كان لديه جهاز تحكّم عن بعد للباب، ولكنه لم يفهم قط الفائدة منه. إذ يستطيع أيّ شخص نزيه أن يفتح الباب يدويّاً أيضاً. فتح الصاب، بمفتاح أيضاً: لطالما عمل النظام بشكل جيد كليّاً، ولم يكن هناك أيّ سبب لتغييره. جلس على مقعد السائق، وأدار إبرة ضبط موجة الراديو نصف استدارة إلى الأمام ثم نصف استدارة إلى الخلف قبل أن يضبط كلّاً من المرايا؛ كما كان يفعل في كلّ مرّة يركب فيها الصاب. كما لو أن أحدهم قد اقتحم الصاب وحرّك المرايا وغيّر موجة الراديو.

بينما كان يقود سيارته في منطقة وقوف السيارات، مرّ قرب تلك المرأة الأجنبية الحامل التي تسكن في البيت المجاور. وكانت تُمسِكُ يَدَ ابنتها البالغة من العمر ثلاث سنوات، فيما النحيف الأشقر الكبير يسير بجانبها. لمح الثلاثة أوف، ولوّحوا له بابتهاج، غير أنه لم يلوّح لهم. في البداية، كان سيتوقّف ليوبّخها بشأن السماح للأطفال بالركض في منطقة وقوف السيارات وكأنّها ملعب، ولكنه قرّر أنّه لا يملك الوقت لذلك.

قاد سيارته مجتازاً صفّاً بعد صفّ من المنازل المماثلة لمنزله. عندما انتقلا إلى المنطقة، لم تكن هناك سوى ستة منازل، والآن هناك المئات منها. في ما مضى، كانت هناك غابة، أما الآن فهناك منازل فقط. يُدفَع ثمن كلّ شيء بالقروض طبعاً. فبهذه الطريقة تفعل كلّ ما تريده في هذه الأيام؛ أي التسوّق عن طريق الائتمان، وقيادة السيارات الكهربائية، وتوظيف الحرفيين لتغيير المصباح الكهربائي، وتركيب المواقد الكهربائية، والاستمرار بذلك. هذا مجتمع لا يعرف على ما يبدو الفرق بين قابس لجدار إسمنتي وصفعة على الوجه. من الواضح أنّ هذا كان مقدّراً.

استغرق وصوله إلى بائع الزهور في مركز التسوّق أربع عشرة دقيقة بالضبط. وقد التزم أوف بدقة بكلّ حدود السرعة؛ حتى على هذا الطريق الذي حُدِّدَت السرعة القصوى فيه بخمسين كيلومتراً بالساعة، وحيث مرّ الأغبياء الواصلون مؤخراً في بذلات بسرعة تسعين. هؤلاء يضعون بين منازلهم مطبات لتخفيف السرعة، وأعداداً هائلة من اللافتات بشأن «أطفال يلعبون»، ولكنهم عندما يقودون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمـام بيـوت النـاس الآخريـن يصبـح الأمر علـى ما يبدو أقلّ أهميـة. كرّر أوف هذا لزوجته في كلّ مرّة قاد فيها على مدى السنوات العشر الماضية.

وكان يحـبّ دائمـاً أن يضيـف أن الأمـر يـزداد سـوءاً أكثر فأكثـر؛ في حال لم تسمعه في المرة السابقة.

اليوم، لم يتخطّ حتى الكيلومترين قبل أن تتمركز سيارة مرسيدس سوداء خلف سيارته على بعد مسافة طول الساعِد. أشار أوف بالمصابيح الأمامية ثلاث مرات، فوَمَضَـت الأضـواء العُليا لسـيارة المرسـيدس في وجهه بالكامـل بطريقة تدل على الانفعـال. تذمّـر أوف وهـو ينظـر إلى مرآة الرؤية الخلفية؛ وكأنّ من واجبه أن يرمي نفسه خارج المسار بمجرّد اتخاذ أولئك الأغبياء قراراً بأنّ قيود السرعة لم تُفرَض عليهم. صدقاً! لم يتحرّك أوف، فأنار سائق سيارة المرسيدس الأضواء الأمامية في وجهه مجدداً. عندها، أبطأ أوف سرعته، فأطلقت المرسيدس بوقها. أخفض أوف سـرعته إلى العشـرين. وعندما وصلت السـيارتان إلى قمّة تلة، تفوّقت المرسـيدس على سيارته محدثةً هديراً، ورفع السائق إصبعه في وجه أوف؛ وهو رجل في العقد الرابـع مـن عمـره، يضع ربطة عنق، وتتدلّى سـماعتان بيضـاوان من أذنيه. ردّ أوف على تلك الإهانة بالطريقة التي يردّ فيها جميع الرجال من سنٍّ معينة، والذين تربّوا بشكل صحيح؛ أي بنقر طرف إصبعه ببطء على جانب رأسه. عندها، صاح الرجل في المرسيدس حتى تناثر لعابه على زجاج سيارته الأمامي، ثم زاد السرعة واختفى.

وبعد دقيقتين، وصل أوف إلى إشـارة مرورية حيث كان الضوء أحمر. كانت المرسـيدس تقف في آخر الصفّ، فجعل أوف مصابيحه الأمامية تومض في وجه سائق المرسيدس. عندها، رأى السائق يرفع رقبته ملتفتاً، فسقطت «قطعتا الأذنين» البيضاوين ووقعتا على لوحة القيادة، فأومَأ أوف بارتياح. تحوّل الضوء في الإشارة المرورية إلى الأخضر، ولكنّ طابور السيارات لم يتحرّك. أطلق أوف بوق سيارته، ولكن لم يحدث شيء، فهزّ رأسه. لا بدّ أن السائق امرأة، أو ربما كانت هناك أشغال في الطرقات، أو ربما كان السبب سيارة أودي. وعندما مرّت ثلاثون ثانية من دون أن يحدث أي شيء، وضع أوف تروس السيارة على وضعية الحيادي، وفتحَ الباب وخرج من الصاب فيما المحرّك لا زال يعمل. وقف في الشارع، ونظر إلى الأمام

ويداه على وركيه، في وقفة تدل على غضب عارم؛ أي كما قد يقف سوبرمان إذا عَلِقَ في ازدحام حركة المرور.

انزعج الرجل الجالس في المرسيدس من بوق سيارته. أحمق، فكّر أوڤ. في اللحظة نفسها، بدأت السيارات تتحرّك. تحرّكت السيارات أمام أوڤ، فأطلق سائق السيارة التي تقف خلفه- وهي ڤولزڤاغن- بوق سيارته، ولوّح له بفارغ الصبر. رمقه أوڤ بنظرة غاضبة، ثم عاد إلى الصاب وأغلق الباب على مهل. «مذهلة هذه العجلة التي نحن فيها». سخِر وهو ينظر إلى مرآة الرؤية الخلفية، ثم تابع القيادة.

عند الإشارة المرورية الحمراء التالية، انتهى به الأمر خلف المرسيدس مجدداً. طابور آخر! تحقّق أوڤ من ساعته، ثم انعطف يساراً نحو طريقٍ ضيق وهادئ؛ ممّا يعني اتّخاذه مساراً أطول إلى مركز التسوّق، ولكنْ كانت إشارات المرور في هذا الطريق أقلّ عدداً. فهو كأيّ شخص آخر يعرف أموراً عديدة، وكان يعرف أنّ السيارات تستهلك وقوداً أقل إذا واصلت التحرّك بدلاً من التوقف مراراً. وكما كانت زوجته تقول غالباً: «إذا كان هناك شيءٌ واحدٌ يمكن أن يُكتَبَ في نَعي أوڤ عند وفاته، فهو أنه كان على الأقلّ اقتصادياً في استهلاك الوقود».

مع اقتراب أوڤ من مركز التسوّق، لاحظ أن هناك مكانين شاغرين فقط في أماكن وقوف السيارات. إن ما يفعله كلّ أولئك الناس في مركز التسوق في أيام الأسبوع العادية كان يفوق قدرته على الاستيعاب. من الواضح أنه لم يعد لدى الناس وظائف ليذهبوا إليها.

تبدأ زوجة أوڤ عادةً بالتنهّد بمجرّد اقترابهما من موقفٍ محتشد بالسيارات كهذا. إذ يرغب أوڤ في أن يركن سيارته بالقرب من المدخل، فتقول له دائماً بينما هو يدور مراراً وتكراراً ويشتم كل البلهاء الذين يعترضون طريقه في سيّاراتهم الأجنبية: «وكأن هناك منافسة حول من يمكنه العثور على أفضل مكان لإيقاف السيارة!». في بعض الأحيان، كانا يدوران في الموقف ستّ مرات أو سبعاً قبل أن يجدا مكاناً جيّداً. وإذا اضطرّ أوڤ في النهاية إلى الاعتراف بالهزيمة، وركن السيارة في مكان يبعد عشرين متراً، يظلّ مزاجه سيئاً طوال اليوم. لم تفهم زوجته سبب ذلك قط. وفي هذا الموضوع أيضاً، لم تكن يوماً جيّدة في استيعاب المسائل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المتعلقة بالمبادئ.

فكّر أوف في القيام بجولة بطيئة في المكان؛ فقط للتحقق من تخطيط الأرض، ولكنّه لمح فجأة المرسيدس وهي تهدر على طول الطريق الرئيس المؤدي إلى مركز التسوق. إذاً، كان صاحب تلك البذلة الذي يضع سماعتين في أذنيه متوجّهاً إلى هنا. لم يتردّد أوف لثانية واحدة، بل ضغط على دواسة الوقود مسرعاً ليخرج من التقاطع ويتجه إلى الطريق. عندها، داس سائق المرسيدس على المكابح، وضغط بقوة على بوق السيارة، ثم تبعه على بُعدِ مسافة قليلة. كان السباق قد بدأ. قادت الإشارات عند مدخل موقف السيارات حركة المرور إلى اليمين. ولكن، عندما وصلا إلى هناك، لا بدّ أنّ سائق المرسيدس رأى أيضاً المكانين الشاغرين في الموقف أثناء محاولته تجاوز أوف من جهة اليسار. تمكّن أوف فقط من المناورة أمامه ليقطع عليه الطريق، وبدأ الرجلان بمطاردة بعضهما بعضاً.

وعبر مرآة الرؤية الخلفية، رأى أوف سيارة تويوتا صغيرة تنعطف في الطريق وراءهما، وتتبع إشارات المرور، وتدخل منطقة وقوف السيارات في استدارة واسعة من الجهة اليمنى. تبعتها عينا أوف أثناء تقدمّه بسرعة في الاتّجاه المعاكس، والمرسيدس ملتصقة به. بالطبع، كان بإمكانه اختيار واحد من الموقفين الشاغرين، والأقرب إلى المدخل، ومن ثم تَرْك المرسيدس لتركن في الموقف الآخر بكلّ لطف. ولكن، أيُّ نوعٍ من الانتصار قد يكون هذا!؟

بدلاً من ذلك، توقّف أوف فجأة أمام الموقف الأوّل وبقي مكانه، فبدأ سائق سيارة المرسيدس بإطلاق بوقها بشكل جامح. لكنّ أوف لم يتحرّك. في تلك الأثناء، اقتربت التويوتا الصغيرة من أقصى اليمين، فلمحها سائق المرسيدس أيضاً، ولكن بعد فوات الأوان، وفهم خطّة أوف. صدح صوت بوق المرسيدس فيما كان سائقها يحاول أن يتجاوز الصاب غاضباً، ولكنه لم ينجح في ذلك قط. إذ كان أوف قد أشار إلى سائق التويوتا ليركن سيارته في أحد الموقفين الشاغرين، وحين أصبح الوضع آمناً انعطف أوف إلى الموقف الآخر بعدم مبالاة.

كان زجاج نافذة المرسيدس الجانبية مغطى كلّياً باللعاب، لدرجة أن أوف لم يستطع حتى رؤية السائق عندما تجاوزه. خرج من الصاب منتصراً؛ مثل المصارع

الذي قتل خصمه للتو، ثم نظر إلى سيارة التويوتا.

«أوه، اللعنة». تمتم بغضب.

فُتِحَ باب السيارة.

«مرحباً!». قال النحيف بمرح وهو يفكّ حزام الأمان في مقعد السائق. وقالت زوجته من الجانب الآخر من التويوتا، مخرجةً ابنتهما البالغة من العمر ثلاث سنوات: «مرحباً، مرحباً!».

نظر أوف إليهما بندم، بينما اختفت المرسيدس.

«شكراً على موقف السيارة! هذا رائع حقّاً». قال النحيف مُبتسماً.

لكنّ أوف لم يردّ.

«ما اسمك؟». صرخت الفتاة البالغة من العمر ثلاث سنوات.

فأجاب أوف: «أوف».

«اسمي نسانين!». قالت ببهجة.

أومأ لها أوف.

«وأنا بات...» بدأ النحيف بالقول، ولكنّ أوف استدار ورحل.

«شكراً لك على الموقف». صرخت المرأة الحامل الأجنبية بعد أن ذهب.

لاحظ أوف الفرح في صوتها، فلم يَرُق له ذلك، وتمتم بسرعة: «حسناً، حسناً». ومن دون أن يلتفت إلى الوراء، سار عبر الباب الدوّار في مركز التسوّق. استدار نحو اليسار عند المنعطف الأوّل، وتلفّت حوله عدّة مرّات، وكأنّه خائفٌ من أن تتبعه الأُسرة. لكنّها انعطفت نحو اليمين واختفت.

توقّف أوف بريبةٍ خارج «السوبرماركت»، وتأمّل الملصق الإعلاني للعروض الخاصة بهذا الأسبوع. ليس لأنّه كان ينوي شراءَ أيّ لحم من هذا المحل بالذات، ولكن كان الأمرُ يستحقّ دائماً مراقبة الأسعار. فإذا كان هناك شيءٌ واحدٌ في هذا العالم يكرهه أوف فهو أن يحاول شخص ما خداعه. تمزح زوجته أحياناً قائلة إن أسوأ ثلاث كلمات يعرفها أوف في هذه الحياة هي: «البطاريات غير موضوعة». عادةً، يضحك الناس عندما تقول ذلك، ولكنّ أوف لا يضحك. انتقل من «السوبرماركت» ودخل محلّ الزهور. وهناك لم يستغرق وقتاً طويلاً للبدء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«بمشاجرة»، كما كانت زوجته تصفها. أو «مناقشة» كما أصرّ أوف دائماً على تسميتها. وضع أوف قسيمة على الطاولة كُتِبَ عليها: «الشتلتان بخمسين كرونة». وبالنظر إلى أن أوف أراد واحدة فقط، شرح لمساعِدة المبيعات في المحل- بكلّ تعقّل ومنطق- أنّه يجب أن يكون قادراً على شرائها بخمس وعشرين كرونة؛ لأن ذلك يساوي نصف الخمسين. إلا أنّ المساعِدة ذات الدماغ المتيبّس من كثرة كتابة الرسائل القصيرة، والبالغة من العمر تسعة عشر عاماً لم توافق على ذلك، وأصرّت على أن الواحدة تكلّف 39 كرونة، وأن عرض «الاثنتان بخمسين» يُطبَّق فقط إذا اشترى المرء اثنتين. اضطرّه الأمر إلى استدعاء المدير. واستغرق أوف خمس عشرة دقيقة لجعل المدير يدرك المنطق في ما يقوله ويوافق على أنّه محقّ.

أو لنكون صادقين في ذلك، تمتم المدير بشيء بدا مثل: «عجوز أبله لعين»، وأدخل 25 كرونة في درج النقود بقوّة، لدرجة أن أيّ شخص قد يعتقد أن هناك خطأً في الآلة. لكن أوف لم يكترث، فقد كان يعلم أنّ هؤلاء التجار يحاولون دائماً أن ينهبوا مال الناس، ولا أحد نهب مال أوف ونجا بذلك. وضع أوف بطاقة الائتمان على المنضدة. عندها، سمح المدير لنفسه بأن يرسم على وجهه ما يشبه الابتسامة، ثم هزّ رأسه رافضاً وأشار إلى لافتة كتب عليها: «إنّ الدفع ببطاقات الائتمان لقيمة مشتريات تقلّ عن 50 كرونة يُلزِم الشاري بدفع رسم إضافي يبلغ 3 كرونات».

ها هو أوف الآن يقف أمام زوجته مع شتلتين؛ لأن المسألة كانت مسألة مبدأ.

«كان من المستحيل أن أدفع ثلاث كرونات». استنكر أوف وهو ينظر إلى الأرض.

غالباً ما تتشاجر زوجة أوف معه لأنه يجادل دائماً حول كلّ شيء.

لكنّ أوف لا يجادل حقّاً، بل يعتقد فقط أن الحقّ هو الحقّ. فهل هذه حقّاً طريقة عيش غير منطقية؟

رفع عينيه ونظر إليها متمتماً:

«أفترض أنك منزعجة لأنني لم آتِ أمس كما وعدتك».

لكنها لم تقل شيئاً.

«الشارع كلّه يتحوّل إلى مكان للمجانين». قال مُدافعاً عن نفسه، ثم تابع: «الفوضى عارمة. حتى إنّه يجب عليكِ في هذه الأيام أن تخرجي وتعكسي اتجاه مقطوراتهم. ولا تستطيعين أيضاً تثبيت عقيفة مشنقة بسلام!». تابع كلامه كما لو أنها تخالفه الرأي.

ثم تنحنح ليتحدث بصوت واضح:

«من الواضح أنني لم أتمكّن من وضع عقيفة المشنقة عندما كان الظلام حالكاً في الخارج. فإذا فعلت ذلك فلن أعلم متى ستطفأ المصابيح. وعلى الأرجح، ستبقى مضاءة وستستهلك الكهرباء؛ وهذا احتمال غير وارد على الإطلاق».

لم تجب، فركل الأرض المتجمّدة وكأنه يبحث عن كلمات. ثم تنحنح مجدداً بسرعة وتابع:

«لا شيء يكون على ما يُرام عندما لا تكونين في المنزل».

هي لا تجيب. أشار أوف إلى الشتلتين.

«لقد تعبت من ذلك؛ من التجوّل في أنحاء المنزل الشاسع طوال اليوم حين تكونين غائبة بعيداً».

إنها لا تجيب على ذلك أيضاً، فهزّ رأسه، وحمل الشتلتين كي تتمكّن من رؤيتهما.

«إنهما ورديتا اللون؛ تماماً كما تحبين. قالوا في المحل إن هذا النوع من الأزهار معمّر، ولكنْ ليس هذا ما يبدو فعلاً. إذ يبدو أنهما ستموتان في هذا البرد. لا بد أنهم قالوا ذلك في المحل فقط كي يتمكّنوا من بيعي إياهما».

وبدا وكأنه ينتظر موافقتها.

«إن الجيران الجدد يضعون الزعفران في الأرُز، ويستمرّون بذلك؛ إنّهم أجانب». قال بصوت منخفض.

غير أنه قوبل بالصمت.

وقف هناك، وفتل ببطءٍ خاتم الزواج في إصبعه وكأنّه يبحث عن شيءٍ آخر ليقوله. كان لا يزال يجدُ صعوبةً في تولي المحادثة، ويشعر بالألم بسبب ذلك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فهـي التـي كانـت تهتـمّ دائمـاً بهذا الأمر، وهـو عادة كان يجيبُ عن أسـئلتها فقط. هذا وضعٌ جديد بالنسـبة إليهما معاً. أخيراً، قرفص أوف، وحفر لينزع الشـتلة التي أحضرها في الأسبوع الماضي ويضعها بعناية في كيس. قلّب التربة المتجمّدة بعناية قبل أن يغرس الشتلتين الجديدتين.

«لقد رفعوا أسعار الكهرباء مجدداً». أعلمها وهو يقف على قدميه.

نظـر إليهـا لفتـرةٍ طويلـة، وأخيراً وضـع يـده بعناية على شـاهدة القبر الكبيرة، ولامسها بحنانٍ من جانب إلى آخر وكأنّه يلمس خدّها.

همس: «اشتقت إليكِ».

لقد مضت ستّة أشهر على وفاتها، ولكنّ أوف لا يزال يتفقّد البيت كلّه مرّتين فـي اليـوم؛ ليتأكـد مـن أجهـزة التدفئة، ويتحقّق مـن أنّها لم تَقُم خلسـةً برفع درجة الحرارة.

5

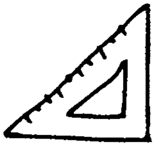

رجلٌ يُدعى أوف

يعرف أوف جيداً أن أصدقاءها لم يفهموا قطّ سبب زواجها منه. وهو لا يستطيع حقّاً أن يلومهم.

قال الناس إنه كان لاذعاً في كلامه، وربما كانوا على حق. هو لم يفكّر في ذلك كثيراً. ووصفه الناس أيضاً بأنه «معادٍ للمجتمع». افترض أوف أن هذا يعني أنه لم يكن حريصاً على التعامل مع الناس بلطف. وفي هذه الحالة، كان بإمكانه أن يتّفق معهم تماماً؛ فغالباً ما أصبح الناس يفقدون عقولهم وإدراكهم.

لم يكن أوف مِمَّن يشاركون في محادثة صغيرة. وقد أدرك أنّ هذا عيب في الشخصية؛ في هذه الأيام على الأقل. فالآن، يجب أن يكون المرء قادراً على الثرثرة حول أي شيء مع أيّ أحمق عجوز؛ فقط لأنّ ذلك أمر «لطيف». لم يعرف أوف يوماً كيف يفعل ذلك؛ وربما كانت الطريقة التي تربّى بها هي السبب. ربّما لم يكن الرجال من أبناء جيله مستعدّين بما فيه الكفاية لعالمٍ يتحدّثُ فيه الجميعُ عن القيام بأشياء لم تعد تستحقّ القيام بها. ففي هذه الأيام، يقف الناس خارج منازلهم المجدّدة حديثاً، ويتفاخرون بها وكأنهم قد بَنَوها بأيديهم العارية؛ على الرغم من أنهم لم يلمسوا حتى مفكّ البراغي. حتى إنهم لا يحاولون التظاهر بأنّ ذلك قد حصل بأيّ طريقة أخرى. لقد تفاخروا بذلك! على ما يبدو، لم تَعُد هناك أيّ قيمة لكون المرء قادراً على وضع ألواح الأرضية الخاصة بمنزله بنفسه، أو على تجديد غرفة ازدادت فيها الرطوبة، أو تغيير إطارات الشتاء. وإذا ذهبتَ بنفسك واشتريتَ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كلّ شيء، فما قيمة ذلك؟ ما قيمة الرجل حينها؟

لم يستطع أصدقاؤها أن يفهموا سبب استيقاظها باكراً كلّ صباح طواعية، وقرارها بمشاركته يومه منذ البداية. وهو لم يستطع فهم ذلك أيضاً. ثبّت لها رفّاً للكتب، فملأته بكتبٍ ألّفها أُناس كتبوا عن مشاعرهم صفحة بعد صفحة. أما أوف فكان يفهم الأشياء العملية التي يمكنه أن يراها ويلمسها؛ كالإسمنت والمواد الصلبة والزجاج والفولاذ والأدوات. فهذه أشياء يستطيع المرء أن يعرفها. فَهِمَ الزوايا، وكتيّبات التعليمات الواضحة، ونماذج التجميع والرسوم؛ لأنها أشياء يستطيع المرء أن يرسمها على الورق.

كان هو رجل الأسود والأبيض.

وهي كانت بالألوان؛ كلّ الألوان التي يعرفها.

كانت الأرقام هي الشيء الوحيد الذي أحبّه قبل أن يراها؛ إذ لم يكن لديه شيء خاص ومميّز يرجع إلى فترة شبابه. فهو لم يتعرّض للمضايقات، ولم يكن متنمّراً، كما أنه لم يكن جيّداً في الرياضة، وليس سيّئاً أيضاً. لم يكن يوماً في قلب الأحداث أو خارجها. وهذا هو نوع الأشخاص الذين كانوا موجودين هنا فقط. كما أنه لا يتذكر الكثير عن نشأته. لم يكن من ذلك النوع من الرجال الذين يتذكرون أشياء وأُموراً؛ إلا إذا كانت هناك حاجة إلى ذلك. تذكّر أنه كان سعيداً جدّاً، وأنه بعد بضع سنوات لم يعد كذلك؛ هذا كلّ ما في الأمر.

كانت الأرقام تملأ رأسه. وتذكّر كيف كان يتوق إلى دروس الرياضيات في المدرسة، والتي ربما كانت سبباً لمعاناة الآخرين، ولكن ليس بالنسبة إليه. لم يكن يعرف السبب، ولم يحاول اكتشافه. لم يفهم قطّ الحاجة إلى القلق حول سير الأمور بالطريقة التي سارت بها. أنتَ ما أنتَ عليه، وتفعلُ ما تفعلُه؛ وكان ذلك جيداً بما فيه الكفاية بالنسبة إلى أوف.

كان في السابعة من عمره عندما نادَته أمّه في صباحٍ باكرٍ من أغسطس. كانت تعمل في مصنع للمواد الكيميائية. في تلك الأيام، لم يكن الناس يعرفون الكثير عن السلامة الجوية؛ كما أدرك أوف لاحقاً. كانت تدخّن أيضاً؛ طيلة الوقت. إن أوضح ذكرى لأوف عنها هي أنها كانت تجلس قرب نافذة المطبخ في البيت الصغير حيث

عاشـوا خارج المدينة، وهناك سـحابة من الدخان تتصاعد حولها، فيما هي تتأمل السـماء كلّ صباح سـبت. وكانت أحياناً تُغنّي بصوتها المبحوح، فيما أوڤ يجلس تحت النافذة مع كتاب الرياضيات في حضنه، وتذكّر أنه كان يحبّ الاستماع إليها. إنـه يتذكّـر ذلـك. كـان صوتهـا مبحوحاً، وكان في النوتة الغريبة نشـازٌ أكثر مما يودّ المرء سماعه، ولكنه يتذكّر أنه كان يحبّ ذلك على أيّ حال.

كـان والـد أوڤ يعمـل في خطوط السِّـكَك الحديدية. وبدت كفّاه دائماً وكأن أحداً ما قد نحت جلدهما بالسكاكين. وكانت التجاعيد على وجهه عميقة؛ لدرجة أنه عندما كان يُجهد نفسـه كثيراً كان العرق يسـير عبرها وصولاً إلى صدره. وكان شـعره ناعمـاً، وجسـمه نحيـلاً، غيـر أن عضـلات ذراعيه كانت قاسـية؛ لدرجة أنها بدت وكأنها قُطِعَت من الصخر. في إحدى المرّات، عندما كان أوڤ صغيراً جداً، سُمِحَ له بأن يذهب مع والديه إلى حفلة كبيرة برفقة زملاء والده من شركة السكّك الحديديـة. وبعـد أن وَضَـعَ والـدُه جانباً بضع زجاجات من الشـراب، تحدّاه بعض الضيوف الآخرين في مسـابقة مصارعة الأذرع. لم يكن أوڤ قد رأى من قبل قطّ مثـل أولئـك العمالقـة علـى جانبـي المقعـد قُبالته. بـدا بعضهـم وكأنّ أوزانهم مئتا كيلوغـرام. ولكـنّ والـده هزم كلّ واحـد منهم على التوالي. وعندما عادا إلى البيت في تلك الليلة، وضع ذراعه حول كتفي أوڤ وقال: «أوڤ، وحده الحقير يفكّر في أن الحجم والقوّة متوازنان؛ تذكّر هذا». ولم ينسَ أوڤ ذلك قطّ.

لم يرفع والد أوڤ قبضته يوماً عليه، أو على أيّ شخص آخر. فيما كان لدى أوڤ زمـلاء جـاءوا إلى المدرسـة وعيونهم سـوداء، أو وهنـاك كدمات ظاهرة على أجسادهم وآثار ضرب ناجمة عن مشبك الحزام. ولكن، ليس أوڤ. إذ كان والده يقول له: «نحن في هذه العائلة لا نتقاتل؛ ليس مع بعضنا بعضاً، ولا مع أيّ شخص آخر».

كان والده محبوباً جدّاً في مكان عمله في محطة السكك الحديدية؛ فهو هادئ الطباع ولطيف. وكان بعضهم يصفونه بالقول إنه كان «لطيفاً جدّاً». يتذكّر أوڤ أنه لم يتمكّن قطّ حين كان طفلاً من فهم كيف يمكن لهذا أن يكون شيئاً سيئاً.

ثـم توفّيـت أمـه، وأصبـح أبوه أكثر هدوءاً؛ كما لـو أنها أخذت معها الكلمات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القليلة التي كان يمتلكها.

وبالتالـي، لـم يتحـدّث أوف ووالده كثيـراً، ولكنّهما أحبّا رفقة بعضهما بعضاً. كانا يجلسـان بصمت إلى جانبَي طاولة المطبخ، ويجدان طرائق للانشـغال. ويوماً بعد يوم، كانا يضعان الطعام لأُسرة من الطيور تسكن على شجرة قديمة في الجزء الخلفـي مـن المنـزل. كـان ذلك مهمّاً حسـبما فهم أوف، ولا بـدّ من فِعلِ ذلك كلّ يوم. لم يعرف السبب، ولكنّه لم يكترث بذلك قطّ.

في المسـاء، كانا يأكلان النقانق والبطاطا، ثم يلعبان بالورق. لم يكن لديهما الكثير ليفعلاه، ولكن كان لديهما دائماً ما يكفي.

كانـت كلمـات والـده الوحيدة المتبقيّة في ذاكرتـه تتعلق بالمحركات، إذ كان بإمكانـه أن يمضـي قـدراً طويـلاً مـن الوقت فـي الحديث عنها. وكـان والده يقول شارحاً: «المحرّكات تعطيك ما تستحقّه. إذا عاملتها باحترام فستعطيك الحريّة. أما إذا تصرّفت مثل الأبله فستأخذها منك».

لـم يملـك والـده سـيارة خاصـة بـه لفتـرة طويلـة، ولكـن فـي الأربعينيـات والخمسينيات، عندما بدأ زعماء السكّك الحديدية والمديرون فيها بشراء سيّاراتهم الخاصة، سرعان ما انتشرت الشائعات في المكتب بأن الرجل الهادئ الذي يعمل في سكة الحديد شخص جدير بالمعرفة. لم يُنهِ والد أوف دراسته قطّ، ولم يفهم الكثيـر عـن مسـائل الجمـع والطرح الواردة فـي كتب أوف المدرسـية، ولكنّه فهم المحرّكات.

وفي عرس ابنة المدير، تعطّلت سـيارة الزفاف التي سـتقل العروس إلى دار العبـادة، فاسـتُدعيَ والـد أوف، وجـاء راكبـاً علـى درّاجته، وحامـلاً مجموعة من الأدوات الثقيلة على كتفه؛ لدرجة أن رفعها لمساعدته على الترجل عن الدراجة احتاج إلى تعاون رجلين. مهما كانت المشكلة عندما وصل، فهي لم تعد موجودة عندمـا ركـب الدراجـة عائداً أدراجه. دعته زوجة المدير إلى حفل الزفاف، ولكنه قال لها إنه لن يكون من اللائق الجلوس مع أُناسٍ يرتدون ملابس أنيقة؛ فيما هو رجل تلطخ سـاعداه بالزيت. ولكنّه قد يقبل بكلّ سـرور كيسـاً من اللحم والخبز للشـاب الصغير الذي ينتظره في المنزل. كان أوف قد أصبح للتو في الثامنة من

عمره. وعندما وضع والده العشاء في ذلك المساء، شعر أوف وكأنه في مأدبة ملكية.

وبعد بضعة أشهر، أرسل المدير بِطَلَب والد أوف مرّة أخرى. ففي منطقة وقوف السيارات خارج المكتب، وقفت سيارة من طراز صاب 92 قديمة للغاية، وبحالة يُرثى لها. وكانت تلك السيارة من السيارات الأولى التي صنّعتها صاب؛ على الرغم من أنه لم يتم تصنيعها مجدّداً منذ أن طُرِحَت في السوق سيارة صاب من طراز 93 المجدّدة كلّياً. كان والد أوف يعرفها جيداً. فهي ذات الدفع بالعجلتين الأماميّتين، وذات محرّك مُرَكَّب جانبيّاً وصوته يشبه صوت آلة ترشيح القهوة. «لقد تعرّضت لحادث». أوضح المدير، واضعاً إبهاميه تحت حزامه. كان الهيكل الأخضر متضرّراً كثيراً، أمّا الوضع تحت غطاء محرّك السيارة فلم يكن جميلاً بالتأكيد. لكنّ والده أخرج مفكّ براغي صغيراً من جيبه القذر، وبعد تفحّصه السيارة مطوّلاً، قال إنه بقليل من الوقت والرعاية والأدوات المناسبة سيكون قادراً على جعلها تعمل مرّة أخرى.

ثم تساءل بصوت عالٍ وهو يستقيم في وقفته ويمسح الزيت عن أصابعه بقطعة قماش: «لمن هي؟».

فقال المدير منتشلاً مفتاحاً من سروال بذلته، ووضعه في راحة يد والده: «كانت مُلكاً لأحد أقاربي، والآن هي لك».

وبعد أن ربّت على كتفه، عاد المدير إلى المكتب. بقي والد أوف في الباحة حيث يقف، محاولاً التقاط أنفاسه. في ذلك المساء، كان عليه أن يشرح كلّ شيء مراراً وتكراراً لابنه محملق العينين؛ كلّ ما كان يعرفه عن ذلك الوحش السحري الواقف الآن قرب حديقة منزلهما. جلس على مقعد السائق نصف الليل والصبي في حضنه، وشرح له كيف تمّ توصيل جميع الأجزاء الميكانيكية. كان بإمكانه أن يشرح له عن كلّ برغي، وعن كلّ أنبوب صغير. لم يَرَ أوف قطّ رجلاً فخوراً مِثلَما كان والده في تلك الليلة. كان في الثامنة من عمره حينها، وقرّر في تلك الليلة أنه لن يقود أي سيارة إلّا من طراز صاب.

ومنذ ذلك اليوم، كلّما كانت لديه عطلة نهار السبت، أخرج الأب أوف إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الساحة، وفتح غطاء محرّك السيارة، وعلّمه جميع أسماء الأجزاء على اختلاف أنواعها، ووظيفة كلٍّ منها. أما أيام الآحاد، فكانا يذهبان إلى دار العبادة لأنّ والدة أوف كانت دائماً تُصِرُّ على ذلك. كانا يجلسان في الخلف، وكلاهما يحدّقان إلى الأرض، ريثما ينتهي الأمر. وبكلّ صراحة، كانا يُمضيان الوقت مفكرين في والدته. كان ذلك الوقت هو الوقت المخصّص لها إذا جاز التعبير؛ رغم أنّها لم تَعُد على قيد الحياة. وبعد ذلك، كانا يذهبان برحلة طويلة إلى الريف مستقلين سيارة الصاب. وكانت تلك الرحلات هي الأوقات المفضّلة بالنسبة إلى أوف خلال الأسبوع.

في ذلك العام، لكي يتوقّف عن التجوّل في جميع أنحاء المنزل بمفرده، بدأ بمرافقة والده إلى العمل في ساحة السكك الحديدية بعد دوام المدرسة. كان العمل قذراً والأجرُ قليلاً، ولكن كما كان والده يتمتم «إنها وظيفة شريفة ولها قيمة».

كان أوف يحبّ كل الرجال في ساحة السكك الحديدية باستثناء طوم. فقد كان طوم طويل القامة، ورجلاً صاخباً ذا كفّين كبيرتين. وعيناه تبدوان دائماً وكأنهما تبحثان عن أيّ حيوان مسكين لركله.

عندما كان أوف في التاسعة من عمره، أرسله والده لمساعدة طوم في إخلاء مقطورة معطّلة على السكّك الحديدية. وبابتهاج مفاجئ، التقط طوم محفظةً تركها راكبٌ منهك. كانت قد سقطت من رَفِّ الأمتعة وتوزَّعَت محتوياتها على الأرض. وقبل ذلك، كان طوم مندفعاً على أطرافه الأربعة، وهو يلتقط عن الأرض كلّ ما يمكنه أن يراه.

«من وَجَدَ الشيء احتفظَ به». قال ذلك لأوف كما لو أنه يبصق الكلمات في وجهه. شيءٌ ما في عينيه جعل أوف يشعر كما لو أن هناك حشرات تزحف تحت جلده.

وعندما استدار أوف ليذهب، تعثّر بمحفظة كانت مصنوعة من جلد ناعم؛ لدرجة أن ملمسها على أطراف أصابعه الخشنة بدا له كملمس القطن. ولم يكن هناك شريط مطاطي حولها مثل محفظة والده القديمة لمنع القطع النقدية من السقوط. كان لها زرّ فضي صغير يصدر عنه صوت نقرة عند فتحه، وكانت تحتوي

على أكثر من ستة آلاف كرونة. وهذا المبلغ ثروة بالنسبة إلى أيّ شخص في تلك الأيام.

لمحها طوم وحاول أن ينتزعها من يد أوف، غير أن الصبيّ الذي طغى عليه تحدّ فطري قاومه. لاحظ أن طوم قد صُدِم من تصرفه هذا، ومن زاوية عينه تسنّى له رؤية الرجل الضخم وهو يطبق قبضته. عرف أوف أنه لن يقدر على الهرب؛ فأغمض عينيه، وتمسّك بالمحفظة بكلّ قوته وانتظر الضربة.

ولكنّ الشيء التالي الذي لم يعرف أيّ منهما كيف حصل هو أنّ والد أوف كان يقف بينهما. التقت عينا طوم المليئتان بالغضب والحقد عينيه للحظة، لكنّ والد أوف ظل واقفاً في مكانه. وأخيراً، أخفض طوم قبضته وتراجع بخطوة حذرة.

«من وجد احتفظ، لطالما كان الأمر هكذا». تمتم طوم مشيراً إلى المحفظة.

«هذا يتوقّف على الشخص الذي يجد». قال والد أوف من دون أن يشيح بنظره بعيداً.

بدا الغضب واضحاً في عيني طوم، ولكنه تراجع خطوة أُخرى، ممسكاً بالحقيبة في يديه. كان طوم قد عمل لسنوات عديدة في السكّك الحديدية، ولكن أوف لم يسمع قط أيّاً من زملاء والده يقول كلمة واحدة طيّبة عنه. فقد كان غير أمين وخبيثاً؛ هذا ما كانوا يقولونه بعد احتسائهم الشراب في حفلاتهم. لكنّ أوف لم يسمع ذلك من والده قطّ. «أربعة أطفال وزوجة مريضة». هذا ما كان والده يقوله لزملائه وهو ينظر إلى عينَي كلّ منهم. «رجال أفضل من طوم كان من الممكن أن ينتهي بهم الأمر بحال أسوأ بسبب ذلك». ومن ثمّ، غالباً ما كان زملاء والده يغيّرون الموضوع.

أشار والده إلى المحفظة التي كان يمسكها بيده وقال له:

«أنت قرّر».

فثبّت أوف بصره على الأرض بإصرار، وهو يشعر بعينَي طوم كما لو أنهما تحرقان الجزء العلوي من رأسه وتحدثان فيه ثقوباً. ثم قال بصوت منخفض– ولكنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثابت– إن مكتب الممتلكات المفقودة يبدو أفضل مكان لتركها. أومأ والده من دون أن يتفوّه بكلمة واحدة، ومن ثم أمسك يد أوف وسارا عائدين. سارا نحو نصف ساعة على طول المسار من دون أن يتبادلا أيّ كلمة. وسمع أوف طوم يصيح وراءهما، وصوته يعبر عن الغضب. لم ينسَ أوف ذلك قط.

بالكاد تمكّنت المرأة الجالسة خلف منضدة مكتب الممتلكات المفقودة من أن تصدّق عينيها عندما وضعا المحفظة أمامها على المنضدة.

«كانت ملقاة هناك على الأرض! وحدها! ألم تجد حقيبة أو أيّ شيء آخر؟». سألته، فنظر أوف إلى والده نظرة متسائلة، لكنه وقف هناك بصمت، ففعل مثله تماماً.

بدت المرأة وراء المنضدة راضية بما فيه الكفاية عن الجواب.

«لم يسلّم الكثير من الناس هذا القدر من المال». قالت مبتسمة لأوف.

«الكثير من الناس لا يتمتعون بالأخلاق الحسنة أيضاً». قال والده بصوت متقطّع، وأمسك يد أوف، ثم استدارا وعادا إلى العمل.

على بعد بضع مئات من الأمتار، تنحنح أوف، واستجمع بعض الشجاعة، وسأل والده عن سبب عدم ذكره الحقيبة التي وجدها طوم.

فأجاب والده: «نحن لسنا من أولئك الناس الذين ينُمّون عمّا يفعله الآخرون».

أومأ أوف، ومَشَيا بصمت.

«فكّرت في الاحتفاظ بالمال». همس أوف بعد طول انتظار، وشدّ أكثر على يد والده، وكأنه خائف من أن يتركه.

«أعرف». قال والده، وضغط على يده أكثر.

«عرفتُ أنك ستسلّمها، وعرفتُ أنّ شخصاً مثل طوم لن يفعل ذلك». قال أوف.

فهزّ والده رأسه، ولم يقل أيّ كلمة أُخرى عن ذلك.

كان أوف من ذلك النوع من الرجال الذين يفكّرون كيف ومتى أصبح المرء على ما هو عليه. وبإمكانه أن يقول إنّه في ذلك اليوم تعلّم أن الحقّ يجب أن يكون

الحقّ. لكنه لم يكن من الذين يسهبون في الحديث عن أشياء كتلك. اكتفى بتذكّر أنّه في ذلك اليوم قرّر أن يكون شبيهاً بوالده.

كان قد بلغ للتو السادسة عشرة من عمره عندما توفّي والده؛ بعد أن صدمته حافلةٌ مندفعةٌ بسرعةٍ على مسار السكّة الحديديّة. تُرِكَ أوف وحده، ولم يكن يملك أكثر من مجرّد سيّارة صاب، وبيت قديم متهالك على بعد بضعة أميال من المدينة، وساعة يدٍ قديمة معوجّة. لم يكن قطّ قادراً على شرح ما حدث له في ذلك اليوم بشكل سليم. ولكنه توقّف عن الشعور بالسعادة. لم يكن سعيداً لعدّة سنوات بعد ذلك.

في الجنازة، أراد رجل الدين التحدث إليه عن بيوت الرعاية، ولكنه اكتشف بسرعة كافية أن أوف لم يتربَّ على قبول الصدقة. وفي الوقت نفسه، أوضح أوف لرجل الدين أنه ليست هناك أي حاجة إلى حجز مكان له في دار العبادة في المستقبل المنظور.

في اليوم التالي، ذهب إلى مكتب الأُجور في السكك الحديدية، وأعاد الأجر المتبقّي للشهر. لم تفهم السيدات في المكتب سبب فعله ذلك، فاضطرّ إلى أن يشرح بصبر أن والده قد توفي في السادس عشر من الشهر، وبالتالي لن يكون قادراً على المجيء والعمل في الأيام الأربعة عشر المتبقيّة من ذلك الشهر. ولأنه حصل على أجره مسبقاً، اضطرّ أوف أن يأتي لإعادة المبلغ.

طلبت منه السيدات بتردّد الجلوس والانتظار. وبعد خمس عشرة دقيقة تقريباً، خرج المدير، ونظر إلى الغريب البالغ من العمر ستة عشر عاماً الجالس على كرسي خشبي في الممر وهو يمسك رزمة مال في يده؛ وهي عبارة عن أجر والده عن الأيام الأربعة عشر المتبقية من الشهر. عرف المدير جيّداً من كان هذا الصبيّ. وبعد أن أدرك أنه لم تكن هناك أيّ وسيلة لإقناعه بالاحتفاظ بالمال لأنه شعر أنه ليس لديه الحقّ في ذلك، لم يرَ المدير بديلاً سوى أن يقترح على أوف أن يعمل مكان والده لبقية الشهر لكسب حقّه في ذلك. حينها، اعتبر أوف العرض معقولاً، وأبلغ مدرسته أنه سيكون غائباً خلال الأُسبوعين المقبلين، ولكنّه لم يعد قط.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عمـل فـي مجال السـكك الحديدية لمدّة خمس سـنوات. ثـمّ في صباح أحد الأيام استقلّ القطار، ورآها للمرّة الأُولى. كانت تلك هي المرّة الأُولى التي ضحك فيها منذ وفاة والده.

ولم تعد الحياة على حالها مطلقاً.

قال الناس إن أوف رأى العالم بالأبيض والأسود. لكنها هي كانت بالألوان. كانت كلّ لون عرفه.

6

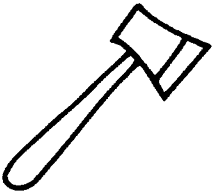

رجل يدعى أوڤ، والدراجة التي كان ينبغي أن تُترَك حيث تُترك الدراجات

أوڤ يريد فقط أن يموت بسلام. هل يطلب الكثير حقاً؟ إنه لا يعتقد ذلك. فهذا عادلٌ بما فيه الكفاية. كان يجب أن يتدبّر الأمر قبل ستة أشهر؛ مباشرة بعد جنازتها. لكنه قرر في ذلك الوقت: «لا يمكنك التصرف بهذا الشكل»؛ إذ كانت لديه وظيفته ليهتمّ بها. كيف سيكون الوضع إذا توقف الناس عن المجيء إلى العمل في كلّ مكان لأنهم انتحروا؟ توفّيت زوجة أوڤ يوم الجمعة، ودُفِنَت يوم الأحد، ثمّ ذهب أوڤ إلى العمل يوم الاثنين؛ فبهذه الطريقة يحل المرء مشاكله. ثم مرّت ستّة أشهر، وفجأة جاء المديرون يوم الاثنين، وقالوا إنّهم لم يرغبوا في مفاتحته بالموضوع يوم الجمعة لأنهم «لا يريدون أن يفسدوا له عطلة نهاية الأسبوع». ويوم الثلاثاء، وقف هناك لتزييت أسطح العمل في مطبخه.

أعدّ كلّ شيء، ودفع للقيّمين على الجنازة، واتّفق معهم على أن يُدفن قربها. استدعى المحامي، وكتب رسالة ضمّنها تعليمات واضحة، ووضعها في مغلّف مع كلّ إيصالاته الهامّة وسندات المنزل وتاريخ صيانة الصاب، ووضع هذا المغلّف في الجيب الداخلي لسترته. دفع كل الفواتير. ليست لديه أيّ قروض أو ديون ليسددها، ولذلك لن يُجبَرَ أحدٌ على تصحيح أيّ شيء بعد وفاته. حتى إنه غسل كوب القهوة، وألغى اشتراك الصحيفة. إنّه مستعدّ.

كلّ ما يريده هو أن يموت بسلام. كان يفكّر وهو يجلس في الصاب وينظر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عبر باب المرأب المفتوح. إذا تمكّن فقط من تجنّب جيرانه فقد يكون قادراً على الرحيل بعد ظهر هذا اليوم.

رأى الشاب الذي يعاني من زيادة في الوزن بشكل كبير، والذي يقيم في البيت المجاور وهو يتسكّع مروراً بباب المرأب في منطقة وقوف السيارات. لم يكن أوف يكره الناس بسبب بدانتهم. بالتأكيد لا؛ إذ يستطيع الناس أن يبدوا بأيّ شكلٍ يحلو لهم. ولكنه فقط لم يكن قادراً على فهمهم؛ إذ لا يمكنه أن يفهم تماماً كيف يفعلون ذلك. كم يمكن لشخص واحد أن يأكل من الطعام؟! وكيف يستطيع المرء تحويل نفسه إلى شخص بحجم اثنين؟ يجب أن يتّخذ تصميماً معيّناً، أن يفكّر.

لاحظه الشاب ولوّح له بابتهاج، فأومأ له أوف قليلاً. وقف الشاب هناك وهو يلوّح، جاعلاً صدره السمين في حركةٍ مستمرة تحت قميصه. غالباً ما يقول أوف إنّ هذا الرجل هو الوحيد الذي يعرفه والذي قد ينقضّ على وعاء يحتوي على رقائق البطاطا من جميع الاتجاهات في الوقت نفسه. لكن، كلّما تفوّه أوف بهذه الملاحظة اعترضت زوجته، وقالت له إنه لا ينبغي للمرء أن يقول أشياء من هذا القبيل.

أو بالأحرى، كانت تعترض.

كانت.

أحبّت زوجة أوف الشاب السمين. وبعد أن توفّيت والدته، صارت تذهب لزيارته مرّة في الأسبوع حاملة له علبة تحتوي على وجبة غداء. «حتى يأكل شيئاً مطهيّاً في المنزل بين الحين والآخر». كما كانت تقول. لاحظ أوف أن الشاب لم يُعِد العلب قط، وكان يقول لها إنّه ربما لم يلاحظ الفرق بين العلبة والطعام داخلها. عندها، كانت زوجته في كل مرة تطلب منه أن يكف عن قول ذلك؛ فيفعل.

انتظر أوف ريثما غادر آكل علب الغداء قبل أن يخرج من الصاب. شدّ مقبض باب السيارة ثلاث مرات، ثم أغلق باب المرأب وراءه، وشدّ مقبضه ثلاث مرات أيضاً. مشى في الممرّ الصغير بين البيوت، وتوقف خارج مرأب الدراجات. كانت هناك دراجة تميل على الجدار، ويبدو واضحاً أنها تخص فتاة؛ مباشرة تحت اللافتة التي تشرح بوضوح أن الدراجات لا ينبغي أن تُترك في هذه البقعة بالذات.

رفعها أوف، فلاحظ أن الإطار الأمامي مثقوب. فتح قفل باب المرأب، ووضع الدراجة بشكل مرتّب في نهاية الصف. أقفل الباب وراءه، وكان قد هزّه للتو ثلاث مرات عندما سمع صوت شخص يافع يُهَذرمُ في أُذنه.

«قف! ماذا تفعل بحق الله!؟».

التفت أوف، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع جرو يقف على بعد بضعة أمتار منه.

«أضع الدراجة في مرأب الدراجات».

«لا يمكنك أن تفعل ذلك!».

بعد التدقيق في ملامحه أكثر، قدّر أوف أنه قد يكون في الثامنة عشرة أو ما يقارب ذلك؛ ممّا يعني أنه شاب مراهق أكثر من كونه جرواً؛ إذا أراد المرء أن يكون دقيقاً في ذلك.

«بلى، يمكنني».

«ولكنني أُصلحها!». صرخ الشاب وصوته يرتفع إلى طبقات أعلى.

«لكنها دراجة سيدة». احتج أوف.

«نعم. وماذا في ذلك؟».

«إذاً، لا يمكن أن تكون لك». قال أوف بتعالٍ.

تذمّر الشاب وهو يقطّب جبينه، فيما وضع أوف يديه في جيبيه وكأن هذه هي نهاية المسألة.

خيّم صمت حذر. في تلك الأثناء، نظر الفتى إلى أوف وكأنه يجده مزعجاً من دون داعٍ. في المقابل، نظر أوف إلى المخلوق الواقف أمامه وكأنه لا شيء سوى مضيعة للأوكسجين. وراء الشاب، لاحظ أوف أنّ هناك شاباً آخر أصغر حجماً من الأول وتحيط بعينيه هالتان سوداوان. مال الشاب الثاني بحرص نحو الأول، وتمتم بشيء عن «عدم التسبّب بالمتاعب». فركل رفيقه الثلج بطريقة ثائرة، وكأن الثلج هو المخطئ.

وتمتم أخيراً: «إنّها دراجة صديقتي».

قال ذلك باستسلام أكثر منه بغضب. كان حذاؤه الرياضي كبيراً جدّاً، وسرواله الجينز صغيراً جدّاً كما لاحظ أوف. كما كانت سترته الرياضية مشدودة حتى ذقنه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لحمايته من البرد. أما وجهه الهزيل التافه فمغطّى بالرؤوس السوداء، وشعره يبدو وكأنّ شخصاً ما قد أنقذه من الغرق في برميل بسحبه من خصله.

«إذاً، أين تعيش صديقتك؟».

أشار المخلوق بذراعه كلّها نحو منزل في نهاية الشارع الذي يسكن فيه أوف؛ هنـاك حيـث يعيـش أولئك الشـيوعيون الذين فرضوا فـرز القمامة مع بناتهنّ. فأومأ أوف بحذر.

«إذاً، يمكنها استلامها من مرأب الدراجات». قال أوف وهو يقرع على اللافتة التي تمنع ترك الدراجات في المنطقة، قبل أن يلتفت ويعود إلى منزله.

«عجوز نذل ونزق!». صرخ الشاب وراءه.

«ششششش!». قال له رفيقه ذو العينين اللتين تحيط بهما هالتان سوداوان.

ولكن أوف لم يجب.

مشـى متجـاوزاً اللافتـة التـي تحظّـر بوضـوح دخول السـيارات إلـى المنطقة السكنية؛ تلك التي لم تتمكّن الحامل الأجنبية على ما يبدو من قراءتها، مع أن أوف يعرف جيداً أنه من المستحيل تماماً عدم رؤيتها؛ إنه واثق من ذلك لأنه من وضعها هناك. غير راضٍ، مشى في الممر الصغير بين البيوت، وهو يطأ الأرض بقوة؛ حيث إن أي شخص يراه قد يعتقد أنه يحاول تسوية الممر. وكأن الأمر لم يكن سيّئاً بما فيه الكفاية مع كلّ أولئك المجانين الذين يعيشون في الشارع أصلاً. وكأنه لم يجرِ أصـلاً تحويـل المنطقة كلها إلى «مطبّات» لعينة للسـرعة بتقـدّم تطوّري. فالمتصنّع الذي يملك سيارة الأودي ومعه العشبة الشقراء يقيمان قبالة منزله تقريباً. وفي نهاية الصف تقيم تلك الأُسـرة الشـيوعية التي كانت بناتها مراهقات ذوات شـعر أحمر، ويرتدين سـراويلاً قصيرة فوق سـراويلهنّ الطويلة، ووجوههنّ تبدو مثل الراكون. حسناً، على الأرجح، العائلة تمضي العطلة في تايلاند في هذه اللحظة بالذات.

وفـي المنـزل المجـاور لأوف يعيـش ذلـك الشـاب البالـغ من العمر خمسـة وعشرين عاماً، والذي يزن ربع طنّ تقريباً، بشعره الطويل الأنثوي وقمصانه الغريبة. عاش مع والدته إلى أن توفيت بسبب مرض ما منذ سنة تقريباً، وهو يُدعى جيمي كما أخبرته زوجته سـابقاً. لا يعرف أوف ما هي طبيعة عمل جيمي؛ على الأرجح

شيء إجراميّ. إلا إذا كان يختبر الأطعمة من أجل الحصول على لقمة العيش!

وداخل ذاك المنزل الذي يقع في الطرف الآخر يعيش رون وزوجته. قد لا يدعو أوف رون «عدوّه» بالضبط... أو بالأحرى قد يفعل ذلك. فكل ما تمّ تدبيره في جمعية السكان المقيمين بدأ مع رون. هو وزوجته أنيتا انتقلا إلى المنطقة في اليوم نفسه الذي انتقل فيه أوف وصونيا إليها. في ذلك الوقت، كان رون يقود سيارة ڤولڤو، ولكنه في وقت لاحق اشترى سيارة بي أم دبليو. لا يمكنك بكل بساطة أن تجادل شخصاً تصرّف بهذا الشكل.

كان رون من فَرَضَ الانقلاب الذي أطاح بأوف كرئيس للجمعية، وانظر إلى حالة المكان الآن؛ فواتير الكهرباء أعلى، والدرّاجات لا تُوضَع بعيداً في مرأب الدراجات، والناس يعكسون مقطوراتهم في المنطقة السكنية؛ على الرغم من وجود اللافتات التي تفيد بوضوح أن ذلك ممنوع. حذّر أوف من هذه الأشياء الفظيعة طويلاً، ولكنْ لم يستمع إليه أحد. ومنذ ذلك الحين، لم يشارك في أيّ اجتماع لجمعية السكان المقيمين.

كان يقوم بحركة بفمه وكأنه على وشك أن يبصق في كل مرة يلفظ فيها ذهنياً عبارة «جمعية السكان المقيمين»، وكأنها عبارة بذيئة جدّاً.

كان يبعد خمسة عشر متراً عن صندوق بريده المكسور عندما رأى العشبة الشقراء. في البداية، لم يتمكّن على الإطلاق من فَهمَ ما تفعله هذه المرأة. فهي تتمايل على الرصيف بحذائها ذي الكعبين العاليين، مشيرةً بهستيرية إلى واجهة منزل أوف.

وذاك الشيء الصغير الذي ينبح- كلب مغفّل هجين أكثر ممّا هو كلب سليم- ويتبوّل على حجارة أوف يدور حول قدميها.

صرخت العشبة بعنفٍ، حتى إن نظارتها الشمسية انزلقت إلى طرف أنفها. ونبح الكلب الهجين بصوت أعلى. إذاً، المرأة المُسِنّة قد فقدت صوابها أخيراً؛ فكّر أوف وهو واقف بحذرٍ على بعد بضعة أمتار خلفها. عندها فقط أدرك أنها في الواقع لا تشير إلى المنزل، بل ترمي الحجارة. ولكنّها لا ترمي الحجارة على المنزل، بل على الهرّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جلس الهر محشوراً في الزاوية البعيدة وراء مخزن أدوات أوف، وهناك القليل من بقع الدم على شعره، أو ما تبقّى من شعره. وكشف الكلب الهجين عن أنيابه، فيما أصدر الهرّ صوتاً محذّراً.

«لا تمُؤ في وجه برينس!». صرخت العشبة ملتقطة حجراً آخر عن أرض أوف وألقت به على الهرّ الذي قفز إلى خارج الطريق، فضرب الحجر عتبة النافذة.

التقطت حجراً آخر واستعدت لرميه، فتقدّم منها أوف من الخلف بخطوتين سريعتين، ووقف قريباً جداً منها؛ لدرجة أنها قد تشعر بأنفاسه على الأرجح.

«إذا رميتِ هذا الحجر على ممتلكاتي فسوف أرميكِ في حديقتك!».

التفتت نحوه فالتقت عيونهما. كان أوف يضع كلتا يديه في جيبيه، فيما لوّحت هي بقبضتيها أمامه وكأنها تحاول أن تطرد ذبابتين بحجم المايكروويف.

«ذاك الشيء المثير للاشمئزاز خدش برينس!». قالت وعيناها تقدحان غضباً، فنظر أوف إلى الكلب الهجين، ثم نظر إلى الهرّ الذي كان يجلس خارج منزله مذلولاً ونازفاً، ولكن رأسه مرفوع بتحدٍّ.

«إنّه ينزف. إذاً، يبدو أن الأمر قد انتهى بالتعادل». قال أوف.

«بحقّ الله! سأقتل هذا المقرف».

«لا، لن تفعلي». قال أوف ببرودة.

فبدأت جارته المجنونة تبدو مهدِّدة.

«إنّه على الأرجح مصاب بالأمراض المقزّزة كداء الجَرَب، وغيره!».

نظر أوف إلى الهرّ، ثم نظر إلى العشبة وأشار إليها قائلاً:

«وأنت أيضاً على الأرجح. ولكننا لا نرمي الحجارة عليك بسبب ذلك».

بدأت شفتها السفلية ترتجف، وأعادت وضع نظّارتها الشمسية على عينيها هامسة:

«انتبه إلى نفسك!».

فأومأ أوف، وأشار إلى الكلب الهجين الذي كان يحاول أن يعضّ ساقه، وركله بقدمه بقوة ليتراجع، وهو يقول بثبات:

«يجب أن يبقى هذا الشيء مربوطاً داخل المنطقة السكنية».

عندهـا، قذفـت شـعرها المصبـوغ بعيداً عن وجهها، ونخـرت بقوة لدرجة أن أوف توقّع خروج القليل من المخاط.

«وماذا عن ذاك الشيء؟!». احتجت مشيرة إلى الهرّ.

فأجابها أوف: «لا تهتمّي أبداً».

نظـرت إليـه بتلـك الطريقة الخاصّة بالناس المتعالين؛ أي بتعالٍ ومع الشـعور بإهانة عميقة في آنٍ معاً.

وكشف الكلب الهجين عن أنيابه.

وقالـت لـه الشـقراء: «أتعتقـد أنـك تملـك هذا الشـارع أم ماذا أيهـا المجنون اللعين؟».

عندها، أشار أوف بهدوء إلى الكلب الهجين مرّة أخرى وقال بهدوء:

«في المرّة التالية التي يتبوّل فيها هذا الشيء على أرضيّتي سأجعله يتكهرب».

«برينـس لـم يتبـوّل على أرضيّتك المقـززة». دمدمت وهي تتقدّم منه خطوتين رافعةً قبضتها.

غير أنّ أوف لم يتحرّك، فتوقّفت في مكانها وهي تبدو وكأنها تلهث.

ثـم بـدت وكأنهـا تسـتجمع المقدار الضئيـل جدّاً من التفكير الـذي تتمتع به، وقالت ملوحّة: «هيّا يا برينس».

ثم رفعت إصبعها في وجه أوف.

« سوف أُخبر آندرز عن هذا الموضوع، ومن ثم ستندم على ذلك».

«قولي لآندرز عن لساني إنه يجب عليه أن يتوقف عما يقوم به».

«غبيّ عجوز مجنون». وبصقت واتّجهت نحو منطقة وقوف السيارات.

«وسيارته قمامة. قولي له ذلك!». أضاف أوف احتياطاً.

فقامت بحركة في وجهه لم يشاهدها من قبل؛ على الرغم من أنه يستطيع أن يخمّن ما تعنيه. ثم توجّهت برفقة كلبها الصغير البائس باتّجاه منزل آندرز.

انعطـف أوف عنـد مخـزن أدواتـه، فـرأى البقع الرطبة من البـول على رصيفه عند زاوية حوض الزهور. لو لم يكن مشغولاً بأمور أكثر أهمية بعد ظهر هذا اليوم لكان قد ذهب وجعل من ذلك المغفل ممسحة على الفور. لكنّ لديه أشياء أُخرى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تشغله. ذهب إلى مخبأ أدواته، وأخذ مطرقته وصندوق العدة.

عندما خرج بعد قليل كان الهرّ يجلس هناك وهو ينظر إليه.

فقال له أوف: «يمكنك الذهاب الآن».

لكنّ الهرّ لم يتحرّك، فهز أوف رأسه باستسلام.

«مهلاً! أنا لست صديقك».

بقي الهرّ في مكانه.

«يا الله. أيها الهرّ اللعين، دعمي لك عندما ألقت تلك الغبية الحجارة عليك يعني فقط أنني أكرهك أقلّ من تلك العشبة المجنونة التي تركض عبر الشارع. وهذا ليس إنجازاً عظيماً؛ يجب أن تفهم ذلك بوضوح تامّ».

بدا الهرّ وكأنه يفكّر في ذلك بتأنٍّ، فيما أشار أوف إلى الممرّ.

«اذهب!».

لعق الهرّ شعره الملطّخ بالدماء غير آبه بالموضوع، ونظر إلى أوف وكأنّ هذه كانت جولة من المفاوضات وهو يدرس الاقتراح. ثمّ وقف ببطءٍ، ومشى بِخُطى متثاقلة، واختفى عند زاوية المخزن. لم ينظر إليه أوف، بل ذهب مباشرة إلى منزله وأغلق الباب بعنف.

لأنّه اكتفى الآن. الآن سيموت أوف.

7

رجلٌ يُدعى أوڤ يثقب السقف ليثبِّت عقيفة مشنقة

لبس أوڤ سرواله المفضّل، وقميصه المخصّص للسهرات، ثم غطّى الأرض بعناية بطبقة واقية من النايلون وكأنّه يحمي قطعة فنّية قيّمة. وليس سبب ذلك أن الأرضية جديدة بشكلٍ خاصّ (على الرغم من أنه صقلها قبل أقلّ من سنتين)، كما أنه متأكد تماماً من أنه لن يفقد الكثير من الدّم عندما يشنق نفسه، وليس بسبب المخاوف من الغبار أو الحفر، أو الآثار التي سيتركها عليها عندما يركل الكرسيّ الخشبيّ بعيداً. في الواقع، لقد ألصق بعض الواقيات البلاستيكية في أسفل قدميه، إذاً لا ينبغي أن تكون هناك أي علامات على الإطلاق. لا، الأغطية النايلونية السميكة عالية الجودة التي مدّها أوڤ بعناية لتغطية القاعة بكاملها وغرفة المعيشة وجزء كبير من المطبخ، ليست من أجل أوڤ على الإطلاق.

فهو يتوقع أنه سيكون هناك الكثير من الركض هنا، مع وكلاء العقارات التواقين الذين سيجرون محاولين الوصول إلى المنزل قبل وصول رجال الإسعاف الذين سيخرجون الجثة. وهؤلاء الأوغاد لن يأتوا إلى هنا ويخدشوا أرضيّة أوڤ بأحذيتهم. من الأفضل أن يفهموا ذلك بوضوح تامّ.

وضع الكرسي الخشبي في وسط الغرفة. إنّه مغطى بما لا يقلّ عن سبع طبقات مختلفة من الطلاء. فقد قرّرت زوجة أوڤ مبدئياً أنها سوف تسمح لأوڤ بإعادة طلاء إحدى الغرف في منزلهما كل ستة أشهر. أو لنكون أكثر دقّة، قالت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنّها قرّرت أنها تريد لوناً مختلفاً في إحدى الغرف مرّةً كل ستّة أشهر. وعندما قالت ذلك لأوف أجابها أنها ينبغي لها أن تنسى ذلك. غير أنها اتّصلت بمهندس ديكور للتقييم، ثم أخبرت أوف عن المبلغ الذي ستدفعه لمهندس الديكور. حينها، ذهب أوف لإحضار أداة الطلاء الخاصّة به.

تفتقد إلى أغرب الأشياء عندما تفقد شخصاً ما؛ الأشياء الصغيرة، الابتسامات، الطريقة التي كانت تتقلّب فيها أثناء نومها، وإعادة طلاء غرفة لها أيضاً.

ذهب أوف لإحضار صندوق العدة الخاصّ به. فرؤوس المثقاب بحدّ ذاتها هي الأكثر أهمية عند الثقب، وليس المثقاب. إنها أشبه بوجود إطارات مناسبة لسيّارتك بدلاً من العبث بالمكابح المصنوعة من السيراميك وهراء من هذا القبيل. إنّ أيّ شخص يعرف أيّ شيء يعرف ذلك. تمركز أوف في وسط الغرفة وقاسها. ثم كما لو أنه جرّاح يحدّق إلى أدواته، تحركت عيناه باحثتين بين أدوات الثقب. اختار واحدة، وأدخلها في المثقاب وضغط على الزناد قليلاً فأصدر المثقاب صوت هدير. عندها، هزّ رأسه، وقرّر أنّها ليست جيّدة على الإطلاق، واستبدلها بأخرى. كرّر ذلك أربع مرّات قبل أن يرضى، ثم مشى في غرفة المعيشة، والمثقاب يتأرجح متدلّياً من يده وكأنه مسدّس كبير.

وقف في وسط الغرفة محدقاً إلى السقف، وأدرك أنه يجب عليه أن يقيس المسافات قبل أن يبدأ بالثقب، حيث يكون الثقب في الوسط تماماً. فأسوأ شيء بالنسبة إلى أوف هو عندما يقوم شخص ما بإحداث ثقب في السقف، ولكنّه يضرب ولا يصيب الهدف.

ذهب لجلب شريط القياس، وقاس ابتداءً من كلٍّ من الزوايا الأربع– مرّتين احتياطاً– ورسم إشارة صليب في وسط السقف.

نزل أوف عن الكرسي الخشبيّ، ومشى في الغرفة ليتأكد من أن النايلون الواقي في مكانه كما ينبغي أن يكون، ثم فتح الباب كي لا يضطروا إلى كسره عندما يأتون لأخذه. إنّه باب جيّد، وسوف يدوم لسنوات كثيرة.

لبس سترة بذلته، وتأكّد من أن المغلف ما زال في جيبه الداخلي. وأخيراً، أدار صورة زوجته باتجاه النافذة، كما لو أنها تنظر إلى الخارج، نحو المخزن. إذ

لم يكن يرغب في أن تشاهد ما يوشك على القيام به، ولكنه من ناحية أُخرى لا يجرؤ على وضع وجه الصورة إلى الأسفل أيضاً. كانت زوجة أوف تقلق دائماً من أن ينتهي بهما الأمر يوماً ما في بيتٍ لا يطلّ على منظر جميل. فقد كانت بحاجة «إلى شيء حيّ لتنظر إليه»، كما كانت تقول دائماً. لذلك أدار الصورة نحو المخزن، بينما كان يفكّر في سره أنّ مضايقات الهرّ ربما ستبدأ مجدداً. أحبّت زوجة أوف مضايقات الهرّ.

جلب المثقاب، وأخذ العقيفة، ووقف على الكرسي، وبدأ بالحفر. في المرّة الأولى التي رُنّ فيها جرس الباب افترض أنّه خُيِّل إليه ذلك، وتجاهل الصوت لهذا السبب بالذات. وفي المرة الثانية، أدرك أن هناك فعلاً من يرن الجرس، وتجاهله لهذا السبب بالذات.

وفي المرة الثالثة التي رُنّ فيها الجرس، توقّف أوف عن الحفر، وألقى نظرة ساخطة نحو الباب؛ وكأنه قد يكون قادراً على إقناع كلّ من يقف في الخارج بأن يختفي باستعمال قواه العقلية وحدها، غير أنه لم يفلح في ذلك. لا بد أن يعتقد الشخص الذي ينتظر في الخارج أنّ التفسير العقلاني الوحيد لعدم فتحه الباب من المرّة الأولى هو أنه لم يسمع جرس الباب.

نزل أوف عن الكرسيّ، ومشى بخطوات واسعة على الأغطية النايلونية عبر غرفة المعيشة متّجهاً نحو القاعة. هل يجب حقّاً أن يكون انتحارك من دون استمرار الآخرين بإزعاجك أمراً صعباً؟

«ماذا؟». صرخ أوف وهو يفتح الباب.

تمكّن النحيف بفارقٍ ضئيل فقط من أن يسحب رأسه الكبير ويتجنّب اصطدام وجهه بالباب.

«مرحباً!». هتفت زوجته الحامل بابتهاج وهي تقف بجانبه، ولكن بنصف متر أدنى منه.

نظر أوف نزولاً إليها، ثم صعوداً إليه، فيما كان النحيف مشغولاً بلمس كل جزء من وجهه بتردّد، وكأنّه يتأكّد من أنّ كلّ النتوءات لا تزال حيث ينبغي أن تكون.

«هذه لك». قالت بصوت ودّي، ثم دفعت وعاء من البلاستيك أزرق اللون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نحوه.

فبدا أوف متشكّكاً.

«بسكويت». شرحت بشكل مشجّع.

أومأ أوف ببطء، وكأنّه يؤكّد ذلك.

«أنت متأنّق جدّاً». وابتسمت له.

فأومأ أوف مجدّداً.

وقفوا ثلاثتهم هناك منتظرين أن يقول أحدهم شيئاً. وفي النهاية، نظرت الحامل إلى النحيف وهزّت رأسها باستسلام.

«أوه أرجوك، هل ستتوقف عن العبث بوجهك حبيبي؟». همست وهي تدفعه جانباً.

عندها، رفع النحيف ناظريه إليها، والتقت أنظارهما فأومأ، ثم نظر إلى أوف الذي نظر بدوره إلى الحامل. أشار النحيف إلى العلبة وهو سعيد.

«إنها إيرانيّة كما تعلم. وهنّ يأخذن الطعام معهنّ أينما ذهبن».

نظر أوف إليه نظرةً فارغة فبدا النحيف أكثر تردّداً.

«كما تعلم... لهذا السبب أتّفق بشكل جيّد مع الإيرانيين. فهم يحبّون طهي الطعام، وأنا أحبّ...» وبدأ برسم ابتسامة على وجهه.

ثم صمت حين لاحظ أن أوف يبدو غير مهتمٍّ على الإطلاق.

«... تناول الطعام». أنهى النحيف كلامه.

بدا أوف وكأنه على وشك القيام بسلسلة من حركات قرع الطبول في الهواء بأصابعه. ولكنه بعد ذلك نظر إلى المرأة الحامل الأجنبية وقرّر أنها ربما فكرة سيئة.

«و...؟» قال بضجر.

عندها، وضعت يدها على بطنها وقالت:

«أردنا فقط أن نعرّف عن نفسينا بما أننا سنصبح جيراناً الآن...»

هزّ أوف رأسه بسرعة وقال منهياً الحديث:

«حسناً، إلى اللقاء».

حاول أن يغلق الباب، ولكنها حالت دون ذلك حين مدّت ذراعها.

«كما أردنا أن نشكرك على مساعدتنا في إرجاع مقطورتنا. كان هذا أمراً لطيفاً جدّاً من قبلك!».

همهم أوف، وأبقى الباب مفتوحاً على مضض.

«هذا ليس شيئاً يستحق أن تشكراني عليه».

«بلى، كان ذلك لطيفاً حقّاً». احتجّت على قوله.

«لا. أعني أنه لا ينبغي أن يكون هذا شيئاً تشكرونني عليه؛ لأن أيّ رجل ناضج يجب أن يكون قادراً على عكس مقطورة». أجاب ملقياً نظرة عدم إعجاب على النحيف الذي كان ينظر إليه وكأنه غير متأكد ممّا إذا كانت هذه إهانة أم لا. وقرّر أوف عدم مساعدته على الخروج من مأزقه هذا. ثم تراجع مجدداً وهو يحاول أن يغلق الباب.

غير أنها قالت وهي تضع قدمها عند عتبة الباب: «اسمي پارڤانيه!».

حدّق أوف إلى قدمها ثم إلى وجهها؛ وكأنّه يجد صعوبة في فهم ما فعلته للتو.

«وأنا پاتريك!». قال النحيف.

غير أنّ أوف وپارڤانيه لم يكترثا لقوله.

«هل أنت غير ودّي هكذا دائماً؟». تساءلت پارڤانيه بفضول حقيقي.

فبدا أوف مهاناً وأجاب: «أنا لست غير ودّي».

«أنت غير ودّي نوعاً ما».

«كلّا، لست كذلك».

«لا، لا، لا. أنت محق، فكل كلمة تقولها بمثابة عناق، إنها حقّاً كذلك». أجابت بطريقة جعلت أوف يشعر أنها لا تعني ذلك على الإطلاق.

أرخى قبضته عن مقبض الباب قليلاً، وتفقّد علبة البسكويت في يده، ثم تمتم: «صحيح. بسكويت عربيّ. لا بدّ أنّه قيّم لأستحقّ الحصول عليه، أليس كذلك؟».

«إيراني». صحّحت له.

«ماذا؟!».

«إنه بسكويت إيراني وليس عربياً. فأنا من إيران كما تعلم، حيث يتحدثون الفارسية». شرحت له.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«الهزلية؟ هذا أقلّ ما يمكنك قوله». وافق أوڤ.

أفقدته ضحكتها توازنه؛ وكأنها شراب غازيّ سكبه أحدهم بسرعة كبيرة فأصدر فقاعات في كل الاتجاهات. إنها ضحكة خبيثة، ترفض مجاراة القواعد.

تراجع أوڤ خطوة إلى الوراء، فالتصقت قدمه بالشريط اللاصق الذي وضعه عند العتبة. وبينما كان يحاول التخلّص منه، مع الشعور ببعض الانزعاج، مزّق زاوية من الغطاء النايلوني. وفيما كان يحاول التخلص من الشريط اللاصق والغطاء، تعثّر إلى الوراء وسحب منه أكثر. استعاد توازنه بغضب، وظلّ هناك عند العتبة في محاولة منه لاستجماع بعض الهدوء، ثم أمسك مقبض الباب مجدداً، ونظر إلى النحيف وهو يحاول تغيير الموضوع بسرعة.

«إذاً، ماذا تعمل أنت؟».

هزّ النحيف كتفه قليلاً وابتسم قليلاً.

«أنا مستشار في تكنولوجيا المعلومات».

هز أوڤ وپارڤانيه رأسيهما بتنسيق تامّ، لدرجة أنه كان بإمكانهما أن يشكّلا ثنائياً في السباحة الإيقاعية. للحظة، جعل سلوكها ذلك أوڤ يكرهها أقلّ؛ على الرغم من أنه متردّد جدّاً ليعترف بذلك لنفسه.

بدا النحيف وكأنه يجهل كلّ هذا. وبدلاً من ذلك، نظر بفضول إلى الأداة التي كان أوڤ يحملها بقبضة محكمة؛ مثل مقاتل يحمل سلاحاً رشاشاً من طراز AK-47 في يده.

وعندما انتهى النحيف من تفحصّه، مالَ إلى الأمام، واسترق النظر إلى منزل أوڤ.

«ماذا تفعل؟».

نظر أوڤ إليه كما ينظر المرء إلى شخص قال للتو: «ماذا تفعل؟» لرجل يقف وهو يحمل مثقاباً في يده.

«إنني أحفر». أجاب منتقداً.

فنظرت پارڤانيه إلى النحيف وقطّبت جبينها. ولولا بطنها الذي يشهد على استعدادها للمساهمة في إبقاء تركيبة النحيف الجينية، لوجدها أوڤ تقريباً متعاطفة

معه في هذه اللحظة.

«أوه». قال النحيف وهو يومئ.

ثم مال إلى الأمام، واسترق النّظر إلى أرضيّة غرفة المعيشة المغطّاة بدقّة بطبقة واقية من النايلون.

بعد ذلك أشرق وجهه، ونظر إلى أوف مبتسماً وقال:

«تبدو وكأنك على وشك أن تقتل أحدهم!».

فبادله أوف النظرات بصمت. عندها، تنحنح النحيف مبتسماً، وتابع بتردّدٍ وبثقة أقلّ: «أعني، يبدو الأمر مثل حلقة من دكستر. إنّه مسلسل تلفزيونيّ... عن رجل يقتل الناس».

ثم تراجع إلى الوراء، وبدأ بدسّ مقدمة حذائه في الفجوات بين الحجارة خارج باب أوف الأمامي.

فهزّ أوف رأسه، إذ لم يكن واضحاً بالنسبة إليه لمن كان النحيف يوجّه كلامه.

«يجب أن أُصلِحَ بعض الأشياء». قال أوف بفظاظة موجّهاً كلامه إلى پارڤانيه وهو يُحكم قبضته على مقبض الباب.

لكمت پارڤانيه النحيف بكوعها لكمة هادفة في جنبه.

فبدا النحيف وكأنه يحاول أن يستجمع بعض الشجاعة، ورمق پارڤانيه، ثم نظر إلى أوف وتعبير شخص يتوقّع من العالم كلّه البدء بإطلاق الأربطة المطاطية عليه مرتسماً على وجهه.

«حسناً، الأمر هو أننا جئنا في الواقع لأنني أرغب في اقتراض بضعة أشياء...»

فرفع أوف حاجبيه.

«أيّ أشياء؟».

تنحنح النحيف وتابع:

«السُلَّم، ومفتاح السُدَّس».

«تقصد مفتاحاً مُسدّساً».

فأومأت پارڤانيه، فيما بدا النحيف في حيرة من أمره.

«إنه مفتاح سُدَّس، أليس كذلك؟».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«مفتاح مُسدّس». صحّح أوف وپارڤانيه في الوقت نفسه.

ثم أومأت له پارڤانيه بفارغ الصبر، وأشارت إلى أوف بانتصار وقالت: «قال إنّ هذا هو اسمه!».

فتمتم النحيف بشيء غير مسموع.

«وأنت قلت لي: أوه، إنه مفتاح سُدّس!». سخرت منه پارڤانيه.

بدا النحيف محبطاً قليلاً.

«لم أقل ذلك قط».

«بل قلت ذلك!».

«كلا، لم أقل ذلك!».

«بلى، قلت!».

«لم أقل!».

تنقّلت نظرات أوف بينهما، وكأنه كلب كبير يراقب فأرين يقاطعان سُباته.

«بلى، قلت ذلك!». قالت الحامل.

«هذا ما تعتقدينه». قال النحيف.

«الجميع يقولون ذلك!».

«الأغلبية ليست دائماً على حق!».

«أتريد أن نبحث عن التسمية على جوجل أم ماذا؟».

«بالتأكيد! ابحثي عن ذلك في جوجل! وويكيبيديا أيضاً!».

«أعطني هاتفك».

«استخدمي هاتفك!».

«أنا لم أحمله معي أيها الأحمق!».

«آسف لسماعي ذلك!».

نظر أوف إليهما، بينما استمرّ جدالهما المثير للشفقة. كانا يذكّرانه بجهازين للتدفئة كان يتخيلهما ينتحبان بنبرة عالية في وجهَي بعضهما.

«يا إلهي القدير». تمتم نافد الصبر.

بدأت پارڤانيه بتقليد ما افترض أوف أنّه نوع من الحشرات الطائرة، وراحت

تصدر أصوات طنين بشفتيها لتثير غضب زوجها. وأثّر ذلك بشكل فعّال جدّاً في كلّ من النحيف وأوف.

أخيراً، استسلم أوف، وذهب إلى الردهة وعلّق سترة بذلته، ثم وضع المثقاب جانباً، وانتعل قبقابه ومشى بعيداً عنهما متجهاً نحو مخزن الأدوات. كان شبه متأكّد من أنّ أحداً منهما لم يلاحظ ابتعاده. سمعهما وهما يتجادلان فيما بدأ بإخراج السلّم.

«هيا، ساعده يا پاتريك». صرخت پارڤانيه عندما لمحته.

تقدّم النحيف بضع خطوات باتجاهه؛ بحركات متردّدة. فأبقى أوف عينيه عليه، وكأنه يراقب رجلاً أعمى يقود حافلة المدينة المزدحمة.

وبعد ذلك، أدرك أوف أنه لدى غيابه سيغزو شخص آخر ممتلكاته.

وقفت أنيتا زوجة رون في أسفل الشارع بجانب پارڤانيه، وراحت تراقب المشهد بابتهاج. عندها، قرّر أوف أن التصرف العقلاني الوحيد هو التظاهر بأنها لا تفعل أي شيء من هذا القبيل. كان يشعر أنّ أيّ شيء آخر قد يبهجها. ناول النحيف صندوقاً أسطوانياً فيه مجموعة من المفاتيح المسدّسة المرتبة بعناية.

«أوه، انظر كم يوجد منها!». قال الأبله محدّقاً إلى الصندوق.

«عن أيّ حجم تبحث؟». سأل أوف.

فنظر النحيف إليه كما يفعل الناس عندما يفتقرون إلى القدرة على قول ما يفكّرون فيه.

«الحجم... العاديّ؟».

نظر أوف إليه مطوّلاً، ثم سأله أخيراً:

«لماذا تريد استخدام هذه الأشياء؟».

«لإصلاح خزانة إيكيا كنّا قد فككناها عندما انتقلنا، ثم نسيت أين وضعت مفتاح السدّس». فسّر له من دون أيّ أثر للشعور بالعار.

نظر أوف إلى السلّم وقال:

«وهذه الخزانة على السطح، أليست كذلك؟».

سخر النحيف وهز رأسه مجيباً: «آه، أفهم ما تعنيه! لا، أنا بحاجة إلى السلم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأن النافذة في الطابق العلوي موصدة. إنها لا تفتح». وأضاف العبارة الأخيرة وكأن أوف لن يكون قادراً على فهم مضمون تلك الكلمة، موصدة.

«إذاً، ستحاول الآن أن تفتحها من الخارج؟». سأله أوف.

فأومأ النحيف برأسه، وأخذ منه السلّم بطريقة خرقاء. بدا أوف وكأنه على وشك أن يقول له شيئاً آخر، ولكن يبدو أنه غيّر رأيه، والتفت إلى پارڤانيه.

«ولماذا بالضبط أنتِ هنا؟».

«للدعم المعنوي». قالت ضاحكة.

لم يقتنع أوف تماماً، والنحيف أيضاً.

جال نظر أوف في الأرجاء على مضضٍ، واستقر على زوجة رون. كانت لا تزال هناك، وبدا له وكأنّ سنوات قد مضت منذ أن رآها آخر مرّة، أو على الأقل منذ أن نظر إليها فعلاً. لقد كبرت. يبدو أن الناس جميعهم يكبرون من وراء ظهر أوف في هذه الأيام.

«نعم، ماذا هناك؟». سألها أوف.

فابتسمت زوجة رون برقة، ووضعت يديها على وركيها.

«أوف، أنت تعرف أنني لا أريد أن أزعجك، ولكن الأمر يتعلّق بأجهزة التدفئة في منزلنا. إنها لا تعمل جيداً». قالت بعناية، وابتسمت لأوف والنحيف وپارڤانيه؛ كلّ بدوره. پارڤانيه والنحيف ابتسما لها، فيما نظر أوف إلى ساعته المعوجّة.

«ألم يعد لدى أحد في هذا الشارع وظيفة يذهب إليها!؟». تساءل.

«أنا متقاعدة». قالت زوجة رون وكأنها تعتذر.

«وأنا في إجازة أمومة». قالت پارڤانيه، وهي تربّت على بطنها بفخر.

«وأنا استشاري في تكنولوجيا المعلومات!». قال النحيف بفخر.

فهزّ أوف وپارڤانيه رأسيهما مرّة أخرى بشكل متزامن.

قامت زوجة رون بمحاولة أُخرى.

«أعتقد أنّ المشكلة قد تكون في أجهزة التدفئة».

فسألها أوف: «هل حاولت تسريب الهواء منها؟».

هزّت رأسها وهي تبدو فضولية.

«هل تعتقد أنّ هذا هو السبب؟».

قطّب أوف جبينه.

«أوف!». صرخت پارڤانيه في وجهه فجأةً وكأنّها معلّمة مدرسة تُؤنّب تلميذاً. فنظر أوف إليها نظرة ساخطة، وبادلته نظرته تلك وقالت له: «لا تكن فظّاً».

«قلت لك، لست فظّاً!».

غير أن عينيها لم تفارقاه، فأصدر صوتاً يشبه النخير قليلاً، ثم عاود الوقوف في المدخل وهو يعتقد أن الأمر قد أصبح كافياً الآن. كلّ ما يريده هو أن يموت، فلماذا لا يستطيع هؤلاء المجانين أن يحترموا ذلك؟

وضعت پارڤانيه يدها على ذراع زوجة رون بشكل مشجّع وقالت لها:

«أنا متأكدة من أن أوف يمكنه مساعدتك في حل مشكلة أجهزة التدفئة».

«سيكون هذا لطيفاً جدّاً من قِبَلِكَ يا أوف». قالت زوجة رون فجأة بابتهاج.

فأقحم أوف يديه في جيبيه، وركل البلاستيك الرخو عند العتبة.

«ألا يستطيع زوجك الاهتمام بهذا النوع من الأشياء في بيته؟».

فهزت زوجة رون رأسها بحزن وأجابت:

«لا، كان رون مريضاً جدّاً في الآونة الأخيرة. فكما ترى، قيل لي إنّه مصاب بمرض الألزهايمر. وهو يجلس على كرسيّ متحرّك أيضاً. كان الأمر شاقّاً بعض الشيء...»

أومأ أوف باعتراف صامت، وكأنه تذكّر شيئاً قالته له زوجته ألف مرّة؛ على الرغم من أنه تمكّن من نسيانه كلّ ذلك الوقت.

«نعم، نعم». قال بفارغ الصبر.

«يمكنك الذهاب لتنفيس أجهزة التدفئة الخاصة بهما، أليس كذلك يا أوف!؟». قالت پارڤانيه.

عندها، نظر أوف إلى وجهها وكأنه يفكّر في ردٍّ حاسم، ولكنه بدلاً من ذلك عاود النظر إلى الأرض.

«أم ترانا نطلب الكثير؟». تابعت وهي تغرقه بنظراتها، وتشبك ذراعيها بحسمٍ فوق بطنها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هزّ أوف رأسه وسألها:

«لا تُنفَّس أجهزة التدفئة، بل يُسرَّب منها الهواء... يا إلهي».

ونظر إلى الأعلى نظرة فاحصة سريعة، ثم سألها:

«ألم تسرّبي الهواء من جهاز تدفئة من قبل، أم ماذا؟».

«لا». قالت پارڤانيه بهدوء.

نظرت زوجة رون إلى النحيف بقلق، فقال لها بهدوء:

«ليست لديّ أدنى فكرة عمّا يتحدّثان عنه».

فأومأت زوجة رون باستسلام، ونظرت إلى أوف مرّة أخرى.

«سيكون ذلك رائعاً حقاً يا أوف؛ أعني إذا لم يسبّب لك الكثير من العناء...»

وقف أوف هناك عند العتبة محدّقاً فقط، ثم قال بهدوء، وكلماته تتخلّلها سلسلة من السعال: «ربما كان من الممكن أن تفكّروا في ذلك قبل تنظيم انقلاب في جمعية السكان المقيمين».

«قبل ماذا؟». سألت پارڤانيه.

فتنحنحت زوجة رون وقالت:

«ولكن، عزيزي أوف، لم يكن هناك انقلاب...»

«بلى، كان هنالك». قاطعها أوف غاضباً.

فنظرت زوجة رون إلى پارڤانيه مبتسمة ابتسامة صغيرة مُحرَجَة.

«حسناً، كما ترين، رون وأوف لم يتّفقا دائماً بشكل جيّد. وقبل أن يمرض رون كان رئيس جمعية السكان المقيمين. وقبل ذلك كان أوف هو الرئيس. وعندما تمّ التصويت لصالح رون، يمكنك القول إنه كان هناك نوعٌ من الجدال بين أوف ورون».

نظر أوف إليها وهو يشير بإصبعه مصحّحاً.

«انقلاب! هذا ما كان عليه الأمر».

فاومأت زوجة رون لپارڤانيه.

«حسناً، نعم. حسناً، قبل الاجتماع عدّ رون الأصوات حول اقتراحه بتغيير نظام التدفئة للمنازل وأوف...»

«ومـاذا بحـقّ الله يعـرف رون عـن أنظمة التدفئة؟». صاح أوف بغضب، ولكنّه وعلـى الفـور تلقّـى نظـرة مـن پارڤانيـه جعلته يعيـد النظر في سـلوكه ويتوصّل إلى استنتاج مفاده أنه ليست هناك حاجة إلى استكمال فكرته.

فأومأت زوجة رون وقالت:

«ربمـا أنـت محـقّ يـا أوف. لكن، على أي حال، إنـه مريض جدّاً الآن... لذا، لم يعد الأمر مهمّاً بعد الآن». وارتجفت شـفتها السـفلى قليلاً، غير أنها اسـتعادت رباطة جأشها، ورفعت رأسها بكرامة، وتنحنحت ثم أضافت:

«قالت السـلطات إنها سـتأخذه مني وسـتضعه في مأوى». بالكاد اسـتطاعت التفوّه بذلك.

وضـع أوف يديـه فـي جيبيـه وتراجـع بإصرار، ثم عبَر عتبة بابه. لقد سـمع ما يكفي من هذا.

فـي تلـك اللحظـة، بـدا النحيف وكأنه قرّر أنّ الوقت قد حان لتغيير الموضوع وتخفيف التوتر في الأجواء، فأشار إلى الأرض في ردهة أوف وسأله:

«ما هذا؟».

التفت أوف إلى حيث أشار، ونظر إلى الأرض المغطاة بالبلاستيك الرخو.

«يبدو وكأن هناك نوعاً من... آثار الإطارات على الأرض. هل تركب الدراجة في الداخل، أم ماذا؟». قال النحيف.

أبقـت پارڤانيـه عينيهـا المراقبتيـن علـى أوف، بينما تراجع خطـوة أخرى كي يتمكّن من حجب نظر النحيف.

«إنّه لا شيء».

«لكنني أرى أنها...» بدأ النحيف كلامه بارتباك.

فقاطعتـه زوجـة رون بطريقـة وديّة: «إنّهـا صونيا زوجة أوف، كانت...» ولكن لم تتسنَّ لها الفرصة للمتابعة، إذ قاطعها أوف بدوره، والتفت نحوها وهناك غضب جامح في عينيه.

«هذا يكفي! اسكتي الآن!».

فجأة، صمتوا كلّهم مصدومين على حدّ سـواء. ارتعشـت يدا أوف، وعاد إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ردهته، وصفع الباب وراءه. سمع صوت پارڤانيه الناعم وهي تسأل زوجة رون: «عمّ كان كلّ هذا؟». ثم أدرك أن زوجة رون تبحث بعصبية عن الكلمات المناسبة، قبل أن تقول: «أوه، أنت تعرفين، من الأفضل أن أذهب إلى المنزل. هذا الشيء عن زوجة أوف... آه انسَي الأمر. الخفافيش العجوز مثلي تتكلّم كثيراً، أنت تعرفين...»

وسمع أوف ضحكتها المتوترة، ثم صوت خطواتها الصغيرة وهي تنسحب وتختفي بأسرع ما يمكنها عند زاوية مخزن أدواته. وبعد قليل، غادرت الحامل والنحيف أيضاً.

وكل ما تبقّى هو الصمت في ردهة أوف.

انخفض جالساً على الكرسيّ الخشبي وهو يتنفس بصعوبة. كانت يداه لا تزالان تهتزّان، وكأنه يقف حتى خصره في الماء المثلج، وقلبه ينبض بقوّة وسرعة. يتكرّر هذا الأمر أكثر فأكثر هذه الأيام. إذ صار يناضل من أجل جرعة من الهواء؛ مثل سمكة في حوض مقلوب وفارغ من المياه. وقد قال طبيب الشركة إنه مرض مزمن، وإنه يجب عليه ألّا يجهد نفسه. من السهل بالنسبة إليه أن يقول ذلك.

وقد قال له رؤساؤه في العمل: «من الجيّد أن تعود إلى ديارك وترتاح الآن، فقلبك يلعب صعوداً وهبوطاً». كانوا يطلقون على ذلك اسم «التقاعد المبكر»، لكن كان بإمكانهم قول حقيقة ما هو الأمر عليه؛ «تصفية». فبعد ثلث قرن أمضاه في الوظيفة نفسها هذا ما جناه!

لم يكن أوف متأكداً إلى متى سيبقى جالساً على الكرسي، وبيده مثقاب، وقلبه ينبض بقوّة؛ لدرجة أنّه شعر بنبضه داخل رأسه. كانت هناك صورة على الجدار بجانب الباب الأمامي لأوف وصونيا. إنّها تعود إلى أربعين عاماً مضت. في ذلك الوقت، كانا في إسبانيا في جولة بالحافلة. كانت تبدو سمراء بفعلِ أشعة الشمس، وترتدي ثوباً أحمر، وهي سعيدة جداً، فيما أوف يقف إلى جوارها وهو يمسك يدها. جلس هناك لمدّة تقارب السّاعة وهو يحدّق فقط إلى تلك الصورة. من بين جميع الأشياء التي يفتقد إليها بعد وفاتها، كان الإمساك بيدها مرّة أخرى أكثر ما يشتاق إليه؛ فقد كانت لديها طريقة ما في وضع إصبعها بين قبضة يده وكأنها تخفيها داخلها، وكان يشعر حينها أنّ لا شيء في العالم مستحيل عندما كانت تفعل ذلك.

ومن بين كل الأشياء التي يفتقد إليها، هذا أكثر ما يفتقد إليه.

وقف ببطء، وذهب إلى غرفة المعيشة، وصعد السلّم، ثم أحدث ثقباً في السقف أخيراً، وعلّق العقيفة.

بعد ذلك، نزل عن السلّم وتفحّص عمله، ثم ذهب إلى الردهة وارتدى سترة بذلته. تحسّس المغلّف في جيبه. كان قد أطفأ كل المصابيح، وغسل قدح القهوة، وعلّق العقيفة في غرفة معيشته. صار كل شيء جاهزاً.

أخذ الحبل عن مشجب الملابس في الردهة. وبلطف، داعب معطفها بيده للمرّة الأخيرة، ثم ذهب إلى غرفة المعيشة، وربط الحبل، ومرّره من خلال العقيفة، وصعد على الكرسي، ووضع حبل المشنقة حول عنقه.

ركل الكرسي بعيداً.

أغمض عينيه وهو يشعر بحبل المشنقة يُشَدّ حول عنقه مثل فَكَّي حيوان بَرِّي كبير.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

8

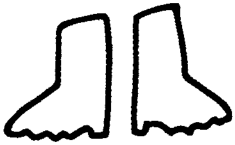

رجل كان يُدعى أوف
وزوج حذاء قديم

كانـت تؤمـن بالقـدر، وأنّ جميـع الطرق التي تمشـيها في الحيـاة– بطريقة أو بأخرى– «تؤدي إلى ما هو مُقَدَّرٌ لك سلفاً». وكان أوف بالطبع يتمتم، ويشغل نفسه بشـيء تافه كالتخلص من مسـمار أو ما شـابه كلّما بدأت بالكلام على هذا النحو. لكنه لم يخالفها الرأي قط.

إنه شيء غريب أن يصبح المرء يتيماً في سنّ السادسة عشرة، وأن تفقد عائلتك قبل فترة طويلة من إنشائك عائلة خاصة بك لتحلّ محلّها. إنّه نوع خاص جدّاً من الشعور بالوحدة.

أكمل أوف مهمّته على السكك الحديدية التي كانت مقررة لمدّة أسبوعين بما يُمليه عليه ضميره وبشـكل مُطيع. ولدهشـته، وجد أنّه أحبّ ذلك. فقد كان هناك بعـض التحـرّر فـي القيـام بعمـل، ورؤية ثمرة جهوده. لم يكره أوف المدرسـة قط، لكنّـه لـم يـرَ تمامـاً الهدف منها أيضاً. كان يحبّ الرياضيات، وكان قد سـبق زملاءه بعامين دراسيّين. أما بالنسبة إلى المواد الأُخرى، فبصراحة لم يكن قلقاً جداً بشأنها.

ولكنّ هذا كان شيئاً مختلفاً تماماً؛ شيئاً ناسبه بشكلٍ أفضل بكثير.

عندمـا سـجّل خروجـه من مناوبته الأخيـرة في اليوم الأخير كان محبطاً. ليس فقـط لأنّ عليـه العـودة إلـى المدرسـة، ولكن لأنّه خطر لـه حينها أنه لم يكن يعرف كيفيّـة كسـب لقمـة العيـش. كان أبوه جيداً من نواحٍ كثيـرة بالطبع، ولكن كان على

أوف أن يعترف أنه لم يترك له الكثير من الأملاك باستثناء منزلٍ متهدّم، وسيارة صاب قديمة، وساعة يد معوجّة. كانت الموافقة على قبول الصدقات من دار العبادة أمراً غير وارد بالتأكيد.

ثم جمع أمتعته وغادر. ولكنه عندما خرج من غرفة تغيير الملابس، كان هناك رجل من مكتب المدير الإداري يقف في انتظاره.

«أوف؟». سأله.

فأومأ أوف برأسه.

فقال الرجل باختصار: «يودّ المدير أن يُعرِبَ لك عن شكره لقيامك بعمل جيّد خلال الأسبوعين الماضيين».

«شكراً». قال أوف وهو يبتعد.

غير أن الرجل وضع يده على ذراع أوف، فتوقّف.

«كان المدير يتساءل عما إذا كنت مهتمّاً بالبقاء معنا ومتابعة القيام بعمل جيّد؟».

وقف أوف بصمت وهو ينظر إلى الرجل؛ ربّما للتحقق ممّا إذا كان هذا نوعاً من المزاح، ثم هزّ رأسه ببطء.

وعندما خطا بضع خطوات، صرخ الرجل من ورائه:

«يقول المدير إنك مثل والدك تماماً!».

لم يلتفت أوف إليه، ولكن ظهره كان مستقيماً أكثر وهو يغادر.

وهكذا، انتهى به الأمر منتعلاً حذاء والده القديم. عَمِلَ بجدّ، ولم يَشكُ قط، ولم يمرض على الإطلاق. وجده الشباب في مناوبته هادئ الطباع قليلاً، وغريب الأطوار أيضاً. إذ لم يشأ أن ينضمّ إليهم لاحتساء الشراب بعد العمل، وبدا غير مهتمٍّ بالنساء أيضاً؛ الأمر الذي كان أكثر من غريب بحدّ ذاته. لكنه كان نسخة عن والده في المظهر والتصرّف، ولم يعطهم أيّ سبب ليشكوا منه. فإذا طلب أيُّ شخص من أوف خدمة حصل عليها، وإذا طلب منه أيُّ شخص الحلول مكانه في مناوبته فعل ذلك من دون أيّ ضجة. ومع مرور الوقت، كان كلٌّ منهم مديوناً له بخدمة أو اثنتين، ولذلك تقبّلوه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندما تعطّلت الشاحنة القديمة ليلاً، على بعد واحد وعشرين كيلومتراً خارج المدينة– أثناء أسوأ هطول للأمطار في العام كلّه– تلك التي كانوا يقودونها صعوداً وهبوطاً على خطّ السكة الحديدية، تمكّن أوف من إصلاحها باستعمال مفكّ براغي ونصف لفّة من الشريط فقط. بعد ذلك، طالما كان الأمر يتعلّق بالشباب على مسارات السكّة الحديديّة، كان أوف في الخدمة.

في المساء، كان يطهو نقانقه والبطاطا، مُحدّقاً إلى أرجاء المطبخ بينما كان يأكل. وفي صباح اليوم التالي، كان يذهب إلى العمل مجدداً. أحبّ الروتين، وأحبّ دائماً معرفة ما يمكن توقّعه. فمنذ وفاة والده، كان قد بدأ بالتفريق أكثر فأكثر بين الناس الذين فعلوا ما ينبغي فعله، وأولئك الذين لم يفعلوا ذلك؛ الناس الذين فعلوا، والناس الذين تكلّموا فقط. تكلّم أوف أقلّ وأقلّ، وفعل أكثر وأكثر.

لم يكن لديه أصدقاء. ولكن من ناحية أُخرى، بالكاد كان لديه أي أعداء أيضاً؛ بصرف النظر عن طوم الذي استغلّ كلّ فرصة لجعل حياة أوف صعبة قدر الإمكان منذ ترقيته ليصبح رئيساً للعمال. أعطاه أقذر الوظائف وأصعبها، وصاح في وجهه، وأسقطه أثناء وجبة الفطور، وأرسله للقيام بعمليات تفتيش تحت عربات السكك الحديدية ثم شغّلها بينما كان أوف مستلقياً تحتها من دون وقاية. وعندما قفز أوف مُندهشاً للابتعاد عن مسار العربات في الوقت المناسب تماماً، ضحك طوم بازدراء وصاح: «انتبه أو سينتهي الأمر بك مثل أبيك!».

لكنّ أوف أبقى رأسه منخفضاً وفمه مغلقاً. فهو لم يرَ أي جدوى من تحدّي رجلٍ بضعف حجمه. لذا، ذهب إلى العمل كلّ يوم؛ فما كان جيّداً لوالده بما فيه الكفاية سيكون كذلك له أيضاً. تعلّم زملاؤه أن يقدّروه بسبب سلوكه ذاك. وقد قال له أحدُ زملائه الأكبر سنّاً بعد ظهر أحد الأيّام على مسار السكّة الحديديّة: «عندما لا يتحدّث الناس كثيراً فهم لا يتفوّهون بالحماقات أيضاً». فأوَمَأَ أوف. البعض فهمه، والبعض الآخر لا.

كان هناك أيضاً بعض الأشخاص الذين فهموا سبب انتهاء الأمر بأوف يوماً في مكتب المدير، في حين أن البعض الآخر لم يفهم.

كان قد مرّ ما يقارب العامين على جنازة والده، وكان أوف قد بلغ للتو الثامنة

عشـرة. تـمّ إلقـاء القبـض علـى طوم وهو يسـرق المـال من إحدى عربـات النقل. وباعتراف الجميع، لم يره أحدٌ وهو يأخذ المال سوى أوف، لكنّ طوم وأوف كانا الشـخصين الوحيديـن فـي العربـة عندما فُقِدَ المال. وحيـن أوضح رجل جدّي من مكتب المدير سبب الطلب من طوم وأوف الذهاب إلى مكتب المدير، لم يستطع أحد أن يصدّق أن أوف هو المذنب. وهو لم يكن كذلك بطبيعة الحال.

ظل أوف جالساً على كرسيّ خشبيّ في الممر خارج مكتب المدير وهو ينظر إلى الأرض لمدّة خمس عشـرة دقيقة قبل أن يُفتح الباب. ثم خرج طوم، وقبضتاه مشـدودتان بحـزم، لدرجـة أن الـدم توقّف عن الجريان في شـرايينه، وأصبح جلده أبيض.

ظلّ يحاول أن ينظر إلى عيني أوف، لكن هذا الأخير بقي محدقاً إلى الأرض حتى اقتيد إلى مكتب المدير.

انتشـر عددٌ أكبر من الرجال الجديين الذين يرتدون بذلات موحّدة في جميع أنحاء الغرفة. والمدير نفسـه كان يمشـي ذهاباً وإياباً وراء مكتبه عاجزاً عن التمكن من الوقوف من دون حراك، ووجهه أحمر للغاية، ممّا دلّ على شدة غضبه.

وأخيـراً، قـال أحـد الرّجال الذيـن يرتدون البذلات: «أترغـب في الجلوس يا أوف؟».

التقى بصر أوف بصره فعرفه فوراً. فقد قام والده بإصلاح سيارته مرّة؛ سيارة أوبيل مانتا زرقاء ذات محرّك كبير. ابتسم الرجل لأوف بودّ، وأشار إلى كرسيّ في الوسط؛ وكأنه يعلمه بأنه بين أصدقائه الآن ويمكنه أن يسترخي.

فهزّ أوف رأسه، وأوَمَأَ الرجل صاحب الأوبيل مانتا بتفهّم.

«حسناً، هذا مجرّد إجراء شكليّ يا أوف. لا أحد هنا يعتقد أنك أخذت المال. كلّ ما عليك القيام به هو أن تقول لنا من فعل ذلك».

نظر أوف إلى الأرض من دون أن يتكلم. مرّت نصف دقيقة.

«أوف؟».

غير أن أوف لم يُجِب. فجأة، كسـر صوت المدير القاسـي الصمت الذي دام طويلاً: «أجب عن السؤال يا أوف!».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقف أوف بصمت وهو ينظر إلى الأرض، فتحوّلت تعابير وجوه الرجال من الاقتناع إلى ارتباك طفيف.

«أوف... أنت تفهم أنه عليك الإجابة عن السؤال. هل أخذت المال؟».

«كلّا». أجاب أوف بصوت حازم.

«إذاً، من أخذه؟».

وقف أوف بصمت، فأمَرهَ المدير:

«أجب عن السؤال!».

عندها، رفع أوف نظره، ووقف هناك بظهرٍ مستقيم، وقال:

«أنا لست من نوع الأشخاص الذين يتحدثون عما يفعله الآخرون».

فغرقت الغرفة في الصمت لعدّة دقائق.

«أنت تفهم، يا أوف... أنك إذا لم تخبرنا بهوية من سرق المال، وإذا كان لدينا شاهد أو أكثر يقولون إنك من سرقه... إذاً سيتعيّن علينا استنتاج أنك أنت من سرقه». قال المدير الذي لم يعد ودّياً جدّاً.

فأوَمَأ أوف، ولكنّه لم يقل أيّ كلمة أُخرى. تفحّصه المدير، وكأنه مخادع في لعبة ورق، غير أن وجه أوف لم يتأثر. عندها، أومأ المدير بتجهّم وقال له:

«إذاً، يمكنك الذهاب».

ورحل أوف.

كان طوم قد ألقى باللّوم على أوف عندما كان في مكتب المدير قبل خمس عشرة دقيقة. وخلال فترة ما بعد الظهر، ادعى شابّان من مناوبة طوم– حريصان كشابين على كسب ودّ الرجال الأكبر سنّاً– أنهما رأيا أوف بأعينهما وهو يأخذ المال. لو اتّهم أوف طوم لكان من الممكن أن تكون كلمته ضد كلمة طوم. ولكن حينها كانت كلمة طوم ضدّ صمت أوف. ثم في صباح اليوم التالي، طلب منه رئيس العمّال أن يفرغ خزانته، وأن يذهب إلى مكتب المدير.

وأثناء مغادرته، وقف طوم قرب باب غرفة تبديل الملابس، وسخر منه.

«لصّ». همس طوم.

فتجاوزه أوف من دون أن يرفع نظره.

«لصّ! لصّ! لصّ!». هتف بسعادة في غرفة تبديل الملابس واحدٌ من الزملاء الأصغر سنّاً الذين شهدوا ضدّه، لكنّ واحداً من الرجال الأكبر سنّاً في فريقهم في مناوبة العمل صفعه على وجهه فسكت.

«**لصّ!**». صاح طوم بصوت عالٍ؛ فبقيت الكلمات ترنّ في رأس أوف لعدّة أيّام.

تابع أوف طريقه إلى الخارج، إلى هواء المساء، من دون أن يلتفت إلى الوراء، وأخذ نفساً عميقاً. كان غاضباً، ولكن ليس لأنّهم دعوه لصّاً. إذ لم يكن من ذاك النوع من الرجال الذين يهتمّون بما يصفهم به الآخرون. لكن شعوره بالخجل لفقدانه الوظيفة التي كان والده قد كرّس حياته كلّها من أجلها أحرقه، وجعله يشعر كما لو أن هناك كرة ملتهبة في صدره.

كان لديه مُتّسع من الوقت للتفكير في حياته بينما كان يسير للمرّة الأخيرة نحو المكتب، حاملاً مجموعةً من ملابس العمل بين يديه. فلقد أَحبَّ العمل هنا؛ حيث المهام مناسبة، والأدوات مناسبة، والوظيفة حقيقية. وقرّر أنّه بمجرّد أن تنتهي الشرطة من الإجراءات التي تقوم بها تجاه اللصوص في هذه الحالة، سيحاول الذهاب إلى مكان حيث يمكنه الحصول على وظيفة أُخرى مثل هذه. وتوقع أنه سيضطرّ إلى السفر بعيداً. فعلى الأرجح، إنّ سجلّاً إجرامياً بحاجة إلى مسافة جغرافية معقولة ليصبح شاحباً ورتيباً. وأدرك أنّه لم يعد لديه شيء يبقيه هنا. لكنه على الأقل لم يصبح من ذلك النوع من الرجال الذين ينمّون عن غيرهم. وأمل أن يجعل ذلك والده أكثر مسامحة له بشأن فقدانه وظيفته، عندما يجتمع شملهما مجدداً.

كان عليه أن يجلس على كرسي خشبي في الممر لما يقارب الأربعين دقيقة قبل أن تأتي امرأة في منتصف العمر ترتدي تنّورة سوداء ضيقة وتضع نظارة وتقول له إنه يمكنه الدخول إلى المكتب. ثم أغلقت الباب وراءه. وقف هناك وهو لا يزال يحمل ملابسه بين ذراعيه، فيما جلس المدير وراء مكتبه شابكاً يديه معاً أمامه. أخضع الرجلان بعضهما بعضاً لفحص طويل؛ وكأن كلّاً منهما لوحة مثيرة للاهتمام بشكل غير عادي ومعلّقة في متحف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فجأة، قال المدير: «طوم هو من أخذ المال».

لم يقل ذلك كما لو أنه يطرح سؤالاً، وإنما كبيان قصير مؤكّد. فلم يُجِب أوف. عندها، أومأ المدير وتابع كلامه:

«لكن الرجال في عائلتك ليسوا من النوع الذي يثرثر».

لم يكن هذا سؤالاً أيضاً، ولم يجب أوف.

ولاحظ المدير أنه استقام قليلاً عند قوله عبارة «الرجال في عائلتك».

أومأ المدير مرّة أُخرى، ثم وضع نظارته، وبحث في كومة من الأوراق، وبدأ بكتابة شيءٍ ما؛ وكأنّ أوف قد اختفى من الغرفة في تلك اللحظة بالذات. وقف أوف أمامه لفترة طويلة، إلى أن بدأ يشكّ جدّياً في ما إذا كان المدير على علمٍ بوجوده. بعد ذلك، رفع المدير نظره إليه وسأله:

«نعم؟».

«الرجال رجالٌ بفضل ما يفعلونه، وليس ما يقولونه». قال أوف.

عندها، نظر المدير إليه متفاجئاً. إذ كانت هذه أطول سلسلة من الكلمات سمعها أيّ شخص في مستودع السكك الحديدية من فم هذا الشاب منذ أن بدأ بالعمل هناك منذ عامين. بكلّ صدق، لم يعرف أوف من أين أتت تلك الكلمات، ولكنه شعر فقط أنه يجب أن يقولها.

نظر المدير إلى كومة من أوراقه مرّة أُخرى، ثم كتب شيئاً هناك، ودفع قطعة من الورق على المكتب، وأشار إلى حيث يجب أن يوقّع أوف اسمه.

«هذا إعلان عن أنّك تخلّيت عن وظيفتك طوعاً». فوقّع أوف اسمه، واستقام وقد بدا على وجهه شيء من القسوة غير معهود لديه.

«يمكنك أن تطلب منهم أن يأتوا الآن؛ فأنا مستعد».

«من؟». سأل المدير.

«الشرطة». أجاب أوف مغلقاً قبضتَي يديه إلى جانبيه.

فهزّ المدير رأسه بخفّة، وعاود البحث في كومة أوراقه، ثم قال:

«في الواقع، أعتقد أن إفادات الشهود قد فُقِدَت وسط هذه الفوضى».

نقل أوف وزنه من قدمٍ إلى أخرى من دون أن يعرف حقّاً كيفيّة الردّ على

ذلك، فلوّحَ له المدير بيده من دون أن ينظر إليه، وقال:

«أنت حرّ في الذهاب الآن».

عندها، استدار أوف، وذهب إلى الممرّ، وأغلق الباب وراءه وهو يشعر بالدوار. وعندما وصل إلى الباب الأمامي، لَحِقَت به المرأة التي أدخلته بخطوات سريعة. وقبل أن تتسنّى له الفرصة كي يحتجّ، وضعت ورقة في يده قائلة بصرامة:

«يريدك المدير أن تعرف أنك توظّفت كعامل تنظيفات ليليّ على متن قطار المسافات الطويلة. توجّه إلى رئيس العمال هناك صباح الغد».

حدّق أوف إلى وجهها ثمّ إلى الورقة، فانحنت نحوه، وصارت أكثر قرباً منه وتابعت:

«طلب منّي المدير أن أنقل لك رسالة أُخرى: أنت لم تأخذ تلك المحفظة عندما كان عمرك تسع سنوات، ولا يُعقَل أن تأخذ أيّ شيء الآن. وسيكون من المؤسف له أن يكون مسؤولاً عن طرد ابن رجل محترم إلى الشارع؛ فقط لأن ذاك الابن لديه بعض المبادئ».

وهكذا، اتّضح أن أوف أصبح عامل تنظيفات ليليّاً بدلاً من ذلك. ولو لم يحدث هذا، لما أتى إلى مناوبته في صباح ذلك اليوم، ولما وقع نظره عليها منتعلة ذلك الحذاء الأحمر، وواضعة ذلك البروش الذهبي، فيما يبدو شعرها البني لامعاً. ولما سمع ضحكتها التي جعلته يشعر- لبقية حياته- وكأن أحدهم يركض حافي.

غالباً ما قالت إنّ «كلّ الطرائق تؤدّي دائماً إلى شيءٍ لطالما كان مقّدراً لك».

وبالنسبة إليها، ربّما كان هذا شيئاً ما.

لكن، بالنسبة إلى أوف، كان ذلك... شخصاً ما.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

9

رجلٌ يُدعى أوف ينفّس الهواء من جهاز تدفئة

يُقال إنّ وظائف الدماغ تتسارع أثناء السقوط؛ وكأنّ الانفجار المفاجئ للطاقة الحركية يجبر وحدات العقل على أن تسرع كي يدخل إدراك العالم الخارجي في حركة بطيئة.

إذاً، سمح الوقت لأوف بأن يفكّر في أشياء كثيرة.

على الأغلب في أجهزة التدفئة.

لأن هناك طرائق صحيحة وطرائق خاطئة للقيام بالأمور؛ كما نعلم جميعاً. وعلى الرغم من مرور سنوات عديدة على عدم تذكّر أوف بالضبط الحلّ الذي اعتبره صحيحاً في الجدل حول اعتماد نظام تدفئة مركزية مناسب من قبل جمعية السكان المقيمين، إلّا أنه يتذكر بوضوح أن النهج الذي اتّبعه رون كان خاطئاً.

لكن، لم يكن الخلاف متعلقاً بنظام التدفئة المركزية فقط. فقد عرف رون وأوف بعضهما بعضاً لما يقارب الأربعين عاماً، وكانا على خلاف لمدّة لا تقل عن سبعة وثلاثين منها.

بصدق، لم يستطع أوف تذَكّر كيفية بدء كلّ شيء. إذ لم يكن خلافهما الأول من نوع النزاعات التي يتذكّرها المرء طويلاً. ولكن الخلافات الصغيرة اللاحقة انتهت متشابكة، فأصبحت كلّ كلمة جديدة غدراً وفِخاخاً. وفي النهاية، كان من

المستحيل أن يفتح أحدهما فمه من دون إطلاق ما لا يقلّ عن أربعة ألغامٍ غير متفجّرة من النزاعات السابقة. كان خلافهما من نوع الخلافات التي تدور وتدور وتدور؛ إلى أن انتهت في أحد الأيام.

بصراحة، لم يكن الأمر يتعلّق بالسيارات حقّاً. لكنّ أوف قاد سيّارة صاب، بعد كلّ شيء، ورون قاد ڤولڤو. كان باستطاعة أيّ شخص أن يرى أن صداقتهما لن تنجح على المدى الطويل. ففي البداية، كانا صديقين رغم ذلك. أو على الأقل، كانا صديقين إلى الحدّ الذي كان فيه الرجال أمثال أوف ورون قادرين على البقاء أصدقاء. في الغالب، كانا كذلك من أجل زوجتيهما؛ كما هو واضح. فقد انتقلوا إلى هذه المنطقة في الوقت نفسه، وأصبحت صونيا وأنيتا أفضل صديقتين على الفور، كما يمكن أن تكون النساء المتزوجات من رجال مثل أوف ورون فقط.

تذكّر أوف أنه لم يكره رون، على الأقل في تلك السنوات الأولى؛ بقدر ما يمكنه أن يتذكّر. فهما اللذان أنشآ جمعية السكان المقيمين، وكان أوف رئيساً ورون مساعد الرئيس. كانا قد تمسّكا ببعضهما عندما أراد المجلس تقليص الغابة وراء منزلَي أوف ورون من أجل بناء المزيد من المنازل. بالطبع، ادّعى المجلس أن خطط البناء تلك كانت موجودة لسنوات قبل أن ينتقل رون وأوف إلى منزليهما، لكن ليس بوسع أي كان أن يتمادى مع رون وأوف باستخدام هذا النوع من الحجج. «إنها الحرب، أيها الأوغاد!». صرخ رون عبر خطّ الهاتف. وحقّاً كانت الحرب؛ إذ قدّما طُعوناً لا تنتهي وأوامر وعرائض، ووجّها رسائل إلى الصحف. وبعد عام ونصف العام، استسلم المجلس وبدأ بالبناء في مكان آخر بدلاً من ذاك.

في ذلك المساء، احتسى رون وأوف الشراب في فناء رون المرصوف. وحينها، لم يبدُوَا سعيدَين بشكل مفرط لأنهما فازا كما أشارت زوجتاهما، بل كان كلاهما يشعران بخيبة أمل بدلاً من ذلك لأنّ المجلس قد استسلم بسرعة. كانت تلك الأشهر الثمانية عشر هي الأكثر متعة في حياتيهما.

تساءل رون: «ألم يعد أحد على استعداد للقتال من أجل مبادئه؟».

فأجاب أوف: «أبداً».

كان ذلك قبل وقت طويل من الانقلاب في جمعية السكّان المقيمين بالطبع،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقبل أن يشتري رون سيارة بي أم دبليو.

«الأبله». فكّر أوف في ذلك اليوم، وهو يتذكّر ما حصل بعد كلّ تلك السنوات. وفي الواقع، كان يفكر في ذلك كلّ يوم. «كيف يُفترض أن تدور محادثة منطقية مع شخص اشترى سيارة بي أم دبليو؟!». قال أوف لصونيا عندما تساءلت عن السبب الذي يحول دون تبادل الرجلين محادثة منطقية. وعندها، لم تكن صونيا تجد طريقة أخرى للرد سوى تقطيب جبينها وهي تتمتم: «أنت لا أمل منك».

لم يكن أوف ميؤوساً منه بحسب رأيه. وكان يشعر بالحاجة إلى أن يكون جزءاً من النظام في المخطّط الأكبر للأشياء. كان يشعر أنه لا ينبغي للمرء أن يعيش في الحياة وكأنّ كلّ شيء قابل للاستبدال، وكأنّ الولاء لا قيمة له. ففي هذه الأيام، يغيّر الناس أشياءهم بكثرة، حيث إنّ أي خبرة في كيفية جعل الأشياء تدوم أصبحت زائدة عن الحاجة. أما الجودة فلم يعد أحدٌ يهتمّ بها بعد الآن. لا رون ولا الجيران الآخرين ولا أولئك المديرين حيث عمل أوف. الآن، يجب أن يكون كلّ شيء مُبرمجاً على الكمبيوتر؛ وكأنّه لم يكن باستطاعة المرء بناء منزل إلى أن اكتشف استشاري ما، يرتدي قميصاً ضيّقاً جدّاً، كيفية فتح جهاز كمبيوتر محمول. وكأن الكولوسيوم وأهرامات الجيزة بنيت بهذه الطريقة. يا الله، لقد تمكّنوا من بناء برج إيفل في العام 1889، ولكن في الوقت الحاضر لا يستطيع المرء إعطاء رسوم لعينة لمنزلٍ مؤلف من طابقٍ واحد من دون الحصول على استراحة ليهرع شخصٌ ما ويُعيد شحن هاتفه المحمول.

أصبح هذا العالم عالماً المرء فيه قديم الطراز قبل أن يحين وقت ذلك. فهناك بلدٌ بأكمله واقفٌ وهو يصفّق لحقيقة أن أحداً لم يعد قادراً على القيام بأيّ شيء بشكل صحيح بعد الآن؛ إنه الاحتفال الصريح بالرداءة.

لم يعد بإمكان أحد تغيير الإطارات، وتركيب مصباح للسيارة، ووضع بعض البلاط أو جصّ الجدار، وتقديم حساباته الضريبية الخاصة. كانت هذه كلّها أشكال المعرفة التي فقدت أهميتها؛ هذا هو نوع الأمور التي تحدّث عنها أوف مرّة مع رون. وبعد ذلك، ذهب رون واشترى بي أم دبليو.

هل كان شخصاً ميؤوساً منه لأنه اعتقد أنه ينبغي أن تكون هناك بعض الحدود؟

لم يعتقد أوف ذلك.

ونعم، لم يتذكّر بالضبط كيف بدأ الخلاف مع رون، ولكنّه استمرّ. كان الأمر متعلّقاً بأجهزة التدفئة، وأنظمة التدفئة المركزية، ومواقف السيارات، والأشجار التي كان لا بدّ من قطعها، وإزالة الثلوج، وجزازات العشب، وسمّ الفئران في بركة رون. لأكثر من خمسة وثلاثين عاماً، كانا قد مشيا في فناءيهما المرصوفين المتماثلين وراء منزليهما المتماثلين وهما يتبادلان نظرات حاقدة من فوق السياج. ثمّ في أحد الأيام، قبل عام تقريباً، وصل كلّ هذا إلى نهايته. إذ أصبح رون مريضاً، ولم يعد يخرج من المنزل قط. حتى إن أوف لا يعلم إذا كان لا يزال يمتلك البي أم دبليو.

وكان هناك جزء منه يفتقد إلى ذلك الأحمق العجوز اللعين.

إذاً، كما يقولون، يعمل الدماغ بشكل أسرع عندما يسقط. مثل التفكير في آلاف الأفكار في جزءٍ من الثانية. بعبارة أُخرى، سيكون لدى أوف قدر كبير من الوقت للتفكير بعد أن ركل الكرسي مراراً وسقط على الأرض. فقد استلقى هناك على ظهره، وتأمل نصف الحبل الذي لا يزال متدلياً من السقف والذي قُطِعَ إلى جزءين مصدوماً.

فكّر أوف: ما هذا المجتمع؟! ألم يَعد بإمكانهم حتى تصنيع حبل ذي نوعية جيّدة؟ وشتم كثيراً بينما كان يحاول بشراسة حلّ العقدة حول ساقيه. كيف يستطيع المرء أن يفشل في تصنيع حبل بحقّ الله!؟ كيف يمكنك الاقتناع بالخطأ؟

لا، لم تعد هناك أيّ جودة، قرّر أوف. ثم وقف، ونظر في جميع أنحاء الغرفة والطابق الأرضي من منزله. وشعر بالنار تشتعل في خدّيه، غير أنه لم يكن متأكداً ممّا إذا كان ذلك بسبب الغضب أو الخجل.

نظر إلى النافذة والستائر، وكأنه قلق من أن يكون شخص ما قد رآه.

فكّر في سره في أنه لم يعد بإمكان المرء حتى أن يقتل نفسه بعد الآن. التقط الحبل المقطوع وألقاه في سلة النفايات في المطبخ، ثم طوى الأغطية النايلونية، ووضعها في أكياس. بعد ذلك، أعاد المثقاب وأدواته إلى عُلَبِها، ثم خرج وأعاد كلّ شيء إلى مخزن الأدوات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقف هناك لبضع دقائق وهو يتذكر كيف كانت صونيا تتذمر منه باستمرار طالبة منه أن يرتّب المكان. وقد رفض دائماً فعل ذلك؛ لأنه كان يعلم أنّ أيّ مساحة فارغة ستكون على الفور ذريعة للخروج وشراء المزيد من الأشياء عديمة الجدوى لملئها. والآن، فات الأوان على الترتيب والتنظيم؛ أكد لنفسه. الآن، لم يعد هناك أحد يريد الخروج وشراء أشياء عديمة الفائدة. الآن، يؤدّي الترتيب فقط إلى الكثير من المساحات الفارغة، وأوف يكره المساحات الفارغة.

ذهب إلى طاولة العمل، واختار مفتاح براغي قابلاً للتعديل، وعلبة مياه بلاستيكية صغيرة. حملهما ومشى إلى الخارج، ثم أقفل باب المخزن، وشدّ مقبض الباب ثلاث مرات. بعد ذلك، سار في الممر الصغير بين البيوت، وانعطف عند صندوق البريد الأخير ورنّ جرس باب. فتحت أنيتا الباب، فنظر أوف إليها من دون التفوه بكلمة واحدة. رأى رون جالساً هناك على كرسيه المتحرك، وهو يحدّق عبر النافذة كما لو أنه لا يرى شيئاً. يبدو أنّ هذا هو كلّ ما فعله خلال السنوات القليلة الماضية.

«إذاً، من أين اشتريتِ أجهزة التدفئة؟». تمتم أوف.

فابتسمت أنيتا ابتسامةً صغيرة متفاجئة، وأومأت بحرص وارتباك، وأجابت:

«آه يا أوف، هذا لطيف جدّاً من قبلك؛ إذا لم نكن نطلب الكثي...»

غير أن أوف خطا إلى الردهة من دون السماح لها بإنهاء ما تقوله، أو خلع حذائه.

«نعم، نعم، هذا اليوم المقرف قد دُمِّرَ على أيّ حال».

10

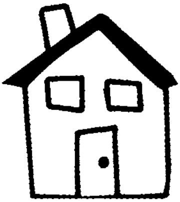

رجلٌ كان يُدعى أوڤ وبيت بناه أوڤ

بعد أسبوع من ذكرى ميلاده الثامنة عشرة، نجح أوڤ في اختبار القيادة، واستجاب لأحد الإعلانات، ومشى خمسة وعشرين كيلومتراً لشراء سيارته الخاصة الأولى: صاب زرقاء 93. وباع سيارة والده صاب 92 لدفع ثمنها. كانت أحدث من السيارة القديمة بشكل طفيف، باعتراف الجميع، إذ كانت صاب 93 متهالكة نوعاً ما، لكن الرجل لا يصبح رجلاً حقيقياً إلى أن يشتري سيارته بنفسه؛ هذا ما شعر به أوڤ، وهكذا كان.

كان الزمن زمن التغيير في البلاد. فقد انتقل الناس، ووجدوا وظائف جديدةً، واشتروا أجهزة تلفزيون، وبدأت الصحف تتحدّث عن «الطبقة الوسطى». لم يعرف أوڤ تماماً ما كان ذلك، ولكنه كان يدرك جيداً أنه لم يكن جزءاً منه. فقد انتقلت الطبقات الوسطى إلى المنشآت السكنيّة الجديدة ذات الجدران المستقيمة والحدائق المغطاة بالعشب الأخضر المشذّب بعناية، وسرعان ما أصبح واضحاً لأوڤ أن منزله الأبوي قد وقف عائقاً في طريق التقدّم. وإذا كان هناك أيّ شيء لا تفتتن به هذه الطبقة المتوسطة فهو كلّ ما يقف في طريق التقدّم.

تلقّى أوڤ عدّة رسائل من المجلس حول ما كان يسمّى «إعادة رسم الحدود البلدية». لم يفهم تماماً مضمون تلك الرسائل، ولكنّه فهم أن منزله لا يتناسب مع المنازل الجديدة التي بُنيَت في الشارع. وأبلغه المجلس أنه ينوي إجباره على بيع الأرض له كي يتمكّنوا من هدم المنزل وبناء واحدٍ آخر مكانه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم يعرف أوف تماماً ما الذي جعله يرفض؛ ربّما لأنه لم يحبّ الطريقة التي كتبت بها تلك الرسالة من المجلس.

أو لأن المنزل كان كلّ ما تبقّى له من عائلته.

مهما كان الأمر، في ذلك المساء أوقف سيّارته الأولى الخاصة به في الحديقة، وجلس على مقعد السائق لعدّة ساعات وهو يحدّق إلى المنزل. بصراحة، كان متصدعاً. إذ كان والده متخصّصاً باستعمال الآلات وليس بالبناء، ولم يكن أوف نفسه أفضل منه بكثير. وفي الأيام الأخيرة، استخدم فقط المطبخ والغرفة الصغيرة التي تؤدّي إلى خارجه، بينما كان الطابق الأوّل بأكمله يتحوّل ببطء إلى مكان ترفيهي للفئران. تأمّل المنزل من حيث يجلس في السيارة؛ وكأنّه يأمل أن يبدأ المنزل بإصلاح نفسه إذا انتظر بصبرٍ بما فيه الكفاية. يقع المنزل بالضبط على الحدود بين بلديتين البلدية؛ إلى جانب المشروع السكني الذي انتقل إليه الآن الناس الذين يرتدون البذلات مع أُسَرِهِم.

لم يحبّ أصحاب تلك البذلات الشاب الوحيد المقيم في ذاك المنزل المعرّض للهدم عند آخر الشارع. ولم يُسمح للأطفال باللعب حول منزل أوف؛ إذ فضّل آباؤهم العيش في محيط من البذلات الأُخرى المماثلة، وتمكّن أوف من فهم هذا. لم يكن لديه شيءٌ ضدّ ذلك بالطبع، ولكنّهم هم الذين انتقلوا إلى الحيّ الذي يسكن فيه، وليس العكس.

وهكذا، شاعراً بنوع من التحدّي الغريب الذي جعل قلبه يخفق أسرع بقليل للمرّة الأولى منذ سنوات، قرر أوف عدم بيع منزله إلى المجلس، وأن يفعل العكس؛ أي إصلاحه.

بالطبع، لم تكن لديه أيّ فكرة عن كيفية القيام بذلك. إذ لم يكن يعرف الفرق بين مفصلّة ووعاء البطاطا. وبعد أن أدرك أنّ ساعات عمله الجديدة جعلت لديه متسعاً من الوقت في النهار، ذهب إلى موقع بناء قريب، وقدّم طلباً للحصول على وظيفة.

فقد توقع أنّ هذا على الأرجح أفضل مكان لتعلّم المزيد عن البناء، وهو لم يكن بحاجة إلى الكثير من النوم على أيّ حال. ولكن الوظيفة الوحيدة التي كان

باستطاعتهم عرضها عليه كانت مُجهِدة؛ كما أخبره رئيس العمّال. وقَبِلَ أوف بذلك.

إذاً، أمضى لياليه وهو يلتقط القمامة على الخطّ المتّجه جنوباً إلى خارج المدينة، ثم بعد الحصول على ثلاث ساعات من النوم، استخدم الوقت المتبقّي للصعود والنزول على السقالات، والاستماع إلى الرجال الذين يعتمرون الخوذات الصلبة وهم يتحدّثون عن تقنيات البناء. كان أحدُ أيام الأسبوع يوم عطلة، وحينها جرّ أكياساً من الإسمنت وألواحاً خشبيةً ذهاباً وإياباً لمدّة ثمانية عشرة ساعة متواصلة، متصبّباً عرقاً ووحيداً، هادماً ومُعيدَ بناء الشيء الوحيد الذي كان والداه قد تركاه له؛ ما عدا الصاب وساعة اليد الخاصّة بوالده. نَمَت عضلات أوف، وكان سريع التَعَلُّم.

أُعجِبَ رئيسُ العمّال في موقع البناء بالشاب المُجتهد، وبعد ظهر يوم جمعة اصطحب أوف إلى كومةٍ من الألواح المرميّة، والأخشاب التي تصدّعت وكان من المقرّر حرقها وقال له:

«إذا حدث أن نظرْتُ في الاتّجاه الآخر وأخذْتَ شيئاً أنت بحاجة إليه فسأفترض أنك حرقته». ثم خرج.

وبمجرّد أن انتشرت الشائعات عن ترميمه منزله بين زملائه الأكبر سنّاً، سأله بعضهم أحياناً عن ذلك. وعندما هدم الجدار في غرفة المعيشة، علّمه زميلٌ نحيلٌ ذو أسنان أمامية متزعزعة بعض الأمور؛ بعد أن أمضى عشرين دقيقة وهو يقول له كم كان أحمق لعدم معرفته هذا منذ البداية. وعندما عمل على أرضية المطبخ، علّمه زميل آخر بُنيته أكثر ضخامة، وإصبعه الصغيرة مبتورة من إحدى يديه، كيف يأخذ القياسات الصحيحة؛ وذلك بعد أن نعته بالغبي عشرات المرّات.

بعد ظهر أحد الأيام، وبينما كان على وشك التوجّه إلى البيت في نهاية مناوبته، وجد أوف صندوقَ أدوات مليئاً بالأدوات المستعملة بجانب ملابسه. وأُرفقت معه ملاحظة كُتِبَ فيها ببساطة: «لِلجَرو».

ببطءٍ، اتّخذ المنزل شكلاً جديداً؛ بوضع مسمار تلو مسمار، ولوح أرضية تلو لوح أرضية. لم يَرَ أحدٌ ذلك بالطبع، ولكن لم تكن هناك حاجة كي يراه أحد. الوظيفة المتقنة مكافأة بحدّ ذاتها، كما كان والده يقول دائماً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بقـي بعيـداً عـن طريق جيرانه بقدر ما اسـتطاع. فقد كان يعلم أنهم لا يحبّونه، ولـم يَرَ سبباً لمنحهم المزيد من الذرائع لمحاربته. كان الاستثناء الوحيد رجلاً مسنّاً وزوجته عاشـا بجوار أوف. كان هذا الرجل هو الوحيد في شـارعهم كلّه الذي لا يضع ربطة عنق.

كان أوف يُطعِمُ الطيور كلّ يوم منذ وفاة والده. وفي صباح أحد الأيام، نسي أن يفعل ذلك. وعندما خرج في صباح اليوم التالي للتعويض عن تقصيره، كاد رأسه يصطدم برأس الرجل المسنّ عند السياج؛ تماماً تحت بيت الطيور. رَمَقَهُ جاره بنظرة إهانة، وكان يحمل بذور الطيور في يديه. لم يقولا أيّ شيء لبعضهما بعضاً، وأومأ أوف برأسه فقط، فأومأ له الرجل المسنّ أيضاً. بعد ذلك، عاد أوف إلى بيته، ومنذ ذلك الوقت حَرِصَ على الالتزام بأيامه الخاصة.

لـم يتحدثـا إلـى بعضهما قـط. لكن في صباح أحد الأيام، صعد الرجل الأكبر سـنّاً درجه الأمامي، وكان أوف يطلي سـياجه. وعندما انتهى من ذلك، طلى أيضاً الجانب الآخر من السـياج. لم يقل الرجل المسـن شـيئاً عن ذلك، ولكن عندما مرّ أوف أمـام نافـذة مطبخـه في المسـاء أومآ لبعضهما. وفي اليـوم التالي، كانت هناك فطيـرة تفـاح مخبـوزة ومنزلية الصنـع قد وُضعت على درج أوف الأمامي. لم يأكل أوف فطيرة تفاح مخبوزة في المنزل مطلقاً منذ وفاة والدته.

تلقّى أوف المزيد من الرسائل من المجلس، وأصبحت لهجتهم مهدِّدَة ومستاءة بشـكل متزايـد؛ لدرجـة أنـه لم يتّصل بهم بخصوص بيـع ممتلكاته. في النهاية، بدأ برمي الرسـائل بعيداً من دون فتحها. إذا أرادوا منزل والده فبإمكانهم أن يأتوا إلى هنـا ويحاولـوا أخـذه، بالطريقة نفسـها التي حاول فيها طوم أن يأخذ تلك المحفظة منه قبل كلّ تلك السنوات.

بعد بضعة أيام، مرّ أوف عبر منزل الجيران، ورأى الرجل المسـنّ وهو يُطعم الطيور وبرفقته صبيّ صغير. وتوقع أوف أنه حفيده. كان يشاهدهما خلسة من نافذة غرفـة نومـه. وكانـت الطريقة التي يتحدّث فيها الرجل المسـنّ إلى الصبي بأصوات منخفضة تجعلهما يبدوان وكأنهما يتشاركان سرّاً عظيماً، وقد ذكّرته بشيءٍ ما.

كانت تلك الليلة التي تناول فيها العشاء في سيارة الصاب.

وبعد بضعة أسابيع، دقّ أوف في المنزل المسمار الأخير. وعندما أشرقت الشمس في الأفق، وقف في الحديقة مُقحِماً يديه في جيبَي سرواله الأزرق، وراح يراقب عمله بفخر.

اكتشف أنه يحبّ المنازل؛ ربما لأن معظمها مفهومة. وهي لا تُسرِّب إذا كانت مصنوعة بإحكام، ولا تنهار إذا كانت مدعومة بشكل صحيح. المنازل عادلة، فهي تعطيك ما تستحقّه. وللأسف، كان هذا أكثر ممّا يستطيع المرء قوله عن الناس.

وهكذا، مرّت الأيام. كان أوف يذهب إلى العمل ثم يعود إلى المنزل، وكان يأكل النقانق والبطاطا. لم يشعر قطّ بالوحدة على الرغم من افتقاره إلى الرفقة. ثمّ في أحد أيام الآحاد، وبينما كان أوف ينقل بعض الألواح، أتى رجل بشوش ذو وجه مستدير وبذلة غير ملائمة إلى بابه. كان العرق يسيل على جبهته، وسأل أوف إذا كان يتوفّر لديه كوب من الماء البارد. لم يَرَ أوف أي سبب لحرمانه من الماء، وبينما كان الرجل يشرب عند بابه، تحدّثا قليلاً. أو بالأحرى، كان الرجل ذو الوجه المستدير هو من تكلّم، واتّضح أنه كان مهتمّاً جدّاً بالمنازل. وعلى ما يبدو، كان في خضمّ ترميم بيته في جزء آخر من المدينة. وبطريقة ما، تمكّن الرجل ذو الوجه المستدير من دعوة نفسه إلى مطبخ أوف لاحتساء فنجان من القهوة. من الواضح أن أوف لم يكن معتاداً على هذا النوع من السلوك اللجوج، ولكنه بعد محادثة استمرّت لمدّة ساعة حول بناء المنازل، صار مستعدّاً للاعتراف لنفسه أنّ الرفقة في المطبخ ليست كريهة جدّاً؛ من باب التغيير.

قبل أن يغادر الرجل، سأل أوف عن تأمين المنزل، فأجاب أوف بصراحة بأنه لم يفكّر في ذلك كثيراً. إذ لم يكن والده مهتمّاً جدّاً ببوالص التأمين.

عندها، سيطر الذعر على وجه الرجل البشوش، وأوضح لأوف أنها ستكون كارثة حقيقية له إذا حدث شيء ما للمنزل. وبعد الاستماع إلى نصائحه العديدة بعناية، شعر أوف وكأنه مجبر على الاتفاق معه. لم يكن قد فكّر كثيراً في هذا الموضوع حتى ذلك الحين؛ ممّا جعله الآن يشعر وكأنه غبيّ.

ثم سأل الرجل إن كان بإمكانه استخدام الهاتف؛ فقال أوف إنه لا بأس في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلـك. اتّضـح أنّ ضيفـه الممتنّ لحسـن ضيافـة غريب في يوم صيفيّ حار، قد وجد وسيلةً لردّ الجميل. وتبيّن أنه في الواقع يعمل لحساب شركة تأمين، وتمكّن بفضل بعض الوساطات من ترتيب تسعيرة ممتازة لأوف.

كان أوف متشـكّكاً في البداية، وسـأل مجدداً عن أوراق اعتماد الرجل الذي سُعِدَ بإعادة التأكيد عليها، ثم أمضى أوف وقتاً طويلاً وهو يفاوض على سعرٍ أفضل.

ضحك الرجل ذو الوجه المستدير قائلاً: «أنت رجل أعمال قويّ». شعر أوف بالفخـر بشـكل مفاجـئ عندمـا سـماعه هذا؛ رجل أعمال قوي. ثـم نظر الرجل إلى ساعته، وشكر أوف، وقال إنه من الأفضل أن يُكملَ طريقه. وقبل أن يغادر، أعطى أوف قطعةً من الورق عليها رقم هاتفه، وقال له إنه قد يحبّ كثيراً أن يأتي في يوم آخر ويشرب المزيد من القهوة ويتحدّثا أكثر عن تحديث المنازل. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يُعرب فيها أحدهم عن رغبته في أن يكون صديقاً لأوف.

دفع أوف للرجل ذي الوجه المستدير أقساط سنة كاملة نقداً، وتصافحا.

لم يتّصل به الرجل ذو الوجه المسـتدير مرّة أخرى. حاول أوف أن يتّصل به في إحدى المرّات، ولكنّ أحداً لم يُجِب. شعر بطعنة سريعة من خيبة الأمل، ولكنّه قرّر عدم التفكير في ذلك مرّة أُخرى. على الأقلّ، عندما اتّصل به موظّفو المبيعات من شـركات التأمين الأُخرى كان قادراً على القول من دون أيّ تأنيبٍ للضمير إن منزله مُؤمَّن بالفعل؛ وكان ذلك شيئاً مهمّاً.

استمر أوف بتجنّب جيرانه، إذ لم يرغب في حصول أيّ مشاكل معهم. ولكن للأسـف، بـدت المشـاكل وكأنهـا قـرّرت أن تسـعى هي وراء أوف بـدلاً من ذلك. فبعد أسـابيع قليلة من إنهائه التصليحات في بيته، سُـرِقَ أحد جيرانه الذين يرتدون البذلات. وكانت تلك ثاني عمليّة سرقة تحصل داخل المنطقة في فترة قصيرة نسبيّاً. عندها، اجتمع أصحاب البذلات معاً في وقت مبكر من صباح اليوم التالي للتداول بأمـر الوغـد الشـاب المُـدان سـابقاً، والمقيم في المنزل المجـاور، والذي كانت له علاقة بذلك حتماً حسب اعتقادهم. عرفوا جيّداً «من أين حصل على المال للقيام بكلّ ذلك التجديد». وفي إحدى الأمسيات، دسّ أحدهم ملاحظة تحت بابه كُتِبَ عليهـا: «انصـرف إذا كنـت تعـرف مصلحتك!». وفي الليلة التاليـة، أُلقِيَ حجرٌ على

نافذته. التقط أوف الحجر وغيّر زجاج النافذة. غير أنه لم يواجه أصحاب البذلات قط، إذ لم يَرَ فائدة من ذلك. ولكنّه ما كان لينتقلَ من بيته أيضاً.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، أيقظته رائحة دخان.

خرج من سريره في غضون لحظة. وكان أوّل ما خطر بباله هو أنّ أيّاً كان من رمى ذاك الحجر فهو لم يُنهِ عمله بعد على ما يبدو. وفي طريقه إلى أسفل الدرج، أمسك مطرقة من دون أن يدرك. ليس لأنه رجل عنيف، وإنما لأنه لا يمكنه أبداً أن يكون متأكداً ممّا سيواجهه.

وعندما خرج إلى الشرفة الأماميّة، لم يكن يرتدي سوى ملابسه الداخلية، وكان كلّ ذلك العمل الذي قام به في الأشهر الأخيرة بحملِ مواد البناء قد حوّله إلى شابٍّ لافت للأنظار وذي عضلات؛ من دون أن يلاحظ هو ذلك. لذا، أشاح بعض الأشخاص المحتشدين في الشارع للحظات بأنظارهم بعيداً عن النار، وعادوا بشكل فطري خطوة إلى الوراء حين رأوا القسم الأعلى من جسده العاري والمطرقة في يده.

وعندها، أدرك أوف أن الحريق لم يكن في منزله، وإنما في منزل جيرانه.

كان أصحاب البذلات يقفون في الشارع، محدقين مثل الغزلان إلى المصابيح الأمامية. بعد قليل، خرج الرجل المسنّ من وسط الدخان وزوجته متّكئة على ذراعه، وهي تسعل بشكل فظيع. وعندما سلّمها الرجل المسنّ إلى واحدة من زوجات أصحاب البذلات ثم عاد إلى منزله المحترق، صرخ له العديد من أصحاب البذلات طالبين منه العودة، وصائحين: «لقد فات الأوان! انتظر فرقة الإطفاء!». غير أن الرجل المسنّ لم يستمع إليهم. وسقطت مواد محترقة على العتبة فيما كان يحاول الدخول وسط بحرٍ من النار.

وقف أوف في وجه الرياح عند بوابة بيته، ورأى كيف أشعلت الكرات المتوهّجة والمتفرقة النار في الحشائش اليابسة بين منزله ومنزل جاره. قيّم الوضع لبضع ثوان بأفضل ما يمكن: ستنتشر النار في جميع أنحاء منزله خلال بضع دقائق إذا لم يهمّ بإحضار خرطوم الماء فوراً. رأى الرجل المسنّ وهو يحاول دفع خزانة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انقلبت فيما كان في طريقه إلى المنزل. صرخ أصحاب البذلات باسمه محاولين إيقافه، لكن زوجة الرجل المسنّ كانت تصرخ باسم آخر.

باسم حفيدهما.

وقف أوف مشاهداً النار وهي تشق طريقها عبر العشب. وبكل صدق، ربّما لم يكن يفكر كثيراً في ما يريد القيام به، بل بما كان والده سيفعله. وبمجرّد أن تجذّرت هذه الفكرة في ذهنه لم يكن هناك الكثير من الخيارات في ما يتعلق بهذا الموضوع.

تمتم بغضبٍ وهو ينظر إلى منزله لآخر مرّة، ويحسب لنفسه عدد الساعات التي استغرقها بناؤه، ثم ركض نحو النار.

كان البيت مليئاً بدخان كثيف. وكان الأمر أشبه بتلقّي ضربة على الوجه بالمجرفة. كافح الرجل المسنّ لنقل خزانة سقطت وسدّت الباب، فرماها أوف جانباً وكأنّها مصنوعة من الورق، وأخلى الطريق صعوداً نحو الدرج. وفي الوقت الذي خرجا فيه إلى ضوء الفجر، كان الرجل المسن يحمل الصبي بين ذراعيه المغطاتين بالسخام. وكانت هناك جروح طويلة ونازفة في جميع أنحاء صدر أوف وذراعيه.

ركض المارّة وهم يصرخون بهلع، وملأت صفّارات الإنذار المكان، وحاصرهم رجال الإطفاء ببزّاتهم.

رأى أوف ألسنة اللهب الأولى تتسلق بيته بينما كان لا يزال يرتدي ملابسه الداخلية فقط ورئتاه تؤلمانه. فقفز عبر الحديقة، إلاّ أنّ مجموعة من رجال الإطفاء أوقفته فوراً. فجأة، كانوا في كلّ مكان.

رفضوا أن يسمحوا له بالمرور.

ووقف رجل يرتدي قميصاً أبيض- والذي بدا لأوف كما لو أنه رئيس الإطفاء- وساقاه متباعدتان، وأوضح له أنّه لا يمكنه السماح له بمحاولة إخماد الحريق في بيته؛ فذلك خطير جداً. وللأسف، أوضح صاحب القميص الأبيض بعد ذلك أن فرقة الإطفاء لا تستطيع إخمادها قبل أن تحصل على الأُذونات المناسبة من السلطات.

واتّضح أن منزل أوف يقع الآن بالضبط على حدود البلدية، لذلك كان الإذن من مركز القيادة على راديو الموجات القصيرة ضرورياً قبل أن يتمكّنوا من البدء

بالعمل. كان ينبغي الحصول على إذن، ويجب أن تكون الأوراق مختومة.

«القوانين قوانين». أوضح الرجل الذي يرتدي القميص الأبيض بصوت رتيب عندما احتجّ أوف.

عندها، حرّر أوف نفسه، وركض بغضبٍ نحو خرطوم المياه. لكن ذلك كان بلا جدوى. فبحلول الوقت الذي حصل فيه رجال الإطفاء على إشارة واضحة، كانت النار قد اجتاحت المنزل.

وقف أوف في حديقة منزله، وشاهده بعجز وحزن بينما كان يحترق.

وعندما وقف لاحقاً بعد بضع ساعات في كشك الهاتف ليتّصل بشركة التأمين، علم أنهم لم يسمعوا من قبل بالرجل البشوش ذي الوجه المستدير. لم تكن هناك بوليصة تأمين سارية المفعول على المنزل. وتنهّدت المرأة من شركة التأمين موضحةً بفارغ الصبر أن النصّابين غالباً ما يذهبون من منزلٍ إلى آخر مدّعين أنهم من شركتهم، وأنها تأمل على الأقل أن لا يكون أوف قد أعطاه أيّ مبلغ نقدي.

أنهى أوف الاتّصال، وأحكم قبضته في جيبه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

11

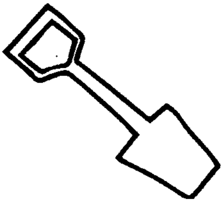

رجلٌ يُدعى أوڤ نحيفٌ، ولا يمكنه فتح نافذة من دون أن يقع عن السلّم

إنّها السادسة إلا ربعاً، وأوّل تساقط فعليّ للثلوج في السنة قد ألقى بثقله مثل بطانيـة بـاردة علـى المجتمع النائم في صفّ المنازل ذات السُـطَيحات. حمل أوڤ سـترته، وخرج في جولته التفقديّة اليومية. وبتفاجؤ واسـتياء متسـاويين، رأى الهرّ جالساً على الثلج خارج باب منزله. وبدا وكأنه كان يجلس هناك طوال الليل.

أغلق أوڤ الباب الأمامي بقوّة لإخافته وإبعاده. ولكنه على ما يبدو لا يملك الحسّ بالخوف. وبدلاً من ذلك، ظل جالساً هناك في الثلج وهو يلعق معدته؛ غير مبـالٍ تمامـاً. لـم يكـن أوڤ يحبّ هذا النوع من السـلوك عند الهررة. أما الهرّ فنظر إليه بسـرعة غير مهتمّ به بشـكل واضح، ثم عاود لعق جسـده. عندها، لوّح له أوڤ بذراعيه، غير أن الهرّ لم يتزحزح شبراً واحداً.

«هذه أملاك خاصة!». قال أوڤ.

وحيـن فشـل الهـرّ فـي منحـه أيّ نوعٍ من الاهتمام، فقـد أوڤ صبره، وبحركة كاسـحة، ركل فردة من قبقابه باتجاهه. بالعودة إلى الوراء، لا يمكنه أن يقسـم إنّ ذلك لـم يكن متعمّداً. وبالطبع، كانت زوجته ستغضب إن رأته.

لم يُحدِث ذلك فارقاً كبيراً على أيّ حال. إذ طارت فردة القبقاب بشكل قوس على نحوٍ سـلس، واجتازت متراً ونصف المتر إلى يسـار الهدف المقصود، قبل أن

تصطدم بهدوء بجانب المخزن وتهبط على الثلج. ولأوّل مرّة، نظر الهرّ إلى القبقاب غير مبالٍ، ثم إلى أوف.

وفي النهاية وقف، وتجوّل حول مخزن أوف ثم اختفى.

مشى أوف عبر الثلج لجلب فردة القبقاب وهو لابس جوربه. ونظر إليه نظرة ساخطة وكأنه يجب أن يخجل من نفسه لعدم إصابته الهدف. ثم سيطر على نفسه، ومضى في جولته التفقدية.

لا ينبغي السماح للمخربين بإطلاق العنان لأنفسهم لمجرّد أنّه سيموت اليوم.

عندما عاد إلى بيته، شق طريقه عبر الثلوج وفتح باب مخزن الأدوات، ففاحت رائحة زيت التربنتين والعفن من هناك؛ تماماً كما ينبغي أن تكون الرائحة في مكان كذلك. داس على إطارات الصاب الصيفية، وأبعد عن طريقه علبة المسامير التي لم يتمّ فرزها. حشر جسده خلف طاولة العمل، حريصاً على عدم إيقاع أوعية زيت التربنتين وفراشي الدهان الموجودة فيها. رفع جانباً كراسي الحديقة وآلة الشواء المستديرة، ووضع بعيداً مفتاح الربط، وانتزع مجرفة الثلوج. وزنها قليلاً في يده، بالطريقة التي قد يزن فيها المرء سيفاً بكلتا يديه، ووقف هناك بصمت، مدقّقاً النظر إليها.

وعندما خرج من المخزن حاملاً المجرفة، كان الهرّ يجلس على الثلج مرّة أخرى، أمام منزله بالضبط. نظر إليه أوف بذهول، مستغرباً من جرأته. وكانت هناك بقع صلعاء أكثر على جسده، ولديه أيضاً ندبة طويلة ممتدّة على طول إحدى عينيه، نزولاً عبر أنفه.

قال له أوف: «انصرف».

فحدّق إليه الهرّ بنظرة إدانة، وكأنّه يجلس إلى جانب المسؤول عن اتّخاذ القرار في المكتب أثناء مقابلة توظيف للحصول على عمل.

حمل أوف المجرفة، وغرف بعض الثلوج وألقاها على الهرّ الذي قفز مبتعداً عن الطريق وهو ينظر إليه بسخط، ثم بصق القليل من الثلوج وهو يطلق أصواتاً تدلّ على تذمّره، وبعد ذلك استدار وتجوّل حول مخزن أوف مجدداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

باشـر أوف العمـل بمجرفـة الثلـج، واحتـاج إلى خمس عشـرة دقيقة لتنظيف المسـافة بيـن البيـت والمخـزن. عمـل بعناية، وبخطوط مسـتقيمة، حتى وصل إلى الحوافّ. لم يعد الناس يجرفون الثلج بهذه الطريقة. ففي هذه الأيام، إنهم يخلون ممرّاً في الوسط فقط، ويستخدمون للقيام بذلك منفاخ الثلوج وجميع أنواع الآلات الأُخـرى. أيُّ طريقـة سـتفي بالغـرض؛ وكأن هذا هو الشـيء الوحيـد الذي يهمّ في الحياة، أي شَقُّ الطريق إلى الأمام.

عندمـا أنهـى العمـل، مالَ للحظة على المجرفة بين الثلوج في الممرّ الصغير، ووازنَ ثقلَ جسمه عليها، وشاهد الشمس وهي تشرق فوق البيوت النائمة. لقد كان مستيقظاً معظم الوقت ليلاً وهو يفكّر في سبلٍ للموت. حتّى إنّه رسم بعض الرسوم البيانيـة والمخطّطـات لتوضيـح الطرائق المختلفة؛ بعـد أن درسَ بعناية الإيجابيّات والسـلبيّات. تقبّـل أنّ مـا سـيفعله اليـوم يجـب أن يكـون الأفضـل من بيـن البدائل السيئة، واعترف أنّه لا يحبّ حقيقة أنّ سـيارة الصاب سـتُترَكُ بعد ذلك في الحياد، وستستهلك الكثير من الوقود المُكلِف من دون سببٍ وجيه؛ ولكن هذا مجرّد أمر سيتوجّب عليه القبولُ به من أجل القيام بذلك.

أعـاد مجرفـة الثلـج إلى المخزن، ثـم ذهب إلى المنزل، وارتدى بذلته الزرقاء مـرّة أخـرى. سـتصبح ملطّخـة وكريهة الرائحة بعد انتهـاء كلّ هذا، ولكنّ أوف قرّر أنّه على زوجته أن تتقبل ذلك.

تنـاول فطـوره وهـو يسـتمع إلى الراديو، وغسـل الأسـطح صعوداً ومسـحها هبوطـاً. ثـمّ قـام بجولـة في المنزل ليتحقّق من أجهـزة التدفئة. أطفأ كلّ المصابيح، وتحقّق من أن مرشحة القهوة مفصولة، ثم لبس السترة الكُحليّة فوق البذلة، وانتعل القبقـاب، ورجـع إلـى المخزن، وغـادره وهو يحمل أنبوباً بلاسـتيكياً طويلاً. أقفل المخـزن والبـاب الأمامـيّ، وشـدّ مقبض البـاب ثلاث مرات، ثم ذهـب إلى الممرّ الصغير بين البيوت.

فجأة، أتت السـكودا البيضاء من اليسـار مُباغتةً بشـكلٍ مفاجئ؛ لدرجة أنه كاد يقع على الثلوج المنجرفة عند المخزن. عندها، ركض أوف إلى أسـفل الممرّ في نوعٍ من الملاحقة وهو يهزّ قبضته ويصرخ:

«ألا تعرف أن تقرأ أيها الأبله اللعين!».

ويبدو أنّ السائق– وهو رجل نحيف يحمل سيجارة في يده– قد سمعه. وعندما استدارت السكودا قبالة مرأب الدراجات، التقت عيونهما عبر النافذة الجانبية، ونظر الرجل إلى أوف مباشرة وأنزل زجاج نافذته، ورفع حاجبيه غير مهتمّ.

فكرّر أوف مشيراً إلى اللافتة حيث كُتبت الجملة ذاتها: «السيارات ممنوعة!». ومشى نحو السكودا وقبضتاه مشدودتان.

ألقى الرجل ذراعه اليسرى على حافة النافذة، ورمى رماد سيجارته ببطء، وعيناه الزرقاوان غير متأثرتين أبداً. نظر إلى أوف كما ينظر المرء إلى حيوان وراء السياج؛ نظرة خالية من العدوانية، وغير مبالية تماماً. كما لو أن أوف شيء قد يمحوه الرجل بقطعة قماش مبلّلة.

«اقرأ اللافـ...» كان أوف قد بدأ كلامه بقسوة وهو يقترب، ولكن الرجل رفع زجاج نافذته.

صرخ أوف مخاطباً سائق السكودا، لكن الرجل تجاهله. حتى إنه لم ينطلق بعيداً وبسرعة، بل ذهب ببساطةٍ وببطءٍ باتّجاه المرأب، ثمّ تقدّم إلى الأمام نحو الطريق الرئيس.

وقف أوف متسمراً في مكانه منفعلاً؛ لدرجة أن قبضته راحت ترتجف. وعندما اختفت السكودا، التفت ومشى بين البيوت مُسرعاً خطاه؛ حتى كاد يتعثّر. لقد رُميَت أعقاب سجائر على الأرض، خارج منزل رون وأنيتا، حيث كانت بوضوح السكودا البيضاء مركونة. التقطها أوف وكأنّها أدلّة في قضية جنائية مهمّة.

«مرحباً أوف». سمع أنيتا تقول من ورائه بحذر.

التفت نحوها، فرآها واقفة على العتبة، وقد التفّت بسُترة صوفيّة رمادية.

«نعم، نعم. مرحباً». أجاب أوف.

«كان من المجلس». قالت مشيرة في الاتجاه الذي ذهبت فيه السكودا.

فقال لها أوف: «السيارات ممنوعة في هذه المنطقة».

عندها، أومأت بحذرٍ مجدداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«قال إنّ لديه إذناً خاصاً من المجلس بالقيادة حتّى المنزل».

«ليس لديه أي إذن لعين...» بدأ أوف بالكلام، ثم صمت وأطبق فكّيه لمنع نفسه من التفوّه بالكلمات.

ارتجفت شفتا أنيتا وهي تقول: «يريدون أخذ رون بعيداً عني».

فأومأ أوف من دون الردّ عليها. كان لا يزال يمسك الأنبوب في يده، وقد أقحم قبضة يده الأُخرى في جيبه. للحظة، راح يفكّر في قول شيءٍ ما، ولكنه بعد ذلك نظر إلى الأسفل، ثم غادر. كان قد اجتاز عدّة أمتار عندما أدرك أنّ أعقاب السجائر في جيبه. ولكن بحلول ذلك الوقت، كان قد فات الأوان لفعل أيّ شيء حيال ذلك.

كانت العشبة الشقراء تقف في الشارع، فيما بدأ المغفّل بالنباح بشكلٍ هستيريّ بمجرّد أنّه لمح أوف. كان باب المنزل مفتوحاً وراءهما، فافترض أوف أنهما يقفان هناك بانتظار ذاك المعروف باسم آندرز. كان الكلب المغفل يحمل شيئاً مغطى بما يشبه الفراء في فمه، وابتسمت صاحبته بارتياح. حدّق أوف إلى وجهها وهو يمرّ، ولكنّها لم تشح بنظرها، وأصبحت ابتسامتها أعرض، وكأنّها تبتسم على حساب أوف.

وبينما كان يمرّ بين منزله ومنزل النحيف والمرأة الحامل، رأى النحيف واقفاً في المدخل.

وقال له بغباء: «مرحباً، أوف!».

رأى أوف سُلَّمَهُ مُسنداً إلى منزل النحيف الذي راح يلوّح بابتهاج. يبدو أنه استيقظ في وقت مبكر اليوم، أو على الأقلّ في وقت مبكر بالنسبة إلى مستشاري تكنولوجيا المعلومات. انتبه أوف إلى أنه يحمل سكّين طعام فضية وحادّة في إحدى يديه، فأدرك أنّه ينوي على الأرجح استخدامها لتصليح نافذة الطابق العلوي العالقة. دُفِعَ سُلَّمُ أوف الذي يكاد النحيف يصعد عليه إلى الزاوية مع انجراف الثلج الكثيف.

«أتمنّى لك يوماً جيّداً!».

«نعم، نعم». أجاب أوف من دون أن يلتفت إليه وهو يمرّ قربه.

وقف المغفل خارج منزل ذاك المدعو آندرز وهو ينبح بشراسة. ومن زاوية

عينه، رأى أوف العشبة لا تزال واقفة هناك وهي توجّه له ابتسامة حارقة. إنها ترغب في إزعاجه، وهو لا يعرف تماماً سبباً لذلك، ولكنه شعر بالاضطراب.

وبينما كان يمشي بين البيوت، مروراً بمرأب الدراجات ومنطقة وقوف السيارات، اعترف لنفسه على مضض أنه يتجوّل بحثاً عن الهرّ، ولكن يبدو وكأنه لا يستطيع العثور عليه في أي مكان.

فتح باب مرأبه، وفتح باب الصاب، ثم وقف هناك ويداه في جيبيه لأكثر من نصف ساعة. لم يكن يعرف تماماً سبب فعله ذلك، ولكنه شعر فقط أن ما ينوي القيام به يتطلّب نوعاً من الصمت قبل البدء به.

فكّر في ما إذا كان طلاء الصاب سيصبح قذراً بشكلٍ رهيب نتيجة لذلك، وافترض أنه سيكون كذلك. كان يُدركُ أنّه أمرٌ مؤسف ومعيب، ولكن لا يمكنه فعل الكثير حيال ذلك. ركل الإطارات بضع ركلات للتقييم. إنها في حالة جيّدة، حقّاً هي كذلك. وهي صالحة لثلاثة فصول شتاء أُخرى على الأقل، كما قدّر استناداً الى ركلته الأخيرة. سرعان ما ذكّره ذلك بالرسالة في جيب سترته الداخلي، لذا سحبها للتحقّق ممّا إذا كان قد تذكّر أن يترك تعليمات حول الإطارات الصيفية. نعم، لقد تذكّر. فقد كتب الملاحظة هنا تحت عنوان «صاب + لوازم». «الإطارات الصيفية في المخزن»، وأرفق ذلك بتعليمات واضحة، كي يتمكّن أي كان حتى المعتوه الحقيقي من معرفة المكان الذي سيجد فيه البراغي في الصندوق. أعاد أوف الرسالة إلى المغلّف، ووضعه في الجيب الداخلي لسترته.

نظر من فوق كتفه إلى منطقة وقوف السيارات؛ ليس لأنه منزعج من ذلك الهرّ اللعين، كما هو واضح. بل لأنه يأمل فقط أن لا يكون مكروه قد أصابه؛ فهذا كان سيغضب زوجته بجنون لو كانت لا تزال على قيد الحياة. إنه متأكّد من ذلك تماماً. هذا كلّ ما في الأمر.

تمكن من سماع صفّارات سيارة إسعاف تقترب من بعيد، ولكنّه بالكاد لاحظ ذلك. جلس على مقعد السائق، وشغّل المحرّك، ثم فتح زجاج النافذة الخلفي حوالي خمسة سنتيمترات، وخرج من السيارة. بعد ذلك، أغلق باب المرأب، وثبّت الأنبوب البلاستيكي بإحكام على أنبوب العادم. شاهد بخار العادم وهو يُصدر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ببطءٍ فقاعات من الطرف الآخر للصمّام، ثم غذّى الصمّام من خلال النافذة الخلفية المفتوحة، وبعد ذلك صعد إلى السيارة وأغلق الباب، وعدّل مرآتَي الرؤية الجانبية، ثم ضبط موجة الراديو، ومال إلى الوراء على المقعد، وأغمض عينيه. شعر بدخان العادم الكثيف وهو يملأ المرأب ورئتيه سنتيمتراً مكعّباً تلو الآخر.

لم يكن من المفترض أن يكون الأمر هكذا. فأنت تعمل، وتسدّد الرهن العقاري، وتدفع الضرائب، وتفعل ما يتوجّب عليك فعله، وتتزوج؛ في السرّاء والضرّاء، حتى يفرّقك الموت عن زوجتك. ألم يكن ذلك ما اتّفقا عليه؟ تذكّر أوف بوضوح تامّ أنه كان كذلك. ليتها لم تمت أولاً.

سمع أوف ضجيجاً خَلفَ باب المرأب، ولكنه تجاهل ذلك، ثم عدّل طيّات سرواله، ونظر إلى نفسه في مرآة الرؤية الخلفية، وتساءل عمّا إذا كان يجب عليه أن يضع ربطة عنق؛ فقد كانت تحب دائماً أن يضع ربطة عنق. كانت تنظر إليه وكأنه الرجل الأكثر وسامة في العالم. تساءل عن الطريقة التي ستنظر بها الآن إليه لو كانت لا تزال على قيد الحياة، وعمّا إذا كانت ستخجل منه لأنه عاطل عن العمل ويرتدي بذلة قذرة. هل كانت ستعتقد أنه أحمق ولا يستطيع حتى الاحتفاظ بوظيفة نزيهة من دون أن يتخلّصوا منه؛ فقط لأنه تبيّن أن معلوماته تحتاج إلى معرفة في الحساب على الكمبيوتر. هل كانت ستنظر إليه بالطريقة نفسها التي كانت تنظر بها إليه سابقاً، مثل نظرتها إلى رجل يمكن الاعتماد عليه؟ رجل يستطيع تحمّل المسؤولية وإصلاح سخّان الماء إذا لزم الأمر؟ هل ستحبّه كثيراً وهو الآن مجرّد شخص عجوز من دون أيّ هدف في العالم؟

كان هناك ضجيج محموم أكثر قرب باب المرأب، فحدّق أوف بحدّة إلى الباب. الضجيج يتزايد. فكّر أوف في سره أنّ ذلك يكفي.

«هذا سيفي بالغرض!». صرخ وفتح باب الصاب فجأة، فانفكّ الأنبوب البلاستيكي الذي كان قد ثبته وسقط على الأرضية الإسمنتية، وخرج دخان العادم وانتشر في كلّ الاتجاهات.

على الأرجح، تعلّمت المرأة الحامل الأجنبية الآن عدم الوقوف على مقربة من الأبواب عندما يكون أوف في الجانب الآخر. لكنها هذه المرّة لم تتمكن من

تجنّب اصطدام باب المرأب بوجهها مباشرة عندما فتحه أوف بعنف.

رآها أوف وتجمّد في مكانه، فقد أمسكت أنفها وهي تنظر إليه بتعبير خاصّ بشخص اصطدم باب المرأب بأنفه للتو، فيما خرج دخان العادم من المرأب على شكل سحابةٍ كثيفة غطّت نصف منطقة وقوف السيارات بضباب سميك ومؤذٍ.

«أنا... عليك أن تنت... عليك أن تنتبهي عندما يُفتَح الباب...» تمكّن أوف من القول.

«ماذا تفعل؟». تمكّنت المرأة الحامل من الردّ عليه بينما راحت تراقب الصاب ومحرّكها يهدُرُ ببطءٍ، بينما ينفث العادم الدخان من الأنبوب البلاستيكي على الأرض.

«أنا؟! لا شيء». قال أوف ساخطاً، وكأنه يفضّل إغلاق باب المرأب مرّة أخرى.

تشكّلت قطرات حمراء سميكة راحت تسيل من فتحتَي أنفها. فغطّت وجهها بيدٍ واحدة، ولوّحت له بالأخرى.

«أحتاج إلى أن توصلني إلى المستشفى». قالت له وهي تميل رأسها.

فبدا أوف متشكّكاً: «ماذا بحقّ الله؟! تماسكي واستجمعي قوّتك. إنه مجرّد نزيف من الأنف».

غير أنها شتمت بلغةٍ افترض أوف أنها فارسيّة، وضغطت على جسر أنفها بقوة بإصبعيها، ثم هزّت رأسها بفارغ الصبر فسال الدم على سترتها.

«ليس بسبب نزيف الأنف!».

وقف أوف في حيرةٍ من أمره، ووضع يديه في جيبيه.

«لا، لا. حسناً. لماذا إذاً؟».

فتأوّهت متنهّدة.

«سقط پاتريك عن السُلَّم».

أمالت رأسها إلى الوراء، فوقف أوف هناك متحدثاً إلى الجانب السفلي من ذقنها.

«من هو پاتريك؟». سأل أوف الذقن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«زوجي». أجاب الذقن.
«النحيف؟». سأل أوف.
«نعم، هذا هو». قال الذقن.
«هل سقط عن السلّم؟». استفسر أوف.
«نعم. عندما كان يفتح النافذة».
«صحيح. يا للمفاجأة اللعينة! كان من الممكن توقع ذلك...»
عندها، اختفى الذقن، وظهرت العينان البنيتان الكبيرتان مجدداً.
لم تبدُوَا مسرورتين تماماً.
«هل سنُجري نقاشاً حول هذا أم ماذا؟».
حكّ أوف رأسه منزعجاً قليلاً وقال:
«لا، لا... لكن، ألا يمكنك أن تقودي سيارتك بنفسك؟ أعني، آلة الخياطة اليابانية الصغيرة تلك التي وصلتم بها إلى هنا في ذلك اليوم؟». حاول الاحتجاج.
«لا أملك رخصة قيادة». أجابت وهي تمسح الدم عن شفتها.
«ماذا تقصدين بقولك إنك لا تملكين رخصة قيادة؟». سألها أوف، وكأن كلماتها غير مفهومة بالنسبة إليه.
فتنهّدت مجدداً وقد نفد صبرها.
«اسمع، ليست لديّ رخصة قيادة وهذا كلّ شيء. ما المشكلة؟».
«كم تبلغين من العمر؟». سألها أوف وهو شبه متفاجئ الآن.
«ثلاثين عاماً».
«بلغت الثلاثين ولا رخصة قيادة لديك!؟ هل تعانين من مشكلة ما؟».
تنهّدت وهي تمسك أنفها بإحدى يديها، وتقف بانزعاج أمام أوف.
«ركّز قليلاً يا أوف! المستشفى! عليك أن تأخذنا إلى المستشفى!».
بدا أوف وكأنّه يشعر بالإهانة.
«ماذا تقصدين بقولك تأخذنا؟ عليك طلب سيارة إسعاف إذا كان الشخص الذي تزوجّت منه لا يمكنه فتح نافذة من دون السقوط عن السلّم...»
«لقد سبق لي أن فعلت ذلك! لقد أخذوه إلى المستشفى. لكن، لم يكن هناك

مكان لي في سيارة الإسعاف. والآن بسبب الثلوج، كل سيارات الأجرة في المدينة محجوزة، والحافلات عالقة في كل مكان!».

نزلت نقاط متفرّقة من الدم على أحَدِ خدّيها. أطبق أوف فكّيه بقوّة حتى سُمِعَ صرير أسنانه.

«لا يمكنك أن تثقي بالحافلات اللعينة، فالسائقون غير واعين دائماً». قال بهدوء، وقد أحنى ذقنه إلى الأمام بطريقة قد تجعل شخصاً ما يعتقد أنه كان يحاول إخفاء كلماته خلف قميصه.

ربما انتبهت كيف تغير مزاجه عندما ذكرت كلمة «حافلة»، وربما لا. على أيّ حال، راحت تومئ وكأن ذلك، بطريقةٍ ما، يَحسمُ الأمر.

«حسناً، إذاً يجب أن توصلنا».

حاول أوف بشجاعة أن يُشير إلى وجهها مهدّداً. ولكنه شعر أن ذلك ليس مُقنِعاً كما كان يأمل.

وتمكّن من القول أخيراً: «لا يوجد أيّ يجب أن هنا، فأنا لست صاحب خدمات تنقّل لعينة!».

لكنها راحت تشدّ بإصبعيها أكثر على جسر أنفها وهي تومئ، وكأنها لم تسمع بأيّ شكل من الأشكال ما قاله. ثم لوّحت باستياء نحو المرأب والأنبوب البلاستيكي على الأرض الذي ينفث دخان العادم بكثافة أكثر نحو السقف.

«لا أملك الوقت للنقاش حول هذا الموضوع أكثر من ذلك. جهّز نفسك كي نتمكّن من الذهاب. سأذهب لأُحضر الطفلتين».

«ستحضرين الطفلتين!؟». صرخ أوف من دون الحصول على أيّ نوع من الجواب.

إذ كانت قد انطلقت على تينك القدمين اللتين تبدوان صغيرتين جدّاً مقارنة مع بطنها الكبير، واختفت عند زاوية مرأب الدراجات ونزولاً باتّجاه المنازل.

بقي أوف في مكانه، وكأنه بانتظار شخص ما ليلحق بها ويقول لها إنه لم يُنهِ الحديث. ولكن، لم يفعل أحدٌ ذلك. أقحم كفيه تحت حزامه، وألقى نظرةً على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأنبوب على الأرض. في الواقع، إنها ليست مسؤوليته إذا لم يتمكّن الناس من البقاء ثابتين على سلالمٍ يقترضونها منه؛ هذا رأيه الخاص.

لكنه بالطبع لا يمكنه تجنّب التفكير في ما قد تطلب منه زوجته فعله في ظلّ هذه الظروف؛ لو كانت هنا. وبالطبع، ليس من الصعب جدّاً حلّ هذه المسألة، أدرك أوف ذلك وهو حزين بما فيه الكفاية.

وبعد طول انتظار، مشى إلى السيارة، وانتشل الأنبوب البلاستيكي من أنبوب العادم بواسطة حذائه، ثم صعد إلى الصاب. تحقّق من مراياه، ووضع التروس على السرعة الأولى وعاد إلى الوراء، إلى منطقة وقوف السيارات. ليس لأنه يهتم بشكل خاص بكيفية وصول المرأة الأجنبية الحامل إلى المستشفى، ولكن لأنه يعرف جيداً أن زوجته ما كانت لتتوقّف عن إزعاجه- لو كانت على قيد الحياة- إذا عرفت أنه تسبّب بنزيفٍ في الأنف لامرأة حامل ثم تركها تستقلّ الحافلة.

وبما أن الوقود سيُستهلك على أيّ حال، فقد يوصلها إلى هناك ويعود. «ربما بعد ذلك ستتركني هذه المرأة بسلام». تمتم أوف.

لكنها بالطبع لن تفعل ذلك.

12

رجلٌ كان يُدعى أوف
وفي يومٍ من الأيام طفح كيله

لطالما قال الناس إن أوف وزوجته كانا مثل الليل والنهار. وبالطبع، أدرك أوف جيّداً أنه كان الليل. غير أن ذلك لم يكن مهمّاً بالنسبة إليه. ومن ناحية أُخرى، لطالما كان ذلك مسلياً بالنسبة إلى زوجته؛ أي عندما كانت تسمع أحدهم وهو يقول هذا، -لأنّه كان بإمكانها أن تشير وهي تضحك إلى أن الناس فكّروا في أن أوف هو الليل فقط لأنه لئيم جدّاً، ممّا يعني أنه لا يمكنه أن يكون الشمس.

لم يفهم قط سبب اختيارها له. فقد كانت تحب فقط الأشياء المجرّدة؛ مثل الموسيقى والكتب والكلمات الغريبة. وكان أوف رجلاً مليئاً تماماً بالأشياء الملموسة. كان يحبّ المفكّات وفلاتر الزيت. ومضى في الحياة ويداه مقحمتان بقوّة في جيبيه. أمّا هي فَرَقَصَت.

وقد قالت له مرّة عندما سألها عن كيفية قدرتها على أن تكون متفائلة جدّاً طوال الوقت: «تحتاج إلى شعاع واحد من الضوء فقط لمطاردة الظلال بعيداً».

وحسبما يبدو، كتب رجل دين يُدعى فرانسيس عن ذلك في واحدٍ من كُتُبها.

«أنت لا تخدعني حبيبي». قالت بابتسامة صغيرة لعوب، وتسلّلت إلى ذراعيه الطويلتين وتابعت: «أنت ترقص من الداخل أوف؛ عندما لا يشاهدك أحد. وأنا سوف أحبّك دائماً لذلك. سواء أحببت هذا أم لا».

لم يفهم أوف تماماً ما كانت تقصده بذلك؛ فهو لم يكن قط من محبّي الرقص، ويعتبره سلوكاً طائشاً. إذ كان يحبّ الخطوط المستقيمة والقرارات الواضحة، ولهذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

السبب كان دائماً يحبّ الرياضيات. كانت هناك إجابات إمّا صحيحة أو خاطئة. وليس مثل المواضيع الأُخرى التي حاولوا خداعك بها في المدرسة، حيث يمكنك «أن تجادل». أراد أوف لما كان صحيحاً أن يكون صحيحاً، وما كان خاطئاً أن يكون خاطئاً.

وعرف جيداً أن بعض الناس اعتقدوا أنه لم يكن سوى أبله عجوز حاقد، من دون أيّ إيمان بالناس. ولكن، بصراحة، حصل ذلك لأن أحداً لم يعطِهِ سبباً ليرى ذلك بطريقة أُخرى.

فهناك وقت في حياة، يجب فيه على كلّ رجل أن يقرّر أيَّ نوع من الرجال سيكون: من النوع الذي يتيح للأشخاص الآخرين أن يستغلّوه، أو لا.

نام أوف في سيارة الصاب في الليالي التي تَلَت الحريق. في أوّل صباح، حاول التنظيف بين الرماد والدمار. وفي صباح اليوم الثاني، اضطرّ إلى أن يتقبّل أنّ المشكلة لن تحلّ من تلقاء نفسها. لقد ضاع المنزل، وضاع معه كلُّ العَمَلِ الذي قام به.

وفي صباح اليوم الثالث، جاء رجلان يرتديان القميص الأبيض نفسه مثل رئيس رجال الإطفاء. وقفا إلى جانب بوابة بيته، غير متأثرين على ما يبدو مطلقاً بالخراب أمامهما. لم يقدّما نفسيهما بالاسم، ولم يذكرا سوى اسم السلطة التي يمثلانها، وكأنهما روبوتان أرسلتهما السفينة الأم.

«كنّا نبعث لك رسائل». قال أحدهما حاملاً كومة من الوثائق لأوف.

«العديد من الرسائل». قال الآخر وكتب ملاحظة على لوحة.

«لم تجب مطلقاً». قال الأوّل، وكأنه يُؤنّب كلباً.

وقف أوف هناك متحدّياً.

وقال الآخر وهو يومئ باقتضاب إلى ما كان منزل أوف: «هذا مشؤوم جداً».

فأومأ أوف.

«قال رجال الإطفاء إن السبب كان تماساً كهربائياً غير مؤذٍ». تابع أوّل قميص أبيض آليّ، مشيراً إلى ورقة في يده.

فشعر أوف بالرغبة في الاعتراض على أسلوبه في استخدام عبارة «غير مؤذ».

«لقد بعثنا لك الكثير من الرسائل». كرّر الرجل الثاني ملوّحاً بلوحته.

«تجري إعادة رسم حدود البلدية».

«سيتمّ تقسيم الأرض حيث يقع منزلك إلى عدد من المنشآت الجديدة».

«الأرض حيث كان منزلك يقع». صحّح له شريكه.

«المجلس مستعد لشراء أرضك بسعر السوق». قال الرجل الأوّل.

«حسناً... بسعر السّوق الآن لأنّه لم يعد هناك أيّ منزل على الأرض». أوضح الآخر.

أخذ أوف الأوراق، وبدأ بالقراءة.

«ليست لديك خيارات كثيرة». قال الأوّل.

«هذا ليس خيارك بقدر ما هو خيار المجلس». قال الآخر.

نقر الرجل الأوّل بقلمه على الأوراق بفارغ الصبر، مشيراً إلى خطٍّ في الأسفل حيث كُتِبَ «التوقيع».

وقف أوف عند بوابة بيته، وقرأ الوثيقة بصمت. شعر بألم في صدره، واستغرق منه الأمر وقتاً طويلاً قبل أن يفهم السبب.

الكُره.

لقد كَرِهَ هذين الرجلين المرتديين قميصين أبيضين. لم يستطع تذكّر أنه كَرِهَ أيّ شخص من قبل، ولكن الأمر الآن بدا مثل كرةٍ نارية في داخله. لقد اشترى والدا أوف هذا البيت، وكبر أوف هنا، وتعلّم المشي. وهنا علّمه والده كلّ شيء يجب أن يعرفه عن محرّك سيارة صاب. وبعد كل ذلك، قرّر شخصٌ ما في السلطة البلدية أن شيئاً آخر يجب أن يُبنى هنا، فيما باعه رجل ذو وجه مستدير تأميناً لم يكن تأميناً، ومنعه رجلٌ يرتدي قميصاً أبيض من إطفاء الحريق. والآن، هناك رجلان آخران يرتديان قميصين أبيضين يقفان ويتحدّثان عن «سعر السوق».

لكن أوف لا يملك حالياً أي خيار حقاً. كان بإمكانه أن يظل واقفاً هناك حتى تشرق الشمس كلّيّاً، لكنه لن يتمكّن من تغيير الوضع.

لذلك وقّع وثيقتهما، مبقياً قبضة يده مشدودة في جيبه.

* * *

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غادر قطعة الأرض حيث كان منزله الأبوي مرّة، ولكنه لم يعد كذلك، واستأجر غرفة صغيرة في المدينة لدى سيّدة مسنّة، وجلس محدقاً بأسف إلى الجدار طوال اليوم. في المساء، ذهب إلى العمل، ونظّف مقصورات القطار. وفي الصباح، طُلِب منه ومن العمّال الآخرين عدم الذهاب إلى غرف تغيير الملابس كالمعتاد، إذ كان عليهم أن يتوجّهوا إلى المكتب الرئيس لاستلام مجموعة جديدة من ملابس العمل.

وبينما كان أوف يسير في الممرّ التقى طوم. كانت هذه هي المرّة الأُولى التي يلتقيان فيها منذ أن اتَّهَمَ أوف بالسرقة من المقصورة. كان أي رجل أكثر عقلانية من طوم سيتجنّب ربّما التقاء نظراتهما، أو سيحاول التظاهر بأن الحادث لم يحصل قط. لكن طوم لم يكن رجلاً من النوع الأكثر عقلانية.

لذا، هتف بابتسامة قتالية: «حسناً، إنّه اللص الصغير!».

لم يُجِب أوف، وحاول المرور، لكنّ أحد الزملاء الأصغر سناً الذين أحاط طوم نفسه بهم ضربه بكوعه بقسوة، فرفع أوف نظره. كان الزميل الأصغر سناً يبتسم له بازدراء.

وصرخ طوم بصوتٍ عالٍ فتردّد صدى صوته في الممرّات: «أمسكوا محافظكم جيداً، فاللص هنا!».

وبِيَدٍ واحدة، حمل أوف كومة الملابس في ذراعه، ولكنه شدّ قبضته في جيبه. ذهب إلى غرفة فارغة لتبديل الملابس، وخلع ملابس العمل القديمة القذرة، وفكّ ساعة يد والده المعوجّة ووضعها على المقعد. وعندما استدار للذهاب إلى الحمام، كان طوم واقفاً في المدخل.

«سمعنا عن الحريق». عندها، فهم أوف أن طوم كان يأمل منه أن يُجيب.

«كان يجب أن يكون أبوك ذاك فخوراً بك، ولكنك كنت عديم الفائدة بما يكفي لحرق منزله اللعين!». صرخ طوم مخاطباً إياه بينما كان في طريقه إلى الحمام.

سمع أوف زملاءه الأصغر سنّاً كلّهم وهم يضحكون معاً، ولكنه أغمض عينيه، وأسند جبهته على الجدار، وترك الماء الساخن يتدفّق عليه. وقف هناك لأكثر من عشرين دقيقة. إنه أطول حمّام له على الإطلاق.

وعندما خرج، كانت ساعة والده قد اختفت. فتّش أوف بين الملابس على المقعد، وعلى الأرض، وبحث في جميع الخزائن؛ ولكن من دون جدوى.

يأتي وقتٌ في حياة كلّ رجل يقرّر فيه أيّ نوع من الرجال سيكون. سواء أكان من النوع الذي يدع الآخرين يدوسونه، أم لا.

ربّما ما حصل لاحقاً كان سببه أن طوم ألقى باللوم عليه لسرقته المقصورة، وربما كان الحريق هو السبب، أو وكيل التأمين الوهميّ، أو القمصان البيضاء، أو ربما لأنّ الكيل طفح الآن. ففي تلك اللحظة، بدا الأمر وكأن شخصاً ما قد أزال فتيلاً من عقل أوف، فأصبح كلّ شيء في نظره أكثر ظلمةً. خرج من غرفة الملابس وهو لا يزال عارياً، والماء يقطّر من عضلاته القاسية، ومشى إلى أسفل الممرّ في طريقه إلى غرفة تبديل الملابس الخاصة برئيس العمّال، وركل الباب وفتحه وشقّ طريقه عبر مجموعة من الرجال المدهوشين في الداخل. كان طوم يقف أمام مرآة في آخر الغرفة وهو يشذّب لحيته الكثيفة، فأمسكَهُ أوف من كتفيه، وصاح بصوت عالٍ تردّد بين الجدران المغطاة بالصفائح المعدنية.

«أعد لي ساعتي!».

نظر طوم إلى وجهه بتعبير متعالٍ، ثم علت قامته الداكنة أمام أوف كالظل.

«لا أعرف أين ساعتك اللع...»

«أعطني إياها!». صرخ أوف بقسوة وبصوت عالٍ قبل أن يتمكن طوم من إنهاء جملته، ممّا جعل الرجال الآخرين الموجودين في الغرفة يقتربون من خزائنهم أكثر.

بعد ثانية، انتزع سترة طوم من بين يديه بقوّة، لدرجة أن هذا الأخير لم يفكّر حتى في الاحتجاج، بل وقف هناك فقط وكأنه طفل معاقب، بينما انتشل أوف ساعته من جيب السترة الداخلي.

ثم ضربه أوف مرّة واحدة فقط. فقد كان ذلك كافياً؛ إذ انهار طوم مثل كيس من الدقيق الرطب. وعندما وقع الجسم الثقيل على الأرض، كان أوف قد استدار ومشى بعيداً.

يأتي وقت كهذا على جميع الرجال؛ عندما يختارون أيّ نوع من الرجال يريدون أن يكونوا. وإذا كنت لا تعرف ذلك، فأنت لا تعرف الرجال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نُقِلَ طوم إلى المستشفى، وسُئِلَ مراراً وتكراراً عمّا حدث، لكنّه تمتم شيئاً ما عن «الانـزلاق» فقط. والغريب في الأمر أنّ الرجال الآخرين الذين كانوا في غرفة تبديل الملابس في ذلك الوقت لم يتذكّر أحد منهم ما حدث.

كانت تلك هي المرة الأخيرة التي رأى أوف فيها طوم. وقرّر حينها أنه لن يدع أحداً آخر يخدعه بعد تلك الحادثة. احتفظ بوظيفته كعامل نظافة ليليّ، ولكنّه تخلّى عن وظيفته في موقع البناء. إذ لم يعد لديه منزل لبنائه، وعلى أي حال كان قد تعلّم الكثير عن البناء في ذلك الوقت؛ حتى إنه لم يَعُد لدى الرجال الذين يعتمرون الخوذات أيّ شيء ليعلّموه إيّاه.

أعطوه صندوق عِدَّة كهدية وداع، وهذه المرّة مع أدوات جديدة. وكتبوا على قطعة من الورق: «إلى الجرو الصغير، لمساعدتك في بناء شيء يدوم».

لم يستخدمها أوف فوراً، بل حملها بلا هدف لبضعة أيام. وأخيراً، أشفقت عليه السيدة العجوز التي تؤجّره الغرفة، وبدأت تبحث عن أشياء حول المنزل ليصلحها لها؛ فذلك أكثر سلامة لكليهما.

في وقت لاحق من ذلك العام، تطوّع لأداء الخدمة العسكرية، وسجّل أعلى علامة ممكنة لكلّ اختبار بدنيّ. أحبّ ضابط التجنيد الشاب قليل الكلام الذي بدا قويّاً كالدبّ، وضغط عليه للتفكير جدياً في قبول العمل كجندي محترف. اعتقد أوف أنّ ذلك معقول؛ إذ يرتدي العسكريون البزات، ويتبعون الأوامر، والجميع يعرفون ما الذي يفعلونه. كانت لدى كل شخص وظيفة، وكانت لكلّ الأشياء أماكنها الخاصة. شعر أوف أنّ بإمكانه أن يكون جنديّاً جيّداً بالفعل. وفي الواقع، بينما كان ينزل الدرج ليخضع للفحص الطبي الإلزامي، شعر أنه أخفّ وزناً ممّا كان لسنوات عديدة؛ وكأنه قد أُعطي فجأةً هدفاً محدّداً، وصارت لديه غايةٌ، شيءٌ ليكونه.

غير أن سعادته لم تدم لأكثر من عشر دقائق.

قال ضابط التجنيد إن الفحص الطبي «مجرّد إجراء شكليّ». ولكن، عندما وُضِعَت سماعة الطبيب على صدر أوف سُمِعَ شيء لم يكن ينبغي سماعه، وأُرسِلَ الى طبيب في المدينة. وبعد أسبوع، تمّ إبلاغه أن لديه حالة نادرة وخلقية في القلب،

وأُعفِيَ من أداء أيّ خدمة عسكرية أُخرى. اتّصل أوف واحتجّ، وكتب الخطابات، وذهب إلى ثلاثة أطبّاء آخرين على أمل أن يكون هناك خطأ ما قد ارتُكِبَ. ولكن، كان ذلك بلا فائدة.

«القوانين هي القوانين». هذا ما قاله له رجل يرتدي قميصاً أبيض في المكاتب الإدارية التابعة للجيش في المرّة الأخيرة التي ذهب فيها إلى هناك في محاولة لإلغاء القرار. شعر أوف بخيبة أمل، لدرجة أنّه لم ينتظر الحافلة، وبدلاً من ذلك سار كل طريق العودة إلى محطّة القطار مشياً على قدميه، ثم جلس على المنصّة وهو أكثر يأساً من أيّ وقت مضى منذ وفاة والده.

وبعد بضعة أشهر، كان سيسير على المنصّة نفسها مع المرأة التي قُدِّر له أن يتزوّجها. ولكن في تلك اللحظة بالذات، لم تكن لديه أدنى فكرة عن ذلك بالطبع.

عاد إلى عمله كعامل نظافة ليليّ في السكك الحديدية، وأصبح أكثر هدوءًا من أيّ وقت مضى. وفي النهاية، سَئِمَت السيدة العجوز التي كانت تؤجره الغرفة من وجهه الكئيب، لدرجة أنها تدبّرت له أمر استئجار مرأب قريب. ففي النهاية، كانت لدى الشاب تلك السيارة التي كان يعبث بها دائماً. وربما كان بإمكانه أن يُرَفِّهَ عن نفسه مع كلّ ذلك؟

أخذ أوف الصاب مفككة إلى قطع إلى المرأب في صباح اليوم التالي، ونظّف جميع الأجزاء، ومن ثم جمعها مرة أخرى لمعرفة ما إذا كان بإمكانه أن يفعل ذلك. وليكون لديه شيء يشغل به نفسه.

وعندما أنهى العمل، باع الصاب بسعر مربح، واشترى صاب 93 أكثر حداثة ولكنها مُطابقة. وكان أوّل ما فعله أنه فكّكها إلى قطع لمعرفة ما إذا كان بإمكانه تدبّر ذلك، واستطاع القيام بذلك فعلاً.

مرّت أيّامه هكذا، بطيئة ومنهجيّة. ثمّ رآها في صباح أحد الأيام. كان شعرها بنيّ اللون، وعيناها زرقاوين، وحذاؤها أحمر، وتضع مشبكاً أصفر كبيراً في شعرها.

وبعد ذلك، لم يعد أوف يشعر بالسلام والهدوء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

13

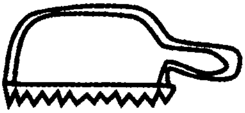

رجلٌ يُدعى أوف ومهرّج يُدعى بيبو

«أوف مضحك». ضحكت الفتاة البالغة من العمر ثلاث سنوات بفرح.

«نعم». تمتمت الفتاة ذات السنوات السبع غير مبهورة على الإطلاق، ثم أمسكت يد أختها الصغيرة، ومشت بخطوات الناضجين إلى مدخل المستشفى.

بدت أمّهما وكأنها تريد أن تحاول مع أوف، ولكن يبدو أنها قررت أنه لا وقت لذلك، فراحت تتمايل باتجاه المدخل، ويدها على بطنها المنتفخ، وكأنها قلقة من أن يحاول الطفل الهرب.

مشى أوف في الخلف، وهو يجرّ خطواته. لم يكن يهتم فعلاً بأن تفكّر «أنه من الأسهل فقط الاستسلام، وإيقاف الجدل». لأنّ المسألة في الواقع مسألة مبدأ. فلماذا يحقّ لحارس المواقف إعطاء أوف مخالفة فقط لأنه سأل: لماذا على المرء أن يدفع المال ليركن السيارة في موقف المستشفى؟! أوف ليس من أولئك الأشخاص الذين يمنعون أنفسهم من التعبير عن آرائهم بصراحة، لذا صرخ في وجه حارس الموقف: «أنت مجرّد شرطيّ وهمي!». هذا كل ما يمكن أن يقال حول هذا الموضوع.

أنت تذهب إلى المستشفى لتموت، وأوف يعرف ذلك. يكفي أن الدولة تريدك أن تدفع مقابل كل ما تفعله وأنت على قيد الحياة. حتّى إنّها تريدك أيضاً أن تدفع لتركن السيارة عندما تذهب للموت. يعتقد أوف أن هذا كافٍ، ويُطفِحُ الكيل. وأوضح ذلك لحارس الموقف بكلمات كثيرة. وعندها، بدأ الرجل يلوّح بدفتره في وجهه، وقالت پارڤانيه متضايقة إنها ستكون سعيدة جدّاً بدفع ما يتوجّب دفعه؛

وكأن ذلك هو الجزء الأهمّ من النقاش.

يبدو أنّ النساء لا يفهمن المبادئ.

سمع الفتاة ذات السنوات السبع وهي تشكو أمامه من أن ملابسها تفوح منها رائحة دخان العادم. فعلى الرغم من أنهم أبقوا نوافذ الصاب مفتوحة طول الطريق، إلا أنه كان من المستحيل التخلّص من الرائحة الكريهة. سألت الأم أوڤ عمّا كان يفعله حقاً في المرأب، لكنه أجاب فقط بصوتٍ يشبه إلى حدٍّ ما الصوت الذي يصدر عند محاولة نقل حوض الاستحمام عن طريق سحبه على البلاط. وبالطبع، بالنسبة إلى الفتاة ذات السنوات الثلاث، كانت أعظم مغامرة في حياتها أنها تركب سيارة جميع نوافذها مفتوحة؛ على الرغم من أنّ الحرارة في الخارج كانت تحت الصفر. أمّا الفتاة البالغة من العمر سبع سنوات، فقد خبّأت وجهها في شالها، وزادت من شكواها أكثر. فقد غضبت من انزلاق مؤخّرتها على أوراق صحيفة نشرها أوڤ على المقعد لمنعهما من «توسيخه». كان أوڤ قد نشر أيضاً صحيفة على المقعد الأمامي، ولكن والدتهما انتزعتها قبل أن تجلس. بدا أوڤ مستاءً جدّاً من ذلك، ولكنّه تمكّن من عدم التفوّه بشيء. وبدلاً من ذلك، استمرّ بالتحديق إلى بطنها طول الطريق إلى المستشفى، وكأنه قلق من أن يتسرب السائل فجأة على الفرش المنجّد. «قِفا هنا الآن، من دون حِراك». قالت الأم للفتاتين عند مكتب الاستقبال في المستشفى.

كانوا محاطين بجدران زجاجية، ومقاعد تفوح منها رائحة المطهّر. وهناك ممرّضات بملابس بيضاء في كل مكان، ومسنّون يجرّون أنفسهم ذهاباً وإياباً في الممرات، متّكئين على حمّالات متهالكة. وعلى الأرض لافتة تُعلن أن المصعد رقم 2 في المدخل «أ» خارج الخدمة، ولذلك يُطلَب من زوار الجناح 114 أن يتوجّهوا إلى المصعد رقم 1 في المدخل «ت». وتحتها لافتة أُخرى تُعلن أن المصعد رقم 1 في المدخل «ت» خارج الخدمة، ويطلب من زوار الجناح 114 أن يذهبوا إلى المصعد رقم 2 في المدخل «أ». وتحت تلك اللافتة رسالة ثالثة تُعلن أن الجناح 114 مغلق هذا الشهر بسبب الإصلاحات. وتحت تلك الرسالة صورة مهرج؛ لإعلام الناس أن بيبو مهرّج المستشفى يزور الأطفال المرضى اليوم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أين ذهب أوف الآن؟». صرخت پارڤانيه.

«أعتقد أنه ذهب إلى المرحاض». تمتمت الفتاة البالغة من العمر سبع سنوات.

«مهرّج!». قالت الفتاة البالغة من العمر ثلاث سنوات، مشيرة بسعادة إلى اللافتة.

«هل تعرفين أنه عليك أن تدفعي المال لدخول المرحاض؟». هتف أوف مشتكياً.

التفتت پارڤانيه ونظرت إلى أوف بانزعاج، ثم سألته:

«هل تحتاج إلى فكّة؟».

فبدا أوف كما لو أنه قد شعر بالإهانة.

«لماذا قد أحتاج إلى فكّة؟».

«لدخول المرحاض».

«لست بحاجة إلى دخول المرحاض».

«لكنك قلت...» بدأت بالكلام، ثم توقّفت وهي تهزّ رأسها. «لا عليك. فقط انسَ الموضوع... متى تنتهي صلاحيّة تذكرة وقوف السيارة؟». سألته بدلاً من ذلك.

«بعد عشر دقائق».

فهمهمت.

«ألا تعرف أن الزيارة ستستغرق وقتاً أطول من عشر دقائق؟».

«في هذه الحالة، سأخرج بعد عشر دقائق وأزيد المدة». قال أوف كما لو أن ذلك واضح جدّاً.

«لماذا لا تدفع لفترة أطول وتوفّر على نفسك العناء؟». سألته، ثم بدت وكأنها تمنَّت لو أنها لم تسأل بمجرّد أن عَبَرَ السؤال شفتيها.

«لأن هذا بالضبط ما يريدونه! لن أسمح بأن يحصلوا على المال مقابل وقت قد لا نستخدمه!».

«أوه، لا أملك القوة لذلك...» تنهّدت پارڤانيه وهي تضع يدها على جبينها، ونظرت إلى ابنتيها قائلة:

«هـلّا تجلسـان هنـا بلطـف مع العمّ أوف بينما تذهـب ماما لتطمئن على حالة بابا، من فضلكما».

«نعم، نعم». أومأت الفتاة ذات السنوات السبع بغضب.

فيما صرخت الفتاة ذات السنوات الثلاث بحماسة: «نعمممم!».

«ماذا!؟». همس أوف.

فوقفت پارڤانيه.

«ماذا تقصدين بقولك مع أوف؟! إلى أين تعتقدين أنك ذاهبة؟». لسوء حظّه، بدت الحامل وكأنها لم تلاحظ مستوى الاضطراب في صوته.

«عليك أن تجلس هنا وتراقبهما». قالت باقتضاب، واختفت عند أسفل الممر قبل أن يتمكّن أوف من التفوّه بالمزيد من الاعتراضات.

وقف أوف هناك محدّقاً إليها؛ وكأنه كان يتوقّع منها أن تعود مسرعة وتصرخ قائلة إنها كانت تمازحه فقط. لكنّها لم تفعل ذلك. عندها، التفت أوف إلى الفتاتين. وبعد ثانية، بدا وكأنه على وشـك توجيه نور مصباح يدوي إلى أعينهما، والتحقيق معهما عن مكان وجودهما في وقت ارتكاب الجريمة.

«كتاب!». صرخت الفتاة الصغيرة فجأة، وأسرعت باتّجاه زاوية غرفة الانتظار؛ حيث توجد فوضى حقيقية من الألعاب والكتب المصوّرة.

أومأ أوف، وبعد أن أكّد لنفسـه أن هذه الفتاة البالغة من العمر ثلاث سـنوات تبدو محفزّة لنفسها بعقلانية، حوّل انتباهه إلى الفتاة الأكبر سناً.

«حسناً، وماذا عنك؟».

«ماذا تعني؟». ردّت بسخط.

«هل أنتِ بحاجة إلى الطعام، أو عليكِ الذهاب إلى المرحاض، أو أيّ شـيء من هذا القبيل؟».

فنظرت الطفلة إليه وكأنه قد عرض عليها للتوّ تدخين السجائر.

«عمري يقارب ثمانية أعوام، ويمكنني أن أذهب إلى المرحاض بنفسي!».

عندها، رفع أوف ذراعيه فجأة وقال:

«طبعاً، طبعاً. اللعنة. أنا آسف جدّاً على السؤال».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«مممم». همهمت.

«لقد شتمت!». صرخت الفتاة الصغيرة وهي تلتفت إليه من جديد، ثم ركضت إليه.

حدّق أوف بتشكّك إلى هذه الكارثة الطبيعية الصغيرة التي تتحدى اللّغة بقواعدها، والتي تنظر إليه ووجهها برمّته يبتسم له.

«اقرأ!». أمرته بطريقة منفعلة، رافعةً نحوه كتاباً بذراعيها الممدودتين إلى أقصى حدّ، لدرجة أنها كادت تفقد توازنها.

نظر أوف إلى الكتاب قليلاً كما لو أنّه أَرسلَ إليه للتو رسالة تفيدُ بأنّه في الحقيقة أمير نيجيري حَظِيَ «بفرصة استثمارية مربحة جدّاً» لأوف، وهو الآن يحتاج فقط إلى رقم حساب أوف «لترتيب شيءٍ ما».

«اقرأ!». طلبت منه مجدداً وهي تتسلّق المقعد في غرفة الانتظار برشاقة مفاجئة.

عندها، جلس أوف على المقعد بمضض؛ على بُعدِ متر واحد منها، فتنهّدت بفارغ الصبر، ثم اختفت عن ناظريه ليظهر رأسها مجدداً في وقتٍ لاحق تحت ذراعه، ويداها تتّكئان على ركبته لتسند نفسها، وأنفها على مقربة من الصور الملوّنة في الكتاب.

«في يوم من الأيام، كان هناك قطار صغير». قرأ أوف بحماسةِ شخصٍ يقرأ بياناً ضريبياً.

ثم قلب الصفحة، فأوقفته الفتاة الصغيرة، وأعادت الصفحة السابقة. فيما هزّت الفتاة الأكبر سناً رأسها وكأنّها محطّمة، وقالت له:

«عليك أن تقول ما يحدث في تلك الصفحة أيضاً، وتقلّد الأصوات نفسها».

فحدّق إليها أوف متضايقاً وقال:

«ماذا بحقّ الجحـ...»

غير أنه تنحنح في منتصف الجملة، ثم سألها:

«أيّ أصوات!؟».

«الأصوات التي تُروى بها الروايات». أجابت الفتاة ذات السنوات السبع.

«لقد شتمت». أعلنت الفتاة الصغيرة بفرح.

«كلا». قال أوف.

«بلى». أصرّت الفتاة ذات السنوات الثلاث.

«لن أصدر أي أصوات لعي... لن أصدر أي أصوات!».

«ربما أنت لست بارعاً في قراءة القصص». قالت الفتاة الأكبر سناً.

فردّ أوف: «ربما لستما بارعتين في الاستماع إليها!».

«ربما لست بارعاً في إخبارها!».

نظر أوف إلى الكتاب غير مُنبهرٍ على الإطلاق، ثم سأل:

«ما هذا النوع من الهراء أصلاً؟ قصّة القطار المتكلّم؟ أليس هناك أيّ شيء عن السيارات؟».

«ربّما كان هناك شيء عن الرجال المسنّين المجانين بدلاً من ذلك». تمتمت الفتاة البالغة من العمر سبع سنوات.

«لستُ رجلاً عجوزاً». همس أوف.

«مهرّج!». صرخت الفتاة الصغيرة بابتهاج.

«ولست مهرّجاً أيضاً!». زمجر.

حركت الفتاة الأكبر سنّاً عينيها في وجه أوف؛ بالطريقة نفسها التي تفعل بها والدتها ذلك.

«إنها لا تقصدك، بل إنها تعني المهرّج».

عندها، رفع أوف نظره، ورأى رجلاً ناضجاً مرتدياً بكلّ جدّية زيّ مهرّج، وهو يقف في مدخل غرفة الانتظار، وهناك ابتسامة غبيّة كبيرة على وجهه أيضاً.

«مهرّججججج». صرخت الطّفلة الصغيرة وهي تقفز صعوداً وهبوطاً على المقعد، بطريقة أقنعت أوف أخيراً أن هذه الطفلة تحت تأثير المخدرات.

لقد سمع عن هذا النوع من الأشياء. فهناك أطفال لديهم اضطراب في نقص الانتباه والتركيز وفرط النشاط، ويجب أن يأخذوا الفيتامينات بحسب وصفة طبية.

«ومن هذه الطفلة الصغيرة هنا؟ هل تريدين أن تري خدعة سحرية؟». صاح

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المهرج بلباقة مُلَوِّحاً بذراعيه مثل موظٍ، ومنتعلاً زوجاً من الأحذية الحمراء الضخمة التي لن يرضى بانتعلاها سوى شخص تافهٍ تماماً بدلاً من الحصول على وظيفة مناسبة، كما فكر أوڤ في سرّه.

نظر المهرّج إلى أوڤ بمرح، ثم سأله:

«هل يحمل العمّ خمس كرونات؟».

«لا. لا يحمل العمّ هذا المبلغ». أجاب أوڤ.

فنظر المهرّج إليه بدهشة. وهي ليست نظرة تليق بمهرّج.

«ولكن... اسمع، إنها خدعة سحرية. لديك قطعة نقود أليس كذلك؟». تمتم المهرج بصوته الطبيعي الذي يتناقض تماماً مع شخصيته كمهرج، ويكشف أنّ وراء زي المهرّج الغبيّ يختبئ أحمق عاديّ جدّاً، ربما يبلغ من العمر خمساً وعشرين سنة.

«هيا، أنا مهرّج المستشفى. أحتاج إليها للقيام بخدعة من أجل الطفلتين، وسأعيدها لك لاحقاً».

«أعطه خمس كرونات». قالت الفتاة البالغة من العمر سبع سنوات.

فيما صرخت الفتاة الصغيرة: «مهرّرررججج!».

نظر أوڤ إليها بسخطٍ وجعّد أنفه.

«حسناً». قال وهو يأخذ قطعة خمس كرونات من محفظته، ثم قال للمهرّج:

«لكنني أريد استعادتها على الفور؛ فسأدفعها في موقف السيارات».

أومأ المهرج بلهفة، وانتزع النقود من يده.

وبعد دقائق، عادت پارڤانيه من أسفل الممرّ إلى غرفة الانتظار، وتوقّفت في مكانها، وراحت تتفحّص الغرفة بارتباك من جانبٍ إلى آخر.

«هل تبحثين عن ابنتيك؟». سألتها إحدى الممرّضات بصوتٍ حادّ.

«نعم». أجابت پارڤانيه بحيرة.

«إنهما هناك». قالت الممرضة بطريقة تدلّ على الانزعاج، وأشارت إلى مقعد

بجانب الأبواب الزجاجية الكبيرة المؤدية إلى منطقة وقوف السيارات.

كان أوف يجلس هناك، وذراعاه مشبوكتان أمام صدره، وهو يبدو غاضباً جدّاً. وإلى جانبه جلست ابنتها الكبرى محدّقة إلى السقف بمللٍ شديدٍ، فيما جلست ابنتها الصغرى في الجانب الآخر وهي تبدو وكأنها اكتشفت للتو أنها ستأكل المثلجات على وجبة الفطور كلّ يوم لمدة شهر كامل. وعلى جانبَي المقعد، وقف رجلان ضخمان من حراس الأمن في المستشفى، وتعابير وجهيهما تشير إلى شدة غضبهما.

«هل هاتان طفلتاك؟». سألها أحدهما.

«نعم. ماذا فعلتا؟». تساءلت پارڤانيه وهي مرتعبة.

«هما لم تفعلا أي شيء». ردّ حارس الأمن الآخر وهو يحدّق إلى أوف بعدائية.

فتمتم أوف باستياء: «ولا أنا».

عندها، صرخت الفتاة الصغيرة ببهجة: «أوف ضرب المهرّج!».

«واشية!». قال أوف.

حدّقت پارڤانيه إليه مندهشة، ولم تستطع التفكير بأي شيء لتقوله.

فاحتجّت الفتاة الكبيرة قائلة: «لم يكن بارعاً في السحر على أي حال». ثم سألت وهي تقف: «هل يمكننا أن نذهب إلى المنزل الآن؟».

«لماذا؟ انتظروا... ماذا؟ أي مهرّج؟».

«المهرّج بيبو!». شرحت الصغيرة وهي تومئ بحكمة.

فتابعت شقيقتها: «كان على وشك أن يقوم بخدعة سحرية».

«خدعة سحرية سخيفة». قال أوف.

«مثلاً، كان سيجعل القطعة النقدية من فئة خمس كرونات الخاصّة بأوف تختفي». شرحت الفتاة البالغة من العمر سبع سنوات بالتفصيل.

«وبعد ذلك، سيحاول أن يعيد قطعة أخرى من فئة خمس كرونات!». تدّخل أوف وهو ينظر إلى حارسَي الأمن بالقرب منه وكأنه مهان؛ وكما لو أنّ هذا ينبغي أن يكون كافياً كتفسير.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أوف ضرب المهرّج يا أمي». وضحكت الفتاة الصغيرة كما لو أنّ هذا أفضل شيء حدث في حياتها كلها.

فحدّقت پارڤانيه لفترة طويلة إلى أوف، ثم إلى ابنتها الصغرى، ثم الكبرى. وأخيراً، نظرت إلى حارسَي الأمن وشرحت لهما:

«نحن هنا لزيارة زوجي. فقد تعرّض لحادث، وسأصطحب الطفلتين الآن لتسلّما عليه».

«بابا وقع!». قالت الفتاة الصغيرة.

«لا بأس». أومأ أحد حارسَي الأمن.

«لكن، هو سيبقى هنا». أكد حارس الأمن الآخر مشيراً إلى أوف.

«بالكاد ضربته، فأنا قد وكزته قليلاً فقط». غمغم أوف، ثم أضاف: «رجال شرطة وهميّون لعينون». فقط ليكون على الجانب الآمن.

«بصراحة، لم يكن بارعاً في السحر». قالت الفتاة الكبيرة باستياء دفاعاً عن أوف بينما كانتا ذاهبتين لزيارة والدهما.

بعد ساعة، عادوا إلى مرأب أوف. أمّا النحيف فكانت ذراعه وساقه ملفوفتين بالجص، ويجب أن يبقى في المستشفى لعدّة أيام، وقد أبلغت پارڤانيه أوف بذلك. عندما أخبرته، اضطرّ أوف إلى أن يعضّ على شفته بقوة ليمنع نفسه من الضحك. حتى إنه شعر أنّ پارڤانيه كانت تفعل الشيء نفسه. كانت رائحة الدخان لا تزال تفوح من الصاب فيما كان يجمع أوراق الصحيفة عن المقاعد.

«أرجوك يا أوف، هل أنت متأكّد من أنك لن تسمح لي بأن أدفع الغرامة التي فرضت عليك في موقف السيارات؟». قالت پارڤانيه.

«هل هذه سيارتك؟». سألها أوف.

«لا».

«حسناً إذاً».

«لكنني أشعر بالذنب قليلاً، لأنّ هذا كان خطئي». كرّرت بقلق.

«لست أنت من يفرض الغرامات في موقف السيارات، بل المجلس هو الذي

يفعل ذلك. إذاً، إنه خطأ المجلس اللعين». قال أوف وهو يغلق باب الصاب، ثم أضاف: «وخطأ رجلَي الشرطة الوهميين في المستشفى». وكان من الواضح أنّه لا يزال مستاءً جداً لأنه أُجبر على الجلوس على المقعد من دون حراك إلى أن جاءت پارڤانيه لأخذه وعادوا إلى البيت. وكأنه لا يمكن الوثوق به للتجول بحرية بين زوار المستشفى الآخرين.

نظرت إليه پارڤانيه لفترة طويلة بصمتٍ. وفي تلك الأثناء، بدأت الفتاة البالغة من العمر سبع سنوات والتي تعبت من الانتظار بالمشي عبر منطقة وقوف السيارات متجهة إلى المنزل. أما الفتاة البالغة من العمر ثلاث سنوات فنظرت إلى أوف بابتسامة مُشعّة، وقالت له ضاحكة: «أنت مضحك!».

عندها، نظر أوف إليها، ووضع يديه في جيبَي سرواله.

«آه، أوه، آه، أوه. يجب ألّا تُغضِبَ نفسك إلى هذا الحدّ».

أومأت الفتاة الصغيرة بحماسة، فيما نظرت پارڤانيه إلى أوف، ثم إلى الأنبوب البلاستيكي الملقى على أرض مرأبه، ثم نظرت إليه مجدداً وهي قلقة قليلاً.

«قد أحتاج إلى المساعدة لإبعاد السلّم...» قالت فجأة وكأنها كانت في منتصف فكرة أطول.

ركل أوف الأسفلت بحيرة.

فأضافت بسرعة: «وأعتقد أن لدينا جهاز تدفئة لا يعمل أيضاً. وسيكون أمراً لطيفاً من قبلك إذا تمكّنت من إلقاء نظرة عليه؛ فپاتريك لا يعرف كيف يقوم بأشياء من هذا القبيل كما تعلم». قالت له ذلك وهي تمسك يد ابنتها البالغة من العمر ثلاث سنوات.

فأومأ أوف ببطء.

«لا. كان يجب أن أعرف».

فأومأت پارڤانيه، ثم ابتسمت فجأة ابتسامة راضية وتابعت: «لا يمكنك أن تسمح بأن تتجمد الفتاتان حتّى الموت الليلة يا أوف، أليس كذلك؟ يكفي أنهما رأتاك وأنت تعتدي على مهرّج، أليس كذلك؟».

رمقها أوف بنظرة صارمة، واعترف لنفسه بصمت– وكأنه يفاوض– أنه من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصعب ترك الطفلتين تموتان فقط لأنّ والدهما عديم الفائدة لا يمكنه فتح نافذة من دون السقوط عن السلّم. ما كانت زوجته لتوافق على تركهما تشعران بالبرد إطلاقاً.

ثم التقط الأنبوب البلاستيكي عن الأرض وأسنده إلى الحائط، وأقفل الصاب بالمفتاح، ثم أغلق باب المرأب، وشدّ مقبضه ثلاث مرات للتأكّد من أنه مغلق جيّداً. وبعد ذلك، ذهب إلى المخزن لجلب أدواته.

غداً يوم جيّد مثل سواه لينتحر المرء.

14

رجلٌ كان يُدعى أوف وامرأة على متن قطار

كانت تضع حُلية ذهبية مزخرفة على سترتها فتعكس أشعة الشمس المتسللة عبر نافذة القطار. كانت الساعة هي السادسة والنصف صباحاً، وكان أوف قد أنهى مناوبتـه للتـوّ، ويُفتـرض بـه في الواقع أن يركب القطار ليذهـب إلى المنزل. ولكنه بعد أن رآها على المنصة بشعرها الكستنائيّ الكثيف والمسدل على كتفيها، وعينيها الزرقاويـن، وابتسـامتها المتوهّجـة عـاد إلى القطار. بالطبع، لم يعرف تماماً سـبب قيامه بذلك؛ فهو لم يكن عفوياً هكذا في حياته من قبل. لكنه شـعر وكأنّ شـيئاً ما قد تعطّل عندما رآها.

أقنع أحد السـائقين بإقراضه بنطلوناً وقميصاً كي لا يبدو كعامل تنظيفات في القطار، ثم توجّه للجلوس بجانبها. وكان ذلك أفضل قرار قد اتّخذه على الإطلاق.

لم يكن يعرف ما سـيقوله. ولكن، بالكاد تسنّى له الوقت ليغوص في المقعد قبل أن تلتفت إليه بمرح، وتبتسم بحرارة، وتقول له «مرحباً». ووجد أنه تمكّن من الردّ «مرحباً» من دون أي إضافات. وعندما لاحظت أنه كان ينظر إلى كومة الكتب التي كانت على حضنها، أمالتها قليلاً نحوه كي يتمكّن من قراءة عناوينها. لم يفهم أوف سوى حوالي نصف الكلمات.

«هل تحبّ القراءة؟». سألته بابتهاج.

فهزّ أوف رأسه غير واثق، ولكن بدا له أنها لم تهتمّ لذلك كثيراً. فقد ابتسمتِ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فقط، وقالت إنها تحبّ الكتب أكثر من أيّ شيء آخر، وبدأت تخبره بحماسة عن موضوع كلٍّ من الكتب التي كانت في حضنها. وأدرك أوف أنه يريد أن يسمعها تتحدّث عن الأشياء التي تحبّها لبقية حياته.

لم يسمع يوماً في حياته كلّها صوتاً مدهشاً مثل ذلك الصوت. تحدّثت كما لو كانت دائماً على وشك الضحك. ولم يكن يعرف تماماً ما عليه قوله لتجنّب الظهور كشخص غير متعلّم وغبيّ، ولكن تبيّن له أن ذلك لم يكن مشكلة كما اعتقد.

فقد كانت تحبّ الكلام، وأوف يحبّ البقاء هادئاً. وافترض أوف أن ما يعنيه الناس عندما يتكلّمون هو ما يجعلهم متوافقين ومنسجمين.

بعد سنوات عديدة، أخبرته أنها وجدته محيّراً جدّاً عندما جاء ليجلس معها في تلك المقصورة. فقد كانت كتفاه عريضتين، وعضلات ذراعيه كبيرة حيث تمدّد نسيج قميصه. وكانت عيناه تشعّان بالرقة، كما كان يستمع إليها بانتباه فيما تتحدّث، وأحبّت أن تجعله يبتسم. على أي حال، كانت الرحلة إلى المدرسة مملّة، لذا كان مجرّد الحصول على بعض الرفقة أمراً لطيفاً.

كانت تدرس لتصبح معلّمة. وكانت تستقلّ القطار يومياً، وبعد عشرة أو عشرين كيلومتراً كانت تنتقل إلى قطار آخر، ثم إلى حافلة. بالإجمال، كانت تقوم برحلة مدّتها ساعة ونصف الساعة في الاتجاه المعاكس لاتّجاه أوف. فقط عندما عبروا المنصة للمرّة الأولى جنباً إلى جنب ووقف إلى جانبها في موقف الحافلات، سألته عمّا كان يفعله هناك. وعندما أدرك أوف أنه كان على بعد خمسة كيلومترات تقريباً من الثكنة العسكرية حيث كان يجب أن يكون لولا مشكلة قلبه، انزلقت الكلمات خارجة من فمه قبل أن يفهم السبب.

«أنا أقوم بخدمتي العسكرية هناك». قال وهو يلوّح بشكلٍ غامض.

«إذاً، ربما سنرى بعضنا على متن قطار العودة أيضاً. أنا أرجع إلى المنزل عند الخامسة...»

لم يتمكّن أوف من التفكير في شيء يقوله. إذ كان يعرف بالطبع أن المرء لا يغادر المنشآت العسكرية عند الساعة الخامسة، ولكن يبدو بشكل واضح أنها

لا تعرف ذلك. لذا، تجاهل الأمر تماماً. ثمّ صعدت على متن حافلتها، وذهبت.

قرّر أوف أن تصرفه ذاك كان بلا شكّ غير عمليّ جدّاً من نواحٍ كثيرة. ولكن، لم يكن هناك الكثير لفعله حيال ذلك. لذا استدار، فوجد لافتة تشير إلى الطريق المؤدّي إلى البلدة الصغيرة، حيث تستغرق عودته إلى بيته من هناك حوالى الساعتين. وبدأ بالمشي. بعد خمس وأربعين دقيقة، سأل عن الطريق المؤدي إلى الخياط الوحيد في المنطقة، وبعد عثوره عليه في نهاية المطاف، دخل بتثاقلٍ ليسأل إذا كان من الممكن أن يكوي قميصاً وسروالاً، وإذا كان ذلك ممكناً، فكم من الوقت سيستغرق الأمر. فكان الجواب: «عشر دقائق، إذا انتظرت».

«إذاً، سأعود عند الرابعة». قال أوف ورحل. تجوّل عائداً إلى محطة القطار، واستلقى على مقعدٍ في قاعة الانتظار. وعند الساعة الثالثة والربع، مشى كل الطريق عائداً إلى الخياط، وكوى له الخياط قميصه وسرواله بينما كان يجلس في مرحاض الموظفين منتظراً بملابسه الداخلية. ثم عاد إلى المحطة، واستقلّ قطار العودة معها لمدّة ساعة ونصف الساعة وصولاً إلى محطتّها. وبعد ذلك، سافر لمدّة نصف ساعة إلى محطّته الخاصة. كرّر الأمر كلّه في اليوم التالي، وفي اليوم الذي بعده. وفي اليوم الثالث، تدخّل رجل من مكتب التذاكر في محطة القطار، وأوضح لأوف أنه لا يستطيع النوم هناك مثل أحد المتسكّعين، وأنّه بالتأكيد يمكنه فهم ذلك. فهم أوف ما حاول الرجل أن يشرحه له، ولكنه أوضح له أن هناك امرأة في خطر. وعندما سمع الرجل من مكتب التذاكر ذلك أومأ له قليلاً، ومنذ ذلك الحين سمح له بالنوم في غرفة الأمتعة اليسرى. فحتى الرجال في مكاتب تذاكر في محطة القطار وقعوا في الحبّ.

كرر أوف الأمر نفسه كلّ يوم لمدّة ثلاثة أشهر. وفي النهاية، سئِمَت لأنّه لم يدعُها للخروج لتناول العشاء قط. ولهذا دعت نفسها بدلاً من ذلك. ففي مساء يوم الجمعة، قالت له بإيجاز وهي تنزل من القطار: «سأكون في انتظارك هنا غداً مساءً عند الساعة الثامنة. أريدك أن ترتدي بذلة، وأودّ أن تدعوني للخروج معك لتناول العشاء».

وهذا ما حصل.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لـم يسـبق لأحـد أن سـأل أوف كيـف عـاش قبل لقائهـا. ولكن، لو سـأله أيّ شخص، لأجاب أنه لم يعش.

مساء يوم السبت، لبس بذلة والده البنيّة القديمة التي كانت ضيّقة عند كتفيه، ثم أكل قطعتين من النقانق وسبع قطع من البطاطا التي أعدّها في المطبخ الصغير فـي غرفتـه، قبـل أن يقوم بجولاته في المنزل لوضع بضعة مسـامير؛ كما طلبت منه السيدة العجوز أن يفعل.

«هـل سـتقابل شـخصا مـا؟». سـألت العجوز مسـرورة لدى رؤيتهـا إياه ينزل الدرج؛ فهي لم تره قط مرتدياً بذلة. فأوَمَأَ بفظاظة.

«نعم». قال ذلك بطريقة يمكن وصفها بأنها إمّا كلمة أو شهيق. فهزّت المرأة العجوز رأسها، وربما حاولت إخفاء ابتسامة صغيرة وهي تقول:

«لا بدّ أنه شخص مميز للغاية بما أنك متأنّق هكذا».

شهق أوف مرّة أخرى وأومأ باقتضاب. وعندما كان عند الباب، صرخت من المطبخ.

«لا تنسَ الزهور يا أوف!».

فأسند أوف رأسه بحيرة إلى الجدار وحدّق إلى وجهها.

«ربمـا سـتحبّ أن تقـدّم لهـا بعض الزهـور». قالت المـرأة العجوز مع بعض التشديد.

عندها، تنحنح أوف وأغلق الباب الأمامي.

وقـف فـي انتظارهـا فـي المحطـة لأكثر من خمس عشـرة دقيقـة مرتدياً بذلته الضيقة ومنتعلاً حذاءه المُلمّع حديثاً. كان يشكّك بالناس الذين يصلون متأخّرين. «إذا كنت لا تستطيع الاعتماد على شخص ما بالمجيء في الوقت المحدّد، فيجب ألّا تثـق بـه بـأيّ شـيء أكثـر أهمية أيضاً». هذا ما اعتـاد أن يقوله عندما يصل الناس المراوغون راكضين نحوه وهم يلهثون، وكأن القطار سيظلّ هناك في انتظارهم حتى الصباح، وليس لديه شيء أفضل للقيام به.

لذلـك فـي كل دقيقـة مـن تلـك الدقائق الخمس عشـرة التي وقـف أوف فيها

منتظراً في المحطة كان غضبه يزداد قليلاً. ثم تحوّل الغضب إلى نوع من القلق، وبعد ذلك قرّر أن صونيا كانت تمازحه فقط عندما اقترحت أن يلتقيا. لم يشعر قط بالسخافة في حياته كلّها كما شعر تلك الليلة. بالطبع، هي لا تريد الخروج معه. كيف أقنع نفسه بذلك؟ وعندما أدرك ذلك، كان على وشك رمي الزهور في أقرب سلّة مهملات والرحيل من دون أن يلتفت.

ولكن، بالعودة إلى الوراء، لم يتمكّن من تفسير سبب بقائه. ربما لأنه شعر- على الرغم من كل ذلك- أن اتفاقهما على الالتقاء كان اتّفاقاً. وربما كان هناك سبب آخر؛ سبب أصعب بقليل لكي تضع إصبعك عليه. لم يكن يعرف ذلك في تلك اللحظة بالطبع، ولكن كان من المقدر له قضاء فترات طويلة من حياته في انتظارها؛ حتى إن والده المسنّ لو كان على قيد الحياة فسينتهي به الأمر أحول العينين لو عرف. وعندما ظهرت في النهاية وهي تلبس تنورة طويلة مطبوعة بالأزهار وسترة حمراء، جعلت أوف ينقل وزنه من قدمه اليُمنى إلى اليسرى، وقرّر أنّ عدم قدرتها على المجيء في الوقت المحدّد ربما لم يكن الشيء الأكثر أهمية.

كانت المرأة في محل الزهور قد سألته عما يرغب في ابتياعه، فأجابها بفظاظة أنه لا يجب عليها أن تطرح هذا السؤال اللعين؛ لأنها في النهاية هي التي تبيع الأزهار وهو الذي يشتريها، وليس العكس. بدت المرأة منزعجة قليلاً من كلامه، ولكنها بعد ذلك سألته عن اللون الذي يفضّله من سيتلقّى الزهور. فأجابها أوف بثقة كبيرة، على الرغم من أنه لم يكن متأكداً: «الوردي».

والآن، وقفت صوفيا خارج المحطة وهي تضمّ زهوره إلى صدرها بسعادة، مرتدية تلك السترة الحمراء الخاصّة بها، والتي تجعل بقية العالم يبدو وكأنه مصنوع من تدرّجات اللون الرمادي.

«إنها جميلة جدّاً». وابتسمت له بتلك الطريقة الصريحة التي جعلت أوف يحدّق إلى الأرض ويركل الحصى.

لم يكن أوف من محبّي المطاعم، ولم يفهم يوماً سبب تناول المرء الطعام في الخارج مقابل الكثير من المال بينما يمكنه أن يتناول الطعام نفسه في المنزل. كما أنه لم ينبهر كثيراً بالمفروشات والطبخ المتقن، وكان يعرف جيّداً عيوب محادثاته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أيضاً. على كلّ حال، على الأقل كان قد أكل مسبقاً كي يتمكّن من تحمّل تكاليف السماح لها بطلب كل ما ترغب فيه من القائمة، في حين اختار لنفسه أرخص طبق. وهكذا، إذا طرحت عليه سؤالاً فلن يكون فمه ممتلئاً بالطعام. بدا ذلك بالنسبة إليه خطّة جيدة.

وبينما كانت تطلب الطعام، ابتسم النادل بتملّق. عرف أوف جيّداً ما كان النادل والزبائن الآخرون في المطعم يفكّرون فيه عندما دخل معها. كانت رائعة جداً مقارنة مع أوف؛ هذا ما اعتقدوه من دون شك. وشعر أوف بالسخافة؛ على الأرجح لأنه وافقهم الرأي تماماً.

أخبرته بحماسة كبيرة عن دراستها، وعن الكتب التي قرأتها أو الأفلام التي شاهدتها. وعندما نظرت إلى أوف جعلته يشعر، لأوّل مرّة، أنه كان الرجل الوحيد في العالم كلّه. وكان أوف يتمتع بالنزاهة الكافية ليدرك أن ذلك لم يكن صحيحاً، فلم يستطع الجلوس أمامها وهو يكذب لفترة أطول. لذلك تنحنح، واستجمع شجاعته، وأخبرها بالحقيقة كاملة. وهي أنه لم يكن يقوم بخدمته العسكرية قط، بل هو في الحقيقة مجرّد عامل تنظيفات بسيط على القطارات، ويعاني من خلل في القلب، وأنه كذب فقط لأنه تمتّع كثيراً بركوب القطار معها. افترض حينها أنّ هذا العشاء سيكون الوحيد الذي يتناوله معها، واعتقد أنها لا تستحقّ أن تكون مع محتالٍ مثله. وعندما أنهى قصته، وضع منديله على الطاولة، وأخرج محفظة نقوده ليدفع.

«أنا آسف». تمتم ووجهه يملأه الشعور بالعار. ثم ركل قائمة كرسيه قليلاً قبل أن يضيف بصوت منخفض بالكاد يمكن أن يُسمع: «أردت فقط أن أعرف شعور الشخص حين تنظرين إليه». وبينما كان يقف، مدّت يدها عبر الطاولة ووضعتها على يده مبتسمة وقالت:

«لم أسمعك تقول هذا القدر من الكلمات من قبل».

تمتم شيئاً ما عن أنّ هذا لا يغير الحقائق؛ فقد كان كاذباً. وعندما طلبت منه الجلوس مجدداً، شعر أنه مجبر على تنفيذ طلبها، وغرق في مقعده مرّة أُخرى. لم تكن غاضبة كما توقّع، بل بدأت تضحك. وفي النهاية، قالت إنه لم يكن في

الواقع من الصعب جداً معرفة أنه لم يكن يقوم بخدمته العسكرية؛ لأنه لم يرتدِ الزي العسكري قط.

«على أي حال، الجميع يعلمون أن الجنود لا يذهبون إلى المنزل عند الخامسة خلال أيام الأسبوع».

وأضافت أن أوف كان غامضاً مثل جاسوس روسي، وأنها توصّلت إلى استنتاج مفاده أن لديه أسبابه التي دفعته إلى ذلك، وأنها أحبت طريقة استماعِه إليها، وجعلِها تضحك. وأن ذلك- كما قالت- كان أكثر من كافٍ بالنسبة إليها.

ثم سألته عمّا يريد حقاً القيام به في حياته إذا كان يستطيع اختيار أيّ شيء يريده. فأجاب من دون تفكير أنه يريد بناء المنازل؛ تشييدها، ورسم الخرائط، وحساب أفضل طريقة لجعلها تقف حيث وقفت. عندها، لم تبدأ بالضحك كما اعتقد أنها ستفعل، بل غضبت وسألته:

«إذاً، لماذا لا تفعل ذلك؟».

لم تكن لدى أوف إجابة جيّدة عن هذا السؤال بشكل خاص.

ويوم الاثنين، جاءت إلى منزله حاملة بعض الكتيّبات الخاصة بدورة مراسلات تمنح المشارك فيها مؤهلات هندسية. كانت صاحبة البيت المسنّة سعيدة جدّاً عندما نظرت إلى المرأة الشابة الجميلة وهي تصعد الدرج بخطوات واثقة. وفي وقت لاحق، ربّتت على ظهر أوف، وهمست له أن تلك الزهور كانت على الأرجح استثماراً جيداً للغاية. فلم يسع أوف إلا أن يوافق على ذلك.

عندما صعد إلى غرفته كانت تجلس على سريره، فوقف أوف في المدخل مستاءً، ويداه في جيبيه. غير أنها نظرت إليه وضحكت، ثم سألته:

«هل نحن ثنائي الآن؟».

«حسناً، نعم». أجاب بتردّد: «أعتقد أنه يمكن أن يكون الأمر كذلك».

ثم كان الأمر كذلك.

سلّمته الكتيّبات. كانت مدّة الدورة عامين، وأثبتت أن كل الوقت الذي أمضاه أوف في التعلّم عن بناء المنازل لم يذهب سُدى كما اعتقد ذات مرّة. ربما لم يكن لديه رأسٌ ينفع للدراسة بالمعنى التقليدي، ولكنه فهم الأرقام والمنازل، وأخذه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك بعيداً. خضع لامتحان بعد ستّة أشهر، ثم لامتحان آخر، فآخر. ثم حصل على عمل في مكتب الإسكان، وبقي هناك لأكثر من ثلث قرن. عمل بِجِدّ، ولم يتغيب بدافع المرض إطلاقاً، ودفع رهنه وضرائبه؛ باختصار قام بواجبه. اشترى بيتاً من طابقين في مشروع شُيِّدَ مؤخراً في الغابة. أرادت أن يتزوجا فطلب يدها للزواج، وأرادت أطفالاً فكان ذلك مناسباً له. وكانا يفهمان أن الأطفال يجب أن يعيشوا في البيوت ذات السطيحات، وأن يختلطوا بالأطفال الآخرين.

وبعد أقل من أربعين عاماً، لم تعد هناك غابة حول البيت، بل مجرّد منازل أخرى. وفي أحد الأيّام، استلقت هناك في المستشفى وهي تُمسك يَدَهُ وتطلب منه ألّا يقلق، وتقول له إن كلّ شيء سيكون على ما يرام. من السهل عليها أن تقول ذلك كما اعتقد أوف حينها وصدره ينبض بسرعة من شدة الغضب والحزن. ولكنّها همست فقط: «كلّ شيء سيكون على ما يرام عزيزي أوف». ومالت ذراعها على ذراعه، ثم وضعت بلطف يدها على راحة يده، وأغمضت عينيها وماتت.

بقي أوف هناك ويدها في يده لعدّة ساعات؛ إلى أن دخل طاقم المستشفى الغرفة بأصوات دافئة وحركات دقيقة، موضحين له أن عليهم أخذ الجثة بعيداً. عندها، نهض أوف عن كرسيه، وأوَمَأَ، ثم توجّه إلى متعهّدي الدفن للاهتمام بالوثائق. دفنت يوم الأحد، وذهب إلى العمل يوم الاثنين.

لكن، لو سأله أحدهم عن حياته قبل لقائها، لقال له إنه لم يعش قبل أن يلتقيها، ولا بعد أن رحلت أيضاً.

15

رجل يدعى أوف وقطار متأخر

بدا ذاك الرجل هناك، في الجانب الآخر من الزجاج، شبيهاً بالحيوانات قليلاً. فشعره مشعث، وذراعاه مغطّاتان بالوشوم. وكأنّه لا يكفي أن يبدو كشخصٍ رُمي وعاء مليء بالسمن فوق رأسه، بل يجب أن تغطّي الوشوم جسده أيضاً! ليس هناك أيّ رسم لائق- بقدر ما استطاع أوف رؤيته- بل فقط الكثير من الرسوم. هل هذا شيء يوافق عليه شخص بالغ يتمتع بحالة عقليّة سليمة؟!

أبلغه أوف: «جهاز التذاكر الخاص بك معطّل».

«لا!». قال الرجل من وراء الزجاج.

«ماذا تعني بقولك لا؟».

«أعني... أنا أتساءل، لمَ لا يعمل؟».

«قلت لك للتوّ، إنّه معطّل!».

بدا الرجل وراء الزجاج متشكّكاً، واقترح: «ربما كان هناك خطب ما ببطاقتك؟ بعض الأوساخ على الشريط المغناطيسي ربما؟».

رمق أوف الرجل الموجود وراء الزجاج بنظرةٍ حادة؛ وكأنّه شكّك برجولته للتوّ، فصمت الرجل وراء الزجاج.

عندها، همهم أوف:»ليست هناك أوساخ على الشريط المغناطيسي، يمكنك أن تكون متأكداً من ذلك».

أومأ الرجل الجالس وراء الزجاج، ثم غيّر رأيه وهزّ رأسه نافياً، وحاول أن يشرح لأوف أن الجهاز «عمل بشكلٍ طبيعيّ في وقت سابق من النهار». غير أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أوف رفض هذا الأمر. تساءل الرجل عمّا إذا كان أوف يملك قطعاً نقدية بدلاً من ذلك، فردّ أوف قائلاً له إنّ ذلك ليس من شأنه. واستقرّ صمتٌ متوتّر.

وبعد طول انتظار، سأل الرجل الجالس وراء الزجاج عمّا إذا كان بإمكانه «التحقّق من البطاقة».

عندها، نظر إليه أوف كما لو أنّ الرجل التقاه للتوّ في زقاقٍ مظلم وطلب منه أمراً مشيناً.

«لا تحاول القيام بأيّ شيء». حذّره أوف وهو يدفع البطاقة نحوه بتردّد من تحت النافذة.

التقط الرجل الجالس وراء الزجاج البطاقة، ومرّرها على ساقه بقوة، وكأن أوف لم يقرأ قطّ في الصحف عن هذا الشيء، ولم يجربه. وكأنّ أوف أحمق.

«ماذا تفعل؟!». صرخ أوف وهو يضرب بكفّه على النافذة الزجاجية.

فأعاد إليه الرجل البطاقة من تحت النافذة، وقال له: «جرّبها الآن».

اعتقد أوف أنّ أيّ أحمق عجوز يمكنه معرفة أنّه في حال لم تعمل البطاقة منذ نصف دقيقة فإنها لن تعمل الآن أيضاً. وعبّر أوف عن رأيه للرجل الجالس وراء الزجاج.

«رجاءً». قال الرجل.

فتنهّد أوف، وأخرج بطاقته، وحاول مرّة أخرى من دون أن يُبعد عينيه عن الزجاج؛ كما لو أنه يريد أن يبرهن له أنها لن تعمل. لكن البطاقة عملت.

«أرأيت!؟». سخر الرجل من وراء الزجاج.

فنظر أوف إلى البطاقة، وشعر كما لو أنها خانته، ثم أعادها إلى محفظته.

«أتمنّى لك يوماً جيّداً». صرخ الرجل من وراء الزجاج خلفه.

«سنرى». تمتم أوف.

على امتداد السنوات العشرين الماضية تقريباً، كلّ إنسان التقاه أوف لم يفعل شيئاً سوى تعليمه كيف يجب دفع ثمن كلّ شيء باستعمال البطاقة. لكن الدفع نقداً كان دائماً جيداً بما فيه الكفاية لأوف. في الواقع، لقد خدم الدفع نقداً الإنسانيّة بشكل جيّد لآلاف السنين. وأوف لا يثق بالمصارف وكلّ أجهزتها الإلكترونية.

لكنّ زوجته أصرّت على الحصول على واحدة من تلك البطاقات على الرغم من كلّ ذلك، ورغم أنّ أوف حذّرها منها. وعندما توفيت أرسل له المصرف ببساطة بطاقةً جديدة باسمه، متّصلة بحسابها. والآن، بعد شراء الزهور لقبرها بانتظام طوال الأشهر الستة الماضية، لم يتبقَّ في حسابها سوى مبلغ 136 كرونة و54 أوري. ويعرف أوف جيداً أنّ هذا المبلغ سيختفي في جيب مدير المصرف إذا مات أوف من دون أن ينفقه أوّلاً.

ولكنه الآن عندما أراد استخدام البطاقة البلاستيكية اللعينة فعليّاً، لم تعمل بالطبع. كما أنّ هناك الكثير من الرسوم الإضافية التي تترتّب عليك عندما تستخدم البطاقة في المحلات التجارية؛ ممّا يثبت أنّ أوف كان محقاً طوال الوقت.

كان قد خرج هذا الصباح قبل أن تستجمع الشمس قوّتها لتشرق فوق الأفق بوقت طويل؛ على خلاف الكثير من جيرانه. وكان قد درس بعناية جدول القطار الزمنيّ المعلّق في القاعة، ثم أطفأ المصابيح وأجهزة التدفئة، وأقفل باب منزله، وترك المغلّف مع كل التعليمات على سجادة القاعة أمام الباب. وافترض أن شخصاً ما سيجده عندما يحضروا لاستلام المنزل.

أحضر مجرفة الثلج، وأبعد الثلوج عن الطريق المؤدي إلى المنزل، ثم أعاد المجرفة إلى المخزن، وأقفل بابه. لو كان أوف منتبهاً أكثر بقليل لكان قد لاحظ التجويف الكبير على شكل هرّ في انجراف الثلوج خارج مخزنه بينما بدأ بالتوجه نحو منطقة وقوف السيارات، لكنّه لم ينتبه إلى ذلك لأنّ لديه أشياء أكثر أهمية في ذهنه.

متضايقاً من محاولاته الأخيرة، لم يستقل الصاب، وإنما مشى إلى المحطة بدلاً من ذلك. فهذه المرة، لا أحد- ولا شيء- سيتمكن من إفساد صباحه؛ لا الأجنبية الحامل، ولا العشبة الشقراء، ولا زوجة رون، ولا الحبل سيّئ الجودة. فقد أصلح أجهزة تدفئة هؤلاء الناس، وأعارهم أغراضه، وأقلّهم إلى المستشفى. وها هو الآن قد انطلق أخيراً في طريقه.

تحَقَّقَ من جدول القطار الزمنيّ مرّة أخرى؛ إذ كان يكره أن يتأخّر. فذلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يدمّر مخطّطه، ويجعل كلّ شيء خارج المسار. كانت زوجته عديمة الفائدة تماماً في ذلك؛ أي في الحفاظ على المخططات. لكن لطالما كان الأمر هكذا مع النساء؛ فهن لا يستطعن الالتزام بخطّة حتى لو ألصقتهنّ بها، هذا ما تعلّمه أوف. فعندما كان يقود سيارته إلى مكان ما، كان يرسم جداول زمنية، ويخطّط ويقرّر أين سيملآن خزان السيارة بالوقود، ومتى سيتوقّفان لتناول القهوة،؛ فكلّ ذلك يصب في مصلحة جعل الرحلة فعّالة من حيث الوقت قدر الإمكان. كان يدرس الخرائط، ويقدّر بالضبط المدّة التي تستغرقها كل مرحلة من مراحل الرحلة، وكيف يجب أن يتجنّبا ساعة ازدحام حركة المرور، والطرقات المختصرة التي يجب أن يسلكاها والتي لا يعرفها مالكو أجهزة تحديد المواقع. كان أوف يملك دائماً استراتيجية واضحة للسفر. ومن ناحية أخرى، كانت زوجته تتكلّم دائماً بجنون عن «الذهاب حسب ما تمليه الأحاسيس»، و«التخفيف عن النفس». وكأن هذه طريقة مناسبة بالنسبة إلى شخص بالغ للوصول إلى أيّ مكان في الحياة! ثم كانت دائماً تتذكّر أنّ عليها إجراء مكالمة، أو أنها نسيت وشاحاً ما أو غيره. كما أنها في آخر لحظة لم تكن تعرف أي معطف يجدر بها أن تحزمه. وكانت دائماً تنسى وعاء حفظ القهوة؛ وهو الشيء الوحيد المهمّ في الواقع. كانت هناك دائماً أربعة معاطف في تلك الحقائب اللعينة، ولكن لا وجود للقهوة. وكأنه بإمكان المرء أن يتوقّف في محطّة وقود كلّ ساعة ليشتري بول الثعلب المحروق الذي كانوا يبيعونه هناك، والتأخّر أكثر فأكثر. وعندما كان أوف يتذمّر، كانت دائماً تتحدّى أهمية وجود خطّة زمنية عند القيادة إلى مكان ما وتقول له: «على أيّ حال، لسنا في عجلة من أمرنا». وكأن لذلك أيّ علاقة بالأمر.

الآن، وقف على رصيف المحطة وهو يُقحم يديه في جيبيه. لم يكن يرتدي سترة بذلته؛ فهي متسخة كثيراً وتفوح منها بقوّة رائحة دخان السيارات. ورغم أن زوجته لا تحبّ القميص والسترة اللذين يرتديهما الآن، إلا أنهما على الأقل نظيفان وفي حالة لائقة. كانت درجة الحرارة تقريباً خمس عشرة درجة تحت الصفر. لم يكن قد استبدل بعد سترة الخريف الكحليّة بمعطف الشتاء الكحليّ، لذا كان البرد يتسلل مباشرةً عبرها. لقد كان مشتّت الأفكار قليلاً في الآونة الأخيرة، وعليه أن

يعترف بذلك.

كانت المنصّة فارغة تقريباً. وفي الجانب الآخر من الطريق، بدا بعض الشباب وكأنهّم يشعرون بالنعاس، ومعهم حقائب كبيرة الحجم اعتقد أوف أنها على الأرجح مليئة بالمخدرات. وكان يقف إلى جانبهم رجل في العقد الرابع من عمره مرتدياً بذلة رمادية ومعطفاً أسود وهو يقرأ الصحيفة. وعلى مسافة أبعد بقليل، وقفت بضع نساء رحن يتكلّمن قليلاً وهنّ يتمتّعن بأفضل سنوات عمرهنّ؛ مع شعارات مجلس المحافظة على صدورهنّ، وخصلات شعر أُرجوانيّة. وكنّ يدخّنّ الكثير من السجائر النعناع الطويلة.

إلى جانب أوف، كان المسار فارغاً لولا وجود ثلاثة من موظفي البلدية ضخام الأجساد الذين كانوا في منتصف العقد الثالث، ويرتدون سراويل العمل ويعتمرون الخوذات واقفين وهم يحدّقون إلى داخل حفرة. وقد وُضِعَت حولهم بإهمال حلقة من شريط التطويق. كان أحدهم يحمل قدحاً من القهوة، والآخر يأكل موزة، والثالث يحاول النقر على هاتفه المحمول من دون خلع قفازه. لم يكن الأمر يسير على ما يرام، والحفرة ما زالت حيث هي. ورغم ذلك، ما زلنا نستغرب عندما ينهار العالم كلّه في أزمة مالية؛ عندما لا يفعل الناس أكثر من التجوّل وتناول الموز والنظر إلى حفرٍ في الأرض طوال اليوم.

تحقّق من ساعته؛ بقيت دقيقة واحدة. وقف على حافة المنصة، ووازن باطن حذائه على الحافة. إنه ارتفاع لا يزيد عن متر ونصف كما قدّر. إنه متر وستون ربما. هناك رمزية معيّنة في أن يأخذ قطار حياته؛ وهو لا يحبّ هذا كثيراً. كما اعتقد أنه لا يجب على سائق القطار رؤية فظاعة الأمر، ولهذا السبب قرّر القفز عندما يقترب القطار كثيراً، كي يقع على القضبان إلى جانب العربة الأولى بدلاً من الزجاج الأمامي الكبير في المقدّمة. نظر في الاتجاه الذي سيأتي منه القطار، وبدأ بالعدّ ببطء. فمن المهم أن يكون التوقيت مناسباً تماماً. كانت الشمس تُشرق للتوّ، وتضيء بقوة على عينيه؛ مثل طفل أُعطِيَ مشعلاً للتو.

وعندها، سمع الصرخة الأولى.

نظر أوف في الوقت المناسب تماماً ليرى رجلاً يرتدي بذلة ومعطفاً أسودين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهـو يبـدأ بالتمايـل ذهابـاً وإياباً؛ مثـل باندا أُعطِيَ جرعة زائدة من الفاليوم. اسـتمرّ الأمر لثانية تقريباً، ثم بدأت ذراعاه تهتزّان بتشـنّج. وبعد ذلك، وكأنّ تلك اللحظة كانت عبارة عن سلسلة طويلة من الصور، وقعت الصحيفة من يديه، وأغميَ عليه، ووقع عن الحافة على المسار بضربة قوية؛ وكأنه صندوقٌ من خليط الإسمنت.

عندها، بدأت الفتيات المدخّنات اللواتي يضعن شـعارات مجلس المحافظة على صدورهن بالصياح ذعراً. أما الشباب حاملو المخدرات فراحوا يحدّقون إلى المسـار وأيديهم متمسّـكة بأحزمة حقائبهم، وكأنهم خائفون من احتمال وقوعها. وقف أوف على حافة المنصة على الجانب الآخر، ونظر بغضب إلى كلّ منهم.

«بحق الله!». قال أوف لنفسـه أخيراً بينما قفز إلى المسـار، ونادى واحداً من حاملي الحقائب على المنصة قائلاً له: «أمسك قبضتي!». عندها، جرّ الشاب عديم الجدوى نفسه ببطء إلى الحافة. رفع أوف الرجل الذي يرتدي بذلة بطريقة أولئك الرجال الذين لم تطأ أقدامهم الصالة الرياضية يوماً، ولكنهم قضوا حياتهم كلها وهم يحملـون الحجـارة تحت أذرعهم. ورفع جسـم الرجـل إلى أحضان حامل الحقيبة بالطريقـة التـي غالبـاً لـن يتمكّـن الرجال الذين يقـودون أودي، ويرتدون سـراويل الركض من ألوان النيون الساطعة، من القيام بها.

«لا يمكنه أن يبقى هنا في مسار القطار. أنتم تفهمون هذا أليس كذلك!؟».

فأومأ حاملو الحقائب بارتباك. وأخيراً، بفضل جهودهم الجماعية تمكّنوا من سـحب جسـم الرجل إلى المنصة. كانت نسـاء مجلس المحافظة ما زلن يصرخن، وكأنهنّ يعتقدن حقّاً أن هذا نهج بنّاء في ظلّ هذه الظروف. يبدو أن الرجل يتنفس، ولكنّ أوف بقي هناك على المسـار. سـمع صوت القطار القادم. إنها ليسـت تماماً الطريقة التي خطّط لها، ولكنها يجب أن تفي بالغرض.

ثم ذهب بهدوء إلى منتصف المسار، ووضع يديه في جيبيه وحدق إلى المصابيح الأمامية. سـمع صافرة التحذير، وشـعر بالسـكة تهتزّ بقوة تحت قدميه، وكأنها تحاول شحن ثور مدعوم بالتستوستيرون. تنفس بعمق. وفي خضمّ هذا الجحيم من الاهتزاز والصراخ وزعيق مكابح القطار الذي تقشعرّ له الأبدان شعر بارتياح عميق.

أخيراً.

بالنسبة إلى أوف، كانت اللحظات القادمة تمتد؛ وكأنّ الزمن نفسه قد داس مكابحه وجعل كل شيء حوله يسافر بشكلٍ بطيء. تحوّل انفجار الأصوات إلى همس منخفض في أذنيه، فيما القطار يقترب ببطءٍ وكأنّه يتمّ سحبه من قبل زوج من الثيران المتهالكة. كانت المصابيح الأمامية تومض في وجهه بيأس. وفي الفترة الفاصلة بين ومضتين، وبينما هو لم يصبح أعمى، وجد نفسه ينظر إلى عينَي سائق القطار. لا يمكن أن يكون عمره أكثر من عشرين عاماً؛ إنه واحد من أولئك الذين لا يزال زملاؤهم الأكبر سنّاً يسمّونهم «الجرو».

حدّق أوف إلى وجه الجرو، وأحكم قبضتيه في جيبيه وكأنه يَشتُمُ نفسه بسبب ما كان على وشك القيام به. ولكنْ ليس باليد حيلة حسبما يعتقد. هناك طريقة صحيحة للقيام بالأمور، وطريقة خاطئة.

إذاً، ها هو القطار على بعد حوالي خمسة عشر متراً، وها هو أوف يشتم بغضب، ثم خرج من الطريق، وقفز عائداً إلى المنصّة بهدوء وكأنه كان يقف هناك لإحضار فنجان من القهوة.

كان القطار يقف عند مستواه عندما تمكّن السائق من إيقافه، وقد امتصّ الرعب كل الدم من وجه الجرو، وهو يحاول السيطرة على انهمار دموعه بوضوح. نظر الرجلان إلى بعضهما بعضاً عبر نافذة القاطرة؛ وكأنهما خرجا للتو من صحراء مروعة، وأدركا الآن أن كليهما لم يكونا آخر البشر على وجه الأرض. واحد ارتاح لإدراكه ذلك، والآخر شعر بخيبة أمل.

أومأ الشاب في القاطرة بعناية، فأومأ أوف باستسلام.

صحيح أن أوف لم يعد يرغب في الحياة، ولكنه ليس من ذاك النوع من الرجال الذين يدمرون حياة شخص آخر عن طريق النظر إلى عينيه مباشرة قبل أن يتحوّل الجسد إلى عجينة يسيل منها الدم على الزجاج الأمامي للشخص المذكور. اللعنة، أوف ليس من ذلك النوع من الرجال. لا والده ولا صونيا سيسامحانه على ذلك يوماً.

«هل أنت بخير؟». سأله واحد من معتمري الخوذات.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«دقيقة أخرى إضافية وكان سيُقضى عليك!». صرخ آخر.

كانوا يقفون هناك وهم يحدقون إليه؛ تماماً كما كانوا يقفون ويحدقون إلى تلك الحفرة. يبدو أن هذه منطقة اختصاصهم الرئيس، أي التحديق إلى الأشياء. حدّق أوف أيضاً.

«أعني، لو بقيت هناك ثانية إضافية». أوضح الرجل الذي كان لا يزال يحمل موزةً في يده.

«كان من الممكن أن يصبح ذلك سيئاً للغاية». سخر معتمر الخوذة الأول.

«سيّئاً حقاً». وافقه الآخر.

«في الواقع، كان من الممكن أن يموت». أوضح الثالث.

«أنت بطل حقيقي!».

«أنقذت حياتهم!».

«حياته. أنقذت حياته». فصحّح له أوف، وسمع صوت صونيا حين تفوه بكلماته كما لو أنها من يتكلم.

«كان سيموت لولاك». كرّر الثالث وهو يقضم من موزته.

وعلى السكة، توقّف القطار وبدت جميع أضواء الطوارئ الحمراء مضاءة، وكان ينفخ ويصرخ مثل شخص سمين اصطدم بجدار للتو. هناك عدد كبير من الأمثلة عمّا يَفترضُ أوف أن يكون عليه مستشارو تكنولوجيا المعلومات والناس سيّئو السمعة الذين يأتون ويقفون على المنصة دائخين. وضع أوف يديه في جيبَي سرواله، ثم قال وهو ينظر باستياء إلى الحشد الفوضوي من الناس على المنصة:

«أفترض الآن أنه سيكون لديكم الكثير من القطارات المتأخّرة اللعينة أيضاً».

«نعم». أجاب الرجل الأوّل الذي يعتمر خوذة.

«أفترض ذلك». قال الآخر.

«الكثير والكثير من التأخير». وافق الثالث.

عندها، تجاوزهم أوف هم الثلاثة من دون التفوه بأي كلمة.

«إلى أين تذهب؟ أنت بطل!». صرخ معتمر الخوذة الأول في وجهه متفاجئاً.

«نعم». صرخ الثاني.

«بطل!». صرخ الثالث.

غير أن أوف لم يجب، بل مشى متجاوزاً الرجل وراء الزجاج، وخرج إلى الشوارع المغطاة بالثلوج، وبدأ بالمشي نحو المنزل.

كانت البلدة تستيقظ ببطء حوله، بسياراتها أجنبية الصنع وإحصائياتها وبطاقات الائتمان فيها والديون وكل حماقاتها الأخرى.

هكذا دُمِّرَ أيضاً هذا اليوم، أكّد لنفسه بمرارة.

وبينما كان يسير إلى جانب مرأب الدراجات عند منطقة وقوف السيارات، رأى سكودا بيضاء قادمة من ناحية منزل أنيتا ورون. وكانت امرأة حازمة تضع نظارة جالسة على مقعد الراكب، وذراعاها مليئتان بالملفات والأوراق. وخلف عجلة القيادة جلس الرجل ذو القميص الأبيض. اضطرّ أوف إلى أن يقفز مبتعداً عن الطريق ليتجنّب أن تدهسه السيارة التي كانت تسابق الريح.

رفع الرجل سيجارة مشتعلة مشيراً إلى أوف عبر زجاج السيارة الأمامي، وحيّاه بشبه ابتسامة متعالية؛ وكأن أوف هو المخطئ لأنه في الطريق، فيما السائق سخي بما يكفي ليتجاهل الأمر.

«أبله!». صرخ أوف لسائق السكودا، لكن الرجل المرتدي القميص الأبيض لم يردّ على الإطلاق.

حفظ أوف رقم لوحة التسجيل قبل أن تختفي السيارة عند المنعطف.

«سرعان ما سيأتي دورك أيها الغبي العجوز». قال صوت حاقد من ورائه.

عندها، استدار أوف وقبضته مرفوعة بشكل فطري، فوجد نفسه يحدّق إلى انعكاس صورته الخاصة على عدستَي نظارة العشبة الشقراء التي كانت تحمل ذاك الكلب المهجّن اللعين بين ذراعيها. وزمجر الكلب في وجهه.

«كانا من المكتب الاجتماعي». سخرت وهي تشير نحو الطريق.

في منطقة وقوف السيارات، رأى أوف الأبله آندرز يُخرِج الأودي من مرأب منزله. لاحظ أوف أن لديها مصابيح أمامية جديدة على شكل موجة، ومن المفترض أنها صُمِّمَت بطريقة مناسبة لكي لا يستطيع أحد في الليل تجنّب رؤية السيارة الآتية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

التي يقودها مغفّل لعين.

«ما شانك أنتِ؟!». سأل أوف العشبة.

شدّت شفتيها بنوع من التجهّم، في ما يشبه ابتسامة لا تقدر أن تحقّقها امرأة تمّ حقن شفتيها بالنفايات البيئية والسموم العصبية.

«هذا من شأني. فهذه المرّة سيضعون ذاك الرجل العجوز اللعين المقيم في أسفل الشارع في مأوى، وبعد ذلك سيأتي دورك!».

ثم بصقت على الأرض بجانبه، ومشت نحو الأودي. راقبها أوف وصدره يتحرك صعوداً وهبوطاً تحت قميصه. وبينما كانت الأودي تتأرجح، أظهرت له إصبعها الوسطى من النافذة. للوهلة الأولى، رغب أوف في أن يركض وراءهما ويمزّق تلك الصفائح المعدنية الألمانية الوحشية بمن فيها؛ أي الغبيين اللذين يهدران المصابيح الأمامية على شكل موجة، وأن يحوّلها إلى قطع صغيرة. ولكنه بعد ذلك شعر فجأة وكأن أنفاسه مقطوعة، وكأنه ركض بأقصى طاقته عبر الثلوج. لذا، مال إلى الأمام، ووضع يديه على ركبتيه، ولاحظ أنه يلهث بسرعة من شدة غضبه، وقلبه ينبض بسرعة.

وبعد دقيقة أو نحو ذلك وقف. كانت هناك حركة بسيطة في جفن عينه اليمنى. ذهبت الأودي، فاستدار أوف وتوجّه ببطء إلى منزله وهو يضغط بيده على صدره.

وعندما وصل إلى بيته توقف عند المخزن، وراح يحدّق نحو الأسفل إلى حفرة في الثلوج على شكل هرٍّ.

هناك هرٌّ في أسفلها.

كان يجب أن يعرف.

16

رجل كان يُدعى أوف وشاحنة في الغابة

قبل ذلك اليوم، عندما جلس الصبي العنيد والمتلعثم قليلاً بجسمه العضلي وعينيه الزرقاوين الحزينتين بجانب صونيا على متن القطار، لم تكن هناك حقّاً سوى ثلاثة أشياء أحبّتها في حياتها من دون قيد أو شرط: الكتب، ووالدها، والهررة.

من الواضح أنّها كانت تحظى بقدر كبير من الاهتمام. فقد أتى العشّاق إليها من جميع الأشكال والأحجام. إذ كانوا طوال القامة، وقصار القامة، وذوي بشرة قاتمة، وشقراً، ومحبّين للمتعة، ومملّين، وأنيقين، ومتباهين، ووسيمين، وجشعين... وإن لم يكونوا من أولئك المبهورين بالقصص من قرية والد صونيا، والمحتفظين بواحد أو اثنين من الأسلحة النارية في منزل خشبي معزول هناك في الغابة، فلقد كانوا على الأرجح لجوجين قليلاً أيضاً. لكن لم ينظر أحد منهم إليها بالطريقة التي نظر بها إليها الشاب الذي جلس بجانبها على متن القطار؛ وكأنّها الفتاة الوحيدة في العالم.

أحياناً، وخصوصاً في السنوات الأولى، شكّكت بعض صديقاتها بالقرار الذي اتّخذته. إذ كانت صونيا جميلة جدّاً، ووجد الناس حولها ذلك مهمّاً جدّاً للاستمرار بترداده على مسمعيها. كانت أيضاً تحبّ الضحك. ومهما ألقت الحياة عليها من صعاب، كانت من نوع الأشخاص الذين ينظرون إلى الجانب الإيجابيّ للأمور. لكن أوف كان... حسناً، أوف كان أوف. الأمر الذي كان الناس المحيطون بصونيا يردّدونه لها دائماً أيضاً.

لقد كان رجلاً عجوزاً غاضباً منذ أن بدأ دراسته الابتدائية. كانوا يصرّون على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا، ويقولون لها إن بإمكانها أن تكون مع شخص أفضل بكثير.

لكن، بالنسبة إلى صونيا، لم يكن أوف قط عنيداً وغريب الأطوار وحادّ الطباع. بالنسبة إليها، كان باقة الورد الزهرية الصغيرة في عشائهما الأوّل. كان بذلة أبيه البنيّة الضيقة على كتفيه العريضتين. أصر على المبادئ: العدالة، والنزاهة، والعمل الجادّ، والعالم حيث الحقّ يجب أن يكون الحقّ. ولم يكن كذلك ليتمكّن من الحصول على ميدالية أو شهادة أو تربيتة على ظهره، ولكن فقط لأنّ هذا ما يفترض أن يكون. فهمت صونيا أنّه لم يعد هناك رجالٌ كثرٌ من نوعه، ولذلك تمسّكت به. ربّما لم يكتب لها القصائد أو يغنّي لها الأغاني أو يعود إلى المنزل مع هدايا ثمينة، ولكن لم يذهب أي شابٍّ آخر في الطريق الخطأ على متن القطار لساعات طويلة كل يوم؛ فقط لمجرّد أنه يحبّ أن يجلس بجانبها بينما هي تتحدّث.

وعندما أمسكت ذراعه المكتنزة، ودغدغته من تحت إبطه كي يتفتّح وجهه العابس بابتسامة، كان الأمر مثل طبقة من الجصّ تتصدّع حول قطعة من المجوهرات. وعندما حدث ذلك، بدأ شيء ما بالغناء داخل صونيا. إنها تنتمي إليها فقط، إلى تلك اللحظات.

لم تغضب منه في تلك الليلة الأولى التي تناولا فيها العشاء معاً؛ عندما أخبرها أنه قد كذب بشأن خدمته العسكرية. بالطبع، غضبت منه بعد ذلك كثيراً، وفي الكثير من المناسبات أيضاً، ولكن ليس في تلك الليلة.

«يُقال إنّ أفضل الرجال يولدون من أخطائهم، وإنهم غالباً ما يتحسّنون في وقت لاحق؛ أكثر مما لو لم يقوموا بأي شيء خاطئ». قالت له بلطف.

«من قال ذلك؟». سألها أوف، ونظر إلى مجموعة من ثلاث سكاكين كانت أمامه على الطاولة بالطريقة التي ينظر المرء فيها إلى صندوق فتحه أحدهم وقال: «اختر سلاحك».

«شكسبير». قالت صونيا.

«هل هذا جيد؟». تساءل أوف.

«إنه أمر رائع». أومأت صونيا مبتسمةً.

«لم يسبق لي أن قرأت أيّ شيء معه». تمتم أوف محدقاً إلى مفرش المائدة.

«له». صحّحت له صونيا، ووضعت يدها بمحبّة على يده.

خلال ما يقارب أربعة عقود لهما معاً، علّمت صونيا القراءةَ والكتابةَ لمئات التلاميذ الذين يعانون من صعوبات في التعلّم، وجعلتهم يقرأون أعمال شكسبير التي تمّ جمعها. غير أنها في الفترة نفسها لم تتمكّن من جعل أوف يقرأ ولو مسرحية واحدة لشكسبير. ولكن، بمجرّد انتقالهما إلى منزلهما المزوّد بسُطيحة، قضى كلّ مساء لمدّة أسابيع في مخزن الأدوات. وعندما أنهى عمله، كانت في غرفة المعيشة أجمل خزانة للكتب قد رأتها في حياتها.

«يجب أن تحتفظي بها في مكان ما». تمتم لها وهو يشير إلى جرح صغير على إبهامه بطرف مفكّ البراغي.

فتسلّلت إلى ذراعيه، وقالت له إنها تحبّه.

فأومأ.

لقد سألته مرّة واحدة فقط عن آثار الحروق على ذراعيه.

وكان عليها أن تكتشف الظروف الدقيقة التي أدت إلى خسارته منزله الذي ورثه عن والديه، من خلال جمع الشظايا الصغيرة التي قدّمها أوف وهو يكشف على مضض عما حدث. وفي النهاية، اكتشفت كيف حصل على آثار الحروق. وعندما سألتها إحدى صديقاتها عن سبب محبتها له، أجابتها أنّ معظم الرجال هربوا من قسوة الحياة، ولكن أوف ركض إليها.

لم يلتقِ أوف والد صونيا أكثر من بضع مرات يمكن عدّها على الأصابع. فقد عاش الرجل العجوز بعيداً في الشمال، في مكان بعيد في الغابة، وكأنه قد درس خريطة مراكز التجمع السكاني في البلاد قبل أن يستنتج أن ذاك المكان هو الأبعد عن الناس الآخرين، حيث يستطيع المرء أن يعيش.

توفيت والدة صونيا على سرير الولادة، ولم يتزوج والدها بعدها قط.

«أنا متزوّج، لكن زوجتي ليست في المنزل في الوقت الحالي». هذا ما كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقوله في المرات القليلة التي تجرّأ فيها أيّ شخص على طرح هذا السؤال.

انتقلت صونيا إلى البلدة المحليّة عندما بدأت دراستها في الثانوية العليا- كلّ دراستها كانت مرتبطة بمواد العلوم الإنسانية. نظر والدها إلى وجهها بسخط لا حدود له عندما اقترحت عليه أن يذهب معها، وتذمّر قائلاً: «ما الذي يمكنني فعله هناك؟ أألتقي القوم؟». كان دائماً يلفظ كلمة «قوم» وكأنها كلمة قَسَم. لذا، تركته صونيا على سجيّته. وفي ما عدا زياراتها له في عطلة نهاية الأسبوع، ورحلته الشهرية في الشاحنة إلى محلّ بقالة في أقرب قرية، لم يبقَ لديه سوى إرنست للرفقة.

كان إرنست أكبر هرّ مزرعة في العالم. وعندما كانت صونيا صغيرة كانت تظنّ فعلاً أنه فرسٌ صغيرة. كان يجيء إلى بيت أبيها ويذهب متى يشاء، ولكنه لم يعش هناك. ولم يكن أحد يعرف المكان الذي كان يعيش فيه في الواقع. أسمَتهُ صونيا إرنست تيّمناً بإرنست همنغواي. لم يزعج والدها نفسه بالكتب قط، ولكن عندما جلست ابنته لتقرأ الصحف في سنّ الخامسة لم يكن غبيّاً، ولم يحاول تجنّب القيام بشيء حيال ذلك. «لا يمكن لفتاة أن تقرأ هُراءً كهذا؛ فسوف تفقد عقلها». قال لها وهو يدفعها نحو منضدة المكتبة في القرية. لم يكن أمين المكتبة العجوز يعرف ما يعنيه بذلك تماماً، ولكن لم يكن هناك أيّ شكّ بشأن ذهن الفتاة المتميّز جداً.

وهكذا، صار من الضروري أن تشمل الرحلة الشهرية إلى البلدة زيارة محلّ البقالة والمكتبة. هذا ما قرّره أمين المكتبة ووالدها معاً، من دون أيّ حاجة خاصة إلى مناقشة الأمر أكثر من ذلك. وبحلول الوقت الذي تخطّت فيه صونيا الثانية عشرة من عمرها، كانت قد قرأت كلّ الكتب مرّتين على الأقل. وتلك التي أحبّتها- مثل الرجل العجوز والبحر- قرأتها مرّات عديدة حتى أضاعت العدّ.

إذاً، انتهى الأمر بإرنست وهو يُدعى إرنست. ولم يملكه أحد. لم يكن يتكلّم، ولكنه أحبَ الذهاب إلى الصيد مع والدها الذي كان يقدّر حسناته. وكانا يتقاسمان ما يصطادانه بالتساوي عندما يصلان إلى المنزل.

أوّل مرّة اصطحبت فيها صونيا أوف معها إلى البيت الخشبي القديم في الغابة، جلس أوف ووالدها بصمت في وجهَي بعضهما، وراحا يحدّقان إلى طعامهما لمدّة ساعة تقريباً، بينما كانت هي تحاول تشجيع خوضهما في شكل من أشكال الحوار

المهذّب. ولكن، لم يتمكّن أيّ من الرجلين من فهم ما كانوا يفعلونه هناك معاً؛ بصرف النظر عن حقيقة أن اجتماعهم معاً أمرٌ مهمّ بالنسبة إلى المرأة الوحيدة التي يهتمّ بها كُلٌّ منهما. احتجّ كلاهما حول الترتيب بأكمله، بإصرار وصخب، ولكن من دون نجاح.

حسم والد صونيا قراره بشكل سلبيّ منذ البداية. فكلّ ما عرفه عن هذا الشاب هو أنه جاء من المدينة، وأنّ صونيا قد ذكرت أنه لا يحبّ الهررة كثيراً؛ ممّا أعطى الوالد سبباً كافياً للنظر إلى أوف كشخص لا يمكن الاعتماد عليه.

أما بالنسبة إلى أوف، فقد شعر أنه كان في مقابلة عمل، وهو لم يكن قط بارعاً جدّاً في هذا النوع من الأشياء. ولذلك، عندما لم تكن صونيا تتكلّم- وهذا ما فعلته تقريباً كل الوقت- كان هناك نوع من الصمت في الغرفة، الصمت الذي يمكن أن ينشأ فقط بين رجل لا يريد أن يخسر ابنته ورجل لم يفهم تماماً بعد أنه تم اختياره لأخذها بعيداً من هناك. أخيراً، ركلت صونيا ساق أوف لتجبره على قول شيء ما، فرفع نظره عن صحنه، ولاحظ الغضب الواضح في عينيها. عندها، تنحنح ونظر حوله بنوع من اليأس كي يجد شيئاً معيناً ليسأل الرجل العجوز عنه. لأن هذا ما تعلّمه أوف؛ إذا لم يكن لدى المرء شيء ليقوله فعليه أن يجد شيئاً ليسأل عنه. وإذا كان هناك شيء واحد يجعل الناس ينسون أن يكرهوا أحداً، فهو أن يُمنحوا الفرصة للحديث عن أنفسهم.

وبعد طول انتظار، وقع نظر أوف على الشاحنة الظاهرة عبر نافذة مطبخ الرجل العجوز.

«إنها من طراز L10، أليس كذلك؟». قال مشيراً إلى الشاحنة بشوكته.

«نعم». أجاب الرجل العجوز وهو ينظر إلى صحنه.

«الصاب تُصنَّع منها الآن». قال أوف مع إيماءة قصيرة.

«سكانيا!». زمجر الرجل العجوز محدّقاً إلى أوف.

ثم غرقت الغرفة مجدداً بذلك الصمت الذي يمكن أن ينشأ فقط بين حبيب امرأة ووالدها.

نظر أوف إلى صحنه بتجهّم، فيما ركلت صونيا والدها على ساقه، فنظر إليها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بغضب؛ إلى أن رأى نظرة عينيها. لم يكن بغباء رجل لم يتعلّم أن يتجنّب ما هو على وشك الحدوث. لذلك تنحنح بغضب، وتناول طعامه بتأنٍّ، وقال بصوت منخفض أقل اتّهاماً:

«فقط لأنّ رجلاً ما في شركة الصاب لوّح بمحفظة نقوده واشترى المصنّع فهي لن تتوقّف عن كونها سكانيا». ثم أبعد ساقيه قليلاً عن حذاء ابنته.

كان والد صونيا يقود شاحنات سكانيا دائماً. ولم يفهم السبب الذي يدفع الآخرين إلى شراء أيّ نوع آخر. ثمّ، وبعد سنوات من ولاء المستهلك، اندمجت الشركة مع الصاب. وكان ذلك غدراً لم يغفره لها تماماً.

وأوف الذي أصبح بدوره مهتمّاً جدًّا بسيارة السكانيا عندما اندمجت شركتها مع شركة الصاب، نظر من النافذة بعناية وهو يمضغ البطاطا، ثم سأل العجوز:

«هل تسير بشكلٍ جيّد؟».

«لا». تمتم الرجل العجوز غاضباً، وعاود الاهتمام بصحنه. «لا يعمل أي من نماذجها بشكلٍ جيّد. لم يتمّ تصنيع أيّ منها بشكل صحيح. ويريد الميكانيكيون نصف ثروة لإصلاح أيّ شيء فيها». أضاف وهو ينظر إلى الأسفل كما لو أنه في الواقع يشرح لشخص يجلس تحت الطاولة.

«يمكنني أن ألقيَ نظرةً عليها إذا سَمَحتَ لي». قال أوف وقد بدا متحمّساً فجأة.

وكانت تلك هي المرّة الأولى التي تراه فيها صونيا متحمسّاً حول أيّ شيء.

نظر الرجلان إلى بعضهما للحظة، ثم أومأ والد صونيا. وأومأ أوف باقتضاب أيضاً. وبعد ذلك وقفا بعزم، بالطريقة التي قد يتصرّف فيها رجلان اتّفقا للتو على الذهاب وقتل رجل ثالث. وبعد بضع دقائق، عاد والد صونيا إلى المطبخ متّكئاً على عصاه، وغرق في كرسيه مصدراً تمتمته غير الراضية المعتادة. جلس هناك لمدّة طويلة بينما راح يحشو غليونه بعناية، ثم في النهاية، أوَمَأ باتّجاه أواني الطهي وتمكّن من القول:

«لطيف».

«شكراً أبي». وابتسمت.

فقال:»أنت طَهَيتِهِ، وليس أنا».

«الشكر لم يكن لأجل الطعام». أجابت وهي تأخذ الصحون، وقبّلت والدها بحنان على جبينه، في الوقت نفسه الذي رأت فيه أوف يغوص تحت غطاء محرّك الشاحنة في الفناء.

لم يقل والدها شيئاً، بل وقف بهدوء وأخذ الصحيفة من المطبخ. وفيما كان في منتصف الطريق إلى كرسيه في غرفة المعيشة توقف قليلاً، ووقف هناك محتاراً ومتّكئاً على عصاه. ثم سألها أخيراً من دون أن ينظر إليها:

«هل يصطاد السمك؟».

« لا أعتقد ذلك». أجابت صونيا.

أوَمَأَ والدها بخشونة، ووقف صامتاً لفترة طويلة. وبعد ذلك، تذمّر قائلاً قبل أن يضع غليونه في فمه ويختفي في غرفة المعيشة: «حسناً. إذاً، يجب أن يتعلّم هذا».

لم تسمعه صونيا يوماً يُطري أيّ شخص آخر إطراءً أفضل من هذا الإطراء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

17

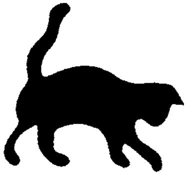

رجلٌ يُدعى أوڤ وإزعاج هرّ

«هل هو ميت؟». سألت پارڤانيه برعب وهي تندفع إلى الأمام بأسرع ما يسمح لها بطنها وتقف هناك محدقة إلى الحفرة.

«أنا لست طبيباً بيطريّاً». ردّ أوڤ، ولكن ليس بطريقة غير وديّة، بل وكأنّه فقط يُعطي معلومة.

إنه لا يفهم من أين تظهر هذه المرأة في كلّ وقت. ألا يستطيع الرجل أن يقف في حديقته الخاصة بهدوء وصمت قرب حفرة في الثلوج على شكل هرّ بعد الآن؟

«عليك أن تُخرِجُه!». صرخت وهي تضربه على كتفه بقفازها.

بدا أوڤ مستاءً، ودفع يديه أعمق في جيبَي سترته. وكان لا يزال يُعاني قليلاً من صعوبة في التنفس.

«لست مضطرّاً إلى القيام بذلك أبداً».

«يا إلهي. ما هي مشكلتك؟».

«أنا لا أتّفق بشكلٍ جيّد مع الهررة». أعلمها أوڤ وهو يثبّت عقبيه في الثلج. لكنّ نظراتها عندما استدارت جعلته يبتعد قليلاً.

«ربما هو نائم». اقترح محدّقاً إلى الحفرة، قبل أن يضيف: «وإلا فسوف يخرج عندما يذوب الثلج».

وعندما حلّق القفاز إلى جانبه مرة أخرى، أكد لنفسه أن الحفاظ على مسافة آمنة كان فكرة سليمة جدّاً.

لكنّ الشيء التالي الذي عرفه هو أن پارڤانيه غاصت في الثلوج، ثم ظهرت مجدّداً بعد بضع ثوانٍ مع المخلوق الصغير المتجمّد بين ذراعيها. كان يبدو كأربع قطعٍ من مثلجات الأسكيمو ملفوفة بطريقة خرقاء داخل وشاح ممزّق.

«افتح الباب!». صرخت وهي تفقد هدوءها حقاً.

غرز أوف نَعلَي حذائه في الثلج. فهو بالتأكيد لم يبدأ نهاره هذا بنيّة السماح للنساء أو الهررة بدخول منزله، وأراد منها أن تفهم ذلك بوضوح. لكنّها تقدّمت نحوه مباشرة والحيوان بين ذراعيها، وهناك عزمٌ في خطواتها. إنها حقّاً ليست سوى مسألة تتعلّق بسرعة ردود فعله؛ سواء أكانت ستمشي قربه أو تتجاوزه. لم يَرَ أوف قط امرأة أسوأ منها عندما يتعلّق الأمر بالاستماع إلى ما يقوله الناس لها بلياقة. شعر بصعوبة في التنفّس مرّةً أُخرى، فحاول بصعوبة السيطرة على نبضات قلبه.

استمرت بالتقدّم، فأفسح لها الطريق، وخطت متجاوزةً إيّاه.

جلب الهر الذي حملته بين ذراعيها بإصرار، تَدَفُّقاً من الذكريات إلى رأس أوف قبل أن يتمكّن من وضع حدٍّ لها؛ ذكريات عن إرنست، إرنست العجوز الغبيّ الذي أحبّته صونيا كثيراً.

«افتح الباب!». صرخت پارڤانيه وهي تلتفت نحو أوف فجأة؛ وكأن هناك خطراً ما أو إصابة.

فسحب أوف المفاتيح من جيبه، وكأنّ شخصاً آخر قد سيطر على ذراعه. وكان يجد صعوبةً في تقبّل ما يفعله، وهناك صوت يصرخ في رأسه: لا، في حين أن جسده مشغولٌ بنوع من تمرّد المراهقين.

«أَحضِر لي بعض البطانيّات!». أمرته پارڤانيه وهي تعبر العتبة ولا تزال منتعلة حذاءها.

وقف أوف هناك بضع لحظات، واستعاد أنفاسه قبل أن يمشي وراءها ببطءٍ.

«إن المكان بارد جدّاً هنا. شغّل أجهزة التدفئة!». تفوّهت پارڤانيه بالكلمات وكأنّ هذا شيء واضح تماماً، مشيرةً بفارغ الصبر إلى أوف، بينما كانت تضع الهرّ على أريكته.

«لن يكون هناك أيّ جهاز تدفئة شغّال هنا». أعلن أوف بحزم، وتوقّف في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مدخل غرفة المعيشة وهو يتساءل عمّا إذا كانت ستحاول أن تضربه مرّة أُخرى بقفّازها إذا طلب منها على الأقلّ وضع بعض الصحف تحت الهرّ. وعندما التفتت نحوه مجدّداً، قرّر أن يَتناسى الموضوع. لا يعرف أوف إذا كان قد سبق له يوماً أن رأى امرأة غاضبة بهذا الشكل في حياته كلّها.

«لديّ بطانية في الطابق العلوي». قال بعد طول انتظار، متجنّباً نظراتها بإبدائه الاهتمام فجأة بالمصباح في القاعة.

«إذاً، أحضرها!».

بدا أوف وكأنّه يكرّر كلماتها لنفسه وإنّما بصمت، بصوت ازدراء؛ ولكنّه خلع حذاءه، وعبر غرفة المعيشة على مسافة حذرة من قفّازها الضارب.

وعلى طول الطريق، صعوداً ونزولاً على الدرج، راح يتمتم لنفسه ويتساءل عن سبب كون الحصول على بعض السلام والهدوء في هذا الشارع أمراً صعباً. وفي الطابق العلوي، توقّف وأخذ نفساً عميقاً عدّة مرّات، فتلاشى الألم الذي كان يشعر به في صدره، ونبض قلبه بشكلٍ طبيعي مجدّداً. يحدث ذلك بين الحين والآخر، وهو لم يعد يتوتّر حيال هذا الأمر. إذ يمرّ ذلك مرور الكرام دائماً، وهو لن يكون بحاجة إلى هذا القلب لفترة أطول، ولذلك لا يهمّه الأمر في كلتا الحالتين.

سمع أصواتاً صادرة من غرفة المعيشة، وبالكاد استطاع تصديق أذنيه. وبالنظر إلى كيفية استمرار جيرانه بمنعه من الموت، فهم بالتأكيد لن يخجلوا عندما يتعلّق الأمر بقيادة رجل الى حافة الجنون والانتحار. هذا أمر مؤكّد.

عندما نزل أوف الدرج حاملاً البطانيّة في يده، كان الشاب البدين من البيت المجاور يقف في منتصف غرفة معيشته، وهو ينظر بفضول إلى الهرّ وپارڤانيه.

«مرحباً يا رجل!». قال بمرح ولوّح لأوف.

لم يكن يرتدي سوى قميص؛ على الرغم من تساقط الثلوج في الخارج.

«حسناً». قال أوف، ثم صمت مصدوماً من حقيقة أنه يمكنك الصعود إلى الطابق العلوي في منزلك للحظة، لتجد عندما تعود إلى الأسفل أنّك قد بدأت على ما يبدو عملية ضيافة وفطور.

«سمعْتُ أحدهم يصرخ، وأردت فقط التأكّد من أنّ كلّ شيء على ما يرام

هنا». قال الشاب مبتسماً، ومرخياً كتفيه.

انتزعت پارڤانيه البطانيّة من يد أوف، وبدأت بلفّ الهرّ بها.

«لن تتمكّني أبداً من تدفئته هكذا». قال الشاب بسرور.

«لا تتدخّل». قال أوف الذي- وإن لم يكن ربما خبيراً في إذابة الجليد عن الهررة- لا يقدر أن يتقبّل على الإطلاق وجود أشخاص يتمشّون في منزله، ويصدرون الأوامر حول كيفية إنجاز الأمور.

«اخرس، أوف!». قالت پارڤانيه، ثم نظرت إلى الشاب نظرة متوسلة وتابعت: «إذاً، ماذا سنفعل؟ إنه متجمّد!».

«لا تطلبي مني أن أخرس». تمتم أوف.

فقالت پارڤانيه: «سيموت».

عندها، قال أوف في محاولة جديدة لاستعادة السيطرة على الوضع: «عن أيّ موت تتحدثين؟! إنه بارد قليلاً...»

غير أن الحامل وضعت سبابتها على شفتيها وأسكتته، فبدا أوف مُغتاظاً جدّاً من ذلك، وكأنه سيندفع في نوع من الدوران وهو يستشيط غضباً.

عندما حملت پارڤانيه الهرّ كان لونه قد بدأ يتحوّل من الأرجوانيّ إلى الأبيض، فبدا أوف أقلّ ثقة بنفسه عندما لاحظ ذلك، وحدّق إلى پارڤانيه، ثم تراجع على مضض مفسحاً الطريق.

خلع الشاب البدين قميصه.

«ولكن، ما... هذا؟ يجب أن يكون... ماذا تفعل؟». تلعثم أوف.

وانتقلت نظراته إلى پارڤانيه عند الأريكة، وإلى الهرّ الذي ذاب الجليد عنه بين ذراعيها فراح الماء يقطر على الأرض، ثمّ إلى الشاب الواقف عاري الصدر في منتصف غرفة معيشة أوف والدهون ترتجف فوق صدره وكأنّه كمية كبيرة من المثلجات التي ذابت ثم تجمّدت مجدداً.

«أعطيني إياه». قال الشاب بثقة، ومدّ ذراعيه السمينين كجذوع الأشجار نحو پارڤانيه.

وعندما سلّمته الهرّ، حمله بين أحضانه، وشدّه إلى صدره وكأنه يحاول أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يحضّر لُفافة لحمٍ عملاقة من الهرّ.

«بالمناسبة، اسمي جيمي». قال لپارڤانيه وابتسم.

«وأنا پارڤانيه».

«اسم جميل».

«شكراً. إنه يعني فراشة». وابتسمت پارڤانيه.

«جميل».

عندها، قال أوڤ: «ستَخنُق ذلك الهرّ».

غير أن جيمي رد بالقول: «أوه، استرح قليلاً يا أوڤ».

«أعتقد أنه سيفضّل أن يتجمّد ويموت بطريقة كريمة على أن يختنق». قال لجيمي وهو يومئ برأسه نحو كرة الزغب التي تقطر منها المياه بين ذراعَي الشاب.

فاعتلت وجه جيمي البشوش ابتسامة كبيرة.

«اهدأ قليلاً يا أوڤ. يمكنك أن تقول ما تشاء عنّا نحن البدن، ولكننا الأفضل على الإطلاق عندما يتعلّق الأمر بضخّ القليل من الحرارة!».

فنظرت پارڤانيه بعصبيّة إلى ذراعه السمينة، ووضعت كفّ يدها قرب أنف الهرّ بلطف، ثم ابتهجت.

«إنّه يتدفّأ». صاحت مُلتفتةً إلى أوڤ بانتصار.

فأومأ أوڤ، وكان على وشك أن يقول لها شيئاً ساخراً، ولكنه امتنع عن ذلك. والآن، أدرك بصعوبة أنّه مرتاح للأخبار. لذا، حاول أن يتخلص من هذه المشاعر ويصرف انتباهه عنها بالتفتيش بجهد عن جهاز التحكّم بالتلفزيون عن بعد.

لم يكن سبب ارتياحه أنه كان قلقاً على الهرّ، ولكن لأن صونيا كانت ستسعَد بذلك. ولا شيء أكثر من ذلك.

«سأسخّن القليل من الماء». قالت پارڤانيه ذلك، ثم تجاوزت أوڤ بحركة نزقة ووقفت فجأة في مطبخه، وبعد ذلك راحت تفتح الخزائن.

«ماذا تفعلين بحق الله!؟». تمتم أوڤ وهو يفلت جهاز التحكّم عن بعد ويركض مطارداً إيّاها.

وعندما وصل إلى هناك، وجدها تقف في منتصف المطبخ بلا حراك، وهي

حائرة قليلاً وتحمل المغلاة الكهربائية في يدها. بدت مرتبكة قليلاً، وكأنّ إدراكها ما حصل قد ضربها للتوّ.

إنّها المرّة الأولى التي يرى فيها أوف هذه المرأة صامتة ولا تجيد الكلام. لقد تمّ تنظيف المطبخ وترتيبه، ولكنّه مُغَبَّر، وتفوح منه رائحة القهوة المغليّة، وهناك أوساخ في الزوايا المظلمة، وفي كلّ مكان تنتشر أغراض زوجة أوف؛ أغراضها المزينة على حافة النافذة، ومشبك شعرها المتروك على طاولة المطبخ، وخطّ يدها على أوراق الملاحظات المعلّقة على الثلاجة.

وغطّت آثار عجلات أرضية المطبخ؛ وكأنّ أحدهم قد سار فيه ذهاباً وإياباً على متن دراجة، آلاف المرات.

كانت أواني الطبخ ومنضدة المطبخ أدنى من المعتاد بشكل ملحوظ.

وكأن المطبخ بُنِيَ لطفل. راحت پارڤانيه تحدّق إليه بالطريقة نفسها التي يحدّق بها الناس دائماً عندما يرون ذلك للمرّة الأولى. لقد اعتاد أوف على ذلك. كان قد أعاد بناء المطبخ بنفسه بعد الحادث؛ إذ رفض المجلس المساعدة بطبيعة الحال.

بدت پارڤانيه وكأنّها علقت بطريقة أو بأخرى.

أخذ أوف المغلاة الكهربائية من يديها الممدودتين، من دون النظر إلى عينيها، وملأها بالماء ببطء، ثم أوصلها بقابس الكهرباء.

«لم أكن أعرف يا أوف». همست بندم.

مال أوف نحو المغسلة المنخفضة مديراً لها ظهره، فتقدّمت منه ووضعت أطراف أصابعها بلطف على كتفه.

«أنا آسفة يا أوف. حقاً. لم يكن ينبغي لي أن أقتحم مطبخك من دون أن أسألك أوّلاً».

تنحنح أوف وأومأ من دون أن يلتفت إليها. لم يكن يعرف إلى متى سيقفان هناك. تركت يدها الضعيفة ترتاح على كتفه، فقرّر عدم دفعها بعيداً.

فجأة، كسر صوت جيمي الصمت.

«هل لديك أيّ شيء يؤكل؟». سأل جيمي من غرفة المعيشة.

انزلقت كتف أوف بعيداً عن يد پارڤانيه، وهزّ رأسه، ومسح وجهه بيده، ثم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

توجّه نحو الثلاجة من دون أن ينظر إليها.

ضحك جيمي بامتنان عندما عاد أوڤ من المطبخ وسلّمه شطيرة نقانق، فيما وقف أوڤ على بعد أمتار قليلة وهو يبدو شاحباً بعض الشيء.

« إذاً، كيف حاله؟». سأل مشيراً إلى الهرّ القابع بين يدي جيمي.

كان الماء يقطر بحرية على الأرض الآن، والحيوان يستعيد ببطء ولكن بثبات كلّاً من شكله ولونه.

«يبدو أفضل، أليس كذلك؟». ابتسم جيمي وهو يلتهم الشطيرة بلقمة واحدة.

رمقه أوڤ بنظرة متشكّكة، إذ كان جيمي يتصبّب عرقاً كما لو أنه في حمام بخار. هناك دائماً نظرة حزينة في عينيه عندما ينظر إلى أوڤ.

«أنت تعرف أن الأمر كان... سيئاً جداً مع زوجتك يا أوڤ. أنا لطالما أحببتها. كانت تحضّر أفضل الأطعمة وألذها في البلدة كلّها».

عندها، نظر أوڤ إليه، وللمرّة الأولى منذ الصباح لم يبدُ غاضباً جدّاً.

«نعم. كانت... تطبخ جيّداً». وافقه الرأي.

ثم توجّه إلى النافذة مديراً ظهره له، وشدّ المقبض وكأنه يتحقّق منه، وبعد ذلك نقر على الحافة.

وقفت پارڤانيه في مدخل المطبخ وهي تلفّ ذراعيها حول حول بطنها.

«يمكنه أن يبقى هنا إلى أن يذوب الجليد عنه تماماً، ثم يجب أن تأخذيه». قال أوڤ مشيراً باستهجان إلى الهرّ.

كان بإمكانه أن يرى من زاوية عينه كيف تحدّق إليه، وأشعره ذلك بعدم الارتياح.

غير أنها قالت: «أنا آسفة، ولكنني لا أستطيع. فالفتاتان... تعانيان من الحساسية».

لاحظ أوڤ أنه كانت هناك لحظة صمت قصيرة قبل أن تقول «حساسية»، فدقّق النظر إلى انعكاس صورتها على زجاج النافذة بارتياب، ولكنه لم يجب. وبدلاً من ذلك، التفت إلى الشاب البدين، وقال له:

«إذاً، يجب عليك أنت أن تعتني به».

غير أن جيمي الذي لم يكن متعرّقاً فقط، وإنما ظهرت بقع حمراء على وجهه أيضاً نظر بشفقة إلى الهرّ الذي بدأ يحرّك ذيله ببطء ويخبّئ أنفه الذي تقطر منه المياه أعمق في طيات الدهون.

«لا أعتقد أن اعتنائي بالهرّ فكرة رائعة. آسف يا رجل». قال جيمي ذلك وهو يهزّ كتفيه بعدم مبالاة، فقفز الهرّ بين ذراعيه وكأنه في السيرك. عندها، شدّ جيمي ذراعيه وقد أصبح جلده أكثر احمراراً وكأنه يحترق وتابع:

«أنا أُعاني من بعض الحساسية أيضاً...»

فصرخت پارڤانيه قليلاً، ثم ركضت نحوه، وأخذت الهرّ بعيداً عنه، وبسرعة لفّته بالبطانية مجدّداً، ثم قالت بصوت عالٍ:

«يجب أن نذهب إلى المستشفى!».

«أنا ممنوع من دخول المستشفى». ردّ أوڤ من دون تفكير.

وعندما نظر في اتّجاهها وبدت على استعداد لرمي الهرّ في وجهه، نظر إلى أسفل مرّة أخرى وهمهم لنفسه بحزن: «كل ما أريده هو أن أموت». وضغط بأصابع قدميه على أحد الألواح في الأرضية.

حرّك الهرّ أطرافه قليلاً، فنظر أوڤ إلى جيمي، ثمّ إلى الهرّ، ثم إلى الأرضية المبتلّة، وهزّ رأسه لپارڤانيه متمتماً:

«إذاً، علينا أن نستقلّ سيارتي».

وأخذ سترته عن المشجب، ثم فتح الباب الأمامي. وبعد بضع ثوانٍ، أدار رأسه مرّة أخرى نحو القاعة، وحدّق إلى پارڤانيه قائلاً:

«لكنني لن أجلب السيارة إلى المنزل، لأن ذلك ممن–»

فقاطعته متلفظة ببعض الكلمات باللغة الفارسية التي لا يمكن لأوڤ أن يفهمها، ومع ذلك وجدها دراماتيكية من دون داعٍ. ثم لفّت الهرّ بالبطانية بإحكام أكثر، وتجاوزته وهي تمشي على الثلج.

«القوانين قوانين كما تعلمان». قال أوڤ بعدوانية وهو يتّجه إلى منطقة وقوف السيارات، ولكنها لم تجب.

التفت أوڤ وأشار إلى جيمي قائلاً:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«وأنـت ارتـدِ سـترة، وإلّا فلـن تذهـب إلـى أي مكان في الصـاب. دعنا نكون واضحين حول ذلك».

دفعت پارڤانيه المال في موقف السيارات في المستشفى كي لا يثير أوف أيّ ضجّة حول هذا الموضوع.

18

رجلُ كان يُدعى أوف وهرٌّ اسمه إرنست

لـم يكـره أوف هـذا الهـرّ على وجه الخصـوص، ولكن كلّ ما في الأمر أنه لم يكـن يحـبّ الهـررة كثيـراً بشـكل عام. وكان ينظـر إليها دائماً علـى أنها غير جديرة بالثقة، وخصوصاً عندما– كما في حالة إرنســت– كانت كبيرة مثل الدراجات. في الواقع، كان من الصعب جداً تحديد ما إذا كان مجرّد هرّ كبير بشكل غير عادي أو أسـد صغير رائع. ولا يجب أبداً أن تصادق كائناً إذا كان هناك أيّ احتمال بأنّه قد يحبّ أن يأكلك أثناء نومك.

لكن صونيا أحبّت إرنســت من دون قيدٍ أو شـرط، لدرجة أنّ أوف تمكّن من الاحتفاظ بهذا النوع من الملاحظات المنطقية لنفسه. إذ كان يعرف أنه لا يجب أن يَشتُم الأشخاص الذين تحبهم والأشياء التي تحبّها؛ فرغم كلّ شيء، إنّه يتفهّم تماماً كيف كان الأمر عندما تلقّى حبّها في حين لم يستطع أحدٌ أن يفهم سبب استحقاقه هو ذلك. لذا، تعلّم هو وإرنســت الاتّفاق جيّداً إلى حدٍّ معقول عندما كانا يزوران ذاك الكوخ في الغابة؛ بصرف النظر عن حقيقة أن إرنست قد عضّ أوف مرّة عندما جلس على ذيله على أحد كراسي المطبخ. أو على الأقل، تعلّما الحفاظ على مسافة بينهما. تماماً مثل أوف ووالد صونيا.

وحتـى إن كـان لـدى أوف رأيٌ مغايـر– وهـو أنه لا يحـقّ لهذا الهرّ أن يجلس على أحد الكراسـي وينشـر ذيله على الكرسـي الآخر– فقد تجاهل الأمر من أجل صونيا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعلّم أوف صيد الأسماك. وفي الخريفين اللذين تليا زيارتهما الأولى، لم يسرّب سطح المنزل المياه للمرّة الأولى على الإطلاق، ودار محرك الشاحنة في كلّ مرّة من دون أيّ تذمّر. بالطبع، لم يكن والد صونيا يعبّر عن امتنانه صراحة حول هذا الموضوع. ولكنه من ناحية أخرى لم يذكر قط مرّة أُخرى تحفّظاته حول أنّ أوف «آتٍ من البلدة». وهذا- من وجهة نظر والد صونيا- كان أهمّ دليل على المودّة.

مرّ فصلان من الربيع وفصلان من الصيف. وفي السنة الثالثة، في ليلةٍ باردة من يونيو (حزيران)، توفّي والد صونيا. لم يَرَ أوف أحداً يبكي مثلما بكت صونيا في ذلك الحين. وفي الأيّام القليلة الأولى، بالكاد خرجت من السرير. أما بالنسبة إلى أوف، وهو شخص واجه الموت كثيراً في حياته، كانت مشاعره تافهة جدّاً حيال ذلك، ودفع كلّ ذلك بعيداً وهو يشعر ببعض الارتباك. جاء رجل دين من دار العبادة في القريّة وناقش تفاصيل الدفن.

وقال رجل الدين بإيجاز: «كان رجلاً صالحاً». وأشار إلى إحدى صور صونيا ووالدها المعلّقة على جدار غرفة المعيشة، فأومأ أوف؛ إذ لم يعرف ما كان من المتوقّع أن يقوله ردّاً على ذلك. ثمّ خرج ليرى ما إذا كان أيّ شيء في الشاحنة بحاجة إلى التصليح.

وفي اليوم الرابع، خرجت صونيا من السرير، وبدأت بتنظيف الكوخ بطاقةٍ محمومة، لدرجة أنها أبقت أوف بعيداً عن طريقها؛ بالشكل الذي يتجنّب به المرء قدومَ إعصار. تجوّل حول المزرعة، باحثاً عن أشياء يقوم بها. أعاد بناء الكوخ الخشبيّ الذي انهار في إحدى عواصف الشتاء. وفي الأيام التالية، ملأه بالخشب المقطّع حديثاً، وجزّ العشب، وشذّب الأغصان المتدليّة في الغابة المحيطة. وفي وقت متأخر من مساء اليوم السادس اتّصل أحدهم من محلّ البقالة.

بطبيعة الحال، اعتبر الجميع أن ما حصل مجرّد حادث. ولكن، لا أحد من الذين عرفوا إرنست استطاع أن يصدّق أنه قفز أمام السيارة عن طريق الصدفة. فالحزن يفعل أشياء غريبة بالمخلوقات الحيّة. في تلك الليلة، قاد أوف على الطرقات أسرع من أيّ وقتٍ مضى. وأمسكت صونيا رأس إرنست الكبير بين يديها طوال الطريق. كان لا يزال يتنفّس عندما وصلا إلى الطبيب البيطري، ولكنّ إصاباته

كانت خطيرة جداً، وفقد الكثير من الدم.

بعد ساعتين من المكوث إلى جانبه في غرفة العمليات، قبّلت صونيا رأس الهرّ العريض وهمست: «وداعاً حبيبي إرنست». وبعد ذلك، وكأنّ الكلمات كانت تخرج من فمها ملفوفة بغمامة من السحاب تابعت: «ووداعاً لك يا والدي الحبيب».

ثم أغمض الهرّ عينيه واستسلم للموت.

عندما خرجت صونيا من غرفة الانتظار، أراحت جبينها على صدر أوڤ العريض.

«أشعر بخسارة فادحة يا أوڤ. كما لو أن قلبي ينبض خارج جسدي».

وقفا بصمتٍ لفترة طويلة، وأذرعهما ملتفة حول بعضهما بعضاً. وبعد طول انتظار، رفعت وجهها نحوه، ونظرت إلى عينيه بجديّة كبيرة وتابعت:

«عليك أن تحبّني بشكل مضاعف الآن».

فانحنى أوڤ نحوها للمرّة الثانية والأخيرة، وقال لها إنه سيحبّها. على الرغم من أنه كان يعرف أنه لا يمكنه أن يحبّها أكثر ممّا يحبّها أصلاً.

دفنا إرنست بجانب البحيرة حيث كان يذهب إلى الصيد مع والد صونيا. بعد ذلك، حمّل أوڤ الصاب بالأغراض، وعادا على الطرقات الصغيرة، ورأس صونيا يميل على كتفه. وفي الطريق، عرّج على أوّل بلدة صغيرة مرّا بها؛ إذ كانت صونيا قد رتّبت للقاء شخص ما هناك. لم يعرف أوڤ من كان ذلك الشخص، ولكنه لم يسألها. وكانت هذه إحدى السمّات التي قدّرتها صونيا فيه كثيراً، وغالباً ما قالت ذلك مراراً لاحقاً. فقد عرفت أنّه لا يمكن لأيّ أحدٍ آخر الجلوس في السيارة لمدّة ساعة والانتظار من دون المطالبة بمعرفة من ينتظر أو كم من الوقت سيستغرق الأمر. وهذا لا يعني أنّ أوڤ لم يشكُ، لأنّ الشكوى كانت الشيء الوحيد الذي برع فيه؛ وخاصّةً إذا كان عليه أن يدفع لموقف السيارات. لكنه لم يسأل قط عما كانت تفعله، وظلّ بانتظارها.

ثم عندما خرجت صونيا أخيراً وعادت إلى السيارة، أغلقت باب الصاب بلطف، لأنها عرفت أنّ ذلك كان ضرورياً لتجنّب نظرة مجروحة منه؛ كما لو أنها ركلت كائناً حيّاً. ثم أمسكت يده بلطف، وقالت بهدوء:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أعتقد أننا بحاجة إلى شراء منزلٍ خاص بنا».

فتساءل أوف: «ما الفائدة من ذلك؟».

«أعتقـد أن طفلنـا يجـب أن يكبـر في منزل». قالـت وهي تحرك بعناية يده إلى أسفل بطنها.

ظل أوف هادئاً لفترة طويلة، لفترة طويلة حتّى وفقاً لمعاييره. ونظر بتركيز إلى بطنها، وكأنّه كان يتوقّع منه أن يرفع نوعاً من الأعلام. ثم استقام، وعدّل زرّ ضبط موجـة الراديـو بتحريكـه نصـف دورة إلى الأمام ونصـف دورة الى الوراء، ثم عدّل مرآتَي الرؤية الجانبية، وأومأ بحساسية.

«إذاً، سيتوجّب علينا شراء عقار لسيارة الصاب».

19

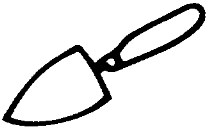

رجل يُدعى أوڤ والهرّ الذي كان محطّماً عندما جاء

قضـى أوڤ معظـم وقتـه فـي الأمس وهـو يصرخ في وجه پارڤانيـه؛ لأنّ الهرّ اللعين لن يعيش في منزله إلّا على جثّته. وها هو الآن يقف ويتبادل النظر مع الهرّ.

وبقي أوڤ متخذاً موقفاً حاذّاً منه.

كلّ شيء يبدو مزعجاً بشكلٍ لا يصدّق.

كان أوڤ قد اسـتيقظ عدّة مرات في الليل عندما كان الهرّ– مع قليلٍ من قلّة الاحترام– يزحف ويصعد ويتمدّد بجانبه على السـرير. وكان الهرّ أيضاً قد اسـتيقظ عدّة مرات عندما كان أوڤ– بكثير من الفظاظة– يركله ليسقط على الأرض مجدداً.

وعندما أصبحت الساعة السادسة إلا ربعاً وقد استفاق أوڤ، كان الهرّ جالساً في منتصف أرضية المطبخ، وعلى وجهه نظرة ساخطة؛ وكأن أوڤ مدين له بالمال.

وأخذ أوڤ يحدق إليه أيضاً بنظرة شكّ، ثم تمتم أخيراً:

«أفترض أنك تتوقّع الحصول على طعام».

لم يُجب الهرّ، بل راح يلعق جسده.

«ولكنْ في هذا البيت لا تستطيع أن تسترخي وكأنك مستشار، وتتوقّع أن تطير العصافير المقليّة إلى فمك».

ذهب أوڤ الى المغسلة، وشغّل آلة صنع القهوة، ثم تحقّق من الساعة، ونظر إلى الهرّ.

بعـد الخـروج من المستشـفى، تمكّنت پارڤانيه مـن التعرّف إلى صديقٍ اتّضح

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنه طبيب بيطري. ألقى الطبيب البيطري نظرة على الهرّ، واستنتج أن لديه «بعض المشكل الخطيرة جرّاء التعرّض للصقيع الزائد، وأنه مصاب بسوء تغذية متقدم». وقد أعطى أوف قائمةً طويلة من الإرشادات حول الطعام الذي يجب أن يحصل عليه الهرّ والرعاية الملائمة له.

«أنا لا أدير شركة لمعالجة للهررة». أوضح أوف للهرّ. «أنت هنا فقط لأنني لم أستطع التفوّه بأي شيء منطقيّ أمام تلك المرأة الحامل». وَأومَأَ عبر غرفة المعيشة نحو النافذة المواجهة لبيت پارڤانيه.

غير أن الهرّ المشغول بمحاولة لعق جسده لم يعطِه جواباً.

حمل أوف أربعة جوارب صغيرة متّجهاً نحو الهرّ. لقد أعطاه إياها الطبيب البيطري. يبدو أن حالة الهرّ تحتاج إلى اهتمام أكثر، وأوف يشعر أنه يستطيع المساعدة في تحقيق ذلك. كلّما كانت هذه المخالب بعيدة عن ورق الجدران كان ذلك أفضل. هذا هو المنطق عند أوف.

«اقفز وأنت تلبس هذه الأشياء، وبعد ذلك نستطيع الذهاب. لقد تأخّرت!».

نهض الهرّ بشكلٍ متقن، ومشى بخطوات طويلة وواعية نحو الباب؛ كما لو أنه يمشي على البساط الأحمر. نظر إلى الجوارب نظرة شكّ مبدئية، ولكنه لم يتسببّ بالكثير من الضجة عندما ألبسه أوف إياها بخشونة. وبعدما انتهى من ذلك، وقف أوف وأمعن النظر بالهرّ من الأعلى إلى الأسفل، ثم هزّ رأسه. هرٌّ يرتدي جوارب! هذا لا يمكن أن يكون أمراً طبيعياً! في هذه الأثناء، كان الهرّ يتحقّق من جواربه الجديدة، وفجأة بدا عليه الرضى عن نفسه بشكل لا يقاس.

التفّ أوف عند منعطفٍ إضافي في نهاية الطريق، والتقط عقب سيجارة من خارج منزل أنيتا ورون بين أصابعه. يبدو أن ذاك الرجل من المجلس يقود السكودا في هذه الأجزاء من الطريق كما لو أنه المالك. شتمه أوف ووضع العقب في جيبه.

وعندما عادا إلى المنزل، أطعم أوف الحيوان البائس على مضض. وبعد أن أنهى ذلك، أعلن أنه عليهما القيام ببعض المهام، وبدا كما لو أنه مجبور على التعايش مع هذا المخلوق الصغير، ولكنه سوف يكون ملعوناً إذا ترك هذا الحيوان

البرّي في المنزل بمفرده. لذا، يجب عليه أن يأخذه معه. وعلى الفور، حصل خلافٌ بين أوف والهرّ حول ما إذا كان على الهرّ الجلوس على أوراق الصحف على مقعد الركاب في الصاب أم لا. في البداية، وضع أوف الهرّ على ملحقين من أخبار الترفيه، فشعر الهرّ بالإهانة، وركل الأوراق على الأرض بواسطة قائمتيه، ثم جلس بارتياح على المفروشات الناعمة. في تلك اللحظة، أمسك أوف الهرّ بحزم من عنقه، حتى إن هذا الأخير أصدر فحيحاً في وجهه بشكل سلبيّ وبعدوانية نوعاً ما، ثم حشر أوف بقوة ثلاثة ملحقات ثقافية وكتب مرجعية تحت الهرّ الذي وجّه إليه نظرة غاضبة. وحين أعاده أوف إلى المقعد، مكث على الصحيفة واكتفى بالنظر من النافذة كما لو أنه كئيب أو مجروح المشاعر، فاستنتج أوف أنه ربح المعركة، وَأومَأ بارتياح، وانطلق على الطريق الرئيس. في هذه الأثناء، مزّق الهرّ أوراق الصحيفة بمخالبه، ثم وضع قائمتيه الأماميتين على الشقّ، في حين نظر إلى أوف نظرة تحدٍّ؛ كما لو أنه يسأله: «ماذا سوف تفعل حيال ذلك؟».

عندها، ضغط أوف بقدمه بقوة على دواسة المكابح، فاندفع الهرّ إلى الأمام مصدوماً، وتلقّى ضربة على أنفه في لوحة القيادة.

«هذا ما أودّ قوله عن ذلك!». قال أوف منتصراً. وهكذا، رفض الهرّ النظر إلى أوف بعد ذلك حتى نهاية الرحلة، واكتفى بالتكور في زاوية المقعد، وهو يفرك أنفه بواسطة إحدى قوائمه. وبينما كان أوف داخل متجر الأزهار، لعق الهرّ الإطارات بشكل شرائط طويلة رطبة، وكذلك حزام الأمان، وباب سيارة أوف من الداخل.

وعندما عاد أوف حاملاً الأزهار واكتشف أنّ سيارته مغطاة بلُعاب الهرّ، لوّح بسبابته مهدداً، كما لو أنّها سيفٌ معقوف. بعد ذلك، قام الهرّ بعضّ هذا السيف، فرفض أوف التحدث إلى الهرّ لبقية الرحلة.

وعندما وصلا إلى المقبرة، قام أوف بخطوةٍ آمنة، فجمع بقايا الصحيفة وجعلها على شكل كرة، ودفع الهرّ إلى خارج السيارة بخشونة، ثم أخذ الأزهار من صندوق السيارة، وأقفل الصاب بمفتاحه، ودار حولها ليتأكّد من جميع الأبواب. تسلّقا معاً المنحدر المتجمّد المؤدّي إلى الطريق الجانبي، وشقّا طريقهما عبر الثلوج، قبل أن يتوقّفا قرب قبر صونيا. قام أوف بإزالة بعض الثلوج عن القبر بظاهر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يده، ثم هزّ الزهور قليلاً وقال متمتماً:

«لقد أحضرت معي بعض الزهور، وهي وردية اللون كما تحبينها. هم يقولون إنّ هـذه الزهـور تمـوت فـي الصقيـع، ولكنني أظن أن هـذه خدعة لدفع الناس إلى شراء زهور غيرها باهظة الثمن».

كـان الهـرّ يغـوص خلفه في الثلج، فرمقه أوف بنظرة متجهّمة، ثم أعاد تركيزه إلى القبر.

«صحيـح، صحيـح... هـذا الهـرّ مزعج. إنه يعيش معـي الآن. كاد يموت من التجمّد خارج منزلنا».

رمـق الهـرّ أوف بنظـرة إهانـة، فتنحنـح أوف وتابـع كلامه بنبـرة صوت بدت دفاعية:

«هذا ما كان عليه حاله عندما وصل».

ثـمّ مـع إيمـاءة وجّههـا للهرّ والقبـر أضاف قائلاً لصونيـا: «إذاً، لم أكن أنا من حطّمه، فقد كان محطّماً مسبقاً».

كلٌّ من الهرّ والقبر انتظرا بصمتٍ إلى جانبه. حدّق أوف إلى حذائه للحظات، ثـم همهـم وهـو يجلـس على ركبتيه فوق الثلـج، وأزال المزيد من الثلج عن القبر. وبعد ذلك، وضع يده عليه بهدوء وهمس:

«لقد اشتقت إليكِ».

فجأة، التفت أوف بسـرعة ونظر من زاويتَي عينيه؛ إذ شـعر بشـيء ليّن يتحرّك على ذراعه. واستغرق بضع ثوانٍ قبل أن يعي أن الهرّ يحرّك رأسه بهدوء على يده.

20

رجل يُدعى أوف والدخيل

جلس أوف على مقعد السائق في الصاب حوالي العشرين دقيقة، وباب المرأب مفتوح. في أوّل خمس دقائق، حدق الهرّ إلى وجهه بنفاد صبرٍ من حيث يجلس على مقعد الركّاب المجاور. وخلال الدقائق الخمس التالية، بدا على الهرّ الشعور بالقلق، ثمّ حاول في النهاية أن يفتح الباب بنفسه، وعندما فشل، استرخى بسرعة على المقعد ونام.

ألقى عليه أوف نظرة وهو يميل على جانبه ويبدأ بالشخير.

نظر من حيث يجلس في موقف السيارات إلى المرأب المقابل مرّة أُخرى. لا بدّ أنه وقف هناك مع رون مئات المرّات. كانا صديقين في ما مضى. أوف لا يستطيع التفكير في الكثير من الناس الذين مرّوا في حياته ويمكنه وصفهم على هذا النحو. أوف وزوجته كانا من أوائل الناس الذين انتقلوا إلى هذا الشارع المليء بالمنازل ذات السطيحات منذ سنين، وكانت حينها حديثة البناء ولا تزال محاطة بالأشجار. في ذلك اليوم نفسه، رون وزوجته انتقلا للعيش هنا أيضاً. كانت أنيتا حاملاً أيضاً، وبطبيعة الحال، أصبحت على الفور الصديقة المقرّبة لزوجة أوف؛ بطريقة لا تدركها غير النساء. وتماماً ككلّ النساء اللواتي يصبحن صديقات مقرّبات، اعتقدتا أنّه يجب على رون وأوف أن يصبحا صديقين مقرّبين أيضاً، وذلك بسبب العديد من «المصالح المشتركة» بينهما. لم يستطع أوف فهم ما يعنيه ذلك. ففي النهاية، كان رون يقود ڤولڤو.

لم يكن لدى أوف أيّ شيء ضدّ رون غير ذلك. فقد كانت لديه وظيفة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مناسبة، ولم يكن كثير الكلام، إذ لا يتكلم إلّا عند الحاجة. ومن المسلّم به أنه كان يقود الفولفو. ولكن، كما أصرّت زوجة أوڤ على القول: إن هذا لا يجعل الإنسان فاسداً. لذلك تضامن أوڤ معه، حتى إنه أقرضه الأدوات بعد مدّة. وفي بعد ظهر أحد الأيام، وفيما كانا واقفين في منطقة ركن السيارات، وإبهام كلّ منهما تحت حزامه، أخذا يتحدّثان عن أجرة عامل جزّ الأعشاب. بعد ذلك تصافحا قبل أن ينصرفا. كما لو أن القرار المشترك في أن يصبحا صديقين اتّفاق عمل.

وفي وقت لاحق، عندما وجد الشابان أنّ كلّ الناس ينتقلون للعيش في هذه المنطقة، جلسا في مطبخ أوڤ وصونيا للتشاور. وبعدما اشتركا في ذلك، وضعا بعض القواعد، ولافتات توضح الأمور المسموح بها وتلك الممنوعة، وأيضاً مجموعة من الإرشادات الجديدة لجمعيّة السكان المقيمين. كان أوڤ هو الرئيس، بينما كان رون نائب الرئيس.

وفي الأشهر التالية، ذهبا معاً إلى باحة مهملة، وتذمّرا من إيقاف الأشخاص سياراتهم فيها بطريقة خاطئة، واتفقا على أفضل الصفقات بخصوص الطلاء وأنابيب الصرف عند تاجر الحديد، ووقفا إلى جانبَي الرجل الذي أتى من قِبل شركة الاتّصالات لتثبيت الهواتف والمقابس، مشيرَين بفظاظة إلى المكان المناسب لذلك، وكيفية فعل ذلك بأفضل طريقة؛ ليس لأن أياً منهما على علم بكيفية تثبيت كابلات الهاتف، ولكن لأنهما كانا على دراية جيدة بكيفية مراقبة تافه مثل ذاك لمنعه من خداعهما. كان هذا كلّ ما في الأمر.

في بعض الأحيان، كانا يتناولان العشاء معاً؛ بقدر ما يمكن للمرء أن يتناول العشاء عندما لم يكن أوڤ ورون يمضيان كل أمسياتهما في موقف السيارات، وهما يركلان إطارات سيارتيهما، ويقارنان سعة حمولتيهما وغيرها من الأمور المهمّة. وكان هذا كلّ ما في الأمر.

كان بطن كل من صونيا وأنيتا يكبر بشكل ثابت. ووفقاً لرون، هذا ما جعل أنيتا «مشوّشة عقلياً». فعلى ما يبدو، عندما كانت في شهرها الثالث، كان عليه أن يبحث عن وعاء القهوة في الثلاجة؛ يومياً تقريباً. أما صونيا، فبطريقةٍ متفوّقة، كان مزاجها سريع الاشتعال؛ ممّا جعل أوڤ متردّداً دائماً في فتح فمه. وهذا بالطبع منحها سبباً

إضافياً للانزعاج. كانت تتصبّب عرقاً تارةً، وتتجمّد من البرد تارةً أُخرى. وذات مرة، بعدما تعب أوف من مناقشتها، ووافق على تشغيل المدفأة على درجة حرارة متوسطة، بدأت بالتعرّق مجدداً، وكان عليه أن يطفئ المدفأة بسرعة مرّة أخرى. وكانت أيضاً تأكل الموز بكميات كبيرة؛ مما جعل الناس في المتجر يعتقدون أن أوف لديه حديقة حيوانات.

وفي إحدى الليالي، قال رون مع إيماءة ثاقبة عندما كان هو وأوف جالسين في الهواء الطلق خلف منزله: «الهرمونات في ساحة الحرب». في حين أن زوجتيهما مكثتا في مطبخ صونيا وأوف وهما تتبادلان أحاديث نسائية.

أخبر رون أوف أنه وجد أنيتا في الليلة السابقة مجهشة بالبكاء قرب الراديو، من دون ذكر أيّ سبب غير أنها «كانت أغنية جميلة».

«أ... أغنية جميلة؟!». سأله أوف مرتبكاً.

«أغنية جميلة». كرر رون.

هزّ الشابان رأسيهما بعدم تصديق متبادل، وحدّقا إلى الظلام بصمت.

«العشب يحتاج إلى جزّ». قال رون أخيراً.

فقال أوف: «لقد اشتريت شفرات جديدة لآلة تشذيب العشب».

«كم دفعت ثمنها؟».

وهكذا استمرّت صداقتهما.

في المساء، استمعت صونيا إلى الموسيقى بعد أن وضعت الجهاز بالقرب من بطنها؛ لأن الموسيقى كما قالت تساعد في حركة الطفل. أما أوف فاكتفى بالجلوس على أريكته في الجهة الأُخرى من الغرفة، وتظاهر بمشاهدة التلفاز بينما كانت تقوم بذلك. وكان في الواقع قلقاً حيال ما سيكون عليه الوضع عندما يقرّر الطفل الخروج أخيراً. فعلى سبيل المثال، ماذا لو كره الطفل أوف لأنه لم يكن مولعاً جداً بالموسيقى؟

لم يكن أوف خائفاً، ولكنه لم يعرف كيفية إعداده نفسه للأبوّة. حتى إنّه طلب نوعاً من الكتيّبات حول هذا الموضوع، ولكنّ صونيا سخرت من ذلك. لم يفهم أوف السبب، فهناك كتيّبات لكلّ شيء آخر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كـان دائمـاً يشـكّ فـي قدرتـه على أن يكون أباً صالحـاً لأحدٍ ما؛ فهو لا يحبّ الأطفال بتاتاً. حتى إنه لم يكن جيداً في كونه طفلاً حين كان صغيراً. وصونيا تعتقد أنه ينبغي له التحدّث إلى رون في هذا الشأن، لأنهما «في الوضع نفسه». لم يستطع أوف فهـم مـا كانـت تقصده مـن ذلك. ففي الواقع، لم يكن رون ليصبح والدَ طفل أوف. علـى الأقـل، وافقـه رون الـرأي في عدم وجود الكثير لمناقشـته، وكان ذلك كلّ شيء. لذا، عندما أتت أنيتا في المساء وجلست في المطبخ مع صونيا، متحدّثةً عن أوجاعها وكل تلك الأمور، اعتذر أوف ورون منهما بحجّة أنّ لديهما «أشياء» للتحدّث عنها، ومضيا إلى ورشة أوف، واكتفيا بالصمت والنظر الى أماكن مختلفة على طاولة عمل أوف.

كانا يقفان بجانب بعضهما بعضاً في الليلة الثالثة على التوالي والباب مغلق، من دون معرفة ما يجب عليهما فعله. وكانا متفقين على أنّه يجب الانشغال بشيءٍ ما. فجأة قال رون: «الجيران الجُدُد يعتقدون أنّ هناك نوعاً من الأعمال المشبوهة التي تجري هنا».

وهكذا، اتفق الاثنان على أفضل ما يمكن فعله. لم يتحدّثا كثيراً خلال قيامهما بذلك، ولكنّهما ساعدا بعضهما بالرسم وقياس الزوايا، وتأكّدا من أنّ الزوايا مستقيمة بشكلٍ صحيح. وفي وقتٍ متأخّر من إحدى الليالي، عندما كانت أنيتا وصونيا في الشهر الرابع، تمّ تركيب مصباحين أزرقين في غرفتَي الأطفال في بيتيهما.

«يمكننا أن ننزعه ونطليه باللون الوردي إذا رُزقنا بطفلة». تمتم أوف وهو يُري صونيا ما فعله، فوضعت ذراعيها حوله، وشـعر أن رقبته رطبة بسـبب دموعها. إنها هرمونات غير منطقيّة تماماً.

همست له: «أريدك أن تطلب منّي أن أصبح زوجتك». وهذا ما حصل. تزوّجا ببساطة في تاون هول. لم تكن لدى أيّ منهما أُسرة، ولذلك حضر رون وأنيتا فقط. وضع أوف وصونيا خاتميهما، وذهبوا هم الأربعة إلى المطعم للاحتفال. دفع أوف الحسـاب، ولكنّ رون تأكّد من «إنجاز الفاتورة بشـكل صحيح». وبالطبع، لم تكن كذلك. وبعد التداول مع النادل لمدّة ساعة، تمكّن الشابان من إقناعه أنه من السهل عليه أن يخفّض الفاتورة إلى النصف أو سوف «يبلغون عنه». من الواضح أن الأمر

كان غامضاً قليلاً؛ فمن الذي سيقدّم البلاغ؟ وضد من؟ ولماذا؟ ولكن، في النهاية، مع قدرٍ معيّن من الشتائم والتلويح باليدين، استسلم النادل، وذهب إلى المطبخ، وكتب لهم فاتورة جديدة. في تلك الأثناء، أومَأَ رون وأوف لبعضهما بشراسة من دون أن يلاحظا أن زوجتيهما- كالعادة- استقلّتا سيارة أُجرة منذ عشرين دقيقة.

أومَأَ أوف لنفسه وهو جالس في الصاب ناظراً إلى باب مرأب رون. حتى إنه لا يتذكر آخر مرّة رآه فيه مفتوحاً. أطفأ المصابيح الأمامية للصاب، ولكز الهرّ لإيقاظه، ثم ذهب إلى الخارج.

«أوف؟». قال صوت فضوليّ وغريب.

فجأة، ظهرت المرأة صاحبة هذا الصوت الغريب وقد مدّت رأسها داخل المرأب. كانت في الخامسة والأربعين من عمرها، ترتدي بنطالاً رثّاً وسترة مقاومة للرياح كبيرة جداً عليها. كانت غير متبرّجة، وقد جعلت شعرها بتسريحة ذيل الحصان. تقدمت المرأة داخل المرأب متعثرة، ونظرت حولها باهتمام، فمشى الهرّ بضع خطوات إلى الأمام وأصدر صوتاً مهدداً، عندها توقفت المرأة في مكانها. وضع أوف يديه في جيبيه.

«أوف؟». اندفعت بقوة مرّة أخرى، بطريقة مبالغ فيها؛ مثل الناس الذين يريدون أن يبيعوك شيئاً، في حين أنهم يتظاهرون بأنّهم لا يفكرون في ذلك.

«لا أريد شيئاً». قال أوف وهو يومئ برأسه نحو باب المرأب في لفتة واضحة إلى أنها ليست بحاجة إلى تكبّد العناء في البحث عن باب آخر. سيكون كل شيء بخير إذا عادت من حيث أتت.

بان عليها أنّها لم تنتبه إلى ذلك، وبدأت تقول وهي تمد يدها لمصافحته:

«اسمي لينا، وأنا صحافية في الجريدة المحلية، وأيضاً...»

غير أن أوف نظر إلى يدها الممدودة، ثم نظر إليها وقال مجدداً:

«لا أريد شيئاً».

«ماذا؟».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«أظن أنك تبيعين الاشتراكات، ولكنّني لا أريد ذلك».

بدت الحيرة على وجهها.

«صحيح... في الحقيقة... لا أريد أن أبيعك اشتراكاً في الصحيفة. أنا أكتب فيها. إنني صحافية». كرّرت ببطء كما لو أنّ هناك خَطباً ما فيه.

«ما زلت لا أريد شيئاً». كرّر أوف وهو يدفعها عبر باب المرأب.

«ولكنني أريد التحدث إليك». اعترضت وهي تحاول الدخول مجدداً.

فلوّح أوف بيديه محاولاً إخافتها كما لو أنه يهزّ بساطاً غير مرئي في وجهها.

«لقد أنقذت حياة رجل البارحة في محطّة القطار! وأريد منك مقابلة عن ذلك». قالت بصوت عالٍ وبحماسة.

وفيما كانت على وشك أن تقول شيئاً آخر، لاحظت أنها فقدت انتباهه. فقد وقع بصره على شيءٍ ما خلفها، وضاقت عيناه، ثم تمتم:

«سوف أكون ملعوناً».

«نعم... أودّ أن أسألك لـ...» بدأت بطرح سؤالها، ولكن أوف تخلّص منها، وبدأ بالركض نحو السكودا البيضاء التي ظهرت في موقف السيارات واتّجهت نحو البيوت.

تفاجأت السيدة صاحبة النظارة عندما تقدّم أوف وضرب على النافذة، وقذفت ملفّها المليء بالوثائق في وجهه. أما الرجل صاحب القميص الأبيض فلم يتأثر إطلاقاً، بل أنزل زجاج النافذة، وسأله:

«ماذا؟».

«يمنع على السيارات المرور في المناطق السكنية». همس أوف مشيراً إلى المنازل المحيطة بهم، وإلى السكودا، وإلى الرجل صاحب القميص الأبيض، وكذلك إلى موقف السيارات.

«في هذا المجمّع السكني نحن نوقف سيارتنا في \الموقف!».

نظر الرجل صاحب القميص الأبيض إلى البيوت، ثم إلى الموقف، ثم إلى أوف وقال: «لدي إذن من المجلس بأن أقود بين المنازل. لذا، أطلب منك الابتعاد عن الطريق».

انزعج أوف كثيراً من جوابه، لدرجة أنه استغرق بضع ثوانٍ لصياغة بعض الشتائم المناسبة لهذا الجواب. في هذه الأثناء، التقط الرجل صاحب القميص الأبيض علبة السجائر من لوحة القيادة، ووضعها على ساقه، ثم قال لأوف:

«هل يمكنك أن تكون لطيفاً وتبتعد عن الطريق».

فصرخ أوف: «ماذا تفعل هنا؟».

عندها، أجابه الرجل صاحب القميص الأبيض بصوتٍ رتيب، كما لو أنه رسالة صوتية مبرمجة من الحاسوب ليجعل أوف يدرك أنه وُضع في الطابور: «ليس هناك ما يدعو لهذا القلق».

ثم وضع السيجارة في فمه بعد أن نفضها وأشعلها. حينها، تنفس أوف بسرعة، حتى إن صدره راح ينتفض تحت سترته. وجمعت المرأة أوراقها وملفّاتها وضبطت نظارتها على أنفها. ثم تنهّد الرجل فقط، كما لو أنّ أوف طفل يرفض التوقف عن ركوب لوح التزلّج على الرصيف، وقال له:

«أنت تعلم ما نفعله هنا. نحن نأخذ رون من منزله في الأسفل الى دار العناية».

فأخرج الرجل ذراعه من النافذة، ونفض رماد سيجارته في اتجاه مرآة السكودا.

«أتأخذه إلى دار العناية؟».

«نعم». قال الرجل، وهو يومئ غير مبالٍ.

«وماذا لو أنّ أنيتا لا تريد ذلك؟». همس أوف، ناقراً بسبابته على سطح السيارة.

فنظر الرجل صاحب القميص الأبيض إلى المرأة الجالسة على مقعد الركاب، وابتسم باستسلام، ثم استدار نحو أوف مجدّداً وتحدّث ببطء؛ كما لو أنّ أوف لا يفهم كلماته:

«اتّخاذ هذا القرار لا يعتمد على أنيتا، بل على فريق التحقيق».

ازدادت سرعة تنفّس أوف بشكل متوتّر، حتى إنه شعر بنبضه في حنجرته.

«أنت لن تأخذ هذه السيارة إلى تلك المنطقة». قال أوف ذلك بحزم.

كانت قبضتا يديه مشدودتين، ونبرته قاسية ومهدّدة، ولكن خصمه بدا هادئاً جداً. وضع الرجل سيجارته على باب السيارة، ثم أسقطها أرضاً؛ كما لو أن كلام أوف هذيان غير واضح، وخرف رجل مسن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«وما الذي سوف تفعله لتمنعني من ذلك يا أوف؟». قال الرجل أخيراً.

الطريقة التي لفظ بها اسمه جعلت أوف يشعر كما لو أنّ أحداً ما قد قطّع أحشاءه. حدّق إلى الرجل صاحب القميص الأبيض فاغر الفم، وعيناه تتأملان السيارة ذهاباً وإياباً.

«كيف عرفت اسمي؟».

«أعرف عنك الكثير».

بالكاد استطاع أوف أن يُبعد قدمه عن مسار السيارة، وبعدها مضت السكودا نحو المنازل. عندها، وقف أوف مصدوماً ومحدّقاً إليها.

«من كان ذلك الرجل؟». سألته المرأة المرتدية السترة المقاومة للرياح.

فاستدار أوف.

«كيف عرفت اسمي؟». طالب أن يعرف.

عادت خطوة إلى الوراء، ودفعت بعض خصلاتِ شعرها عن وجهها من دون أن تبعد نظرها عن قبضتَي يديه المشدودتين، وأجابت:

«إنني أعمل في صحيفة محليّة... لقد أجرينا مقابلات مع العديد من الأشخاص على رصيف محطة القطار حول كيفية إنقاذك حياة الرجل...»

«كيف عرفت اسمي؟». سألها مجدّداً، وصوته يرتعش من شدة الغضب.

«بفضل بطاقتك، أعني عندما دفعت ثمن تذكرة القطار. لقد تفقّدت الإيصالات في الصندوق». قالت وهي تعود إلى الخلف بضع خطوات.

«وهو!!! كيف عرف اسميَ؟». زأر أوف ملوّحاً باتّجاه السكودا التي مضت، والأوردة في جبينه تنتفخ.

«أنا... لا أعرف».

تنفّس أوف من أنفه، وحدّق إليها بعينيه؛ كما لو أنه يحاول أن يكتشف إذا كانت تكذب.

فقالت مؤكدة: «ليست لديّ أي فكرة. أنا لم أرَ هذا الرجل من قبل».

ثبّت أوف نظراته عليها بتركيز أكثر، وأخيراً أومأ بشراسة، ثم استدار ومشى نحو منزله. نادته المرأة ولكنّه لم يُجب. ولحق به الهرّ إلى المنزل، ثم أغلق أوف

البـاب. وفـي أسـفل الطريق، كان الرجـل صاحب القميص الأبيض والمرأة صاحبة النظارة يقرعان جرس باب أنيتا ورون.

جلس أوف على الكرسي في ردهَتِه وهو يرتجف شاعراً بالعار.

كاد أن ينسـى هذا الشـعور؛ الشـعور بالإذلال والضعف، وحقيقة أن المرء لا يسـتطيع مقاتلـة الرجـال أصحـاب القمصـان البيضـاء. وها هم قد عـادوا الآن. لم يتواجدوا هنا منذ رجوعه وصونيا من إسبانيا... بعد الحادث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

21

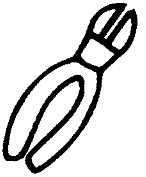

الرجل الذي كان يُدعى أوڤ والدول التي صدحت فيها الموسيقى الأجنبية في المطاعم

بالطبع، استقلال الحافلة السياحية كان فكرتها. ولم يستطع أوڤ أن يرى سبباً لذلك؛ فإذا أرادوا الذهاب إلى أيّ مكان فلم لا يستعينوا بالصاب؟ ولكن صونيا أصرّت على أن الحافلات «رومانسية»، وهذا الأمر كان مهمّاً بشكلٍ لا يصدّق؛ هذا ما تعلّمه أوڤ.

وهكذا انتهى الأمر. رغم أنّ الجميع في إسبانيا اعتقدوا أنفسهم استثنائيين؛ وذلك لأنّهم يتجوّلون في كلّ مكان وهم يتثاءبون ويحتسون الشراب ويعزفون الموسيقى الأجنبية في المطاعم ويذهبون للنوم في منتصف النهار.

بذل أوڤ قصارى جهده ليقول إنّ لا شيء من ذلك يروق له، ولكنّ صونيا اندمجت في ذلك الجوّ ونمط الحياة كثيراً؛ إلى أن تمكنت من التأثير فيه في نهاية المطاف. ضحكت بصوت عالٍ عندما أمسك بها، وشعر بضحكتها تتغلغل في جسمه كلّه؛ حتى إنه لم يكن يستطيع تجنّب حبّه لضحكتها.

لقد مكثنا في فندق صغير، فيه حوض سباحة صغير، ومطعم صغير يديره رجل يُدعى- كما فهم أوڤ- هوسيه. يُكتب هذا الاسم «خوسيه»، ولكن يبدو أنّ الناس في إسبانيا غير دقيقين في اللفظ. لم يكن هوسيه يتحدّث اللغة السويدية، ولكنه مهتّم بالتحدث في كلّ الأحوال. وكان لدى صونيا كتاب صغير، راحت

تبحث فيه عن بعض الأمور، كي تتمكّن من قول بعض الكلمات باللغة الاسبانية مثل «الغروب».

من ناحية أُخرى، حاول أوف أن يلفت انتباهها إلى عدم إعطاء النقود للمتسوّلين في الشارع، لأنهم سوف يشترون فقط المشروبات. ولكنها استمرّت في فعل هذا، وقالت له:

«يمكنهم فعل ما يحلو لهم بالمال».

وعندما اعترض أوف على ذلك، اكتفت بالابتسام، وأمسكت يديه الكبيرتين ووضعتهما بين يديها وقبّلتهما، موضحةً أنه عندما يعطي شخص ما شيئاً لشخص آخر فهو إنما يشعره بالسعادة.

في اليوم الثالث، ذهبت للنوم في منتصف النهار؛ لأنّ هذا ما يفعله الناس في إسبانيا كما قالت، والمرء يجب أن يعتمد «العادات المحلية للمنطقة». اعتقد أوف حينها أن العادات لم تكن وحدها السبب، بل اختيارها الخاص المفضّل، وهذا العذر ناسبها جيداً. إذ كانت تنام ست عشرة ساعة من أصل أربع وعشرين منذ أن أصبحت حاملاً.

كان أوف يذهب للمشي أثناء ذلك الوقت، سالكاً الطريق المؤدّي إلى القرية بعد الفندق. لاحظ أنّ كلّ المنازل مصنوعة من الحجر، والكثير منها لم تكن لديها عتبات عند أبوابها الأمامية، وليس هناك ما يشير إلى وجود أي نوافذ مُحكمة الإغلاق ولائقة. اعتقد أوف أنّ هذا همجيّ قليلاً؛ إذ لا يجب على المرء أن يبني منازل كهذه.

كان في طريقه إلى الفندق عندما رأى خوسيه منحنياً نحو سيارة بنية اللون ينبعث منها الدخان مركونة إلى جانب الطريق، وفي داخلها طفلان وامرأة مسنّة جداً تضع وشاحاً على رأسها، ولا يبدو أنها تشعر بحالٍ جيدة.

لمح خوسيه أوف، فلوّح له بيده بطريقة مثيرة، وفي عينيه شيء من الرعب. «سنيور»، صرخ عالياً لأوف، بالاسم نفسه الذي يناديه به في كلّ مرّة يتحدّث فيها إليه. كان أوف يعتقد أن هذه الكلمة تعني «أوف» باللغة الإسبانية، ولكنه لم يبحث في كتاب صونيا بدقة. أشار خوسيه إلى السيارة، وأوَمَأ بعنف إلى أوف مجدداً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فوقف أوف على مسافة آمنة ويداه في جيبَي بنطاله، وهناك نظرة يقظة في عينيه.
«المستشفى!». صرخ خوسيه وهو يُشير إلى العجوز داخل السيارة. في الواقع، لم تكن تبدو في حال جيدة جداً كما أكّد أوف لنفسه. راح خوسيه يُشير إلى المرأة المسّنة وهو مختفٍ تحت غطاء محرك السيارة المنبعث منه الدخان، مكرّراً بيأس «المستشفى!! المستشفى!!». ألقى أوف نظرة على المشهد، واستنتج أخيراً أنّ هذا الدخان المنبعث من السيارة إسبانية الصنع يُعرَف «بالمستشفى».

انحنى أوف نحو المحرك، وأمعن النظر أسفله، فلم يبدُ له أنه معقّد.

«المستشفى». قال خوسيه مرّة أخرى، وأومأ عدّة مرات والقلق الشديد بادٍ عليه.

لم يدرك أوف ما الذي يتوقع منه قوله، فمن الواضح أنّ أمر السيارة برمّته مهمّ جداً في إسبانيا، وبالتأكيد تعاطف أوف مع ذلك.

«صـــاب». قال مشيراً بوضوح إلى صدره.

حدّق إليه خوسيه بحيرة في تلك اللحظة، ثم أشار إلى نفسه.

«خوسيه!».

«لم أكن أسألك عن اسمك، أنا فقط أريد أن أقول...»

بدأ أوف بالكلام، ولكنه توقّف عندما نظر إلى الجانب الآخر من المحرّك الذي كان يلمع كما لو أنه بحيرة داخلية.

من الواضح أن استيعاب خوسيه للّغة السويدية أسوأ من لغة أوف الإسبانية. تنهّد أوف ونظر بقلق إلى الطفلين الجالسين على المقعد الخلفي. كانا قد أمسكا بيدَي المرأة المسنّة وبدوَا مرتعبين بشدّة، فنظر أوف إلى المحرّك مجدداً.

ثم رفع كمَّي قميصه، وَأومأ إلى خوسيه كي يبتعد. وخلال عشر دقائق، عادوا إلى الطريق مجدداً، ولم يرَ أوف قطّ أحداً مرتاحاً إلى تلك الدرجة لدى إصلاح سيّارته.

ولكن، مهما تمعّنت صونيا في كتاب العبارات، فهي لم تعرف سبب عدم المطالبة بدفع ثمن الطعام الذي تناولاه في مطعم خوسيه في ذلك الأسبوع. ولكنها

كانت تغرق في الضحك في كلّ مرّة ترى فيها الرجل الإسباني مالك المطعم يشرق كالشمس عندما يرى أوف، رافعاً يديه وهاتفاً: «سنيور صاب!!!» إلى أن تهدأ لاحقاً.

أصبحت قيلولتها ونزهة أوف من الطقوس اليومية. وفي اليوم الثاني، مَرَّ أوف بجانب رجل يشيّد سياجه، فتوقّف ليشرح له أن الطريقة التي ينفذ بها ذلك خاطئة تماماً. لم يستطع الرجل فهم أي كلمة مما كان أوف يقوله، لذا قرّر في النهاية أن يريه كيفيّة العمل بطريقة أسرع. وفي اليوم الثالث، قام ببناء جدار خارجي جديد لمبنى دار العبادة، وذلك بمساعدة رجل الدين في القرية. أما في اليوم الرابع، فذهب مع خوسيه الى ميدان خارج القرية، وساعد أحد رفاق خوسيه في رفع حصان كان عالقاً في حفرة موحلة.

بعد عدّة سنوات، حدث أن سألته صونيا عن كلّ ذلك. وعندما أخبرها أوف أخيراً، هزت رأسها مطوّلاً وقالت: «إذاً، خلال فترة نومي تسلّلت إلى الخارج وقمت بمساعدة الناس الذين كانوا في أمسّ الحاجة إلى ذلك... وشيّدت سياجهم؟! يستطيع الناس أن يقولوا ما يحلو لهم عنك يا أوف، ولكنك أغرب بطل خارق قد سمعت عنه».

وفي طريق عودتهم من إسبانيا مستقلّين الحافلة، وضعت يد أوف على بطنها، فشعر بركلات الطفل بشكل ضعيف؛ كما لو أنّ أحداً ما قد نخس كفّه من خلال قفاز فُرن سميك. وأمضيا عدّة ساعات وهما يشعران بالركلات. لم يتفوّه أوف بأيّ كلمة، ولكن صونيا رأت الطريقة التي مسح فيها عينيه بظاهر يده قبل أن ينهض عن مقعده وهو يتمتم بشيء ما عن حاجته إلى دخول «المرحاض».

كان ذلك أسعد أسبوع في حياة أوف.

وكان من المقدّر أن يليه حزنٌ شديد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

22

رجل يدعى أوف وشخص في المرأب

كان أوف والهرّ جالسين بصمت في الصاب خارج المستشفى.

«توقّف عن النظر إليّ كما لو أنّ الذنب ذنبي». قال أوف للهرّ.

فنظر الهرّ إليه مجدّداً؛ ليس بغضب، وإنما بخيبة أمل.

لم يكن قد خطّط حقاً للجلوس خارج المستشفى مجدّداً. فهو يكره المستشفيات، وحتى الآن لقد حضر إلى المستشفى ثلاث مرات في أقلّ من أسبوع. وهذا أمر غير سليم. ولكن، لم يكن لديه خيار آخر.

لأنّ اليوم يوم سيئ منذ البداية.

بدأ النهار بالنسبة إلى أوف والهرّ- خلال التفتيش اليومي- عندما اكتشفا أنّ لافتة منع مرور المركبات في المجمّع السكني قد دُهست. ومن وحي المناسبة، قام أوف بإطلاق شتائم متنوّعة جعلت الهرّ محرجاً للغاية. ثم انطلق أوف غاضباً، وظهر بعد لحظات ومعه مجرفة الثلج. ثمّ توقّف، ونظر إلى منزل أنيتا ورون وفكّاه مشدودان للغاية؛ لدرجة أن أسنانه راحت تصدر صوتاً كالصرير.

نظر الهرّ إليه نظرة اتّهام.

«هذه ليست غلطتي؛ فالأحمق العجوز اختار أن يصبح طاعناً في السن». قال بحزم.

وعندما رأى الهرّ أنّ هذا تفسير غير مقبول على الإطلاق، أشار أوف إليه

بمجرفة الثلج.

«هل تعتقد أنها المرّة الأولى التي أختلف فيها مع المجلس؟ هل تعتقد أنهم توصلوا فعلاً إلى قرار بشأن رون؟ لن يفعلوا ذلك أبداً! سوف تذهب للطعن، ومن ثم سوف يسحبونها إلى الخارج، وسيخضعونها لظلمهم البيروقراطي اللعين. هل تفهم؟ أنت تعتقد أن هذا سوف يحدث بسرعة، ولكنه سوف يستغرق أشهراً، بل سنين! هل تعتقد أنني سوف أمكث هنا بسبب ذاك الأحمق المسنّ الذي أصبح عاجزاً؟».

لم يجِب الهرّ.

«أنت لا تفهم! أتفهم؟». همس أوف، ثم ذهب.

وشعر أن عينَي الهرّ كانتا تحدقان إلى ظهره أثناء سيره نحو الداخل.

ليس هذا هو السبب وراء جلوس أوف والهرّ داخل الصاب في الموقف خارج المستشفى. ولكن هناك صلة مباشرة بين ذلك ووقوف أوف هناك حاملاً مجرفة الثلج وظهور الصحافية المرتدية سترتها الخضراء الكبيرة خارج منزله.

«أوف؟». سألت وهي تقف خلفه، كما لو أنها قلقة من أنه ربما يكون قد غيّر هويته منذ آخر مرّة جاءت فيها لإزعاجه.

فأكمل أوف جرف الثلوج من دون الاعتراف بوجودها بأي شكل من الأشكال.

«أريد فقط أن أسألك بضعة أسئلة...» حاولت التحدث إليه.

«اسألي في مكان آخر. لا أريد سماع أي أسئلة». قال أوف وهو يجرف الثلج بطريقة جعلت من الصعب بالنسبة إلى المرأة معرفة ما إذا كان يجرف أم يحفر.

«ولكنني أريد فقط...» غير أنها قُوطِعَت عند دخول أوف والهرّ إلى المنزل، وإغلاقه الباب بقوّة في وجهها.

جلس أوف والهرّ في القاعة، وانتظرا حتى ترحل. ولكنها لم تفعل، بل بدأت تقرع الباب وتنادي: «لكن، أنت بطل!!!».

«إن هذه المرأة مجنونة حتماً». قال أوف للهرّ.

فلم يخالفه الهرّ الرأي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وعندما استمرّت بقرع الباب والصراخ بصوت عالٍ، لم يدرك أوف ما الذي عليه فعله، لذا قام بفتح الباب بقوّة، ووضع إصبعه على فمه محاولاً إسكاتها؛ كما لو أنه سوف يشير في اللحظات القادمة إلى أنها في مكتبة.

حاولت الابتسام في وجهه وهي تلوّح بشيء أدرك أوف فوراً أنه نوع من الكاميرا، أو ربما شيء آخر؛ إذ لم يكن من السهل معرفة ما تبدو عليه الكاميرات في هذا المجتمع.

ثمّ حاولت أن تخطو إلى قاعته؛ ربّما ما كان عليها فعل ذلك.

عندها، رفع أوف يده الكبيرة ودفعها على العتبة كردّة فعل؛ إلى درجة أن رأسها كاد يسقط أوّلاً على الثلج.

«أنا لا أريد شيئاً». قال أوف.

استعادت توازنها، ولوّحت بالكاميرا في وجهه وهي تصيح بشيء ما. ولكن أوف لم يكن يصغي، بل نظر إلى الكاميرا كما لو أنها سلاح، وقرّر بعدها الفرار.

لذا، خطا أوف والهرّ إلى الخارج، وأقفلا الباب، وتوجّها بسرعة نحو الموقف، فلحقت بهما الصحافية مهرولة.

مع ذلك، لنكون واضحين تماماً حول هذا الموضوع، ليس هناك أيّ جزء ممّا ذُكِر حتى الآن له علاقة بسبب جلوس أوف خارج المستشفى. ولكن، عندما وقفت پارڤانيه أمام باب بيت أوف وهي تقرعه حاملة ابنتها الصغرى، مرّت خمس عشرة دقيقة أو أكثر من دون أن يفتح لها أحد. ومن ثم سمعت أصواتاً قادمة من الموقف. وهذا إذا جاز التعبير له علاقة بسبب جلوس أوف خارج المستشفى.

مشت پارڤانيه والطفلة نحو مكان ركن السيارة، فرأت أوف واقفاً خارج مرأبه المغلق واضعاً يديه في جيبيه بغضب، فيما الهرّ جالس قرب قدميه ويبدو عليه الشعور بالذنب.

«ماذا تفعل؟». سألته پارڤانيه.

فأجاب أوف بشكل دفاعي: «لا شيء».

حينها، سمعت بعض أصوات الطرق آتية من داخل المرأب.

فسألته محدّقة إليه بدهشة: «ما كان هذا؟!».

بدا على أوف فجأة أنه مهتمّ للغاية بجزء معيّن من الأسفلت تحت حذائه، فيما ألقى عليه الهرّ نظرة خاطفة؛ كما لو أنه على وشك أن يبدأ بالصفير قبل أن يحاول السير بعيداً.

طرقة جديدة أتت من داخل المرأب.

«مرحباً؟». قالت پارڤانيه.

«مرحباً». أجابها باب المرأب.

فاتسعت عينا پارڤانيه.

«يا إلهي! هل حجزت أحداً في المرأب يا أوف!؟».

غير أن أوف لم يُجِب. عندها، هزّته پارڤانيه كما لو أنها تحاول أن تطرح بعض جوز الهند أرضاً.

«أوف!».

«نعم، نعم. ولكنني لم أفعل ذلك عن قصد بحق الله». تمتم وتملّص من قبضتها.

فهزّت پارڤانيه رأسها غير مصدقة.

«عن غير قصد؟!».

«أجل، عن غير قصد». قال أوف وكأن هذا سوف ينهي الحديث.

وعندما لاحظ أن پارڤانيه تتوقع نوعاً من التوضيح، حكّ رأسه وتنهّد.

« حسناً، هي واحدة من الصحافيين. لم أكن أنا من حجزها في الداخل. كنت أنوي أن أحجز نفسي والهرّ هناك، ولكنها لحقت بنا. وكما تعلمين، اتخذت الأمور مجراها».

بدأت پارڤانيه بتدليك جبينها.

«لا أستطيع التعامل مع هذا...»

«شرير». قالت الطفلة ذات السنوات الثلاث، ولوّحت بإصبعها نحو أوف.

«مرحباً؟». قال باب المرأب.

«لا يوجد أحد هنا!». همس أوف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«ولكنني أستطيع سماعك!». قال باب المرأب.

عندها، تنهد أوف ونظر إلى پارڤانيه بإحباط؛ كما لو أنه على وشك أن يهتف: «هل سمعت هذا؟ حتى باب المرأب يتحدّث إليّ هذه الأيام!».

في تلك اللحظة، أبعدته پارڤانيه جانباً، واتّجهت نحو الباب، واقتربت منه كثيراً، وطرقت عليه بشكل تجريبي، فسَمِعَت طرقاً مرتدّاً من الباب؛ كما لو أنه من المتوقع أن تتواصلا من خلال شيفرة مورس من الآن فصاعداً! ثم تنحنحت پارڤانيه وسألتها:

«لماذا تريدين التحدّث إلى أوف؟».

«إنه بطل!».

«إنه... ماذا؟».

«حسناً، آسفة. إذاً، اسمي لينا، وأنا أعمل في صحيفة محليّة، وأريد مقابلة...»

فنظرت پارڤانيه إلى أوف وهي في حالة صدمة، وسألته:

«ما الذي تقصده بكلمة بطل؟».

«إنها تثرثر!». احتجّ أوف.

فصرخ باب المرأب: «لقد أنقذ حياة رجل؛ ذاك الذي سقط على سكّة الحديد!».

«هل أنت متأكّد من صحة هذا يا أوف؟». سألته پارڤانيه، فبدا عليه أنه شعر بالإهانة.

«فهمت. إذاً، حقيقة أنني بطل شيء غير قابل للجدل الآن، أليس كذلك؟». تمتم أوف.

نظرت پارڤانيه إليه بشكل مريب، فيما حاولت الطفلة ذات السنوات الثلاث أن تمسك ما تبقى من ذيل الهرّ بحماسة وهي تردد: «هرّة!» «هرّة». ولم يبدُ أن الهر قد أعجب بتصرفها هذا، فحاول الاختباء خلف ساقَي أوف.

«ماذا فعلت يا أوف؟». سألته پارڤانيه بصوت منخفض كما لو أنها تخبره سراً، وخطت خطوتين بعيداً عن باب المرأب.

كانت الطفلة تطارد الهرّ حول قدميه، فحاول أوف معرفة ما يجب عليه فعله بيديه.

«آه إذاً، لقد قُمتُ بِسَحب أحدهم عن سكّة القطار، وليس هناك ما يدعو إلى كلّ هذا الإطراء والاهتمام». تمتم.

فحاولت پارڤانيه ألا تضحك.

«أو ما يثير الضحك». تابع أوف بحدّة.

«آسفة».

فصاح باب المرأب بشيء يشبه:

«مرحباً، هل ما زلت هناك؟».

«كلا!». قال أوف بصوتٍ عالٍ.

«لم أنت غاضب إلى هذا الحدّ؟». تساءل باب المرأب.

فبدت على أوف نظرة حيرة، وانحنى نحو پارڤانيه قائلاً لها:

«أنا... لا أعرف كيف أتخلص منها». ولو لم تكن پارڤانيه على درايةٍ جيدة به لكانت قد استنتجت أن هناك نوعاً من الترجي في عينيه.

«لا أريدها أن تبقى وحدها في الداخل مع الصاب!». همس بشكل خطير.

فأومأت پارڤانيه مؤكدة على جوانب الوضع المؤسف. عندها، أنزل أوف يده المنهكة بين الطفلة ذات السنوات الثلاث والهرّ قبل أن يصبح الوضع حول حذائه خارجاً عن السيطرة. فقد بدت الطفلة ذات السنوات الثلاث على استعداد لمحاولة احتضان الهرّ، فيما بدا الهرّ كما لو أنه على استعداد لاختيار الطفلة من بين صفوف المجرمين في مركز الشرطة. واستطاع أوف التقاط الطفلة ذات السنوات الثلاث التي كانت تضحك كثيراً.

«لم أنتِ هنا أصلاً؟!». سأل أوف پارڤانيه فيما كان يسلمها الحزمة الصغيرة (الطفلة) كما لو أنها كيس بطاطا.

فأجابته: «نريد أن نستقل الحافلة للذهاب إلى المستشفى لإحضار پاتريك وجيمي».

ورأت پارڤانيه الطريقة التي انتفضت فيها عروق أوف فوق عظام خدّه عندما قالت كلمة «الحافلة».

«نحن...» فتابعت وكأنها تلفظ بوضوح بدايات فكرة، ثم صمتت ونظرت إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

باب المرأب، ثمّ إلى أوف.

«لا أستطيع سماع ما تقولينه! تكلّمي بصوت أعلى!». صاح باب المرأب.

فتراجع أوف على الفور خطوتين بعيداً عنها.

وفي الحال، ابتسمت پارڤانيه لأوف بثقة؛ كما لو أنها اكتشفت حلّاً للكلمات المتقاطعة.

«مهلاً، أوف! ما رأيك بهذا؟ إذا أخذتني إلى المستشفى، فسوف أساعدك في التخلص من الصحافية! اتفقنا؟».

عندهـا، نظـر أوف إلـى الأعلى، ولم يبدُ عليه الاقتناع. غير أن پارڤانيه باعدت ذراعيها وهي تقول له رافعة حاجبيها:

«أو سوف أخبر الصحافية أنني أستطيع البوح بقصة أو اثنتين عنك يا أوف.

«قصة؟ أي قصة؟». صاح باب المرأب، وسُمع قرع حماسي.

فنظر أوف إلى باب المرأب بكآبة، ثم قال لپارڤانيه يائساً: «هذا ابتزاز».

فأومأت بفرح.

«أوف والمهـرج». قالـت الفتـاة الصغيـرة ذلـك وَأومأت للهـرّ. ومن الواضح أنها قالت ذلك بسبب شعورها أن نفور أوف من المستشفى يحتاج إلى المزيد من التوضيح لكل من لم يكن هناك في ذلك اليوم.

وبدا أن الهرّ لا يعي معنى ذلك. ولكن، إذا كان ذاك المهرج مملاً مثل الطفلة ذات السنوات الثلاث، فمن المؤكّد أنّ الهرّ لن يُكوّن انطباعاً سيئاً عن أوف بسبب ضربه أحدهم.

وهذا هو سبب جلوس أوف هنا الآن. كان الإحباط يبدو على الهرّ لأن أوف جعله يقطع كلّ تلك المسافة وهو جالسٌ إلى جانب الطفلة ذات السنوات الثلاث على مقعد السيارة الخلفي. سـوّى أوف الصحف على المقاعد وهو يشـعر أنه تمّ خداعـه. فعندمـا قالـت پارڤانيـه إنها سـوف «تتخلص» من الصحافيـة، لم تكن لديه فكـرة واضحـة عـن كيفية حـدوث ذلك. ومن الواضح أنه لم يكن يتوقّع أن تختفي في نفخة من الدخان، أو أن تقضي عليها مجرفة، أو أن تُدفن في الصحراء، أو شيئاً

من هذا القبيل. وفي الحقيقة، الشيء الوحيد الذي فعلته پارڤانيه هو أنها فتحت باب المرأب، وأعطت الصحافية بطاقتها، وقالت لها «اتّصلي بي وسوف نتحدث عن أوف». هل هذه حقاً طريقة مناسبة للتخلص من أحد ما!؟ منطقياً، أوف لا يعتقد أن هذه هي الطريقة المناسبة للتخلص من أيّ كان على الاطلاق.

ولكنّ الأوان قد فات الآن بالطبع. فالآن، اللعنة، إنه ينتظر خارج المستشفى للمرّة الثالثة في أقلّ من أسبوع. إنه ابتزاز، هذا كلّ ما في الأمر.

وعلاوة على ذلك، ينبغي لأوف مواجهة نظرات الهرّ المستاءة. هناك شيء ما في عينيه يذكّره بنظرات صونيا إليه.

«لن يأتوا لأخذ رون. قالوا إنهم سوف يفعلون ذلك، ولكنّهم سوف ينشغلون بالإجراءات لسنوات عديدة». قال أوف للهرّ.

ربما كان يقول ذلك لصونيا أيضاً، وربما لنفسه. إنه لا يعرف.

«على الأقلّ، توقّف عن الشعور بالأسف على نفسك. فلولاي لكنت تعيش الآن مع الطفلة، وبعدها لم يكن ليبقى لديك جزء كبير من ذيلك كما هو الحال الآن. فكّر في الأمر!». تذمّر مخاطباً الهرّ، ومحاولاً تغيير الموضوع.

فتقلّب الهرّ على جانبه بعيداً عن أوف، وحاول النوم كما لو أنه يحتجّ. كان يعلم جيداً أنه ليست لدى الطفلة ذات السنوات الثلاث أي حساسية بتاتاً. وعلم جيداً أن پارڤانيه كانت تكذب عليه لتتجنّب الاعتناء بالهرّ المزعج.

إنه ليس رجلاً مصاباً بخرف الشيخوخة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

23

رجلٌ يُدعى أوف والحافلة التي لم تصل إلى هناك

«كلّ شخص يجب عليه معرفة ما يقاتل من أجله». على ما يبدو هذا ما يقوله النـاس، أو علـى الأقـلّ هـذا مـا قرأته صونيا لأوف بصوتٍ عـالٍ من أحد كتبها. لم يسـتطع أوف تذكّـر أيّ واحـد مـن تلـك الكتب كان، إذ كان هنـاك دائماً الكثير من الكتب حول هذه المرأة. لقد اشترت في إسبانيا حقيبةً وملأتها بالكتب؛ بالرغم من أنّهـا لا تتحـدث الإسـبانية. «سـوف أتعلّـم لدى قراءتي لها». فقـال لها أوف إنه من النوع الذي يفضّل أن يفكّر في نفسه قليلاً عوضاً عن قراءة ما يسبّب الجلطات في العقول. عندها، ابتسمت صونيا فقط، وداعبت خدّه.

حمل أوف أكياسـها الضخمة إلى الحافلة، وشـم رائحة الشـراب المنبعثة من السائق لدى مروره قربه، ولكنّه استنتج أن هذه هي الحال في إسبانيا على الأرجح، وتـرك الأمـور هكـذا. جلسـا علـى المقعد بينما صونيا تحرّك يديهـا على بطنها بعد شـعورها بـركلات الطفـل؛ لأوّل وآخـر مرّة. وقف وذهب إلـى المرحاض، وحين وصـل إلـى منتصـف الطريق ترنّحت الحافلة واصطدمـت بالحاجز المركزي، ومن ثمّ عمّ الصمت؛ كما لو أنّ الوقت يأخذ نَفَساً طويلاً. ثمّ تحطّم الزجاج وتحوّل إلى شظايا، وسُمِع صرير لا يرحم ناجم عن التواء المعادن، تلاه سَحقٌ عنيفٌ للسيارات التي كانت وراء الحافلة والتي ارتطمت بها.

لن ينسى أبداً كلّ ذلك الصراخ.

في تلك اللحظة، سقط أوف أرضاً، وكلّ ما يتذكّره هو سقوطه على بطنه. نظر حوله باحثاً عنها برعب شديد، بين أجساد الناس، ولكنّها كانت قد اختفت. رمى نفسه إلى الأمام، معرضاً نفسه للجروح من الزجاج الماطر من السقف، ولكن كما لو أنّ حيواناً بريّاً غاضباً قد أمسك به وطرحه أرضاً في إذلال رهيب. وهذا الإحساس لاحقه كلّ ليلة لبقيّة حياته؛ أي العجز المطلق في ذلك الموقف.

جلس قرب سريرها لحظةً بعد لحظة في الأسبوع الأوّل، حتى أصرّت الممرّضات على أنّ عليه الاستحمام وتبديل ملابسه. وفي كلّ مكان قصده، نظروا إليه بعيون متعاطفة مُعربين عن «تعازيهم». جاء الدكتور وتحدّث إلى أوف غير مبالٍ، وصوته غير المكترث يكادُ يقول: «عليك الاستعداد لاحتمال عدم استيقاظها مرّةً أُخرى». عندها، دفع أوف الدكتور نحو الباب المغلق والمقفول وهو يصرخ مهتاجاً: «إنها ليست ميتة. لا تتظاهر كما لو أنها كذلك!». وبعد ذلك، لم يجرؤ أحد في المستشفى على ارتكاب خطأ كذاك مجدداً.

وفي اليوم العاشر، بينما كان المطر ينهمر على النافذة والراديو يَبُثُّ أنها أسوأ عاصفة منذ عدّة قرون، فتحت صونيا عينيها قليلاً وهي تشعر بألمٍ شديد، فرأت أوف، وأمسكت يده، ووضعت إصبعها في كفِّ يده، ثم خلدت إلى النوم ونامت الليل بطوله. وعندما استيقظت مجدّداً، أرادت الممرّضات إخبارها، ولكن أوف أصرّ بشدّة على إخبارها ذلك بنفسه. أخبرها بكلّ شيء بصوتٍ حنون، وهو يُداعب يديها بيديه، كما لو أنهما باردتان جداً. أخبرها عن السائق الذي فاحت منه رائحة الشراب، وعن انحراف الحافلة نحو الحاجز واصطدامها به، وعن رائحة المطاط المحترق، وأصوات الحطام التي تشقّ طبلة الأذن.

وأخبرها أيضاً عن الطفل الذي لن يأتي الآن.

ثم بكت بيأس مزمن لا عزاء فيه، وصراخ مزّق وقطّع قلبَي الاثنين معاً على مرّ الساعات التي لا تُحصى. الوقت والأسى والغضب تدفّقت معاً في ظلامٍ قاسٍ وطويل. عَلِمَ أوف أنه لن يسامح نفسه أينما كان على تركه مقعده في تلك اللحظة بالذات، وعلى عدم حمايتهما. كما علم أيضاً أن هذا الألم أبديّ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكـن صونيـا لن تكون صونيا إذا سـمحت للظـلام بالانتصار عليها. لذا، في صبـاح أحـد الأيـام، ولـم يكـن أوف علـى علـم بعدد الأيـام التي مـرّت منذ وقوع الحادث، عبّرت صونيا عن نفسـها بشـيءٍ من البلاغة، وصرّحت بأنها تريد أن تبدأ بالعلاج الفيزيائي. وعندما نظر إليها أوف كما لو أنّ عموده الفقري هو الذي صرخ مثـل حيـوانٍ متألـم فـي كلّ مـرّة تحرّكت فيها، أسـندت رأسـها بلطـف على صدره وهمسـت: «يمكن أن نشـغل نفسـينا في العيش أو في الموت يا أوف. يجب علينا أن نمضي قُدُماً».

وهذا ما حدث.

وفـي الأشـهر التاليـة، التقـى أوف عدداً لا يُحصى من الرجـال الذين يرتدون القمصان بيضاء اللّون. كانوا يجلسـون وراء مكاتب مصنوعة من الخشـب، وذات ألوان فاتحة في مكاتب البلدية، ومن الواضح أنّ لديهم وقتاً لا ينتهي لإعطاء أوف التعليمات حول الوثائق التي يجب ملؤها لأغراضٍ مختلفة، ولكن لا وقت لديهم على الإطلاق لمناقشة التدابير اللازمة لتتحسّن صونيا.

كانـت هنـاك امـرأة أُرسـلت إلى المستشـفى مـن قِبل سـلطات البلدية، حيث أوضحـت متفائلـة أنّـه بالإمكـان وضع صونيا في «بيت الخدمـة الذي يضمّ آخرين فـي مثـل حالتهـا»، وقالت شـيئاً ما بخصوص أنه مـن الممكن أن تكون «ضغوطات الحياة اليومية مفرطة» بالنسبة إلى أوف. لم تقل ذلك بشكلٍ صريح، ولكنّها كانت واضحة وضوح الشـمس في ما تخطّط له. ولم تصدّق أنّ أوف يسـتطيع البقاء مع زوجته الآن. «في ظلّ الظروف الحالية». كررت ذلك، وأومأت بتروٍّ نحو السـرير، وتحدّثت إلى أوف كما لو أنّ صونيا لم تكن في الغرفة.

عندها، فتح أوف الباب، وطردها صارخاً في وجهها:

«المنـزل الوحيـد الـذي سـنذهب إليه هـو منزلنا؛ حيث نقيـم!». وبكلّ إحباط وغضب رمى فردة من أحذية صونيا خارج الغرفة.

بعد ذلك، كان عليه أن يذهب ويسـأل الممرضات اللواتي كدنَ يُصبنَ بحذاء صونيا إذا كنّ يعرفن أين اختفى؛ وهذا بالطبع ما جعله أكثر غضباً. وكانت تلك هي المـرّة الأولـى التـي يسـمع أوف فيها صونيا تضحك منـذ وقوع الحادثة؛ كما لو أنّ

الضحكة تتدفّق خارجها، من دون أيّ إمكانية لإيقافها، وكأنها تناضل في الدنيا من خلال ضحكتها. ضحكت وضحكت وضحكت كما لو أنّها تهدف إلى التخلّص من قوانين الزمان والمكان، وجعلت أوف يشعر بارتفاع صدره ببطءٍ من تحت أنقاض المنازل المدمّرة بفعل الزلزال، ومَنَحَت قلبه فرصة لينبض مجدداً.

ذهب أوف إلى بيته، وقام بإعادة بناء المنزل بأكمله، مزّق أوراق الجدران القديمة في المطبخ ووضع أخرى جديدة. حتى إنه عثر على وعاء للطبخ مصمّم بشكل خاص. كما رمّم إطارات الأبواب، وجهّز العتبات بمنحدرات صغيرة. وفي اليوم التالي، بعد السماح لصونيا بالخروج من المستشفى عادت إلى حياتها الطبيعية. وفي فصل الربيع، أجرت امتحاناتها. كان هناك إعلان في الصحيفة لوظيفة معلّمة في مدرسة لديها أسوأ سمعة في البلدة، مع نوع من الصفوف التي لا تستطيع أيّ معلمة مؤهلة سليمة العقل أن تواجهه. حتى إن «قصور الانتباه وفرط الحركة» وُجدا هناك قبل اكتشافهما. «لا يوجد أيّ أمل لدى أولئك الصبيان والفتيات». قالت مديرة المدرسة بوعي كامل خلال المقابلة. «هذا ليس تعليماً، بل إنه تخزين». ربّما تفهّمت صونيا الشعور في الوصف على هذا النحو. هذه الوظيفة الشاغرة جذبت واحدة فقط من اللواتي تقدّمن إليها، وقد جعلت أولئك الفتيان والفتيات يقرأون شكسبير.

في ذلك الوقت، كان الغضب قد أثقل كاهله؛ ممّا جعل صونيا تطلب منه الخروج كي لا يدمّر الأثاث. لقد كانت تتألّم بلا حدود لدى رؤيتها إياه مشحوناً بالرغبة في التدمير؛ تدمير سائق الحافلة، ووكالة السفريات، وحاجز على الطريق السريع حيث حصل الاصطدام، ومنتج الشراب... باختصار، كلّ شيء وكلّ شخص. كان يرغب في الملاكمة والاستمرار في الملاكمة حتى يمحو كلّ نذلٍ. هذا كلّ ما أراد فعله. وصَبَّ غضبه في ورشته وفي المرأب. كما قام بذلك أثناء جولاته التفتيشية. لم يكن هذا كلّ شيء. وفي النهاية، بدأ بالتعبير بالرسائل. لقد راسل الحكومة الإسبانية، والسلطات السويدية، والشرطة، والمحكمة. ولكن، لم يتحمّل أحدٌ المسؤولية، ولم يكترث أحد. فقد طلبوا منه الرجوع إلى النصوص القانونية، وإلى السلطات المعنية، وقدّموا أعذاراً. وعندما رفض المجلس إنشاء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

منحدر على سلالم المدرسة حيث تعمل صونيا، قام أوف بكتابة رسائل وشكاوى لعدّة أشهر، كما كتب رسائل وجّهها إلى الصحف، وحاول أن يقاضيهم. وقد غمرهم حَرفيّاً بروحه الانتقامية المبهمة؛ لأبٍ قد تمّت سرقته.

ولكن في كلّ مكان، عاجلاً أم آجلاً، كان يتمّ إيقافه من قِبَل رجال صارمين ذوي قمصان بيضاء ووجوه متعجرفة، لا يستطيع المرء التشاجر معهم. لم تكن الدولة واقفة في صفّهم وحسب، بل هم الدولة بحدّ ذاتها. لقد تمّ رفض آخر شكوى، والعراك قد انتهى؛ هذا ما قرّره ذوو القمصان البيضاء؛ وأوف لم يسامحهم قطّ.

شاهدت صونيا كلّ شيء، وفهمت جُرحَهُ، ولذلك سمحت له بإطلاق العنان لغضبه، فلعلَّ هذا الغضب يَجِدُ متنفّساً له في مكان ما، وبطريقة ما. ولكن، في إحدى أمسيات الصيف في شهر مايو (أيار)، والتي كانت دائماً تحمل في ثناياها وعوداً لطيفة عن الصيف المقبل، دفعت كرسيها نحوه مخلّفةً آثاراً خفيفة على أرضية الباركيه. كان جالساً إلى طاولة المطبخ يكتب واحدةً من رسائله، فأخذت قلمه من يده، ووضعت يدها في يده، وضغطت بإصبعها على كفه الخشن، ثم أحنَت جبينها بنعومةٍ ووضعته على صدره.

«هذا يكفي الآن يا أوف. لا مزيد من الرسائل. لا يوجد متّسعٌ في هذه الحياة لرسائلك».

ثم رفعت نظرها نحوه، وداعبت خدّه بلطف وابتسمت قائلة:

«هذا يكفي الآن يا حبيبي أوف».

وبدا ذلك كافياً فعلاً.

وفي الصباح التالي، استيقظ أوف عند الفجر، وقاد الصاب إلى مدرستها، وبيديه العاريتين قام ببناء الرصيف المنحدر الخاص بالمعوّقين والذي رفض المجلس إنشاءه. وبعد ذلك، كانت تأتي كلّ ليلة بقدر ما تذكّر أوف لتخبره– وهناك سعادة في عينيها– عن الصبية والفتيات الذين كانوا يأتون إلى الفصل مع رجال الشرطة المرافقين لهم، وعندما يغادرون يكون بإمكانهم إلقاء شِعر قديم عمره أربعمئة سنة، والذين استطاعوا أن يضحكوها ويبكوها، وجعلوها تغنّي لدرجة أنّ

صوتها أصبح يَرتَدُّ عن سـقف بيتهم الصغير. لم يسـتطع أوف فهم أولئك الأولاد الذين لا يُحتملون، ولكنه أحبّهم لأجل ما فعلوه لصونيا.

كلّ إنسان يحتاج إلى معرفة ما يقاتل من أجله. وهي قد حاربت لما فيه خير للأولاد الذين لم تُنجِبهُم، وأوف حارب من أجلها.

وقد فعل ذلك لأنّه الشيء الوحيد الذي يعرفه في هذا العالم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

24

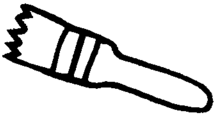

رجل يدعى أوف والشقيّ الذي يَطلي بالألوان

كانت الصاب تَعُجُّ بالناس عندما قاد أوف بعيداً عن المستشفى؛ لدرجة أنه ظلّ يتحقّق من مؤشر الوقود باستمرار، كما لو أنه خائف من أن تتحطّم وتتحوّل إلى قِطَع. نظر إلى پارڤانيه عبر مرآة الرؤية الخلفية وهي تعطي الطفلة ذات السنوات الثلاث أوراقاً وأقلاماً للتلوين بشكل غير مبالٍ.

«هل عليها فعل ذلك في السيارة؟!». صاح أوف مستنكراً.

فأجابته پارڤانيه بهدوء: «هل تفضّل أن تبقى غير هادئة كي تفكّر في طريقة لإفساد تنجيد المقاعد؟».

لم يُجب أوف، بل اكتفى بالنظر إلى الطفلة عبر مرآته. كانت تقوم بالتلويح بقلم التلوين الأرجواني الكبير في وجه الهرّ وهي جالسة في حضن پارڤانيه. راقب الهرّ الطفلة بحذرٍ شديد، نافراً منها ومبتعداً عنها بوضوح، وجاعلاً نفسه يبدو كمجرّد قطعة ديكور.

وكان پاتريك يجلس بينهما وهو يلوي جسده محاولاً أن يجد وضعيّة مريحة لعظمة ساقه المجصّصة التي ثبّتها على مسند الذراع بين المقعدين الأماميَّين. ولم يكن ذلك سهلاً؛ إذ راح يبذل قصارى جهده لعدم إزاحة الصحف التي وضعها أوف على مقعده وتحت الساق المجصّصة.

أوقعت الطفلة قلم التلوين أرضاً، فتدحرج نحو مقعد الركاب الأماميّ حيث كان جيمي جالساً، فسارع إلى تقديم المساعدة، وقام بحركة جديرة بأن يقوم بها

بهلوان أوليمبي؛ إذ استطاع ببنية جسمه الضخمة أن ينحني إلى الأمام ويلتقط قلم التلوين من أمامه. تفقّده للحظة، ثم ابتسم واستدار نحو ساق پاتريك المرتكزة عالياً، ورسم على الجصّ رجلاً كبيراً مبتسماً، فصرخت الطفلة من شدة الفرح عندما لاحظت ذلك.

«إذاً، سوف تبدأ الآن بإحداث الفوضى أيضاً؟». سأل أوف.

«أنيقة جداً، أليس كذلك؟». سخر جيمي وهو ينظر إلى أوف محاولاً أن يضرب كفّه بكفّ أوف كدليل على موافقته على ذلك.

غير أن أوف نظر إليه ساخراً.

«آسف يا رجل، لم أستطع منع نفسي». قال جيمي وهو يشعر بالخجل إلى حدٍّ ما، وأعطى پارڤانيه قلم التلوين.

فجأة، سُمع صوت رنين يصدر من جيب جيمي، ثم قام هذا الأخير بسحب هاتفه الذي كان بحجم يد رجل بالغ، وشغل نفسه بحماسة بالنقر على الشاشة.

«لمن هذا الهرّ؟». سأل پاتريك من الخلف.

«إنّه هرّ أوف». أجابت الطفلة الصغيرة بثقةٍ ويقين.

فصحّح لها أوف على الفور: «إنه ليس كذلك».

ورأى پارڤانيه تبتسم له ممازحة عبر مرآة الرؤية الخلفية وهي تقول: «هو كذلك!».

«كلا، ليس كذلك!». أكد أوف.

فضحكت پارڤانيه، فيما بدا پاتريك مُحتاراً، فراحت تُرَبِّتُ على ركبته بتشجيعٍ.

«لا تقلق حيال ما يقوله أوف. إنه بالتأكيد هرّ أوف».

«إنه متشرّدٌ لعين، هذا ما هو عليه!». صحّح أوف.

في تلك اللحظة، رفع الهرّ رأسه لمعرفة سبب الضجة، واستنتج أنّ كل هذا غير مثير للاهتمام، ثم عاد مجدّداً إلى حضن پارڤانيه، أو بالأحرى، إلى بطنها.

«إذاً، ألن يتمّ تسليمه إلى مكان ما؟». تساءل پاتريك مدقّقاً النظر إلى الهرّ.

فرفع الهرّ رأسه قليلاً، وماء بصوت منخفض كما لو أنه يجيبه عن سؤاله.

عندها، سأله أوف باختصار: «ما الذي تعنيه بقولك تسليمه؟».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«حسناً... إلى بيت الهررة أو شيء من هذا القبيل...» بدأ پاتريك بالكلام، ولكنه لم يستطع المتابعة بسبب صياح أوف الذي قال:

«لن يتمّ تسليم أحد إلى أيّ بيت لعين!».

وهكذا انتهى الموضوع. حاول پاتريك ألا يبدو مندهشاً، فيما حاولت پارڤانيه ألا تنفجر من الضحك. وكلاهما فشلا في ذلك.

«أيمكننا أن نتوقّف في مكان ما لنأكل شيئاً؟». تدخّل جيمي وهو يسوّي جلسته على المقعد؛ ممّا تسبّب في تمايل الصاب.

عندها، نظر أوف إلى المجموعة حوله كما لو أنه مخطوف ومأخوذ إلى عالم نظير، وفكّرَ للحظة في أن ينحرف عن الطريق، ولكنه أدرك أنّ أسوأ سيناريو سيكون مرافقتهم إياه أيضاً. بعد هذه الرؤية، أخفض أوف سرعته، وزاد المسافة بشكلٍ كبير بين سيارته والسيارة التي أمامه.

فصرخت ابنة السنوات الثلاث: «وييي!».

«هل نستطيع التوقّف يا أوف؟ فنسانين تريد قضاء حاجتها». خاطبته پارڤانيه بطريقة غريبة تجعل الناس يعتقدون أن المقعد الخلفي للصاب على مسافة مئتي متر خلف السائق.

«نعم! ويمكننا الحصول على شيء ما لتناوله في الوقت نفسه». أومأ جيمي بترقّب.

«نعم، لنفعل ذلك. أنا بحاجة إلى قضاء حاجتي أيضاً». قالت پارڤانيه.

«ماكدونالدز لديه مراحيض». قال جيمي مساعداً.

«ماكدونالدز يفي بالغرض، قف هناك». طلبت منه پارڤانيه.

غير أن أوف قال بحزم: «لن نتوقّف في أيّ مكان».

عندها، نظرت پارڤانيه إلى أوف عبر مرآة الرؤية الخلفية، فبادلها النظرات.

وبعد عشر دقائق، ها هو أوف يجلس في الصاب، وينتظرهم خارج ماكدونالدز. حتى إنّ الهرّ ذهب معهم؛ الخائن. وبعد لحظات، خرجت پارڤانيه وطرقت على زجاج نافذة السيارة.

«هل أنت متأكد من أنك لا تريد شيئاً؟». سألته بلطف.

وحيـن أومـأ مؤكـداً، بدا عليها الحزن قليلاً. ولكنه رفع زجاج النافذة مجدداً، فيما سارت حول السيارة وقفزت جالسة على مقعد الركاب.

«شكراً لك على وقوفك هنا». قالت مبتسمة.

«نعم، نعم».

كانـت تـأكل البطاطـا المقلية، فوضع أوف المزيـد من أوراق الصحف أمامها على الأرض. عندها، بدأت بالضحك، ولم يفهم أوف سبب ذلك.

وقالت فجأة: «أريد منك المساعدة يا أوف».

لم تبدُ على أوف الحماسة، فتابعت حديثها:

«حسبت أنك تستطيع مساعدتي لاجتياز اختبار القيادة».

«ماذا قلتِ؟!». سألها أوف كما لو أنه غير واثق من أن ما سمعه صحيح.

ولكنها تجاهلت ذلك، وتابعت: «سـاق پاتريك سـتبقى مجصّصة لعدّة أشـهر، ويجـب علـيّ أن أحصـل علـى رخصـة القيادة لكي أسـتطيع أن أُقـلّ الفتاتين. وقد حسبت أنّك قادر على إعطائي دروساً في القيادة».

بدا أوف مرتبكاً، حتى إنه نسي أن يغضب.

«إذاً، بعبارة أخرى، ليست بحوزتك رخصة قيادة، أليس كذلك؟».

«كلّا».

«إذاً، هذه ليست مزحة؟».

«كلّا».

«هل فقدت رخصتك؟»

«كلّا. لم أملك واحدة قطّ».

احتاج دماغ أوف إلى لحظات قليلة لاسـتيعاب هذه المعلومة التي كانت من وجهة نظره لا تُصدَّق أبداً.

«ما هو عملك؟». سألها أوف.

«وما علاقة عملي بذلك؟».

«بالتأكيد لهذا كلّ العلاقة».

«أنا وكيلة عقارية».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فأومأ أوف.

«ولا تملكين رخصة قيادة؟!».

«كلّا».

عندها، هزّ أوف رأسه متجهّماً، كما لو أنّ هذه هي الذروة في عدم تحمّل الإنسان المسؤولية عن أي شيء.

فابتسمت پارڤانيه مجدّداً تلك الابتسامة المُغيظة، وهي تسحق علبة البطاطا الفارغة وتفتح الباب.

«انظر إلى الموضوع بهذه الطريقة يا أوف: هل تريد حقّاً أن يعلمني شخص آخر القيادة في المنطقة السكنية؟».

ثم خرجت من السيارة وذهبت إلى سلّة المهملات. لم يجب أوف، واكتفى بالتأفف.

في تلك الأثناء، ظهر جيمي عند المدخل، وسأله وقطعة الدجاج خارجَ فمه: «هل أستطيع الأكل في السيارة؟».

في البداية، أراد أوف قول لا، ولكنه أدرك أنهم لن يغادروا بسرعة إن لم يوافق. لذا، بدلاً من ذلك، قام بنشر المزيد من أوراق الصحف على مقاعد الركاب والأرض كما لو أنه جاهزٌ لإعادة رشّ السيارة بالطلاء.

«هيا، اقفز إلى هنا. هل يمكنك فعل ذلك لنستطيع العودة إلى المنزل؟». ولَوَّحَ لجيمي متذمّراً.

فأومأ جيمي بتفاؤل، وهاتفه يرنّ.

«أوقف هذا الإزعاج».

«آسف يا رجل. تصلني رسائل البريد الإلكتروني من العمل باستمرار». قال جيمي وهو يوازن طعامه بيدٍ واحدة، بينما كان يعبث بالهاتف في جيبه باليد الأُخرى.

«إذاً، لديك وظيفة!». قال أوف.

فأومأ جيمي بحماسة.

«أنا أُبرمج تطبيقات الآي فون».

نفدت أسئلة أوف.

على الأقلّ، عمّ الهدوء في السيارة لمدة عشر دقائق؛ حتى وصلوا إلى الموقف خارج مرأب أوف. عندها، أوقف أوف السيارة بجانب مرأب الدراجات، وركنها في وضعية التروس الحيادية من دون أن يطفئها، ونظر إلى الركاب نظرةً ذات مغزى.

«حسناً أوف. يستطيع پاتريك السير من هنا باستعمال العكّازين». قالت پارڤانيه بسخرية لا يمكن إخطاؤها.

«لا يسمح للسيارات بالعبور في المنطقة السكنية». قال أوف.

خلّص پاتريك نفسه وساقه المجصصة من المقعد الخلفي من دون أن يعيقه شيء، في حين ضغط جيمي جسده خارجاً من مقعد الركاب المجاور، وقميصه مليء بدهون البرغر.

وقامت پارڤانيه برفع الطفلة ذات السنوات الثلاث في كرسيها الخاص من السيارة ووضعتها على الأرض. فلوّحت الطفلة في الهواء، وصرخت ببضع كلمات مشوّشة.

عندها، أومأت پارڤانيه، وعادت إلى السيارة مرّة أُخرى، وانحنت نحو الباب الأماميّ وأعطت أوف ورقة.

«ما هذه؟». سأل أوف من دون أن يقوم بأيّ حركة لقبول الورقة.

«هذا رسم نسانين».

«ما الذي عليّ فعله به؟».

فأجابته پارڤانيه وهي تدفع الورقة بين يديه: «لقد رسمتك».

نَظَرَ أوف إلى الورقة بتردّد، فوجدها مليئة بالخطوط والدوّامات.

«هذا جيمي، وهذا هو الهرّ، وهذا پاتريك، وأنا هنا. وهذا أنتَ يا أوف». أوضحت له.

وعندما قالت أوف، كانت تشير إلى الشكل الذي كان في منتصف الرسم. كان كلّ شيء آخر مرسوماً بالأسود، ولكنّ الشكل الذي يمثله في الوسط انفجارٌ حقيقيّ من الألوان؛ أحداث شغبٍ من الأصفر والأحمر والأزرق والأخضر والبرتقالي والأرجواني.

«أنت مضحكٌ جداً بالنسبة إليها؛ وهذا سبب رسمها لك بالألوان دائماً».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شرحت پارڤانيه.

ثم أغلقت باب الراكب المجاور ومضت قُدُماً.

احتاج أوڤ إلى بضع ثوانٍ قبل أن يستجمعَ شجاعته بقدرٍ كافٍ ليسألها: «ماذا تعنين بقولك دائماً؟».

ولكن في ذلك الحين كانوا قد بدأوا كلّهم بالسير إلى بيوتهم.

وفيما كان يشعر بالقليل من الإهانة، جمع أوڤ أوراق الصحف الموزعة على مقعد الراكب إلى جانبه، فاقترب الهرُّ من الخلف وجعل نفسه مرتاحاً عليها. أعاد أوڤ الصاب إلى المرأب، وأغلق الأبواب. ركنها على وضعية التروس الحيادية من دون أن يطفئ المحرّك، وشَعرَ بالأبخرة تملأ المرأب، ونظر إلى الأنابيب البلاستيكية المعلّقة على الحائط. لبضع دقائق، كان كلُّ ما تمكّن من سماعه هو صوت أنفاس الهرّ وإيقاع صوت المحرّك. قد يكون من السهل جداً الجلوس هناك وانتظار المحتوم. هذا هو الشيء المنطقيّ الوحيد بالنسبة إلى أوڤ. لقد كان مشتاقاً إلى هذا منذ زمن؛ إلى النهاية. إنه يشتاق إليها بشدّة، لدرجة أنه لم يَعُد يحتملُ أحياناً بقاءه على قيد الحياة من دونها. الشيء العقلانيّ الوحيد هو أن يجلس هنا مع الهر إلى أن يأخذهما الدخان معاً في سباتٍ عميق، وتأتي النهاية.

ثم نظر إلى الهرّ، وأطفأ المحرّك.

في صباح اليوم التالي، استيقظا عند الساعة السادسة إلّا ربعاً. شرب أوڤ القهوة، فيما تناول الهر سمك التونة. وعندما أنهيا جولاتهما التفقّدية، قام أوڤ بجرف الثلج خارج منزله بحذر. وبعد أن أنهى ذلك، وقف خارج ورشته منحنياً نحو مجرفة الثلوج، وناظراً إلى خطوط المنازل ذات السطيحات.

بعد ذلك، عبر الطريق، وبدأ بإزالة الثلج من أمام المنازل كلها.

25

رجل يدعى أوڤ وقطعة الحديد المموّجة

انتظر أوڤ إلى أن انتهى من تناول الفطور ليُطلِقَ الهرّ في الخارج. وحينها فقط، أخذ قارورة الدواء عن الرفّ العلويّ في الحمام، ووزنها في يده كما لو أنّه على وشك رميها في مكان ما؛ ليتأكد من كمية الحبوب المتبقية فيها.

في النهاية، قامَ الأطباء بوصف حبوب مسكنّة كثيرة لصونيا. وما زال حمّامهما يبدو كمخزن لمافيا كولمبية. من الواضح أنّ أوڤ لا يثق بالأدوية، وقد كان دائماً على قناعة بأنّ تأثيرها الحقيقي نفسيّ فقط. ونتيجةً لذلك، هي تؤثّر فقط في الأشخاص ذوي العقول الضعيفة. ولكنّ الفكرة التي علقت في رأسه الآن هي أنّ هذه المواد الكيميائية ليست على الإطلاق طريقة غير عاديّة لإنهاء حياة المرء.

فجأة، سمع أوڤ صوتاً قادماً من خارج الباب الأمامي، فأدرك أن الهرّ قد عاد بسرعة مفاجئة، وها هو يتخبّط على العتبة ويبدو كما لو أنّه عالق في فخّ. وكأنّه... على علمٍ بما يدور في بال أوڤ. وأدرك أوڤ أنّ أمله قد خاب فيه، ولكنه لم يتوقّع منه أن يتفهّم أفعاله.

فكّر في ما سيكون عليه شعوره لدى قيامه بذلك؛ فهو لم يتناول أيّ مسكنات من قبل، كما أنّه لا يحبّ أبداً أن يشعر بفقدانه السيطرة. لقد أدرك على مرّ السنين أنّ هذا الشعور يحبُّه الشخصُ العاديّ ويتوقُ له. ولكن، بقدر ما كان أوڤ مهتمّاً بهذا، بقدر ما كان يجد أن الشخص التافه بالكامل فقط من يجدُ أن حالة فقدان السيطرة تستحقّ أن تكون هدفاً. تساءل عمّا إذا كان سيشعر بالغثيان، وبالألم عندما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تقرّر أعضاء جسمه الاستسلام والتوقّف عن العمل، أو إن كان سيستغرق في النوم فقط عندما لا يعود جسده يفي بالغرض؟

الآن، ها هو الهرّ يموء في الخارج في الثلج. أغمض أوف عينيه وفكّر في صونيا. إنه ليس من النوع الذي يستسلم ويموت؛ لا يريدها أن تعتقد هذا. ولكن، في الواقع، كلّ هذا خطأ. فهي تزوّجته، وهو الآن لا يعلم تماماً كيف سيمضي قُدُماً من دون أن يلامس طرفُ أنفها عنقه. هذا كلُّ ما في الأمر.

فتح الغطاء، ووزّع الحبوب على حافة المغسلة، وراح يحدّق إليها كما لو أنّه يتوقّع أن تتحوّل إلى آليات روبوت صغيرة قاتلة. بالطبع لن تفعل ذلك. لم يعجبه الأمر. ووجد أوف أنه لا يمكن تفسير كيف تستطيع هذه الحبوب البيضاء أن تؤذيه؛ بغضّ النظر عن الكمية التي يتناولها. بدا له الهرّ كما لو أنّه يبصقُ الثلجَ على جميع أنحاء باب أوف الأمامي. ولكن، شتّت انتباهه صوت آخر غريب؛ إنّه صوت كلب ينبح.

نظر أوف إلى الأعلى. فجأة، عمّ الهدوء لبضع ثوانٍ، وبعد ذلك سمع صوت الهرّ يموء من شدة الألم، ثم المزيد من النباح، ثم صوت العشبة الشقراء وهي تصيح بشيءٍ ما.

وقف أوف هناك متمسّكاً بالمغسلة، وأغمض عينيه لعلّ ذلك يُخفي تلك الأصوات. ولكنه لم ينجح. وأخيراً، تنهّد أوف ونهض واقفاً، وفتح غطاء الزجاجة، ووضع الحبوب داخلها مجدداً، ونزل السلالم. وضع زجاجة الدواء على حافة النافذة حالما عبر غرفة المعيشة. ومن النافذة، استطاع رؤية العُشبة الشقراء على الطريق مندفعة نحو الهرّ.

فتح أوف الباب فرآها على وشك أن تركلَ الهرّ على رأسه بكلّ قوّتها، فيما تحايل الهِرُّ على كعبها الحادّ كالإبرة، وهرب إلى مخزن أدوات أوف. عندها، أصدر الكلب المهجّن نباحاً مدوّياً وهستيرياً، وتطاير اللّعابُ من فمه كما لو أنه وحشٌ مصابٌ بداءِ الكَلَب. ولأوّل مرّة، انتبه أوف إلى أنّه لم يَرَ العشبة الشقراء من دون نظّارتها الشمسية من قبل قط، وكان الحقدُ يلمع في عينيها الخضراوين. أرجعت قدمها إلى الوراء، واستعدت لتوجيه ركلةٍ أُخرى، وفي تلك اللحظة لمحت أوف،

ومنعت نفسها فجأة فيما كانت قدمها في منتصف المسافة، وشفتُها السفلى ترتجف من شدة الغضب.

وهمست مخاطبة إياه وهي تشيرُ إلى الهرّ: «سوف أُطلقُ النار على هذا الشيء!».

فهز أوف رأسَه بكلّ هدوء من دون أن يُبعِدَ عينيه عنها، وهناك شيءٌ ما في تعبير وجهه يظهرُه كما لو أنه منحوت في الصخر؛ وهذا ما جعل تهديدها الإجرامي يتلاشى ويتبخّر.

«إنه هرّ شارع لـ... لـ... لعين، و... و... هو سوف يموت! لقد خدش برينس!». تمتمت مترددة.

لم يقل أوف شيئاً، ولكن الغضب الشديد بدا واضحاً في عينيه. وفي النهاية، حتّى الكلب تراجع خوفاً منه.

«هيا يا برينس». قالت وهي تختفي؛ كما لو أنّ أوف دفعها من الخلف.

لم يبارح أوف مكانه، وراح يتنفّس بصعوبة وهو يضغط على صدره بقبضة يده ويشعر بنبض قلبه غير المنضبط. تذمّر قليلاً، ونظر إلى الهرّ الذي بادله النظر أيضاً، وهناك جرحٌ جديدٌ على جسمه، وها هو الدم منتشر على شعره مجدداً.

لعق الهرّ يد أوف، فأومأ هذا الأخير وتنحّى جانباً قائلاً له:

«هيا، ادخل».

سار الهرُّ نحو العتبة، ثم أغلق أوف الباب.

وقف أوف في منتصف غرفة الجلوس، وشعر أن صونيا تنظر إليه الآن من كل مكان في الغرفة. الآن فقط أدرك أنه وضع الصور بطريقة تجعله يشعر أنها تلحق به أينما ذهب. فهناك صورة لها على طاولة المطبخ، وأخرى معلّقة على حائط الردهة، وأخرى عند منتصف السلالم، وواحدة على حافة النافذة في غرفة الجلوس حيث قفز الهرّ الآن وجلس إلى جانبها، وراح ينظر إلى أوف نظرةً ساخطة بينما دفع زجاجة الدواء على الأرض، محدثاً ضجيجاً مفاجئاً. وعندما التقط أوف الزجاجة، نظر الهرّ إليه برعب؛ كما لو أنه على وشك الصراخ :»أنا أوجّه إليك الاتّهام!».

ذهب أوف إلى المطبخ، ووضع زجاجة الدواء في الخزانة، وبعدها حضّر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القهوة وصبّ الماء في وعاء الهرّ.

وراحا يشربان بصمت.

بعد ذلك، التقط أوف الوعاء الفارغ، ووضعه بجانب كوب قهوته في حوض الجلي، ووقف ويداه على وركيه لمدّة وجيزة، ثم استدار وذهب إلى غرفة الجلوس.

«لنتسكّع إذاً». حثّ الهرّ على مرافقته من دون أن ينظر إليه، وتابع: «هيّا، لنعطِ هذه القرية الخسيسة شيئاً للتفكير فيه».

ثم ارتدى أوف سترته الشتوية البحرية، وجعل الهرّ يخرج من المنزل أوّلاً. نظر إلى صورة صونيا على الحائط وهي تضحك له، وفكر في أن موته الآن ليس أمراً بالغ الأهمية؛ فبإمكانه الانتظار ساعة أُخرى، ثمّ لحق بالهرّ على الطريق.

ذهب إلى منزل رون، حيث استغرق الأمر بضع دقائق قبل يُفتَح الباب. وسمع أوف صوت شيء ما يتحرك ببطء في الداخل قبل أن يُفتَح قفل الباب؛ كما لو أنّ شبحاً يقترب مكبّلاً بسلاسل ثقيلة تقعقع خلفه. وأخيراً، فتح رون الباب، ونظر إلى أوف والهرّ من دون أن يتعرف إلى أوف.

فسأله أوف مباشرة: «هل لديك أيّ حديد مموّج؟».

عندها، رمقه رون بنظرة مركزة لثانية أو أكثر؛ كما لو أن دماغه يقاتل يائساً لفهم ما يُقال.

«حديد مموّج!». قال لنفسه كما لو أنه يتذوّق الكلمة؛ كمن استيقظ من نومه للتوّ، وهو يحاول بجهد تذكّر ما كان يحلم فيه.

«حديد مموّج، هذا هو». قال أوف ثم أومأ.

نظر رون إليه، أو بالأحرى نظر مباشرةً من خلاله، وهناك لمعان في عينيه كغطاء محرّكٍ تم تلميعه حديثاً. كان يبدو هزيلاً وأحدب، ولحيته رماديّة اللون وحدودها بيضاء. اعتاد في ما مضى أن يكون رجلاً يأمرُ بقليلٍ من الاحترام، ولكنه الآن بثيابه التي تغطي جسده كخرقةٍ من القماش بدا ضعيفاً جداً. لقد أصبح مسنّاً، مسنّاً جداً. أدرك أوف ذلك، وهذه الحقيقة سدّدت له ضربة قوية لم تكن في الحسبان. تغيّرت نظرة رون للحظة، وبدأ فمه بالارتعاش، ثم هتف قائلاً: «أوف؟».

«نعم، حسناً... الشيءُ الأكيد هو أنني لست والدك». أجاب أوف.

فارتسمت على وجه رون ابتسامة صغيرة.

كِلا الرجلين كانا يوماً ما رفيقين مقرّبين جداً، وها هما الآن يحدّقان إلى بعضهما بعضاً من دون أن يجدا ما يقولانه. أحدهما يرفضُ أن ينسى الماضي، بينما الآخر لا يستطيع تذكّره على الإطلاق.

قال أوف: «تبدو كبيراً في السنّ». فكشّر رون.

وبعدها، سُمِع صوت أنيتا مغلّفاً بالقلق، ثم ظهرت قدماها الصغيرتان اللتان راحتا تُصدران صوتاً كقرع الطبل لدى نزولها السلالم مسرعة.

«هل هناك أحدٌ عند الباب يا رون؟ ماذا تفعل هناك؟». نادت بصوت مليء بالرعب وهي تقترب من الباب.

ثمّ رأت أوف، فتوقفت فجأة وقالت له:

«أوه... مرحباً أوف».

وقف أوف هناك ويداه في جيبيه. وبدا الهرّ الواقف بجانبه كما لو أنّ عليه فعل ذلك أيضاً؛ لو كان يملك جيبين. بدت أنيتا صغيرة الحجم وعديمة اللون في سروالها الرمادي، وسترتها الرمادية المحبوكة، وشعرها الرمادي، وجلدها الشاحب. ولكن أوف لاحظ أنّ عينيها حمراوان قليلاً، وجفنيها منتفخين. مسحت عينيها بسرعةٍ، وحاولت إخفاء الألم الذي تشعر به؛ أي مثلما تفعل كلّ النساء في مثل سنها. كما لو أنهنّ يَقِفنَ كلّ صباح عند المدخل، عازماتٍ على طرد الحزن خارج منازلهنّ بالمكنسة. أمسكت كتفَي رون بحنان، ثم دفعت كرسيه المتحرّك حتى صار بالقرب من نافذة غرفة المعيشة.

كرّرت بصوت ودّي ومتفاجئ وهي ترجع إلى الباب مجدّداً: «مرحباً أوف. كيف يمكنني مساعدتك؟».

«هل لديك أيّ حديد مموّج؟». سألها أوف، فبدت عليها الحيرة.

«حديد مصحّح!؟». تمتمت كما لو أنّ الحديد كان على خطأ وقام أحدهم بتصحيحه.

فتنهّد أوف بعمق وقال:

«بحقّ الله! حديد مموّج».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تبدُ أنيتا أقلّ حيرة مما كانت عليه البتّة، وسألته:

«هل من المفترض أن أملك بعضاً منه؟».

«رون لديه منه في مخزنه بالتأكيد». قال أوف ذلك وهو يُخرج يديه من جيبيه.

فأومـأت أنيتـا، وأخـذت مفتاح مخزن الأدوات المعلّق على الحائط وسـلّمته إياه مرددة:

«حديد مموّج؟!».

«نعم». أجاب أوف.

«ولكن، ليس لدينا سقف معدنيّ».

«وما علاقة هذا بالموضوع؟».

فهزّت أنيتا رأسها بارتباك، وأجابت:

«لا...لا، ربما لا علاقة لهذا بذاك بالطبع».

«علـى المـرء أن يكـون لديـه القليل من الصفائح المعدنيـة». قال أوف كما لو أن هذا غير قابل للجدال.

أومـأت أنيتـا مثلمـا يفعـل المرء حين يواجه حقيقةً لا يمكن إنكارها؛ ألا وهي أنّ القليل من الحديد المموّج شيءٌ موجودٌ عند كلّ الأشخاص الطبيعيين وسليمي التفكير، وهو مخبّأٌ في مخزن الأدوات، فقط في حال احتاج إليه أحدهم وطلبه.

«ولكن، لماذا لا تملك أياً منه إذاً؟». حاولت أن تتبادل معه الحديث.

فقال أوف: «لقد نفد من عندي».

أومأت أنيتا بتفهّم مثلما يواجه المرء حقيقةً لا جدال فيها؛ وهي أنه ليس من الغريب بالنسبة إلى رجل عادي ليس لديه سقف معدنيّ أن يستخدم حديداً مموّجاً بمعدّلٍ يجعله ينفد من عنده.

وبعد دقيقة، ظهر أوف عند باب المدخل منتصراً، وقام بسـحب قطعة حديد مموّجة كبيرة بحجم سجادة غرفة المعيشة. أمّا أنيتا فلم تكن لديها بصدق أي فكرة عن كيفية وجود هذه القطعة المعدنية الكبيرة في مخزنهما من دون علمها بذلك.

«لقد قلت لك». أومأ أوف، وأعاد إليها المفتاح.

«نعـم... نعـم، لقـد فعلـت، أليـس كذلـك؟». شـعرت أنيتـا أنها مُجبـرة على

الاعتراف بذلك.

استدار أوف نحو النافذة، فنظر إليه رون من داخل المنزل وابتسم له مجدّداً، ورفع يده ولوّح بها قليلاً، بينما استدارت أنيتا لتعود إلى المنزل. كما لو أنه في هذه اللحظة قد علم من يكون أوف وما الذي يفعله هناك.

فجأة، وقفت أنيتا متردّدة، ثم استدارت وقالت له من دون أن ترفع نظرها إليه:

«لقد أتوا من مكتب الخدمات الاجتماعية مجدداً، وهم يريدون أخذ رون بعيداً عنّي».

كان صوتها وهي تلفظ اسم زوجها يبدو كما لو أنه يتشقّق مثل ورقة صحيفة جافّة، فضغط أوف بإصبعه على الحديد المموّج.

«قالوا إنني لست قادرة على الاعتناء به؛ بسبب مرضه وكلّ شيء. وقالوا إنّ عليه أن يذهب إلى بيت الرعاية».

استمرّ أوف في الضغط بإصبعه على الحديد المموّج، فتابعت هامسة:

«سوف يموت إذا تركته في بيت الرعاية يا أوف، وأنت تعلم هذا...».

أومأ أوف وهو ينظر إلى بقايا أعقاب السجائر المتجمّدة فوق حجارة الرصيف، ولاحظ من زاوية عينه أن أنيتا تنحني إلى جهةٍ واحدة. وكانت صونيا قد أوضحت له منذ سنةٍ مَضَت أنّ هذا بسبب جراحة استبدال الورك، إنه يتذكّر الآن. كانت يداها ترتجفان أيضاً هذه الأيام. «بداية مراحل التصلّب اللويحي». كما فَسَّرت له صونيا سابقاً. ورون أصابه الزهايمر منذ بضع سنوات أيضاً.

فتمتم بصوت منخفض: «إذاً، يستطيع ابنك المجيء ومساعدتك».

عندها، رفعت أنيتا نظرها إليه، ونظرت إلى عينيه وابتسمت بلطف، ثم أجابت:

«يوهان؟ آه... إنه يعيش في أميركا كما تعلم. لديه ما يكفيه من المتاعب، أنت تعلم كيف هم الشباب!».

لم يجب أوف، إذ قالت أنيتا كلمة «أميركا» كما لو أنها المملكة التي انتقل إليها ابنها الأناني. لم يَرَ أوف ذلك الشقي في الشارع قط، ولا حتى مرّة واحدة منذ أن مرض رون.

لقد أصبح رجلاً الآن، ولكن لا وقت لديه لوالديه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قفزت أنيتا للحصول على انتباهه، وابتسمت لأوف معتذرة، ثم قالت: «آسفة يا أوف، لم يكن عليّ أن أقف هنا وأضيّع وقتك بثرثرتي».

ثم عادت إلى المنزل مرّة أُخرى، وظلّ أوف واقفاً في مكانه حاملاً قطعة الحديد المموّج بيده والهرّ بجانبه، وتمتم شيئاً ما لنفسه قبل إغلاق الباب. فاستدارت أنيتا متفاجئة، وأمعنت النظر عبر الفتحة الضيقة وحدّقت إليه.

«عذراً؟».

فأدار أوف ظهره من دون أن ينظر إليها، ثم راحت الكلمات تخرج من فمه بطريقة غير إرادية.

«لقد قلتُ إنّه إذا كانت لديك أيّ مشكلة مع مُعدلات الهواء اللعينة هذه، فبإمكانك أن تأتي وتقرعي الجرس. أنا والهرّ في المنزل».

وها هو وَجهُ أنيتا المجعّد ترتسم عليه ابتسامة تدل على دهشتها. سارت نصف خطوة إلى خارج الباب، وكأنّها تريد قول المزيد؛ ربّما شيئاً ما عن صونيا، وكيف أنها تفتقد بعمقٍ إلى صديقتها المفضّلة، وإلى كلّ ما مرّوا به جميعهم، عندما انتقلوا إلى هذا الشارع منذ أربعين سنة. وهي تفتقد أيضاً إلى طريقة رون وأوف في المجادلة. ولكن، فجأة اختفى أوف عن الأنظار.

توجه أوف مجدداً إلى مخزن معدّاته، وجلب بطارية احتياطية للصاب واثنين من المشابك المعدنية الكبيرة، ثم قام ببسط قطعة الحديد المموّج على حجارة الرصيف الواقعة بين ورشته ومنزله وغطّاها بالثلج بحذر.

وحين أنهى، وقف بجانبِ هِرِّهِ مقيّماً إبداعَهُ لوقتٍ طويل. إنه كَمين مثاليّ للكلب، وهو مُخَبّأٌ تحت الثلج، وموصولٌ بالكهرباء، وجاهز لصعقه. هذا انتقامٌ مناسبٌ تماماً. في المرّة القادمة التي ستمرُّ فيها العُشبةُ الشقراء مع مغفّلها اللعين، وعندما سيقوم هذا الأخير بالتبول على رصيف أوف، فسيفعل ذلك فوق قطعةٍ معدنية موصولة بالكهرباء. وبعدها، سنرى كيف سيكون ذلك مُسليّاً لهما، فكّر أوف في سره.

أمال الهرُّ رأسه، ونظر إلى الصفيحة المعدنية.

فقال أوف: «مثل الصاعقة في مجرى البول الخاص بك».

حدّق إليه الهرّ لفترة طويلة، كما لو أنه يقول: «أنت لست جادّاً! أليس كذلك؟».

وفي نهاية المطاف، وضع أوف يديه في جيبيه وهو يهزّ رأسه.

ثم تنهّد وقال متجهّماً: «لا... لا. لا أعتقد ذلك».

وبعد ذلك، قام بإزالة البطارية والمشبكين والحديد المموّج، وأعاد كلَّ شيءٍ إلى المرأب. ليس لأنه يعتقد أنّ تلك الغبية وكلبها لا يستحقّان صدمةً كهربائية مناسبة، فهما يستحقانها. ولكن لأنّه يعلم أنّه منذ فترةٍ، قام شخصٌ ما بتذكيره بالفرق بين أن يكون المرءُ مؤذياً لأنّ هذا واجبٌ عليه، أو أنّه قادرٌ على ذلك.

«رغم ذلك، لقد كانت هذه فكرة جيدة». استنتج أوف قائلاً للهِرّ وهما عائدان إلى المنزل.

ذهب الهرّ إلى غرفة المعيشة معبّراً عن رفضه من خلال لغة جسده؛ كما لو أنّ شخصاً ما يهمهم :»بالطبع، بالطبع كانت كذلك...»

ثم تناولا الغداء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

26

رجل يدعى أوف والمجتمع الذي لم يعد أحدٌ فيه قادراً على إصلاح دراجته بنفسه بعد الآن

يعتقد الكثير من الناس أنّه من الصعب العيش مع شخصٍ يحبّ الوحدة. في الحقيقة، إنها تُزعج أولئك الذين لا يستطيعون التعامل مع ذلك. ولكن زوجته لم تتذمّر أكثر من اللازم، وكانت تقول له دائماً: «لقد قبلتُكَ كما أنت».

ولكنّ صونيا لم تكن سخيفةً إلى درجة تمنعُها من أن تفهم أنّ الرجال أمثال أوف بحاجةٍ إلى التحدّث إلى شخصٍ ما بين الحين والآخر. وهو لم يفعل ذلك منذ فترة طويلة.

«لقد ربحت». قال أوف باقتضاب عند سماعه صوت إغلاق صندوق البريد.

فقفز الهرّ بعيداً عن إطار النافذة في غرفة المعيشة، وتوجّه نحو المطبخ. «فاشلٌ سيّئ». قال أوف وهو يتّجه إلى الباب الأمامي. لقد مضت سنوات منذ أن راهن أحداً ما على وقت وصول البريد. فقد كان معتاداً على رفع الرهانات مع رون خلال عطلة الصيف، وكان الرهان كبيراً لدرجة أنهما وضعا أنظمةً معقدة من إضافات ثانويّة وأنصاف الدقائق لمعرفة أيّ منهما هو الأكثر دقّة. هذا ما كانت عليه تلك الأيام. وصل البريد عند الساعة الثانية عشرة تحديداً. لذا على المرء أن يرسم الحدود بدقّة لمعرفة من خمّن بشكل صحيح. الآن، لم يَعُد الحالُ كما كان عليه في السابق. ففي هذه الأيام، يمكن أن يصل البريد خلال فترة بعد الظهر، وقد

يأتي في أي يوم. فمكتب البريد يهتمّ متى شاء فقط، وأنت عليك أن تكون شاكراً، وهذا كل شيء. حاول أوف أن يراهن صونيا بعد خلافه مع رون، ولكنها لم تفهم القوانين. ولذلك استسلمت.

بالكاد استطاع الشاب الذي يرتدي زيّ ساعي البريد الموحّد تجنّب وقوعه عن السلالم عندما قام أوف بفتح الباب بعنف، ونظر إليه متفاجئاً.

«نعم؟». سأل أوف.

بدا الشاب وكأنّه لا يستطيع إعطاء جواب؛ وراح يحرّك الصحيفة والرسالة. وفي تلك اللحظة، لاحظ أوف أن هذا هو الشاب نفسه الذي تجادل معه حول الدراجة منذ عدّة أيام، بجانب مخزنه. الدراجة التي قال الشاب إنه سيصلحها. وبالطبع، يَعي أوف معنى ذلك. فكلمة «إصلاح» تعني سرقتها وبيعها على الانترنت للأوغاد، هذه هي القصة ببساطة.

بدا الشاب– إذا صَحَّ التعبير– أقلّ خوفاً وانفعالاً حيال تعرّفه إلى أوف وليس العكس. وبدا وكأنه نادلٌ صغيرٌ متردّد حول ما إذا كان عليه أن يقدّم لك الطعام أو يأخذه إلى المطبخ ويبصق عليه. نظر الشاب إلى أوف بهدوء قبل أن يعطيه البريد مُكرهاً وهو يتفوّه بكلمة «تفضّل» بغضب، فاستلم أوف البريد من دون أن يبعد نظره عنه.

«صندوق البريد الخاص بك مسحوق، لذا أردت تسليمك إيّاها شخصياً». قال الشاب، وأومَأ نحو الخردة ذات الطيات التي كانت صندوق بريد أوف قبل أن يأتي ذلك النحيف الذي لا يجيد القياد، ويُرجع مقطورته إلى الوراء ويدهس الصندوق، ثم أومَأ نحو الرسالة والصحيفة في يَدِ أوف، فنظر أوف إليهما. كانت الصحيفة إحدى الخِرَق المحليّة التي تُوَزَّعُ من دون هدف. والرسالة على الأرجح إعلان، كما اعتقد أوف. ومن الواضح أنّ اسمه وعنوانه مكتوبان على الصفحة الأمامية بطريقة يدوية عادية، ولكنّ هذه خدعة إعلانية نموذجية لجعل المرء يعتقد أن الرسالة من شخصٍ حقيقي، وعند فتحها سيكتشف أنه قد تعرّض لحملة تسويق في ومضةٍ واحدة. هذه الخدعة لن تَمُرَّ على أوف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وقـف الشـاب هنـاك على رجليه، ونظر نحـو الأرض؛ كما لو أنه يتحارب مع شيء في داخله يريد الخروج.

فسأله أوف: «هل هناك شيء آخر؟».

وضع الشاب يده على شعره المدهن وقال:

«آه، اللعنة... كنت أتساءل عمّا إذا كانت لديك زوجة تُدعى صونيا».

فنظر أوف إليه بريبة، فيما أشار الشاب إلى الرسالة موضحاً:

«رأيت اللّقب. كانت لدي معلّمة بهذا الاسم، وكنت أتساءل...»

وبدا عليه أنه يَلعنُ نفسه لقوله كلّ هذا، ثم استدار وبدأ بالسير بعيداً. فتنحنح أوف وركل العتبة قائلاً:

«انتظر... ربّما كان هذا صحيحاً. ماذا عن صونيا؟».

وقف الشاب على بعد متر وقال:

«آه، سحقاً... كنت أستلطفها، هذا ما أردت قوله. أنا... كما تعرف... لم أكن بارعاً في القراءة والكتابة وكل ذلك على الإطلاق».

كاد أوف يقول: «ما كنتُ لأخمّن ذلك بتاتاً». ولكنه لم يفعل. ثم استدار الشاب بطريقة غريبة، ومرّر يده على شعره، وهو يبدو مُشَوَّشاً إلى حَدٍّ ما؛ كما لو أنه يأمل العثور على الكلمات المناسبة في مكان ما.

«إنهـا المعلّمـة الوحيـدة التـي لم تظـنّ أنني كلوح الخشـب». تمتم وهو يكاد يختنـق بمشـاعره. «جعلتنـي أقـرأ هذا... شاكسـبير، كما تعلم. لـم أكن أعرف أنني أستطيع قراءة ذلك شيء. جعلتني أقرأ أصعب الكتب وأكثرها سماكة. لقد شعرت بالأسف الشديد عندما سمعت بوفاتها، كما تعلم».

لم يُجب أوف، فيما نظر الشاب نحو الأرض، ثم هزّ كتفه قائلاً:

«هذا كل شيء...»

عمّ الصمت، ووقف كلاهما هناك، الرجل البالغ من العمر تسـعة وخمسـين عاماً والمراهق، وقفا على بُعد بضعة أمتار من بعضهما بعضاً، راكلين الثلج، وكأنّهما يـركلان الذكريـات ذهابـاً وإيابـاً؛ ذكرى المرأة التي أصـرّت على أن ترى إمكانيات

أكثر عند بعض الرجال غير القادرين على رؤية ذلك في أنفسهم. كلاهما لم يعرفا ما الذي عليهما فعله بهذه التجربة المشتركة.

«ما الذي سوف تفعله بالدراجة؟». سأله أوف أخيراً.

«لقد وعدتُ حبيبتي بأن أصلحها لها. إنها تعيش هناك». أجاب الشاب، وَأومَأ نحو المنزل في آخر الشـارع، في الاتّجاه المعاكس لمنزل رون وأنيتا. في المكان الـذي يعيش فيـه نـوع من النـاس المُحِبّين لإعادة التصنيع عندمـا لا يتواجدون في تايلاند أو في أيّ من الأماكن الأُخرى التي يذهبون إليها.

«حسناً، أنت تعلم، إنها ليست حبيبتي بعد. ولكنني أعتقد أنني أريدها أن تكون كذلك. شيء من هذا القبيل».

تفحّص أوف الشاب بدقّة؛ كما يدقّق عادة الرجال في منتصف العمر بالشباب الأصغر سناً الذين يخترعون قواعدهم الخاصة كلّما مَضوا قُدُماً، ثم سأله:

«هل لديك أيّ معدات؟».

فهز الشاب رأسه نافياً.

«وكيف ستصلح الدراجة من دون معدات؟!». تعجّب أوف، مائلاً إلى الشعور بالدهشة الحقيقية أكثر من الانفعال.

فهزّ الشاب كتفيه قائلاً:

«لا أدري».

«إذاً، لمَ وعدت بإصلاحها؟».

فركل الشاب الثلج، وحكّ وجهه بيده مُحرجاً، ثم أجاب:

«لأنني أحبّها».

لـم يسـتطع أوف أن يقـرّر مـا عليـه قوله، لذا لَفَّ الصحيفة المحلية والرسـالة وصَفَع بهما يده كما لو أنهما عصا.

عندها، تمتم الشاب بصوت غير مسموع وهو يخطو ليستدير مجدّداً: «عليّ الذهاب الآن».

«إذاً، عُد إلى هنا بعد العمل، وسوف أُصلح لك الدراجة».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدت كلمات أوف وكأنّها ظهرت فجأة من العدم، ثم أضاف: «ولكن، عليك إحضار أدواتك الخاصة».

فابتهج الشاب، وسأله:

«هل أنت جادّ يا رجل؟!».

استمرّ أوف بالتربيت بالصحيفة على يده كما لو أنها عصا، فيما بلع الشاب لعابه.

«رائع! لحظة... آه، اللعنة... لا أستطيع أخذها اليوم! عليّ الذهاب إلى وظيفتي الأُخرى! ولكن، غداً يا رجل، أستطيع المجيء غداً. هل يناسبك إذا جئت لأخذها غداً، بدلاً عن ذلك؟».

أمال أوف رأسه، ونظر إليه كما لو أنّ كلّ ما قيل قد صدر عن شخصية في فيلم رسوم متحرّكة.

فأخذ الشاب نفساً عميقاً وسيطر على نفسه.

«ما هي وظيفتك الأُخرى؟». سأل أوف وكأنّه حصل على جواب غير مكتمل في الاختبار النهائي من «جيوباردي».

«أنا نوعاً ما أعمل في مقهى في المساء وفي عطلة نهاية الأسبوع». قال الشاب، وبصيص أمل جديد يبدو في عينيه حول احتمال تمكنه من إنقاذ علاقته الخيالية مع حبيبته التي لا تعلم حتى أنها حبيبته؛ وهذا نوع من العلاقات التي تحصل فقط مع صبيّ شعره دهني في أواخر سنّ البلوغ.

«أحتاج إلى الوظيفتين لأجمع النقود». أوضح لأوف.

«لماذا؟».

« لشراء سيارة».

لم يستطِع أوف عدم ملاحظة كيفية استقامة الشاب قليلاً عند قوله كلمة «سيارة». وبدا على أوف الشكّ للحظة، ثم ربّت بالعصا على يده ببطءٍ مجدّداً، وهو يراقبها.

«أي نوع من السيارات؟».

«لقد ألقيت نظرة على الرينو». قال الشاب مبتهجاً، واستقام أكثر بقليل.

توقّف الهواء حولهما، وعمّ صمتٌ غريب فجأة. كما لو أنه مشهد من فيلم؛ لإعطاء الكاميرا وقتاً كافياً للدوران 360 درجة حولهما قبل أن يفقد أوف رباطة جأشه ويقول بصوت مستنكر:

«رينو! رينو! هذه سيارة فرنسية لعينة! لا تستطيع أن تذهب وتبتاع سيارة فرنسية!!!».

بدا الشاب كما لو أنه على وشك قول شيء ما، ولكنه لم يحظ بالفرصة؛ إذ هز أوف الجزء العلوي من جسمه وكأنه يحاول التخلص من دبّور يحوم حوله وتابع:

«يا الهي، أنت جرو صغير! ألا تعرف شيئاً عن السيارات؟».

فهزّ الشاب رأسه نافياً. عندها، تنهّد أوف بعمق، ووضع يده على رأسه كما لو أنّ الصداع النصفي قد أصابه فجأة.

«وكيف ستأخذ الدراجة إلى المقهى إن لم تكن لديك سيارة؟». قال أخيراً وهو يكافح بوضوح لاستعادة رباطة جأشه.

«لم... أفكّر في هذا بعد». أجاب الشاب.

فهزّ أوف رأسه.

«رينو؟ يا إلهي!».

أومأ الشاب، فبدأ أوف يدلّك عينيه بإحباط، ثم تمتم:

«وأين يقع ذاك المقهى الحقير الذي تعمل فيه إذاً؟».

بعد عشرين دقيقة، فتحت پارڤانيه بابها الأمامي متفاجئة.

كان أوف يقف في الخارج، مربّتاً على يده بواسطة العصا الورقية، ويبدو عليه التفكير العميق.

«هل لديك واحدة من تلك الإشارات الخضراء؟».

«ماذا!؟».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«يجب عليك الحصول على واحدة من تلك الإشارات الخضراء عندما تكونين في مرحلة تعلّم القيادة. هل لديك واحدة أو لا؟».

فأومأت.

«نعم... نعم لدي، ولكن...»

«سآتي لأصطحبك في غضون ساعتين. سوف نستقلّ سيارتي».

ثــم اســتدار أوف وعبــر الطريق الصغير ســيراً على الأقـدام، من دون أن ينتظر جواباً.

27

رجلٌ يُدعى أوڤ ودَرسٌ في قيادة السيارة

لطالما كان هذا يحدث بين الحين والآخر طوال السنوات الأربعين التي كانوا يُقيمون خلالها في صفٍّ من المنازل المتجاورة، حيث كانت لدى بعض الجيران- غير المُراعين لحقوق الآخرين، والذين انتقلوا حديثاً- الوقاحة الكافية ليسألوا صونيا عن السبب الحقيقي للعداء العميق بين أوڤ ورون، وكيف يمكن لرجلين كانا يوماً صديقين أن يبدآ فجأة بِكُرهِ بعضهما بشدة؟

وكانت صونيا تُجيب عادةً بأنّ الأمر واضحٌ تماماً. فهذا بكلّ بساطة يعود إلى الفترة التي انتقل فيها الرجلان مع زوجتَيهما للعيش في منزليهما هنا. يومها، قام أوڤ بشراء سيارة من طراز صاب 96، بينما قام رون بشراء سيارة من طراز ڤولڤو 244. وبعد مرور سنة تقريباً، اشترى أوڤ سيارة من طراز صاب 95، فيما اشترى رون سيارة من طراز ڤولڤو 245. مرّت ثلاث سنوات قبل أن يشتري أوڤ سيارة صاب 900، ويشتري رون سيارة ڤولڤو 265. وخلال العُقود اللاحقة، اشترى أوڤ سيارتَي صاب من طراز 900، ومن ثمّ سيارة صاب 9000. أمّا رون فاشترى سيارة أُخرى ڤولڤو 265، ومن ثمّ ڤولڤو 745، ولكن بعد بضع سنوات، عاد إلى طراز سيدان واقتنى سيارة ڤولڤو 740. عندئذٍ اشترى أوڤ سيارة أُخرى من طراز صاب 9000، واتّجه رون إلى اقتناء سيارة من طراز ڤولڤو 760، وإثر ذلك اشترى أوڤ لنفسه سيارة صاب من طراز 9000 I في حين استبدل رون سيارته بطراز ڤولڤو 760 توربو.

ومن ثمّ أتى ذلك اليوم الذي ذهب فيه أوڤ إلى تاجر السيارات ليرى سيارة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الصاب من طراز 9–3 التي أُطلِقَت حديثاً، وعندما عاد إلى المنزل في تلك الليلة، كان رون قد اشترى سيارة «بي أم دبليو».

«سيارة بي أم دبليو!!!». زَأر أوڤ في وجه صونيا. «كيف يمكن التعامل بمنطق مع كائنٍ بشريّ مماثل؟! كيف؟».

ربّما ليس هذا هو التفسير الكامل الكامن وراء الكُره والاشمئزاز الشديد اللذين يكنّهما هذان الرجلان لبعضهما؛ كما اعتادت صونيا أن تشرح. فإمّا أن تفهم ذلك أو لا تفهمه. وإن لم تفهمه فلا جدوى حتى من محاولة إيضاح ما تبقى.

معظم الناس لا يفهمون، كما يُعلِّقُ أوڤ غالباً. فالناس ليست لديهم أدنى فكرة عن الوفاء في أيّامنا هذه. والسيارة بالنسبة إليهم ليست سوى وسيلة للنقل، والطريق مجرّد تعقيدات تنشأ بين نقطتين، وأوڤ مُقتنعٌ تماماً أنّ هذا هو السبب الذي يجعل الطرقات على هذا القدر من السوء. فلو كان الناس أكثر حرصاً بقليل وهم في سيّاراتهم لما قادوا كالأغبياء؛ فكّر أوڤ وهو ينظر باهتمام إلى الجريدة التي بَسَطَتها پارڤانيه على مقعدها المجاور له. كان عليها أن تُرجِعَ مِقعَد السائق إلى أقصى الوراء كي تتمكّن من إدخال بطنها إلى السيارة عندما تصعد، ومن ثمّ أن تقرّب المقعد حتى تصل إلى عجلة القيادة.

لم يبدأ درس القيادة بشكلٍ جيّد جداً، أو على وجه التحديد، بدأ مع پارڤانيه التي حاولت الدخول إلى سيارة الصاب مع زجاجة عصير في يدها. ما كان عليها فِعلُ هذا. ثمّ راحت تقلّب الموجات في راديو أوڤ لتجد إذاعة أكثر ترفيهاً. ما كان عليها فِعلُ هذا أيضاً.

تناول أوڤ الجريدة عن الأرضية، وقام بلفّها، وبدأ يُرَبِّت بها على يده بعصبيّة، كنسخةٍ مُعَدَّلة وأكثر عدوانيّة عن كُرة تنفيس التوتّر. أمسكت بالمقود، ونظرت إلى الأدوات والأجهزة كطفلٍ فضوليّ.

«من أين نبدأ؟». صرخت بنفاد صبرٍ، بعد أن اقتنعت إثر جدالٍ طويل بإعطائه العصير.

فتنهّد أوڤ. كان الهِرُّ يجلس على المقعد الخلفي، وبدا وكأنّه يتمنّى لو كانت الهررة تعرف كيف تربط أحزمة الأمان.

«اضغطي على دوّاسة القابض». قال أوف بقليل من التجهّم.

فجالت پارڤانيه بنظرها على مقعدها، وكأنّها تبحث عن شيءٍ ما، ثمّ نظرت إلى أوف وابتسمت بتملّق.

«أين القابض؟».

حلّت على وجه أوف ملامح الذهول، وهو غير قادرٍ على تصديق ما يسمعه.

فنظرت مجدّداً حول المقعد، واستدارت نحو مُثبّت حزام الأمان على المسند الخلفي، كما لو أنّها قد تَجِدُ القابض هناك. عندها، أمسك أوف جبينه، وتحوّل تعبير وجه پارڤانيه إلى الغضب في الحال.

«سبق لي أن قلت لكَ إنني أُريد دروساً في قيادة سيارةٍ أوتوماتيكية! فلماذا تجعلني أستخدم سيّارتَكَ؟».

«لأنّكِ إن كنت ستحصلين على رخصة قيادة، فإذاً يجب أن تكون مطابقة للأُصول وسليمة!». ثم سكت بعد أن شدّد على عبارة «مطابقة للأُصول» بشكل يجعل السامع يعتقد أنّ الحصول على رخصة قيادة لسيارة أوتوماتيكية قد يُعتبر «غير مطابق للأُصول» بقدر ما تُعتبر السيارة الأوتوماتيكية «سيارة غير مطابقة للأُصول».

«توقّف عن الصراخ في وجهي!». صرخت پارڤانيه.

«أنا لا أصرخ!». صرخ أوف بدوره.

عندها، تكوّر الهرّ حول نفسه على المقعد الخلفي قلقاً من أن ينتهي به الأمر وسط هذا الشجار؛ مهما كان السبب. شبكت پارڤانيه ذراعيها أمام صدرها، وأشاحت بنظرها إلى خارج النافذة الجانبيّة، فيما عاود أوف التربيت بعصاه الورقيّة على راحة يده بإيقاعٍ متوازن.

وهَمهَمَ أخيراً: «الدواسة إلى أقصى اليسار هي القابض».

ثم أخذ نفساً عميقاً جداً، وتوقّف هنيهة، قبل أن يتابع استنشاق الهواء مجدّداً وهو يقول:

«الدواسة التي في الوسط للمكابح، وإلى أقصى اليمين دوّاسة الوقود. ستخفضين الضغط بقدمك على دواسة القابض على مهل إلى أن يصل إلى مرحلة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تعشيق التروس، وعندها ستضغطين على دواسة الوقود قليلاً، ثم ستنزعين قدمك عن دواسة القابض وستنطلقين إلى الأمام».

يبدو أنّ پارڤانيه قد اعتبرت كلامه هذا بمثابة اعتذار، فأومأت برأسها وهدأت، ثم أمسكت بالمقود، وأدارت محرك السيارة، واتّبعت تعليماته. ترنّحت سيارة الصاب إلى الأمام مع وثبةٍ صغيرة، ومن ثمّ توقّفت هنيهة قبل أن تنطلق مجدّداً من تلقاء نفسها بهديرٍ مُدَوٍّ باتّجاه موقف الضيوف، وأوشكت على الاصطدام بسيارة أُخرى. عندها، شدّ أوڤ بعنف مقبض المكابح اليدوية، فيما أفلتت پارڤانيه عجلة القيادة وصاحت بذعر وغطّت عينيها بيديها إلى أن توقّفت الصاب فجأة. كان أوڤ يلهث وينفخ الهواء كما لو أنّ عليه الوصول إلى المكابح اليدويّة بالقوّة وهو يشقّ طريقه المليئة بالعوائق. وانقبضت عضلات وجهه كرجل رُشَّت عيناه بعصير حامض الليمون.

«ماذا أفعل الآن!؟». نَبَرَت پارڤانيه عندما أدركت أنّ سنتمترين فقط يفصلان سيارة الصاب عن المصابيح الخلفية للسيارة الأُخرى أمامها.

«ستُرجِعين السيارة إلى الوراء. ضعي محوّل السرعة على وضعية القيادة إلى الوراء». قال أوڤ هذا من بين أسنانه، مسيطراً على عصبيّته.

«كِدتُ أصطدم بتلك السيارة!». قالت پارڤانيه لاهثة.

عندها، حدّق أوڤ إلى غطاء محرّك السيارة، ثمّ بدا على وجهه فجأة نوعٌ من الهدوء، والتفت إليها وأومأ برأسه بطريقة واقعيّة خالية من العواطف وقال:

«لا يهمّ. إنها سيارة ڤولڤو».

استغرقا خمس عشرة دقيقة للخروج من باحة مواقف السيارات والوصول إلى الطريق الرئيس مجدّداً. وما إن وصلا إلى هناك حتى وضعت پارڤانيه محوّل السرعة على التروس الأوّل، فاهتزّت الصاب كما لو أنّها ستنفجر. عندها، طلب منها أوڤ أن تبدّل محوّل السرعة، فأجابته بأنها لا تعرف كيف. وفي تلك الأثناء، بدا الهرّ وكأنّه يحاول فتح الباب الخلفيّ للهروب من السيارة.

عندما وصلا إلى إشارة المرور الحمراء الأولى، كانت خلفهما سيارة جيب كبيرة بداخلها شابان حليقا الرأسين. توقّفت سيارة الجيب فجأة بمحاذاة كابح

الصدمات الخلفيّ لسيارته، وكان متأكّداً من أنّ لوحة تسجيل الجيب قد انطبعت على طلاء الصاب. نظرت پارڤانيه إلى المرآة بعصبيّة، فيما هدر صوت محرّك الجيب بعد أن زادت سرعته. استدار أوڤ ونظر عبر الزجاج الخلفي. كانت الوشوم تملأ رقبتَي الشابين؛ كما لو أنّ سيارة الجيب ليست برهاناً كافياً عن غبائهما.

أصبح الضوء أخضر، فرفعت پارڤانيه قدمها عن دواسة القابض. زمجرت الصاب تكراراً، ثم انطفأت لوحة القيادة. وبتوتّرٍ شديد، أدارت پارڤانيه مفتاح تشغيل المحرّك الذي جرش بطريقةٍ تُدمي القلب، ثم زأر المحرّك، وبعد ذلك كَحَّ ومات مجدداً. عندها، ضغط الرجلان حليقا الشعر على بوق السيارة، وأومَأ أحدهما بيده.

«اضغطي على دواسة القابض، وأعطيها المزيد من الوقود». قال أوڤ.

فأجابته: «هذا ما أفعله!».

«ليس هذا ما تفعلينه».

«بلى!».

«والآن، ها أنت تصرخين!».

«**أنا لا أصرخ، اللعنة!**». صاحت غاضبة.

عندها، ضغط سائق الجيب على البوق مجدداً فدوّى صوته عالياً. ضغطت پارڤانيه على دواسة القابض، فعادت الصاب إلى الوراء بضعة سنتيمترات، واصطدمت بمقدّمة الجيب، فيما ضغط سائق الجيب على البوق من دون توقف كصفّارة إنذار لغارة جويّة.

أدارت پارڤانيه المفتاح مراراً بيأس، ولكن من دون أن تحصل على أي استجابة، ثمّ تركت كلّ شيءٍ فجأة، وغطّت وجهها بيديها.

«هيّا، انطلقي... هل تبكين الآن؟!». سأل أوڤ مندهشاً.

«**أنا لا أبكي، اللعنة!**». صاحت بصوتٍ عالٍ، فيما سالت دموعها على لوحة القيادة.

استند أوڤ إلى الوراء، ونظر إلى الأسفل؛ إلى ركبتيه، ثم راح يربّت بأصابعه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على عصاه الورقية.

«هـذا مجـرّد توتّـر. هذا... هل تفهم؟». وشـهقت بالبكـاء، ثم وضعت جبينها علـى عجلـة القيـادة. «أنا **حامل**! أنا **مجهـدة** قليلاً، ألا يمكن أن يتفهّم أحدهم امرأة حاملاً تُعاني القليل من **الإجهاد**!؟؟؟».

تَلَـوّى أوف بانزعـاج علـى مقعد الركّاب. أما هي فلَكَمَت عجلة القيادة مرّات عديـدة، وتمتمـت شـيئاً مـا عن أنّ كلّ ما تريده هو «شُـرب بعـض الليموناضة»، ثم ألقت بيديها على المقود، ودَفَنت وجهها في كميها وبدأت تبكي مجدّداً.

ظلّ سائق سيارة الجيب وراءهما يومض بالمصابيح الأمامية في إشارة لهما؛ إلى أن شعر بالإرهاق، ثمّ فرقع شيءٌ ما داخل أوف، ففتح الباب بقوّة، وترجّل من السيارة، ومشى ببطءٍ حول الجيب، وفتح باب السائق بعنف قائلاً:

«ألم تكن يوماً تلميذاً يتعلّم القيادة؟».

لم يكن لدى السائق وقت ليُجيب، إذ زأر أوف في وجه الشاب حليق الرأس ذي الرقبة المغطاة بالوشوم، ولُعابه يسيل على مقعديهما.

«أيّها الحقير الغبيّ!».

لم تتسنَّ الفرصة للشاب ذي الرقبة الموشومة كي ينطق بالجواب، ولم يسمح لـه أوف بذلـك. إذ بـدلاً مـن ذلـك، أمسـك الشـاب مـن ياقته، ورفعه إلـى الأعلى بقوّة؛ حتى تدحرج جسـمه الثقيل خارج السـيارة. كان من أولئك الشبان مفتولي العضلات، ويَزِنُ مئة كيلوغرام على الأقل، ولكنّ أوف أمسكه بقبضة محكمة منعته من القيام بأي الحركة. كان من الواضح أنّ ذا العنق الموشوم متفاجئ جدّاً من قوّة قبضة الرجل العجوز التي منعته من المقاومة. وكانت شرارات الغضب تتطاير من عينَـي أوف الـذي راح يضغـط جسـد الشـاب- الذي يصغره بخمسـة وثلاثين عاماً على الأقلّ- على هيكل الجيب الجانبيّ الذي أصدر صريراً. ثم وضع سـبابته في وسط الرأس المحلوق، وركّز نظراته على وجهه، واقترب منه كثيراً لدرجة أنه صار بإمكانهما الشعور بأنفاس بعضهما بعضاً.

«إذا ضغطت على هذا البوق مرّة واحدة بعد، فسيكون هذا آخر شيء تقوم به في حياتك! أفهمت؟».

نظر ذو العنق الموشوم إلى رفيقه ذي العضلات المفتولة- مثله تماماً- الجالس داخل السيارة، ومن ثم إلى صفّ السيارات الذي راح يطول وراء سيارة الجيب. لم يهزّ أحد ساكناً ويهرع إلى مساعدته، ولا أحد يضغط على بوق سيارته، أو يتحرّك. يبدو أنّ الجميع يفكّرون في الشيء نفسه: إن اقترب رجل غير موشوم العنق، وفي مثل سنّ أوف من رجل موشوم العنق وشاب من دون أي تردّد، وضغطه على هيكل السيارة بهذه الطريقة، فمن المفترض أن يكون هذا الأخير خائفاً من عواقب ما يفعله.

كانت عينا أوف سوداوين من شدة الغضب. وبعد فترة من التفكير، بدا ذو العنق الموشوم مقتنعاً بما قاله الرجل العجوز، واستوعب ما عناه حرفيّاً.

عندها، أومأ أوف مُؤكّداً كلامه، ومن ثمّ أفلت الشاب وتركه يقع على الأرض، ثم استدار من خلف سيارة الجيب، ودخل سيارته الصاب. كانت پارڤانيه تحدّق إليه وفمها مفتوح من شدة الذهول.

«الآن، اسمعي ما سأقوله». قال لها أوف بهدوء وهو يُغلق الباب برفق. «لقد أنجبت طفلتين، وقريباً ستلدين الثالث. وقد أتيتِ إلى هنا من بلادٍ بعيدة، وعلى الأرجح هربتِ من الحرب والاضطهاد والكثير من الهراء. كما أنك تعلّمتِ لغةً جديدة، وحصلتِ على بعض الثقافة، فضلاً عن اعتنائك بعائلة من غير الأكفاء على ما يبدو. وأنا متأكّد، اللعنة، من أنّك لم تخافي سابقاً من أيّ شيء في العالم قطّ، قبل الآن».

ثبّت أوف نظراته على عينيها، فيما كانت پارڤانيه لا تزال فاغرة فمها بدهشة. ثم أشار أوف بغطرسة إلى الدواسات قرب قدميها وتابع:

«أنا لا أطلب عمليّة جراحيّة في الرأس، بل أطلب منكِ أن تقودي سيارة فيها دواسة وقود، ودواسة مكابح، ودواسة قابض. وإنّ أعظم الحمقى في تاريخ العالم عرفوا كيف تعمل هذه الدواسات، وأنت ستعرفين ذلك أيضاً».

ومن ثمّ تلفّظ بخمس كلمات ستتذكّرها پارڤانيه دائماً على أنّها أروع إطراء سمعته منه في حياته كلّها.

«وهذا لأنّك لست حمقاء تماماً».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أزاحت پارڤانيه خصلة شعر مبلّلة بالدموع عن وجهها، ثم أمسكت بالمقود مجدّداً بشكلٍ غير مُتقن؛ بكلتا يديها، فأومأ أوف برأسه، ووضع حزام الأمان، وجلس مرتاحاً.

«الآن، اضغطي على دواسة القابض، وافعلي ما أقوله لكِ تماماً».

وفي فترة بعد الظهر من ذاك اليوم، تعلّمت پارڤانيه القيادة.

28

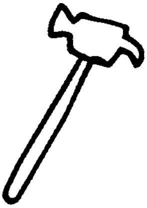

رجل كان يُدعى أوف
ورجل كان يُدعى رون

اعتادت صونيا أن تقول إنّ أوف «لا يرحم». فعلى سبيل المثال، رفض العودة إلى دكّان بيع الخبز المحلّي حتّى بعد مرور ثماني سنوات على تلك الحادثة؛ حين أخطأوا في ردّ المال له عندما اشترى بعض الحلويات؛ وذلك في نهاية التسعينيات. هذا ما كان أوف يسمّيه «امتلاك المبادئ الحازمة». لم يكونا يوماً على وفاق حينما يتعلّق الأمر بالكلمات ومعانيها.

يعلم أنّها كانت خائبة الآمال لأنّه ورون لم يتمكّنا من الحفاظ على السلام بينهما. كما يعلم أنّ العداء والحقد بينه وبين رون إلى حدٍّ ما هدما إمكانية أن تصبح صونيا وأنيتا صديقتين حميمتين. ولكن، عندما يكون هناك خلاف دام طويلاً، يُصبح من المستحيل فهم حقيقة الأمر؛ فلا أحد يمكنه التذكّر كيف بدأ الأمر لأوّل مرّة. وحتى إن أوف لا يعلم كيف بدأ الأمر لأوّل مرّة.

بل يعلم فقط كيف انتهى.

سيارة بي أم دبليو. لا بدّ أنّ هناك أُناساً يفهمون ذلك، وأُناساً آخرين لا يفهمون. وعلى الأرجح، هناك أُناس يعتقدون أنّه ليست هناك علاقة بين السيارات والمشاعر. ولكن، لن يكون هناك أبداً تفسير واضح لسبب تحوّل الرجلين إلى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عدوّين لمدى الحياة.

بالطبع، بدأ الأمر بكلّ براءة؛ بعد فترة ليست بطويلة على عودة أوف وصونيا من إسبانيا، وبعد الحادث. فقد وضع أوف حجارة جديدة في حديقته الصغيرة، وعندئذٍ وضع رون سياجاً جديداً حول حديقته. وبعدها، وضع أوف سياجاً أكثر ارتفاعاً حول حديقته، ومباشرة بعد ذلك ذهب رون إلى تجّار البناء، وبعد بضعة أيّام راح يتباهى في الشارع كلّه بأنّه قام ببناء حوض للسباحة. لم يكن ذلك حوض سباحة لعيناً. واستشاط أوف غضباً وهو يقول لصونيا إن ما بناه رون مجرّد بركة سباحة صغيرة لطفلهما المولود حديثاً؛ هذا كلّ ما هو عليه الأمر. ولبعض الوقت، كان أوف ينوي أن يبلغ دائرة التخطيط المدني بأنّ رون قد بنى بركة بشكل غير قانوني، ولكنّ صونيا ضربت رجلها بالأرض حينها، وأرسلته إلى الخارج لكي يجزّ العشب ويهدّئ نفسه. وهذا ما قام به فعلاً؛ مع أنّ ذلك لم يساهم في تهدئته كثيراً.

كان الفناء مستطيلاً، وبعرض خمسة أمتار تقريباً، ويمتدّ على طول الجزء الخلفي من منزله ومنزل رون والمنزل القائم بينهما، والذي سرعان ما أسمته صونيا وأنيتا المنطقة المحايدة. لم يكن أحد يعلم ما هي وظيفة العشب في ذلك الفناء، وما الهدف المتوقّع من وجوده، ولكن عندما شُيِّدت المنازل مع سُطيحات في تلك الأيام، ارتأى بعض المهندسين أنّه يجب أن يكون هنا وهناك بعض العشب؛ من دون أيّ سبب يُذكر سوى كون العشب الأخضر يبدو جميلاً جداً على الرسوم الهندسية. وعندما شكّل أوف ورون جمعيّة السكّان المقيمين، وكانا لا يزالان صديقين، قرّرا أنّ أوف يجب أن يكون رجل الأرض ومسؤولاً عن إبقاء العشب مجزوزاً. لطالما كانت هذه مهمّة أوف. وفي إحدى المناسبات، اقترح الجيران الآخرون أنّه يجب على الجمعية أن تضع طاولات ومقاعد على العشب لابتكار نوع من المساحة المشتركة لجميع الجيران، ولكن أوف ورون وضعا حدّاً لهذا الموضوع مرّة واحدة وأخيرة؛ إذ سينتهي الأمر بالكثير من الفوضى والضجيج.

فحتّى ذلك الوقت، كان الهدوء والفرح يعمّان؛ أقلّه على المدى الذي يمكن للهدوء والفرح أن يعمّا فيه عندما يستلم زمام الأمور رجلان مثل أوف ورون.

وبعد فترة وجيزة على بناء رون «حوض السباحة»، سرح جرذ على العشب

المجزوز حديثاً وصولاً إلى حديقة أوف، وذهب من بين الأشجار إلى الناحية الأُخرى. عندها، دعا أوف فوراً إلى اجتماع أزمة للجمعية، وطلب من جميع السكان المحليين وضع سمّ للجرذان حول منازلهم. عارض الجيران ذلك بالطبع؛ لأنّهم رأوا القنافذ عند حافّة الغابة، وخافوا عليها من السمّ. واعترض رون أيضاً؛ لأنّه خشي من أن ينتهي الأمر ببعض السمّ داخل حوض السباحة الخاصّ به. عندها، اقترح أوف على رون أن يزرّر قميصه ويذهب لزيارة طبيب نفسانيّ بسبب أوهامه؛ فهو يظنّ أنه يعيش على ضفّة الريفييرا الفرنسية. حينها، سخر رون منه بنكتة خبيثة قائلاً إنّه على الأرجح الشخص الوحيد الذي رأى ذاك الجرذ، وضحك الآخرون جميعهم. لم يسامح أوف رون على فعلته قطّ. وفي الصباح التالي، رمى أحدهم بذوراً للطيور في جميع أنحاء الفسحة المحيطة بمنزل رون، فكان على هذا الأخير أن يستخدم المجرفة لكي يطادر عشرات الجرذان بحجم المكانس الكهربائية خلال الأسابيع اللاحقة. وبعد ذلك، حصل أوف على الإذن لوضع السمّ في الخارج؛ رغم أنّ رون تمتم بأنّه سيجعله يدفع ثمن ذلك.

بعد سنتين، ربح رون خلاف الشجرة العظيم؛ إذ حصل على الإذن لكي يقطع شجرة كانت تحول دون رؤيته وأنيتا مشهد مغيب الشمس في المساء من إحدى الجهات. والشجرة نفسها كانت تحول دون دخول شعاع شمس الصباح القويّ غرفة نوم أوف وصونيا. ومن ثمّ تدبّر أون الأمر لكي يُعيق تنفيذ اقتراح أوف الغاضب؛ وهو أنّه على الجمعية أن تدفع مقابل إنشاء السقيفة الجديدة المظلّلة في منزل أوف.

بيد أنّ أوف انتقم لنفسه خلال مناوشات إزالة الثلوج في الشتاء التالي؛ عندما أراد رون أن يُنَصِّبَ نفسه «كرئيس لمهمة جرف الثلج»، وفي الوقت نفسه حاول إقناع جمعيّة السكان المقيمين بشراء آلة عملاقة لجرف الثلوج. إذ لم تكن لدى أوف النيّة لكي يدع رون يجول في كلّ مكان مع آلة غريبة الشكل ولعينة على نفقة الجمعية، وهو يرمي الثلوج على نافذة أوف؛ الأمر الذي أوضحه جيّداً خلال اجتماع الفريق التوجيهي.

ظلّ رون الشخص المسؤول الذي تم اختياره لإزالة الثلوج، ولكنه كان يشعر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بانزعاج شديد لأنه سيتوجب عليه تمضية الشتاء بأكمله وهو يجرف الثلج من بين المنازل باستعمال المجرفة اليدوية. وكانت نتيجة ذلك بالطبع أنّه كان يجرف الثلوج باستمرار من أمام جميع المنازل المصطفّة؛ ما عدا منزل أوف وصونيا. وبهدف إغاظة رون لا غير، وفي أواسط يناير، وظّف أوف أحدهم لتنظيف الأمتار المربّعة العشرة أمام منزله باستعمال آلة جرف الثلوج. فاغتاظ رون بسبب هذا، وما زال أوف حتى اليوم يتذكّر تلك اللحظة بابتهاجٍ.

وبالطبع، وجد رون طريقة ليجعله يدفع ثمن فعلته تلك في الصيف التالي؛ عندما اشترى آلة عملاقة لجزّ العشب. ومن ثمّ، بمزيج من الكذب والخداع والاحتيال، تمكّن من الحصول على موافقة الجمعية في الاجتماع السنوي ليتمّ سحب مسؤوليات أوف عن جز الأعشاب؛ نظراً إلى أنّه يملك الآن إحدى الأدوات الأكثر قدرة على أداء هذه المهمة، على خلاف ذاك الذي كان موكلاً بهذا الأمر سابقاً.

وكتعويض جزئيّ عن هذا، تمكّن أوف بعد أربع سنوات من منع تنفيذ مشروع رون لوضع نوافذ جديدة لمنزله؛ فبعد ثلاث وثلاثين رسالة وعشرة اتّصالات هاتفيّة غاضبة، استسلمت دائرة التخطيط المدني، وقبلت حجّة أوف القائلة إنّ هذا سيشوّه الطابع الهندسي المتناسق في المنطقة.

وخلال السنوات الثلاث اللاحقة، لم يتحدّث رون عن أوف بشيءٍ آخر غير قوله: ذاك اللعين المتشبّث بالشكليّات الرسمية. واعتبر أوف كلامه بحقه إطراءً. وفي السنة التالية، بدّل هو نوافذه.

وعندما أتى الشتاء اللاحق، قرّر الفريق التوجيهي أنّ المنطقة بحاجة إلى نظام تدفئة جماعي جديد. وبالصدفة تماماً بالطبع، كانت لدى رون وأوف آراء مختلفة بالنسبة إلى نوع نظام التدفئة الذي يحتاجون إليه، وكان الجيران الآخرون يشيرون إلى ذلك مازحين بِقولهم: معركة مضخّة الماء. وتطوّر الأمر إلى صراعٍ أبديّ بين الرجلين.

واستمرّ كذلك.

ولكن، كما اعتادت صونيا أن تقول، مرّت أوقات أُخرى مختلفة أيضاً. لم

يكـن هنـاك الكثيـر منهـا؛ ولكـنّ صونيا وأنيتا كانتا تعلمان كيف تسـتفيدان منها إلى أقصـى حـدّ، لأنّـه لـم تكن هناك دائماً خلافات حـادّة. وخلال أحد فصول الصيف في الثمانينيات على سبيل المثال، اشترى أوف سيارة صاب من طراز 9000، فيما اشـترى رون سـيارة ڤولڤو من طراز 760. وكانا فرحين بسـيارتيهما كثيراً؛ فحافظا على السـلام بينهما لعدّة أسـابيع. كما رتّبت صونيا وأنيتا الأمور لكي يجتمعوا هم الأربعة على العشـاء في بعض المناسـبات. أمّا ابن رون وأنيتا الذي كان قد أصبح مراهقـاً فـي تلـك الفترة، فقد جلس إلى أحد أطـراف الطاولة مرغماً، وتصرّف بقلّة تهذيـب. لقـد وِلـدَ هـذا الصبيّ غاضباً؛ هذا ما اعتـادت صونيا أن تقوله والحزن بادٍ فـي صوتهـا. ولكـن أوف ورون تدبّـرا أمرهما جيّداً ليتّفقا وحتى ليتناولا كأسـاً من الشراب معاً في آخر الأُمسية.

لسـوء الحظّ، في عشـائهما الأخير في ذاك الصيف، خطرت ببال أوف ورون فكرة إقامة مأدبة شواء. ومن البديهيّ أنهما بدآ يتجادلان في ما يتعلق بالطريقة الأكثر فعالية لإشـعال المشـواة الخاصة بأوف. وخلال خمس دقائق، احتدّ الجدال كثيراً، وعـلا صوتاهمـا؛ لـذا اتّفقـت صونيـا وأنيتا على أنه من الأفضل أن يتناولوا العشـاء منفصلين. وكان لدى الرجلين الوقت الكافي ليبيعا سـيارتيهما القديمتين ويشـتريا سـيارة ڤولڤو 760 (توربو) وسـيارة صاب 9000 آي، قبل أن يعودا مجدداً للتكلّم مع بعضهما.

في هذه الأثناء، أتى جيران جُدُد إلى المنازل المجاورة وغادروا، وأتى غيرهم. وفـي النهايـة، أصبـح هناك الكثير من الوجوه الجديدة عند أبواب المنازل الأُخرى، واختلطـت جميعهـا فـي بحـر رمـاديّ اللون. وحيث كانـت الغابات يومـاً، لم تعد تُرى سوى رافعات البناء. وقف أوف ورون خارج منزليهما بعناد، وأيديهما داخل جيـوب بنطاليهمـا؛ تمامـاً مثل قطعتَي آثارٍ قديمتين فـي عصرٍ جديد، وراحا ينظران إلـى موكـب مـن وكلاء العقارات المغرورين الذين يضعـون رَبطات أعناق ضخمة يفـوق حجـم عقدهـا حجم ثمرة الكريبفروت، وهم يقومون بدوريات بين المنازل، ويحدّقون إليهما كالنسـور التي تشـاهد جواميس الماء الهرمة. فهم بالكاد يملكون صبر الانتظار لكي تنتقل الأُسـر التي أتت لاستشـارتهما إلى منازلها الجديدة. كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أوف ورون يعلمان هذا جيّداً.

حين بلغ العشرين من عمره، انتقل ابن رون وأنيتا من منزل والديه في أوائل التسعينيات، وغادر إلى أميركا؛ كما علم أوف من صونيا. وبالكاد رآه والداه مرّة أُخرى. وبين الحين والآخر، كانت أنيتا تتّصل به هاتفياً في المناسبات، وكانت تقول لصوفيا محاولةً أن ترفع من معنويّاتها: لقد أصبح مشغولاً جدّاً بأُموره الخاصّة الآن. مع أن صونيا كانت تراها وهي تحاول حبس دموعها. بعض الأولاد يتركون كلّ شيءٍ وراءهم ولا ينظرون خلفهم أبداً. هذا كلّ ما في الأمر.

لم يقُل رون شيئاً عن هذا الموضوع قطّ. ولكنه بالنسبة إلى كلّ من عرفه منذ وقتٍ طويل، بدا أقصر ببضعة سنتيمترات في السنوات التي تلت ذلك؛ كما لو أنّه يعاني من حسرة عميقة ولم يعد يتنفّس حقّاً منذ ذاك الحين.

بعد بضع سنوات، اختلف رون وأوف للمرّة المئة على نظام التدفئة الجماعي، وخرج أوف من اجتماع جمعيّة السكّان المقيمين كالعاصفة وهو يشعر بالغضب، ولم يَعُد إلى هناك قطّ.

آخر معركة خاضها الرجلان كانت في العقود الأولى لِسوء السلوك؛ عندما اشترى رون إحدى تلك الآلات المبرمجة لجزّ العشب، والتي طلبها من آسيا، وتركها تُصدِرُ صوت أزيزٍ وهي تتنقّل على العشب وراء المنازل. وعندما عادت صونيا إلى المنزل في إحدى الأمسيات بعد زيارة قامت بها إلى منزل أنيتا قالت لزوجها بنبرة صوت مذهولة إن باستطاعة رون أن يبرمجها للتحكّم بها عن بُعد؛ لتجزّ بأنماط خاصّة. فسخر أوف قائلاً إنّ ذاك النمط الخاص هو الرجل الآلي الصغير واللعين الذي يَهدُر طوال الليل ذهاباً وإياباً خارج نافذة غرفة نوم أوف وصونيا. وفي إحدى الأمسيات، رأت صونيا أوف يخرج من باب الشرفة وهو يحمل مفكّ براغي. وفي الصباح التالي، كان الرجل الآلي الصغير، ومن دون تفسير، قد غرق مباشرة في حوض السباحة الخاص بِرون.

في الشهر التالي، ذهب رون إلى المستشفى للمرّة الأولى، ولم يشترِ مجدداً آلة جزّ للعشب. وأوف نفسه لا يعرف كيف بدأ ذاك الحقد بينهما، ولكنه كان يعرف

جيداً أنه انتهى هناك وآنذاك. وبعدها، لم يعد الأمر سوى مجرد ذكريات بالنسبة إلى أوف، وغياب ذكريات بالنسبة إلى رون.

وكان هناك عدد قليل من الناس الذين اعتقدوا أنّه لا يمكن تفسير إحساس المرء وفهمه بالاستناد إلى السيارة التي يقودها.

ولكنهم عندما انتقلوا إلى المنزل ذي السُطيحة، كان أوف يقود سيارة صاب من طراز 96، فيما قاد رون سيارة ڤولڤو من طراز 244. وبعد الحادث، اشترى أوف سيارة صاب 95 لكي تصبح لديه فسحة لوضع كرسي صونيا المدولب. وفي تلك السنة نفسها، اشترى رون ڤولڤو 245 لكي تتسع لعربة الأطفال. وبعد ثلاث سنوات، حصلت صونيا على كرسي مدولب أكثر حداثة، فاشترى أوف سيارة من طراز هاتشباك، صاب 900. أمّا رون فاشترى ڤولڤو 265 لأنّ أنيتا بدأت تتحدّث عن إنجاب طفل ثانٍ.

ثمّ اشترى أوف سيارتَي صاب 900، وبعد ذلك سيارته الصاب 9000 الأولى. واشترى رون ڤولڤو 265 وطبعاً ڤولڤو 745 استايت؛ ولكنهما لم ينجبا المزيد من الأولاد. وفي إحدى الأُمسيات، عادت صونيا إلى المنزل، وأخبرت أوف أنّ أنيتا قد ذهبت لزيارة الطبيب.

وبعد أسبوع، كانت هناك سيارة ڤولڤو 740 مركونة في مرأب رون؛ وهي من طراز صالون.

رآها أوف وهو يقوم بغسل سيارته الصاب. وفي الليلة نفسها، وجد رون زجاجة شراب ممتلئة حتى نصفها خارج باب منزله. لم يتحدّثوا عن ذلك الأمر قط.

لا بدّ أنّ الأسى الذي شعرا به بسبب الأولاد الذين لم يرزقا بهم قط قد قرّب الرجلين من بعضهما. ولكن، لا يمكن الوثوق بالأسى والاعتماد عليه في هذه الحال؛ إذ عندما لا يتشارك الناس أساهم فمن الأرجح أنّه، بعكس ذلك، سيبعدهم عن بعضهم بعضاً.

ربّما لم يغفر أوف لرون يوماً أن لديه ابناً لم يستطع حتى أن يتفّق معه. وربّما لم يغفر رون لأوف يوماً كَونَ هذا الأخير لم يستطع أن يغفر له بدوره. وربّما هما معاً لم يتمكّنا من مسامحة نفسيهما لأنّهما لم يتمكّنا من منح زوجتيهما اللتين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يحبّانهما أكثر من أيّ شيء في العالم ما كانتا تتمنّيانه أكثر من أيّ شيءٍ آخر. كَبرَ ابن رون وأنيتا الوحيد وغادر المنزل عندما سنحت له الفرصة. وذهب رون واشترى سيارة بي أم دبليو ذات طراز رياضيّ؛ من تلك السيارات التي لا تَتّسعُ إلّا لشخصين وحقيبة ظهر. فالآن، لم يبقَ هناك غيره وزوجته؛ هذا ما قاله لصونيا عندما التقاها في ساحة المرأب. «ولا يستطيع المرء أن يقود ڤولڤو طوال حياته»، قال هذا محاولاً رسم ابتسامة فاترة على ثغره، فلاحظت أنّه كان يحاول لَجمَ دموعه. وفي تلك اللحظة، أدرك أوڤ أنّ جزءاً من رون قد استسلم إلى الأبد. ولهذا السبب ربّما لم يستطيعا- لا أوڤ ولا رون- أن يسامحا.

وبالتالي، كان هناك أُناسٌ يعتقدون بالطبع أنّه لا يمكن الحُكم على المشاعر بالنظر إلى السيارات؛ ولكنّهم كانوا من دون شكّ مخطئين.

29

رجل يُدعى أوف وشخص غير سويّ

«أنا أتكلّم بجديّة، إلى أين نحن ذاهبان؟». تساءلت پارڤانيه وهي تلهث.

«لتسوية شيءٍ ما». أجاب أوف باختصار وهو يتقدّمها بثلاث خطوات، والهرّ يمشي قربهما وهو يقفز نوعاً ما.

«ما هو؟».

«شيء ما!».

عندها، توقّفت پارڤانيه لتلتقط أنفاسها.

«هنا!». صرخ أوف، وتوقّف فجأة أمام مقهى صغير.

كانت رائحة الكرواسان الطازج والمخبوز حديثاً تتصاعد من وراء الباب الزجاجيّ. نظرت پارڤانيه إلى ساحة المرأب في الجهة الأُخرى من الطريق حيث تركا سيارة الصاب. في النهاية، لم يتمكّنا من ركن السيارة في مكان أقرب إلى المقهى. في البداية، وافق أوف على اقتراحها ركن السيارة في هذه الجهة، ولكنه تخلّى عن ذلك لاحقاً عندما علم أنّ إيقافها في هذا المكان يكلّف كرونة واحدة إضافية لقاء كلّ ساعة.

وبدلاً من ذلك، ركنا السيارة بعيداً، ومشيا حول المبنى كلّه وهما يبحثان عن المقهى. لأنّ أوف- وكما استنتجت پارڤانيه- من ذلك النوع من الرجال الذين حينما لا يكونون واثقين من المكان الذي يجدر بهم التوجه إليه، يستمرّون في المشي بخطٍّ مستقيم، مقتنعين بأنّ الطريق ستؤدّي بهم إلى وُجهَتِهِم حتماً. والآن،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندما وجدا أنّ المقهى يقع في الجهة المعاكسة تماماً للمكان الذي ركنا فيه السيارة، أعطى أوف انطباعاً بأنّ هذا كان مخطّطه منذ البداية، فيما مسحت پارڤانيه بعض العرق عن وجنتيها.

كان هناك رجل ذو لحيةٍ شعثاء متّسخة يتّكئ على حائط في منتصف الطريق، ويوجد كوب ورقيّ أمامه. خارج المقهى، صادف أوف وپارڤانيه والهرّ شاباً نحيلاً يقارب عمره العشرين، لديه ما يشبه كثيراً السخام الأسود حول عينيه. استغرق أوف هنيهةً لكي يُدرك أنّ هذا هو الصبي الذي كان واقفاً وراء فتى الدراجة الهوائية عندما التقاه للمرّة الأولى. كان يبدو حذراً قليلاً؛ مع أنّه كان يبتسم لأوف، إلّا أنّ أوف لم يعرف ما يجدر به فعله سوى أن يومِئ له برأسه؛ كما لو أنّه يريد أن يوضّح له أنّه قَبِلَ ابتسامته، في حين أنّه لا يريد أن يبادله إيّاها.

«لماذا لم تدعني أركن السيارة بالقرب من تلك المركبة الحمراء؟». أرادت پارڤانيه أن تعلم ذلك فيما كانا يفتحان الباب الزجاجي ويدخلان.

لم يُجِب أوف.

«لكنتُ قد تدبّرت أمري!». قالت بكلّ ثقة.

فهزّ أوف كتفه. منذ ساعتين لم تكن تعلم أين القابض، والآن هي مغتاظة لأنّه لم يدعها تحشر السيارة في بقعة ضيّقة من المرأب.

ما إن وطئت قدماها داخل المقهى حتى رأى أوف بطرف عينه كيف كان الشاب النحيل يقدّم الشطائر إلى المتشرّد.

«مرحباً أوف!». نادى صوتٌ كاد يشقّ الفضاء بطبقته العالية والمصطنعة.

وحين استدار أوف، رأى الفتى الذي التقاه قرب مرأب الدراجات. كان يقف وراء منضدة طويلة ملمّعة في الجزء الأمامي من المكان، معتمراً قبعة بايسبول، كما لاحظ أوف. داخل المقهى.

تصرّف الهرّ وپارڤانيه براحةٍ وكأنّهما في المنزل، وراحت تلك الأخيرة تمسح العرق عن جبينها مع أنّ الجوّ في الداخل كان بارداً كالثلج؛ في الواقع، أكثر برودة ممّا هو عليه في الخارج. سكبت لنفسها بعض الماء من إبريقٍ على المنضدة، فلعق الهرّ بعض الماء من كوبها غير مبالٍ حين لم تكن تنظر إليه.

«هل تعرفان بعضكما؟». سألت پارڤانيه بدهشة وهي تنظر إلى الفتى.

«أنا وأوف رفيقان نوعاً ما». قال الفتى وهو يومئ برأسه.

«هل أنتما كذلك؟! أنا وأوف أيضاً كالرفاق تقريباً!». قالت پارڤانيه ذلك بتجهّم وهي تقلّد برقّة حماسته.

توقّف أوف على مسافة آمنة من المنضدة؛ كما لو أنّ أحدهما قد يهرع لمعانقته لو اقترب أكثر.

«اسمي أدريان». قال الفتى.

« وأنا پارڤانيه».

«هل تريدان شرب شيءٍ ما؟». سألهما.

«قهوة بالحليب لي». قالت پارڤانيه بصوت بدا كما لو أن أحدهم بدأ فجأة يمسّد لها كتفيها. وربّتت على جبينها بمنديل متابعة: «من الأفضل أن تكون القهوة بالحليب مثلّجة؛ إن كان لديك هذا النوع!».

نقل أوف ثقله من القدم اليسرى إلى اليمنى، وحدّق حوله في المكان. لم يُحبّ يوماً المقاهي، أمّا صونيا فكانت تعشقها بالطبع. كان بإمكانها أن تجلس في المقهى طوال يوم الأحد وهي تنظر إلى الناس فقط لا غير. وكان أوف يحاول أن يجلس معها هناك وهو يقرأ جريدة. كانا يقومان بهذا كلّ يوم أحد. لم تطأ قدماه أيّ مقهى منذ أن توفّيت. وحين رفع نظره، أدرك أنّ أدريان وپارڤانيه ينتظران جوابه، وكذلك الهرّ.

«إذاً، القهوة. من دون إضافات».

حكّ أدريان شعره من فوق القبعة، وسأله:

«إذاً... إسبريسو؟».

«كلّا. قهوة».

عندها، انتقل أدريان بالحكّ من شعره إلى ذقنه، ثم سأله مجدداً:

«ماذا؟ قهوة من دون إضافات!؟».

«أجل».

«مع الحليب؟».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«إن كانت مع الحليب فلن تعود من دون إضافات!».

وضع أدريان وعاءين من السكّر على المنضدة، لكي يحاول القيام بشيءٍ ما ولا يبدو غبيّاً جداً. غير أنه تأخّر قليلاً على هذا كما فكّر أوف.

«قهوة عادية مصفّاة. قهوة مصفّاة لعينة». كرّر أوف.

فأومأ أدريان برأسه.

«آه، هذه... حسناً. لا أعرف كيفية تحضيرها».

أشار أوف بحدّة إلى جهاز تصفية القهوة في الزاوية، الذي كان بالكاد ظاهراً وراء آلة عملاقة تشبه المركبة الفضائية والتي حسبما يعرف أوف تُستخدم لصنع الإسبريسو.

«آه تلك! أجل». قال أدريان وهو يبتلع لعابه. «آوه... في الحقيقة، أنا لا أعرف كيفية عمل هذا الشيء».

«ولكن، كان يجب عليك أن تتعلم. اللعنة...»، غمغم أوف وهو يسير إلى وراء المنضدة ويتولّى الأمر بنفسه.

«هل يستطيع أحد ما أن يقول لي ما الذي نفعله هنا؟». صاحت پارڤانيه.

«هذا الفتى هنا لديه دراجة هوائية تحتاج إلى تصليح». شرح أوف وهو يسكب الماء في الوعاء.

«الدراجة المعلّقة في مؤخّر السيارة؟».

«هل جلبتها إلى هنا؟ شكراً، أوف!».

«ليست لديك سيارة، أليس كذلك؟». أجاب أوف وهو يبحث داخل الخزانة متفحصاً إياها بدقّة للعثور على مصافٍ للقهوة.

«شكراً، أوف!». قال أدريان وهو يخطو خطوة باتّجاهه، ثمّ عاد إلى رشده وتوقّف قبل أن يقوم بشيءٍ سخيف.

«إذاً تلك الدراجة الهوائية لك؟». ابتسمت پارڤانيه.

«نوعاً ما. إنّها لرفيقتي، أو لتلك التي أرغب في أن تصبح حبيبتي... نوعاً ما». كشّرت پارڤانيه.

«إذاً، أنا وأوف قطعنا كلّ تلك المسافة لإعطائك درّاجة تريد أن تصلحها، من

أجل فتاة؟».

أومأ أدريان برأسه، فانحنت پارڤانيه على المنضدة، وربّتت على ذراع أوڤ قائلة:

«أتعلم أوڤ؟ أحياناً يظنّ المرء أنّك تملك قلباً...»

فقال أوڤ لأدريان وهو ينتزع ذراعه بعيداً: «هل لديك أدواتٌ هنا أم لا؟».

أومأ أدريان برأسه إيجاباً.

«إذاً، اذهب واجلبها إلى هنا. الدراجة معلّقة على سيارة الصاب في مرأب السيارات».

أومأ أدريان بسرعة واختفى داخل المطبخ. وبعد دقيقة تقريباً، خرج مجدّداً ومعه صندوق أدوات كبير، واتّجه إلى الباب مسرعاً.

«وأنتِ ابقي هادئة». قال أوڤ لپارڤانيه.

فابتسمت بتكلّف كما لو أنّها كانت تعني أنّها لا تنوي البقاء هادئة.

«لقد أحضرت الدراجة إلى هنا فقط لكي لا تعمّ الفوضى خلف المنزل...» أضاف أوڤ.

«طبعاً، طبعاً». قالت پارڤانيه ضاحكة.

«أوه هاي». قال أدريان حين ظهر مجدّداً بعد برهة برفقة الشاب الذي يوجد ما يشبه السخام حول عينيه، وتابع: «هذا مديري في العمل».

«مرحباً، أنتَ هناك... آه، ما الذي... عذراً، ما الذي تفعله؟». سأل المدير، وهو ينظر باهتمام إلى ذاك الغريب الرشيق وخفيف الحركة الذي حصّن نفسه وراء منضدة المقهى خاصّته.

«سيقوم الولد بإصلاح الدراجة». أجاب أوڤ كما لو أن هذا أمر سهل وواضح. «أين تضع مصافي القهوة الحقيقية؟».

فأشار الشاب إلى أحد الرفوف. نظر أوڤ إليه مغمضاً عينيه نصف إغماضةٍ، ثم سأله: «هل هذا «ماكياج»؟».

عندها، أسكتته پارڤانيه وهي تومئ قائلة له: هششش. فبدا أوڤ مهاناً، وتساءل: «ماذا؟ ما الخطب من السؤال؟».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ابتسم الشاب وهو يشعر بالقليل من التوتّر، ثم أومأ برأسه وهو يفرك حول عينيه وأجاب:

«أجل، هذا «ماكياج». فقد ذهبت للرقص ليلة البارحة». وابتسم لپارڤانيه شاكراً حين سحبت من حقيبة يدها منديلاً مرطّباً وقدّمته إليه بأناقة كما لو أنها زميل متآمر.

فأومأ أوف برأسه وتابع تحضير قهوته.

«وهل لديك أيضاً مشاكل مع الدراجات الهوائية، والحبّ، والفتيات؟». سأل وهو شارد الذهن.

«كلّا، كلّا، ليس مع الدراجات بأيّ حال. وليس مع الحبّ أيضاً، حسبما أفترض. حسناً، وليس مع الفتيات على أيّ حال». قال بضحكةٍ مكتومة.

شغّل أوف جهاز تحضير القهوة، وما إن بدأ يغمغم حتّى استدار واتّكأ على المنضدة من الجهة الداخلية؛ وكأن هذا أكثر الأُمور طبيعية التي قد يقوم بها المرء في مقهى لا يعمل فيه.

«هل أنتَ غير سويّ؟».

«أوف!». قالت پارڤانيه وصفعته على ذراعه.

فسحب أوف ذراعه وهو يبدو مُهاناً جداً.

«ماذا؟!».

«أنتَ، لا تقُل... أنتَ، لا تدعُه هكذا». قالت پارڤانيه غير قادرة بوضوح على أن تلفظ الكلمة مجدداً.

«أتعنين: غير سويّ؟». اقترح أوف.

حاولت پارڤانيه أن تضرب ذراعه مجدّداً، ولكن أوف كان سريعاً جداً بسحبها.

«لا تتكلّم هكذا!». أمرته.

استدار أوف إلى الشاب محتاراً حقّاً.

«ألا يستطيع المرء أن يقول غير سويّ!؟ ما المفترض قوله في عصرنا هذا للدلالة على ذلك؟».

«آه، يمكنك قول ما يحلو لك، هذا أمر عاديّ، لا بأس». ابتسم الشاب وهو يتّجه إلى وراء المنضدة، ويتناول مئزره.

«صحيح، هذا جيّد. من الجيّد أن يكون الأمر واضحاً. إذاً، أحد أولئك الشبان غير الأسوياء». تمتم أوف، فهزّت پارڤانيه رأسها معتذرةً، وابتسم الصبيّ وحسب.

«حسناً إذاً». قال أوف بإيماءة رأسٍ، وبدأ يسكب لنفسه كوباً من القهوة، فيما الآلة لا تزال تعمل.

ثمّ تناول الكوب، ومن دون أن يتفوّه بأيّ كلمة أُخرى خرج إلى ساحة المرأب. لم يعلّق الشاب المدير على أخذه الكوب إلى الخارج. إذ سيبدو الأمر غير ضروري في ظلّ هذه الظروف؛ أي بعد أن قام الرجل بتحضير القهوة بنفسه بعد خمس دقائق من وصوله إلى المقهى، وبعد أن استجوبه.

كان أدريان واقفاً في الخارج بالقربِ من الصاب، وهو ينظر إلى الدراجة كما لو أنّه تائهٌ في الغابة.

«هل يسير الأمر على ما يُرام؟». سأل أوف بشكل بلاغيّ، وهو يرشف القهوة وينظر إلى الدراجة التي لم ينتزعها أدريان بعد عن صندوق السيارة.

«لا... كما تعلم... نوعاً ما. حسناً...» ثم بدأ أدريان بحكّ صدره بطريقة غير إرادية.

راقبه أوف لنصف دقيقة أو نحو ذلك، ثم أخذ جرعة أُخرى من القهوة، وأومأ بانفعال كشخص يعصر أفوكادو ويجدها ناضجة أكثر من اللازم. وأخيراً، وضع كوب قهوته بين يدَي الصبيّ ضاغطاً عليه بقوّة، ومن ثمّ تقدّم إلى الأمام لكي يفكّ رباط الدراجة. قَلَبَها رأساً على عقِب، وفتح علبة المعدات التي جلبَها الشاب معه من المقهى.

«ألم يعلّمك والدك يوماً كيف تُصلح درّاجة؟». قال من دون أن ينظر إلى أدريان، وهو محدودب فوق العجلة المثقوبة.

«لقد سُجِنَ أبي». أجاب أدريان بصوت غير مسموع وهو يحكّ كتفه، وينظر حوله كما لو يرغب في إيجاد حفرة كبيرة سوداء ليغرق فيها. في تلك اللحظة، توقّف أوف عمّا كان يقوم به ورفع نظره، وحدّق إليه مقيّماً إيّاه، فحدّق الصبيّ إلى الأرض.

وأخيراً، تنحنح أوف وتمتم بعد طول انتظار: «ليس الأمر بهذه الصعوبة».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وأشار إلى أدريان لكي يجلس على الأرض.

استغرقا عشر دقائق لإصلاح العجلة المثقوبة. وكان أوف يُعلن بصوت عالٍ عن التعليمات بكلمات أحاديّة المقطع، فيما ظلّ أدريان صامتاً طوال تلك الفترة. ولكنّه كان متنبّهاً وحاذقاً، وبطريقة ما لم يجعل نفسه يبدو غبياً. كان على أوف أن يعترف بذلك. لم تكن حركاته مرتبكة بقدر ما كان متلعثماً في كلماته. مسحا القذارة عن صندوق سيارة الصاب بخرقة قماشية، وهما يتجنّبان التقاء نظراتهما.

«آمل أن تكون السيدة تستحقّ هذا العناء». قال أوف أخيراً وهو يغلق الصندوق.

فجاء الآن دور أدريان ليشعر بالفزع.

عندما عادا إلى المقهى، كان هناك رجل سمين يرتدي قميصاً ملطّخاً يقف على سلّم نقّال، ويعبث بشيءٍ اشتبه أوف أنّه مروحة سخّان. وكان الشاب المدير يقف تحت السلّم المتحرّك مع مجموعة مختارة من مفكّات البراغي التي يرفعها عالياً، وكان لا يزال يمسح بقايا «الماكياج» عن عينيه، ويحدّق إلى الرجل السمين على السلّم، والعصبية تبدو عليه قليلاً؛ كما لو أنه قلق من أن يُكشَف أمره.

استدارت پارڤانيه نحو أوف بحماسة، وقالت بطريقة تتدفق منها العاطفة:

«هذا آمِيل، إنّه يمتلك المقهى». وأشارت بإصبعها إلى الرجل السمين الواقف على السلّم.

لم يستدر آميل، ولكنّه أصدر سلسلة طويلة من الأصوات المنخفضة التي اشتبه أوف– وإن لم يفهمها– أن تكون توليفات مختلفة من كلمات مؤلفة من أربعة أحرف.

«ماذا يقول؟». سأل أدريان.

تلوّى الشاب بعدم ارتياح، وأجاب:

«آه... إنّه... شيء ما عن مروحة السخّان، عن عطل مشؤوم...»

نظر أوف إلى أدريان، ومن ثمّ أخفض وجهه.

«ما الذي يعنيه هذا؟». سأل أوف وهو يمشي ببطءٍ نحوه.

«أنّ لا منفعة منها، كشخص غير سويّ». قال بصوت منخفض لم يسمعه

سوى أوف.

من ناحية أُخرى، بدت پارڤانيه منهمكة وهي تشير إلى آميل ببهجة.

«لا يمكنك سماع ما يقوله، ولكنك تعلم نوعاً ما أنّ كلّ ما يقوله كلمات شتائم! إنّه كنسخة طبق الأصل عنك يا أوف!».

لم يبدُ أوف مبتهجاً، ولا حتى آميل الذي توقّف عن العبث بالمروحة، وأشار إلى أوف بمفكّ البراغي.

«الهرّ! هل هذا الهرّ لك؟».

«كلّا». أجاب أوف.

وليس سبب ذلك أنّه أراد القول إنّ هذا الهرّ ليس له، ولكنّه أراد أن يوضِّح أنّه ليس ملكاً لأحد.

«أيّها الهرّ، إلى الخارج! لا حيوانات في المقهى!». كان آميل يشدد في نطقه على الحروف الساكنة، لتقفز كالأولاد المشاغبين الذين تمّ التقاطهم داخل الجملة.

نظر أوف إلى مروحة السخان فوق رأس آميل باهتمام. ومن ثمّ إلى الهرّ الجالس قرب المنضدة، ثمّ إلى علبة المعدّات التي ما زال أدريان يحملها بين يديه، وبعد ذلك إلى مروحة السخّان مجدّداً، ومنها إلى آميل.

«إذا قمت بتصليح هذه المروحة من أجلك، فسيبقى الهرّ هنا».

قال ذلك كتصريح واضح وليس كسؤال، فبدا آميل كما لو أنّه فَقَدَ رباطة جأشه لبضع لحظات. وبحلول الوقت الذي استعاد فيه رباطة جأشه، وبطريقة لم يستطِع تفسيرها في ما بعد، أصبح هو الرجل الذي يمسك بالسلّم المتحرّك بدل أن يكون الرجل الواقف عليه. عمل أوف لبضع دقائق واقفاً على السلم المرتفع، ثم قفز إلى الأسفل، ومسح كفّ يده ببنطاله، وأعطى أدريان مفكّ البراغي ومفتاح براغي صغيراً قابلاً للتعديل.

«لقد أُصلحت!». صرخ آميل، بينما عادت مروحة السخّان إلى الحياة مصدرة صريرها.

وأمسك كتفَي أوف بحماسة وسعادة نابعة من القلب، ثم قال له:

«أتريد احتساء كأس من الشراب؟ لدي واحدة في مطبخي!».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نظر أوف إلى ساعة يده، فوجدها تشير إلى الساعة الثانية والربع من بعد الظهر، فهزّ رأسه وهو يبدو غير مرتاح تماماً؛ جزئياً بسبب دعوته إلى احتساء الشراب، وجزئياً بسبب آميل الذي كان لا يزال يُمسك به. اختفى الشاب المدير وراء المنضدة، وهو لا يزال يفرك عينيه بشكل محموم.

* * *

لحق أدريان بأوف والهرّ وهما في طريقهما إلى سيارة الصاب.

«أوف، صديقي، لن تقول شيئاً عن كون ميرساد...»

«من؟».

أجاب أدريان: «مديري في العمل، الشاب الذي يضع «الماكياج»».

«أتعني، الشخص غير السويّ؟». سأل أوف.

أومأ أدريان برأسه.

«أعني والده... أعني آميل... لا يعلم أنّ ميرساد...»

تلعثم أدريان في كلامه.

«غير سويّ؟». أضاف أوف.

أومأ أدريان برأسه، فرفع أوف كتفيه مستهجناً. في تلك اللحظة، وصلت پارڤانيه لاهثةً وهي تتهادى في مشيتها.

«أين كنتِ؟». سألها أوف.

«أعطيته الفكّة». قالت پارڤانيه وهي تومئ برأسها باتّجاه الرجل ذي اللحية المتّسخة الذي يقف قرب الحائط.

«تعلمين أنّه سيصرفها على الشراب لا غير». قال أوف.

فتحت پارڤانيه عينيها على اتساعهما، فأدرك أوف أنهما مليئتان بالسخرية.

«حقّاً؟! هل سيفعل هذا؟! أوووه كنت آمَل في الواقع أن يدفع بها قسط دراسته، وبالأخص حصّة الفيزياء!».

تذمّر أوف وفتح باب الصاب، فيما ظلّ أدريان حيث هو في الناحية الثانية من السيارة.

«ماذا؟». سأله أوف.

«لن تقول شيئاً عن ميرساد، أليس كذلك؟ أتعدني؟».

«ولمَ قد أقول شيئاً بحقّ الله!؟». أشار أوڤ إليه بسخط، ثم تابع: «أنت! أنت تريد أن تشتري سيارة فرنسيّة، لذا لا تقلق كثيراً بشأن الآخرين، فلديك ما يكفي من المشاكل لتهتمّ بها».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

30

رجل يُدعى أوڤ ومجتمع من دونه

مسح أوڤ الثلج عن القبر، وحفر بإصرار داخل الأرض المجلّدة، وزرع الأزهار بعناية لملء النقص. ثم وقف ونفض عنه الغبار، ونظر إلى اسمها وهو يشعر بالخجل من نفسه. فهو الذي كان دائماً يتذمّر في وجهها لأنّها متأخّرة. والآن، ها هو واقف هنا، ويبدو عاجزاً تماماً عن اللحاق بها كما خطّط لذلك.

«لقد كان تدميراً كاملاً لعيناً». تمتم متحدثاً إلى الحجر.

ثم عاد ليصمت مجدداً.

لم يعلم ما الذي حصل له بعد جنازتها. فقد كانت الأيام والأسابيع تطفو معاً، بطريقةٍ ما، وبصمتٍ مُطلق، لدرجة أنه كان من الصعب عليه أن يصف ما الذي كان يفعله. وقبل أن يصطدم پاتريك بصندوق البريد الخاص به لا يتذكّر أوڤ أنّه تفوّه بأيّ كلمة مع أي كائنٍ بشريّ آخر منذ أن توفّيت صونيا.

في بعض الأُمسيات كان ينسى أن يأكل. لم يحدث هذا سابقاً قطّ، على حدّ ما يتذكّر. ليس منذ أن جلس معها في ذاك القطار منذ أربعين عاماً. وطالما كانت صونيا هنا، وكان لديهما روتينهما الخاص. إذ كان أوڤ يستيقظ عند السادسة إلّا ربعاً، فيحضّر القهوة، ويذهب للقيام بجولته التفقّدية. وعند السادسة والنصف تكون صونيا قد انتهت من الاستحمام، ومن ثمّ يتناولان الفطور ويشربان القهوة.

صونيا تأكل البيض، وأوف يأكل الخبز. وعند السابعة وخمس دقائق، يُقلُّها أوف إلى المدرسة بعد أن تجلس على المقعد المجاور له داخل سيارة الصاب، ويضع كرسيها المدولب في الصندوق، ثمّ يذهب إلى عمله. وعند العاشرة إلّا ربعاً يأخذان استراحة لتناول القهوة؛ كلّ على حدة. تضيف صونيا الحليب إلى قهوتها، فيما يشربها أوف من دون إضافات. وعند الساعة الثانية عشرة ظهراً يتناولان الغداء. وعند الثالثة إلاّ ربعاً يأخذان استراحة لشرب القهوة مرة أُخرى. أما عند الخامسة والربع فيُقِلُّ أوف صونيا من الساحة الأماميّة للمدرسة، ويرفعها ليُجلسها على مقعد الركاب، ويضع الكرسي المدولب في الصندوق. وعند الساعة السادسة يكونان جالسين إلى طاولة المطبخ، ويتناولان العشاء الذي غالباً ما يكون عبارة عن اللحم والبطاطا والصلصة؛ وهو طبق أوف المفضّل. ومن ثمّ تقوم هي بحلّ الكلمات المتقاطعة وقد وضعت رجليها تحتها على الكنبة، بينما يعبث أوف بخزانة المعدّات ويشاهد الأخبار. وعند التاسعة والنصف يحملها أوف إلى غرفة النوم في الطابق العلويّ. ولسنواتٍ طويلة، ظلّت تتذمّر وتحتجّ للانتقال إلى غرفة الضيوف في الطابق السفليّ وهو يرفض. وبعد عقدٍ أو ما يُقاربه، استنتجت أنّ تلك كانت طريقته ليبرهن لها أنّ لا نيّة لديه أبداً للاستسلام، فتوقّفت عن التذمّر.

أيّام الجمعة كانا يظلّان مستيقظين حتى الساعة العاشرة والنصف وهما يشاهدان التلفزيون. وأيام السبت، كانا يتناولان الفطور في ساعةٍ متأخّرة، تصل إلى الثامنة أحياناً. ومن ثمّ يخرجان ليقوما بأعمالهما، ويقصدان تاجر بيع مستلزمات البناء، ومحلّ الأثاث، ومحل بيع الأغراض الزراعية. إذ كانت صونيا تشتري الرمل، وأوف يتفرّج على المعدّات. لم يكن لديهما سوى منزل مع سُطيحة صغيرة في الفناء الخارجي. ومع ذلك، كان يبدو دائماً أنّ هناك شيئاً ما لزرعه، وشيئاً ما لبنائه. وفي طريق عودتهما إلى المنزل، كانا يتوقّفان لتناول المثلجات. كانت صونيا تطلب المثلجات بنكهة الشوكولا، وأوف بنكهة المكسّرات. ومرّة في السنة، كان سعر المثلجات يرتفع بنسبة كرونة واحدة، وحين تدفعها صونيا يُصاب أوف بنوبة من الغضب. وعندما يعودان إلى المنزل، كانت تفتح باب السُطَيحة الصغيرة المؤدية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى الفناء المرصوف، ويساعدها أوف على النهوض عن الكرسي، ويضعها برفق على الأرض لكي تتمكّن من القيام ببعض أعمال البستنة في أحواض أزهارها الغالية على قلبها. في تلك الأثناء، قد يجلب أوف مفكّ براغي ويختفي داخل المنزل. هذا أفضل ما كان عليه المنزل؛ أنّ هناك عملاً لا ينتهي أبداً. كان هناك دائماً برغيٌ في مكان ما ليشدّه أوف.

أيّام الآحاد، كانا يذهبان إلى المقهى ويشربان القهوة. أوف يقرأ الجرائد، وصونيا تتكلّم. ومن ثمّ يأتي نهار الاثنين.

وفي أحد أيّام الاثنين لم تعُد على قيد الحياة.

ولم يعلم أوف تحديداً متى أصبح صامتاً إلى هذا الحدّ. لطالما كان قليل الكلام، ولكنّ هذا شيء مختلف تماماً. ربّما بدأ حينها يتكلّم أكثر داخل رأسه، وربّما كان يُصاب بالجنون (كما يتساءل أحياناً). كان كما لو أنّه لا يريد أن يتحدّث إليه الناس الآخرون، وكان يخاف من أن تمحوَ أصواتُهم المُثَرثِرة ذكرى صوتِها هي.

سمح لأصابعه بأن تمرّ بلطفٍ على شاهدة القبر؛ كما لو أنه يمرّرها على شرّابات طويلة لسجّادة سميكة جدّاً. لم يفهم قط أولئك الشبّان الذين يصرخون بأنّهم وجدوا أنفسهم. لقد اعتاد أن يسمع هذا من جميع زملائه في العمل حين كانوا يبلغون الثلاثين من العمر. فكلّ ما كانوا يتحدّثون عنه هو كيف أنّهم يريدون المزيد من أوقات الفراغ والراحة؛ كما لو كان هذا هو الهدف الوحيد للعمل. اعتادت صونيا على أن تضحك على أوف وتدعوه أكثر الرجال صرامة في العالم، ورفض أوف أن يعتبر وصفها له بذلك إهانة. كان يعتقد أنّه سيكون هناك بعض النظام والترتيب في الأمور. إذ يجب أن يكون هناك روتين نمطيّ، وأن يشعر المرء بالاطمئنان والأمان في ذلك. ولم يكن يرى كيف يمكن لذلك أن يكون صفة سيّئة.

اعتادت صونيا أن تخبر الناس عن ذاك الوقت في أواسط الثمانينيات، حين اقتنع أوف منها، وبلحظة تشوّش عقليّ مؤقّت، أن يشتري لنفسه سيارة صاب حمراء، مع أنّه خلال كلّ السنوات التي عرفته فيها كان يقود سيارة صاب زرقاء.

كانت أسوأ ثلاث سنوات في حياة أوف، كانت تضيف بضحكة مكبوتة. ومنذ ذاك الحين، لم يقُد أوف سيارة إلّا وكانت صاب زرقاء. «كانت الزوجات الأخريات ينزعجن لأنّ أزواجهنّ لا يلاحظون أنهن قصصن شعرهنّ. أما عندما أقصّ شعري ينزعج زوجي منّي لأيّام عديدة؛ لأنّني لا أعود شبيهة بنفسي كما يقول». اعتادت صونيا أن تردد هذه العبارة.

هذا أكثر ما كان أوف يشتاق إليه؛ أي أن تكون الأمور كما هي عادةً.

يحتاج الناس إلى عمل أو وظيفة ما. وهو كان دائماً لديه عمل ما يقوم به، ولا يستطيع أحد أن يسلبه هذا.

* * *

لقد مرّت ثلاثة عشر عاماً منذ أن اشترى أوف سيارته الصاب الزرقاء من طراز 9–5 إستيت. وبعد فترة وجيزة، اشترى الجشِعون في جينيرال موتورز حصص الأسهم الأخيرة التي يمتلكها السويديون في الشركة. طوى أوف الجريدة في ذاك الصباح متفوهاً بسلسلة طويلة من الشتائم استمرّت حتى وقت متأخّر من بعد الظهر. ولم يشترِ أيّ سيارة جديدة بعد ذلك؛ إذ لم تكن لديه أيّة نيّة بوضع رجله داخل سيارة أميركية، إلّا إذا كان جسمه قد وُضع أوّلاً في التابوت. يجب أن يكون ذلك واضحاً تماماً. قرأت صونيا المقال أيضاً، وكانت لديها بعض الاعتراضات بشأن نسخة أوف عن رواية الأحداث في ما يتعلّق بجنسيّة الشركة، ولكن هذا لم يُحدِث أيّ تغيير. فقد اتّخذ أوف قراره، وهو الآن ثابتٌ عليه. سوف يستمرّ في قيادة سيّارته إلى أن تتعطّل أو يموت هو. وفي الحالتين، قرّر أنّ السيارات الجيّدة لن تصنّع أبداً بعد اليوم. وقد أصبح بداخلها الآن الكثير من الأجهزة الإلكترونية والحماقات؛ كما لو كان المرء يقود حاسوباً آلياً. لا يمكنك حتى أن تفكّها من دون أن تسمع المصنّعين يئنّون قائلين إنها كفالات غير صالحة. إذاً، هذا ما كان عليه الأمر. قالت صونيا في إحدى المرّات إنّ سيارتهما ستنهار من الأسى والحزن في اليوم الذي يُدفَنُ فيه أوف. وربّما كان هذا صحيحاً.

كما كانت تقول أيضاً في الكثير من الأحيان: «ولكنْ هناك وقت لكلّ شيء». على سبيل المثال، عندما أطلعها الأطباء على التشخيص منذ أربع سنوات، وجدت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنّه من الأسهل أن تسامح، فيما غضب أوف. ربّما لأنّه وجد أنّ أحداً ما يجب عليه أن يغضب بالنيابة عنها، عندما بدا له أنّ كلّ الشرّ هاجم بعنف المرأة الوحيدة التي أحبها في حياته والتي لا تستحقّ ذلك البتّة.

وبالتالي، تشاجر مع العالم بأكمله. فقد تشاجر مع الفريق الطبّي في المستشفى، والأخصّائيين، وكبار الأطبّاء. كما تشاجر مع الرجال ذوي القمصان البيضاء، وممثلي مجلس الأطباء الذين أصبحوا عديدين جداً؛ حتى استطاع بالكاد تذكّر أسماءهم. كان هناك تأمين صحّي لهذا، وتأمين آخر لذاك. وكان هناك شخصٌ يمكن الاتّصال به للمتابعة معه لأنّ صونيا مريضة، وآخر لأنها على كرسيّ مدولب. ومن ثمّ شخص ثالث للاتّصال به لأنه يقول إنه لا يتوجّب عليها الذهاب إلى العمل، وشخص رابع لإقناع السلطات بأنّ هذا بالتحديد ما تريده؛ أي أن تذهب إلى العمل.

وكان من المستحيل محاربة الرجال ذوي القمصان البيضاء، إذ لا يمكن للمرء أن يحارب تشخيصاً طبيّاً.

صونيا مصابة بالسرطان.

«علينا تقبّل الأمر كما هو». قالت له صونيا. وهذا ما قاما به فعلاً. واستمرّت بالعمل مع عزيزها مسبّب المشاكل على مدى ما استطاعت من الوقت؛ إلى أن أصبح أوف مجبراً على دفع كرسيها إلى داخل الصفّ كلّ صباح لأنّه لم تعد لديها القوّة الكافية لتقوم بذلك بمفردها. وبعد مرور سنة واحدة، خفّضت عدد ساعات عملها في الأسبوع إلى خمسة وسبعين بالمئة، وبعد سنتين تدنّت ساعات عملها إلى خمسين بالمئة. وبعد ثلاث سنوات، وصلت إلى خمسة وعشرين بالمئة. وعندما أصبحت في النهاية مُجبرة على البقاء في المنزل، كتبت رسالة إلى كلّ من تلاميذها، وأوصتهم بإصرار بالاتصال بها إذا احتاجوا إلى أحد ما.

جميعهم تقريباً اتّصلوا بها، وقاموا بزيارتها بأعدادٍ كبيرة وهم ينتظرون في الطابور. في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، كان هناك الكثيرون منهم في المنزل وعلى السطيحة، لدرجة أن أوف أُجبر على الخروج من المنزل والجلوس في غرفة المعدّات لمدّة ستّ ساعات. وعندما غادر آخرهم في ذلك المساء، راح كالعادة

يتجول في المنزل بدقّة ليطمئِن نفسه بأنّه لم تتمّ سرقة أيّ شيء من البيت؛ إلى أن نادته صونيا مازحة، طالبة منه ألا ينسى عدّ البيض في البرّاد أيضاً. ثمّ استسلم، ووضعها في السرير، ومن ثمّ قبل أن يخلدا إلى النوم استدارت نحوه، وخبأت إصبعها في راحة يده، ووضعت وجهها على صدره.

«شاء الله أن يموت طفلي عزيزي أوف، ولكنّه أعطاني بدلاً منه الآلاف».

وفي السنة الرابعة ماتت.

الآن، ها هو يقف هناك، ويمرّر يده على شاهدة القبر مجدّداً ومجدّداً. كما لو أنّه يحاول أن يمسّدها لتعود إلى الحياة.

«سأفعل هذا حقّاً هذه المرّة. أعلم أنّ هذا لا يروق لكِ، ولا يروق لي أيضاً». قال بصوتٍ منخفض.

ثم أخذ نفساً عميقاً؛ كما لو أنّ عليه أن يحصّن نفسه منها بالفولاذ وهي تحاول إقناعه بعدم القيام بهذا.

«أراكِ غداً». قال بحزمٍ، ومسح الثلج عن حذائه، كما لو أنّه لا يريد إعطاءها فرصة للاعتراض.

ومن ثمّ سار في الممرّ الصغير نزولاً إلى ساحة رَكنِ السيارات، والهرُّ يمشي قربَه. خرج من البوّابة السوداء، واستدار حول الصاب التي لا تزال لوحة تعليم القيادة ملصقة على بابها الخلفي. فتح باب المقعد المجاور للسائق، فنظرت پارڤانيه إليه وعيناها البنيّتان الكبيرتان مليئتان بالتعاطف.

«كنت أفكّر في شيءٍ ما». قالت بحذر وهي تدير الصاب، وتبدّل محوّل السرعة وتنطلق.

«لا تفعلي».

ولكن، لم يكن من الممكن إيقافها.

«كنت فقط أفكّر في أنّني ربّما أستطيع مساعدتك في تنظيف المنزل، وربّما أضع أغراض صونيا في صناديق و...»

بالكاد أستطاعت أن تلفظ اسم صونيا قبل أن يَسوَدَّ وجهُ أوف، ويجعلَهُ الغضبُ كالقناع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«لا تتفوّهي بأي كلمة أُخرى». نَبَرَ بصوت مدوٍّ داخل السيارة.

«ولكنّني كنت فقط أفكّ...»

«ولا كلمة لعينة أُخرى. هل فهمتِ؟».

أومأت پارڤانيه برأسها، وقادت بصمت. أمّا أوف الذي كان يرتجف من شدة الغضب فظلّ يحدّق إلى خارج النافذة طوال الطريق إلى المنزل.

31

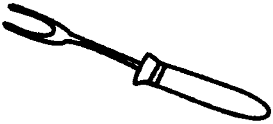

رجل يُدعى أوف يرجع مقطورة تسير في الاتّجاه المعاكس؛ مجدّداً

في الصباح التالي، بعد أن أخرج الهرّ، أخذ بندقيّة والد صونيا القديمة من العليّة بعد أن قرّر أنّ كرهه للسلاح لا يمكن أن يكون أعظم من كرهه لكلّ تلك الأماكن الفارغة التي خلّفتها وراءها في منزلهما الصغير الصامت. لقد حان الوقت.

ولكن، يبدو أنّ أحداً ما في مكانٍ ما يعلم أنّ الطريقة الوحيدة لإيقافه هي بوضع شيءٍ ما في طريقه يجعله غاضباً لدرجة تكفي لمنعه من فعل ذلك.

لهذا السبب، ها هو الآن يقف في الطريق الصغير بين المنازل، شابكاً ذراعيه على صدره بتحدٍّ، وهو ينظر إلى الرجل ذي القميص الأبيض وقال:

«أنا هنا لأنّه لا يوجد شيءٌ مهمّ على التلفاز».

كان الرجل ذو القميص الأبيض يحدّثه من دون أدنى تلميح إلى المشاعر خلال المحادثة كلّها. في الواقع، كلّما التقاه أوف وجده شبيهاً بالآلة أكثر من كونه كائناً بشريّاً؛ تماماً ككلّ أولئك القمصان البيضاء الذين صادفهم أوف وواجههم في حياته. كذاك القميص الذي قال إنّ صونيا ستموت بعد حادثة الحافلة، وذاك الذي رفض تحمّل مسؤولياته بعد ذلك، وذاك الذي رفض تحمّل مسؤوليات الآخرين، وذاك الذي لم يوافق على بناء رصيف تنقّلٍ مُنحَدِرٍ في المدرسة، وذاك الذي لم يُرِد أن يسمح لها بالعمل، وأولئك الذين راحوا يقرأون مقاطعَ مطبوعة بحروف صغيرة ليقتلعوا منها مادّة قانونية تعني أنه لا يترتّب عليهم أن يدفعوا أيّ أموال تأمين، وذاك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الذي أراد أن يضعها في بيت الرعاية.

كانوا كلّهم يملكون العيون الفارغة نفسها، وكأنّهم لم يكونوا شيئاً سوى هياكلَ لمّاعة تجول في كلّ مكان، وتُلاحق الناس العاديين، وتمزّق حياتهم إرباً إرباً.

ولكن، عندما قال أوف على شاشة التلفاز هذا الشيء عن كونهم غير جيّدين، رأى انتفاضة صغيرة في صدغ القميص الأبيض؛ ربّما هي ومضة من الإحباط، ولعلّها غضب وذهول. ومن المرجّح جدّاً أنّها ازدراءٌ صرف.

أطبق الرجل فكّيه، واستدار وبدأ يبتعد سيراً على الأقدام. ليس بالخُطى الموزونة والموضوعية لموظّف استشاريّ يملك السيطرة الكاملة، ولكن بشيءٍ آخر؛ بغضبٍ، ونفاد صبرٍ، ورغبة في انتقام.

لا يتذكّر أوف أيّ شيء آخر جعله يشعر بأنّه بحالة جيّدة إلى هذه الدرجة منذ وقت طويل، طويل جداً.

بالطبع، كان من المفترض أن يكون ميتاً اليوم. فقد كان يخطّط بهدوء وسلام لكي يطلق النار على رأسه بعد الفطور مباشرة. وقد رتّب المطبخ، وأخرج الهرّ، وارتاح على كرسيه المفضّل. لقد خطّط للأمر بهذه الطريقة لأنّ الهرّ وبشكل روتينيّ يطلب الخروج في مثل هذا الوقت. فإحدى صفات الهرّ الإيجابية والقليلة التي كان أوف يقدّرها كثيراً هي عدم تغوّطه في منازل الناس الآخرين. وقد كان أوف رجلاً لديه المبدأ نفسه.

ومن ثمّ بالطبع أتت پارڤانيه وطرقت على بابه؛ وكأنّ مرحاضه آخر مرحاض يعمل في العالم المتحضّر بأكمله. وكما لو أنّ هذه المرأة ليس لديها مكان في منزلها لتتبوّل فيه. وضع أوف البندقيّة وراء مبرّد الهواء لكي لا تراها وتتدخّل في أموره، ثم فتح الباب، وبطريقة أو بأُخرى كان عليها أن تضع هاتفاً في يده بعنف.

«ما هذا؟». أراد أوف أن يعلم وهو يحمل الهاتف بين سبابته وإبهامه، كما لو أن رائحته كريهة.

«إنّه لك». تأوّهت پارڤانيه وهي تمسك معدتها والعرق يتصبّب من جبينها رغم أنّ الحرارة كانت تحت الصفر في الخارج. «تلك الصحافية».

«وما الذي سأفعله بهاتفها؟».

«يا إلهي. إنّه ليس هاتفها، بل هاتفي أنا. وهي تنتظر على الخطّ!». قالت پارڤانيه بنفاد صبر.

ومن ثمّ، وقبل أن يتمكّن من الاعتراض، حشرت نفسها لتمرّ وتتّجه إلى الحمّام.

«ماذا؟». قال أوف وهو يرفع سمّاعة الهاتف ويتركها على بُعد بضعة سنتيمترات من أُذنه، بطريقة لا تدلّ بوضوح على الجهة التي يوجِّه إليها حديثه؛ إلى پارڤانيه أو إلى الصحافية في الطرف الآخر.

«هاي!». صرخت الصحافية لينا، فشعر أوف أنّه قد يكون من الحكمة أن يُبعد الهاتف عن أُذنه أكثر. «إذاً، هل أنتَ جاهز الآن لكي أُجري معك مقابلة؟». قالت بنبرة حماسيّة.

«كلّا». أجاب أوف وهو يحمل الهاتف أمام وجهه باحثاً عن الزر الذي ينهي المكالمة.

«هل قرأتَ الرسالة التي أرسلتها إليك؟ أو الجريدة؟ هل قرأتَ الجريدة؟ فكّرت في أن أُريكَ إيّاها لكي تشكّل انطباعاً عن أسلوبنا الصحفيّ!».

عندها، دخل أوف المطبخ، وتناول الجريدة والرسالة اللتين أحضرهما أدريان منذ بضعة أيّام.

«هل استلمتهما؟». زمجرت الصحافية.

«هدّئي من روعك. أنا أقرأهما، أليس كذلك؟». قال أوف بصوت عالٍ، ثم انحنى واتكأ على طاولة المطبخ.

فتابعت ببسالة: «كنت فقط أتساءل عما إذا...»

فقاطعها أوف مستشيطاً غضباً: «هل يمكنك أن **تهدئي** أيّتها المرأة!».

فجأة، عبر النافذة، لمح أوف رجلاً بقميص أبيض في سيارة سكودا يمرّ أمام منزله.

«آلو؟». قالت الصحافية قبل أن يطير أوف إلى الخارج من الباب الأماميّ.

«آه عزيزي، عزيزي». تمتمت پارڤانيه بقلق وهي تخرج من الحمّام وتراه يَعدو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بسرعة بين المنازل.

خرج الرجل ذو القميص الأبيض من مقعد السائق في سيارة السكودا أمام منزل رون وأنيتا.

«هذا يكفي الآن! هل تسمع؟ لن تقود سيارتك إلى داخل المنطقة السكنيّة، ولن تتقدّم أي متر آخر لعين! هل فهمت؟». صرخ أوف من بعيد؛ قبل أن يصل إليه بكثير.

سوّى الرجل قصير القامة ذو القميص الأبيض علبة السجائر في جيب سترته بفوقيّة تامّة، وهو يواجه نظرة أوف المحدقة إليه.

«لديّ الإذن بذلك».

«لا يهمني ما لديك!».

هزّ الرجل ذو القميص الأبيض كتفيه مستهجناً، كما لو أنّه أراد إبعاد حشرة مزعجة أكثر من أيّ شيء آخر.

«وما الذي ستفعله بهذا الشأن تحديداً يا أوف؟».

أفقد السؤال أوف توازنه، مجدداً. فتوقّف ويداه ترتجفان من شدة الغضب، على الأقل هناك دزينة من الأقداح الزجاجية تحت تصرّفه. ولكنّه تفاجأ، إذ لم يستطع أن يجعل نفسه يستخدم أيّاً منها.

«أعلم من أنتَ يا أوف. وأعرف كلّ شيء عن كلّ الرسائل التي كتبتها عن حادث زوجتك ومرضها. أنت كالأُسطورة في مكاتبنا، عليك أن تعلم هذا». قال الرجل ذو القميص الأبيض ذلك وصوته لا يتزعزع أبداً.

عندها، فتح أوف فمه بذهول، فأومأ إليه الرجل ذو القميص الأبيض وتابع: «أنا أعلم من تكون. وأنا أقوم بعملي فقط. القرار قرار، ولا يمكنك فعل أيّ شيء بشأنه، يجب أن تكون قد تعلّمت ذلك الآن».

خطا أوف خطوة باتّجاهه، ولكن الرجلَ وضع يداً على صدره وضغط عليه إلى الوراء. ليس بعنف، ولا بعدائية، بل فقط برفق وحزم، وكأنّ اليد ليست ملكه وإنّما يتحكّم بها أحد الرجال الآليين في مركز الكومبيوتر للسلطة البلديّة.

«اذهب وشاهد التلفاز بدلاً من ذلك، قبل أن يصبح لديك المزيد من المشاكل

في قلبك».

ترجّلت المرأة الجالسة على مقعد الركّاب من السيارة، وكانت ترتدي قميصاً أبيض مماثلاً لقميص زميلها، وتحمل كدسة من الأوراق بين ذراعيها. أقفل الرجل السيارة فسُمع صوت مدوٍّ. ومن ثمّ أدار ظهره إلى أوف وكأنّ هذا الأخير لم يكن قطّ واقفاً قربه ويتحدّث إليه.

ظلّ أوف حيث هو وقبضتا يديه مغلقتان بإحكام إلى جانبيه، وذقنه بارز إلى الخارج كما لو كان أيلاً ثوريّاً غاضباً. اختفى القميصان الأبيضان داخل منزل أنيتا ورون، فاستغرق أوف دقيقة قبل أن يستعيد سيطرته على أعصابه ويستدير. ولكنه بعد ذلك، بدأ يمشي بحنقٍ شديد وإصرار باتّجاه منزل پارڤانيه. كانت پارڤانيه تقف في منتصف الممرّ الصغير، فدمدم أوف:

«هل زوجك عديم النفع ذاك في المنزل؟». ثم مرّ قربها من دون أن ينتظر جواباً.

لم يتسنَّ لپارڤانيه الوقت سوى لتومئ برأسها قبل أن يصل أوف إلى أمام بابهم بأربع خطوات طويلة وواسعة. فتح پاتريك الباب، ووقف هناك متكئاً على عكّازين، والجصّ يغطّي على ما يبدو نصف جسمه.

«هاي، أوف!». نادى بمرح محاولاً أن يلوّح بأحد العكّازين، ففقد توازنه فوراً، وترنّح مصطدماً بالحائط.

«المقطورة التي استعملتها عندما انتقلتم إلى هنا، أين هي؟». سأل أوف.

اتّكأ پاتريك بذراعه السليمة على الحائط؛ وكأنّه أراد أن يبدو كما لو أنّه تعثّر فقط وارتطم بالحائط.

«ماذا؟! أوه... تلك المقطورة؟ لقد استعرتها من شاب زميلي في العمل...»

«اتّصل به، فأنتَ بحاجة إلى استعارتها مجدّداً».

وهذا هو السبب الذي من أجله لم يَمُت أوف اليوم؛ لأنّ هناك شيئاً ما جعله غاضباً كفاية واستقطب كلّ انتباهه.

عندما خرج الرجل والمرأة ذوَا القميصين الأبيضين من منزل أنيتا ورون بعد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ساعةٍ تقريباً، وجدا أنّ سيارتهما البيضاء الصغيرة ذات شعار المجلس قد حوصرت بمقطورة كبيرة داخل زقاق ضيّق ومسدود. إنها مقطورة قام أحدهم- حين كانا داخل المنزل- بركنها أمام سيارتهما تماماً لتسدّ كامل الطريق. وباستطاعة المرء أن يدرك أنّ هذا تمّ عن قصد.

بَدَت المرأة مرتبكة حقّاً. ولكن الرجل ذا القميص الأبيض اتّجه مباشرة نحو أوف، وسأله:

«هل أنتَ من فعل هذا؟».

فشبك أوف ذراعيه على صدره، ونظر إليه وهو يشعر بالبرد وأجاب:

«كلّا».

ابتسم الرجل ذو القميص الأبيض بطريقة فوقيّة؛ بالطريقة التي يبتسم بها عادةً الرجال ذوو القمصان البيضاء الذين اعتادوا أن تجريَ الأمور دائماً كما يرغبون، وذلك عندما يحاول أحدهم أن يخالفهم الرأي.

«حرِّكها من هنا في الحال».

«لا أعتقد أنني سأفعل هذا». قال أوف.

فتنهّد الرجل ذو القميص الأبيض؛ كما لو أن البيان التهديديّ الذي سَيُدليه بعد ذلك موجّه إلى وَلَدٍ.

«حرّك المقطورة يا أوف وإلّا فسأتّصل بالشرطة».

هزّ أوف رأسه بعدم مبالاة، وهو يشير إلى اللافتة الموجودة في أسفل الطريق.

«المركبات ذات المحرّكات ممنوعة داخل المنطقة السكنيّة. هذا واضح تماماً على اللافتة».

«أليس لديك شيء أهمّ لتفعله أفضل من الوقوف هنا والادعاء أنّك الحاكِمُ؟».

تذمّر الرجل ذو القميص الأبيض.

فأجاب أوف: «أنا هنا لأنّه لا يوجد شيءٌ مهمّ على التلفاز».

وهنا بانت انتفاضة صغيرة على صدغ الرجل ذي القميص الأبيض؛ كما لو أنّ قناعه قد انزلق قليلاً. نظر إلى المقطورة، وإلى سيارته السكودا المحجوزة، ثم إلى اللافتة، وبعد ذلك إلى أوف الذي يقف أمامه مشبوك الذراعين. بدا الرجل كما

لـو أنّـه يفكّـر للحظـة بأنّ يحاول إجبار أوف على إبعادها بالقوّة والعنف، ولكنه في اللحظة التالية أدرك أنّها على الأرجح فكرة سيّئة للغاية.

«كان هذا غباءً كبيراً من قبلك يا أوف. كان هذا تصرفاً سخيفاً؛ سخيفاً جدّاً». هسهس أخيراً، وعيناه الزرقاوان تمتلئان بالحنق الحقيقي للمرّة الأولى، ووجه أوف لا يخونـه ولا يظهـر أيّ انفعـال. مشـى الرجل ذو القميص الأبيـض مبتعداً ومتّجهاً صعـوداً إلـى المـرأب والطريق الرئيس؛ بذاك النوع مـن الخُطى التي تظهر بوضوح أنّ القصّة لن تنتهي هكذا.

وهرعت المرأة وراءه حاملة الأوراق.

قـد يتوقّـع المرء أنّ أوف سيراقبهما وهنـاك نظرة انتصار تبدو في عينيه- كان سيتوقّع هذا بنفسه- ولكنه بدلاً من ذلك نظر إليهما حزيناً ومتعباً فقط. كما لو أنّه لم يَنَم منذ أشـهر، وكما لو أنّه بالكاد يملك القوّة ليبقي ذراعيه مرفوعتين أكثر من ذلـك. تـرك ذراعيـه تهبطان إلى الأسـفل، وانزلقت يـداه داخل جيبيه وهو يعود إلى المنزل. ولكن، ما إن أغلق الباب حتّى بدأ أحدهم يطرق عليه بقوّة مجدّداً.

«سيأخذون رون بعيداً عن أنيتا». قالت پارڤانيه بعجلة، وهي تفتح الباب بقوّة قبل أن يصل أوف إلى المقبض حتّى.

«هُراء». تذمّر بتعب.

وبـدا الاستسـلام فـي صوتـه واضحاً، ففاجأ پارڤانيه وأنيتـا التي تقف وراءها. وربّمـا فاجـأ هـذا أوف أيضـاً. تنفّس من أنفه بسـرعة، ونظر إلـى أنيتا. كانت عيناها رماديّتَي اللون أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وحمراوين ومتورّمتين.

«قـالا إنّهـم سـيأتون لاصطحابـه خلال هذا الأسـبوع، وإنّني لا أسـتطيع تدبّر الأمر لأعتني به بنفسي». قالت بصوت ضعيف بالكاد كان يخرج من بين شفتيها.

«علينا أن نفعل شيئاً ما!». قالت پارڤانيه وهي تبكي وتتشبّث بيده.

فانتزع أوف يده منها، وتجنّب النظر إلى عينيها، وقال:

«هُـراء! لـن يأتـوا لاصطحابـه ولـو بعد سـنوات وسـنوات. سـيذهب الطلب للاستئناف، ومن ثمّ سيمرّ بكلّ المعاملات البيروقراطيّة المقرفة».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حاول أن يكون مقنعاً وواثقاً من نفسه أكثر ممّا كان يشعر في الواقع. ولكنه لم يملك القوّة ليهتمّ بكيفيّة تخطّيه للأمر، وكان يريد منهما أن ترحلا فقط.

«أنتَ لا تعرف ما تتحدّث عنه!». صرخت پارڤانيه.

«أنتِ من لا تعلم عمّا تتحدّث. لم يكن لديك يوماً ما تفعلينه مع مجلس المقاطعة، ولا تعرفين ما معنى محاربتهم». أجاب بصوت رتيب، وكتفاه تنحنيان إلى الأمام.

«ولكن، عليك أن تتكلّم...» بدأت تقول متلعثمة، وكأنّ كلّ الطاقة الموجودة في جسم أوڤ تتسرّب خارجه؛ حتّى وهو واقف هناك.

ربّما كان وجه أنيتا المرهق ما أثر فيه، وربّما كان إدراكه أنّ الانتصار في معركة واحدة ليس شيئاً عظيماً. فمحاصرة سيارة السكودا لا تُحدِثُ أيَّ فرق. فهم دائماً يعودون؛ تماماً كما فعلوا مع صونيا، وكما يفعلون دائماً. فهم يعودون مع بنودهم القانونية ووثائقهم. الرجال ذوو القمصان البيضاء يربحون دائماً، والرجال أمثال أوڤ يخسرون دائماً أناساً مثل صونيا. ولا يمكن لأيّ شيء في العالم أن يُعيدَها إليه.

في النهاية، لم يبقَ شيء سوى سلسلة طويلة من أيّام الأسبوع، مع لا شيء لفعله أكثر من تزييت بعض القطع في المطبخ. ولم يعد أوڤ يستطيع تحمّل هذا. وهو يشعر بذلك في هذه اللحظة أكثر من أيّ وقتٍ مضى. لم يَعُد يريد أن يحارب أكثر من ذلك، بل يريد فقط أن يتوقّف كلّ شيء.

ظلّت پارڤانيه تحاول الجدال معه، ولكنّه أغلق الباب وحسب. طرقت على الباب بقوّة، ولكنّه لم يسمع. هبط على المقعد في الردهة، وشعر بيديه ترتجفان، وقلبه يطرق بقوّة كبيرة، كما شعر أنّ أُذنيه ستنفجران. شعر بالضغط على صدره؛ كما لو أنّ ظلاماً هائلاً أطبق بحذائه على حلقه، ولم يبدأ برفعه إلّا بعد مرور أكثر من عشرين دقيقة.

ثمّ، بدأ أوڤ يبكي.

32

رجل يُدعى أوف لا يُدير فندقاً لعيناً

قالت صونيا في إحدى المرّات إنّه للتمكّن من فهم رجال أمثال أوف ورون، يجب على المرء أن يفهم منذ البداية أنّهم رجال موجودون في الوقت الخطأ. فهم رجال يطالبون فقط بأشياء قليلة وبسيطة من الحياة؛ كما قالت. إنهم يريدون سقفاً فوق رؤوسهم، وشارعاً هادئاً، وسيارة جيدة الصنع، وامرأة ليكونوا مخلصين لها، وعملاً يكون لديهم فيه دورٌ ووظيفةٌ مناسبان، ومنزلاً تنكسر فيه الأشياءُ بفتراتٍ مُنتظمة، فيكون لديهم دائماً شيءٌ ليصلحوه بغير براعة أو يشغلوا أنفسهم به.

«جميع الناس يريدون أن يعيشوا حياةً جليلة وكريمة. ويختلف معنى الكرامة بالنسبة إلى كلّ شخص». قالت صونيا. وبالنسبة إلى الرجال أمثال أوف ورون، تعني الكرامة بكلّ بساطة أنّه عليهم تدبّر أمرهم بأنفسهم عندما يكبرون، ومن ثمّ يرون أنّه من حقّهم ألا يعتمدوا على الآخرين عندما يصبحون راشدين. كان هناك نوع من الكبرياء في امتلاك السيطرة على الأمور، وفي كونهم على حقّ، وفي معرفتهم أيّ طريق يسلكون، وكيف يخوضون مسألة ما أو لا يخوضونها. إنّ الرجال أمثال أوف ورون من جيلٍ كان المرء فيه يُقيّمُ بأفعاله وليس بكلامه.

كانت تعلم طبعاً أنّ أوف لم يعرف كيف يتحمّل غضبه مجهول الاسم، وكان يحتاج إلى ملصقات التسميات ليضعها عليه؛ أي طرائق للتصنيف. وبالتالي، عندما يحاول الرجال ذوو القمصان البيضاء في المجلس- والذي لا يمكن لرجل طبيعي أن يتتبّع أعضاءه ويحفظ أسماءهم- أن يفعلوا كلّ ما لم تكن صونيا تريده؛ أي أن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يجعلوها تتوقّف عن العمل، ويخرجوها من منزلها، ويفترضوا أنها أقلّ شأناً من شخص يتمتّع بصحّة جيّدة ويمكنه السير، ويجزموا أنّها تحتضر، كان أوف يقوم بمحاربتهم؛ بواسطة الوثائق والرسائل التي يوجّهها إلى الجرائد، والاستئنافات، والمناشدات، وصولاً إلى شيء غير ملحوظ؛ بقدرِ بناء رصيف تَنَقُّلٍ مُنحَدِرٍ في المدرسة. لقد حارب من أجلها كثيراً بعناد وإصرار ضدّ أولئك الرجال ذوي القمصان البيضاء؛ حتّى بدأ في النهاية بتحميلهم مسؤوليّة كلّ ما حدث لها وللطفل.

ومن ثمّ تَركَتهُ وحده في عالمٍ لم يَعُد يفهم لغته.

في وقتٍ لاحق من تلك الليلة، بعد أن تناول أوف والهرّ عشاءهما وشاهدا التلفاز قليلاً، أطفأ المصباح في غرفة الجلوس، وصعد إلى الطابق العلويّ. تبعه الهرّ بحذر، كما لو أنّه شعر بأنّ أوف سيقوم بشيءٍ لم يُعلِمهُ به مسبقاً. جلس على أرضيّة غرفة النوم بينما كان أوف يخلع ثيابه، وبدا وكأنّه يحاول اكتشاف خدعة سحريّة.

ذهب أوف إلى السرير وتمدّد عليه من دون حراك، بينما استغرق الهرّ اللعين الذي تمدّد على قسم السرير الخاص بصونيا أكثر من ساعة لكي ينام. عادةً، لم يكن أوف يسمح له بأن يتمادى إلى هذا الحدّ، ولكنه اليوم ليست لديه أيّ طاقة للشجار. إذ لا يمكن أن يتوقّع منه أن يفسّر مفهوم الحياة والموت لحيوانٍ لا يمكنه حتّى أن يعتني بنفسه.

عندما استدار الهرّ أخيراً وتمدد على ظهره على وسادة صونيا وبدأ يشخر بفمٍ مفتوح، تسلّل أوف إلى خارج السرير بكلّ ما أُوتِيَ به من هدوء وخفّة، ونزل إلى غرفة الجلوس، وأخذ البندقية من مخبئها وراء مبرّد الهواء، ثم أخرج أربع قطع من القماش المشمّع الثقيل التي جلبها من مخزن المعدّات وخبّأها في خزانة المكنسة لكي لا يراها الهرّ، وبدأ يفرشها على أرضية الردهة. وبعد القليل من التدقيق والتفكير، قرّر أوف أنّ هذه الغرفة قد تكون على الأرجح الفضلى لتنفيذ ما ينوي فعله؛ لأنها تملك أصغر مساحة. فمن المتوقع أن ينتشر الدم في الغرفة عندما يطلق أحدهم النار على رأسه، وهو يكره أن يترك وراءه فوضى أكثر ممّا ينبغي. ولطالما كانت صونيا تكره الأمر عندما يُحدث الفوضى.

انتعل حذاء الخروج من المنزل، وارتدى بذلته مجدداً. كانت متّسخة، وما زالت رائحة الدخان والوقود تنبعث منها، ولكن يجب أن تفي بالغرض. حاول أن يَزِنَ البندقية في يديه؛ كما لو أنه يتفقّد مركز الجاذبية لديها، وكما لو أن هذا سيلعب دوراً حاسماً في مشروع المجازفة القادم. لفّها وقلّبها وهو يحاول أن يصوّب فوهة البندقية من زاوية مناسبة. ليس سبب ذلك أنّ أوف يعرف الكثير عن الأسلحة، ولكن ينبغي على المرء معرفة ما إذا كان ما بحوذته لائقاً، إلى حدٍّ ما. ولأنّ أوف يعتقد أنّ المرء لا يستطيع اختبار نوعيّة بندقيّة ما بِرَكلِها، فهو يقرّر ذلك بالانحناء وشدّها، ليرى ما سيحدث.

وفيما كان يقوم بذلك، أدرك أن الفكرة ليست سديدة. فسيكون هناك الكثير من الدماء على بذلته كما تخيّل أوف. بدا هذا سخيفاً، فوضع البندقية جانباً، وذهب إلى غرفة الجلوس، وخلع ثيابه، وطوى البذلة بتأنٍّ ووضعها بالقرب من حذاء الخروج. ومن ثمّ أخرج الرسالة التي تحتوي على كلّ التعليمات الموجّهة إلى پارڤانيه، وكتب «ادفنوني ببذلتي»، تحت قسم «ترتيبات الجنازة»، ووضع الرسالة فوق كدسة الثياب. لقد سبق له أن ذكر، بوضوح لا يدع مجالاً للخطأ، أنّه لا ينبغي أن يكون هناك أيّ ضجيج، ولا مبالغة في مراسم الدفن وسخافات مماثلة. كما طلب أن يدفنوه بالقرب من صونيا. هذا كلّ شيء. لقد تمّ تحضير المكان ودفع المبلغ لقاء ذلك، وقد وضع أوف في المغلف المال نقداً لأجل عمليّة النقل.

إذاً، عاد أوف إلى الردهة وأخذ البندقيّة وهو يرتدي جوربيه ولباسه الداخليّ فقط. رأى جسمه في مرآة الردهة. لم يرَ نفسه بهذا الشكل منذ ما يقارب خمسة وثلاثين عاماً. ما زال جسمه قويّاً ومليئاً بالعضلات. وبالتأكيد، كان شكله أفضل من معظم الرجال الذين في مثل عمره. ولكنْ حدث شيءٌ ما لبشرته جعله يبدو كما لو أنه يذوب، حسبما لاحظ. يبدو هذا رهيباً.

الهدوء التامّ يخيّم على المنزل، بل على الحيّ المجاور بأكمله. الجميع نائمون. وعندها فقط أدرك أوف أنّ الهرّ قد يستيقظ على صوت إطلاق النار. واعترف لنفسه أنّ هذا قد يصيب المخلوق المسكين بالذعر التام. فكّر بهذا لفترة من الوقت لا بأس بها، ثم وضع البندقية جانباً عاقد العزم، وذهب إلى المطبخ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليدير جهاز الراديو. ليس لأنّه يحتاج إلى سماع الموسيقى عند انتحاره، وليس لأنّه يحبّ فكرة أنّ ما يبثه الراديو سيشقّ طريقه عبر وحدات الكهرباء بعد رحيله. ولكن لأنّه إذا استيقظ الهرّ بسبب الطلقة المدويّة فسينتهي به الأمر معتقداً أنّ هذا جزءٌ من تلك الأغاني الشعبية الحديثة الذي يبثّها الراديو طوال الوقت في هذه الأيام. ومن ثمّ سيعود إلى فوق لينام. هذا ما كان أوف يفكّر فيه.

لم تكن هناك أغانٍ شعبية حديثة على الراديو. وعندما عاد أوف إلى الردهة وتناول البندقيّة مجدداً، كانت نشرة الأخبار المحليّة هي التي تبث عبر الإذاعة. فبقي حيث هو لبرهة وأصغى السمع؛ ليس لأنّه من المهمّ جدّاً سماع الأخبار المحليّة عندما تكون على وشك أن تُطلق النار على رأسك، ولكن لأن أوف يعتقد أنّه ليس هناك ضرر في البقاء على اطّلاع على المستجدّات. تحدّثوا عن الأحوال الجويّة، وعن الاقتصاد، وعن زحمة السير، وعن أهمية بقاء أصحاب الأملاك المحليّة يقظين ومحترسين خلال عطلة نهاية الأسبوع لأنّ هناك عدداً كبيراً من عصابات السطو منتشرين في جميع أنحاء البلدة. «سفّاحون لعينون مثيرون للشغب». تمتم أوف، وشدّ قبضته على البندقية بإحكامٍ أكثر عندما سمع هذا.

من وجهة نظرٍ موضوعيّة بحتة، إن حقيقة أنّ أوف يحسن استخدام السلاح ببراعة أمرٌ كان على مثيرَي الشغب الآخرَين- أدريان وميرساد- أن يدركاه قبل أن يهرولا مطمئنين إلى باب أوف الأماميّ بعد بضع ثوانٍ من سماعه نشرة الأخبار. ولا بدّ أنّهما فهما ذلك جيّداً في ما بعد. فعندما سمع أوف وقع أقدامهما على الثلج لم يفكّر: «زوّار؟! كم هذا جميل!»، وإنما قال: «حسناً، حكم عليكم بالموت!». وعلى الأرجح، ما كانا يتوقعان أنّ أوف- الذي لم يكن يرتدي سوى جوربيه ولباسه الداخليّ، وفي يديه بندقيّة صيد تعود إلى ربع قرنٍ مضى- سيركل الباب فاتحاً إيّاه مثل رامبو، وهو شبه عارٍ. ولو عرفا ذلك فربّما حينها ما كان أدريان ليصرخ بصوتٍ عالٍ لدرجة أنه خرق كلّ نافذة في الشارع، وما كان ليستدير بذعرٍ ويركض إلى داخل مخزن المعدّات، حيث كاد يُغمى عليه.

تطلّب الأمر بضع صرخات مضطربة، وكميّة لا بأس بها من الضوضاء قبل أن يتسنّى لميرساد الوقت كي يوضح هويّته كمشاغب طبيعيّ، وليس كمشاغب

من اللصوص، ولكي يتمكّن أوف من التعامل مع ما يجري. وقبل هذا، تسنّى له الوقت لكي يلوّح ببندقيّته في وجهيهما؛ ممّا جعل أدريان يصيح كما لو أنه يحذّر من غارةٍ جوّية.

«هششش! ستوقظ الهرّ اللعين!». همس أوف غاضباً عندما كان أدريان يترنّح إلى الوراء، وهناك تورّم كبير ظاهر على جبينه كحزمة متوسّطة الحجم من الرافيولي.

«ماذا تفعل هنا بحقّ الله؟!». سأله أوف فيما البندقية لا تزال موجّهة إليهما، وتابع: «إنّه منتصف الليل، اللعنة!».

كان ميرساد يحمل كيساً كبيراً في يده، فرماه بلطف على الثلج. ورفع أدريان يديه تلقائياً كما لو أنّه على وشك أن يتعرّض للسرقة، وكاد أن يخسر توازنه ويقع على الثلج مجدداً.

«كانت فكرة أدريان». بدأ ميرساد بالكلام وهو ينظر إلى الثلج في الأسفل.

«لقد قام ميرساد اليوم، كما تعلم...» تحدّث أدريان من دون تفكير.

«ماذا؟».

«لقد... أعلن... أنت تعلم ما أعنيه. قال للجميع إنّه...» كان أدريان يتفوّه بالكلمات وهو مذهولٌ؛ لأنّ الرجل العجوز يستشيط غضباً، ويصوّب سلاحاً باتّجاهه وهو مرتدٍ سرواله الداخليّ فقط، ولأنّه ازداد اقتناعاً بأنّه أُصيب بنوع من ارتجاج الدماغ.

استقام ميرساد في وقفته، وأومأ برأسه إلى أوف بمزيد من الإصرار.

«لقد قلت لوالدي إنني غير سويّ».

بدت عينا أوف أقلّ تهديداً، ولكنّه لم يُخفض بندقيّته، فتابع ميرساد:

«أبي يكره غير الأسوياء. ولطالما قال إنه سيقتل نفسه لو اكتشف أنّ أحدَ أولاده كذلك».

وبعد وقتٍ قصير من الصمت أضاف:

«لم يتقبّل الأمر؛ إذا صحّ التعبير».

«لقد رَمَيهُ خارج البيت!». تدخّل أدريان.

«رَماهُ». صحّح له أوف.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حمل ميرساد الكيس عن الأرض، وأومأ مجدّداً برأسه إلى أوف.

«كانت هذه فكرة غبيّة. ما كان ينبغي لنا أن نزعجك...»

فقاطعه أوف: «تزعجانني بماذا؟».

وفيما كان واقفاً هناك مرتدياً سرواله الداخليّ فقط، في درجة حرارة متدنّية، فكّر في أنه على الأقلّ سيعرف السبب وراء ذلك.

أخذ ميرساد نفساً عميقاً وشرح له: «قال أبي إنني شخص مريض وغير مرحّب بي تحت سقف منزله... بطرائقي غير الطبيعية». قال ذلك وهو يبتلع لعابه بصعوبة، ولاسيما عندما وصل إلى عبارة بطرائقي غير الطبيعية.

«ألأنّك غير سويّ؟». استوضح أوف.

فأومأ ميرساد برأسه إيجاباً وقال:

«ليس لديّ أيّ أقارب في البلدة هنا. كنت أنوي تمضية الليلة عند أدريان، ولكنّ رفيق والدته الجديد سيبقى في...»

وصمت فجأة، وبدا وكأنّه يشعر أنّه تافه جدّاً.

«كانت فكرة غبية». قال بصوتٍ خافت، وقام بحركةٍ ليستدير وينصرف.

من ناحية أُخرى، بدا أن أدريان يُعيد اكتشاف رغبته في المشاركة في الحوار، فتعثّر بغضب فوق الثلج وهو يتّجه نحو أوف.

«بحقّ الله يا أوف! لديك الكثير من المساحة هنا! لذا، فكّرنا في أنّه قد يستطيع ربّما أن ينام عندك الليلة».

«هنا؟! هذا ليس فندقاً لعيناً!». قال أوف رافعاً البندقّية لتلامس فوّهتها صدر أدريان.

تجمّد أدريان في مكانه، فيما اقترب ميرساد خطوتين إلى الأمام على الثلج، ووضع يده على البندقية.

«لم يكن لدينا أيّ مكان آخر لنذهب إليه، نحن آسفان». قال بصوتٍ منخفض وهو يبعد البندقيّة عن أدريان بلطف.

بدا أوف وكأنّه يعود إلى رشده قليلاً. فقد أخفض سلاحه نحو الأرض، وخطا خطوةً إلى الوراء إلى داخل الردهة بعدم إدراك، وكأنّه الآن فقط انتبه إلى الشعور

بالبرد الذي يلفّ جسمه غير المكسو جيّداً، ولاحظ بطرفِ عينه صورة صونيا على الحائط، بالثوب الأحمر، أثناء رحلة الحافلة الخاصّة في إسبانيا عندما كانت حاملاً. لقد طلب منها مرّات كثيرة جدّاً أن تنزع هذه الصورة من هنا ولكنّها رفضت، كما قالت «إنّها ذكرى قيّمة؛ مثلها مثل أيّ ذكرى أُخرى».

امرأةٌ عنيدة.

* * *

إذاً، كان من المفترض أن تكون تلك الأُمسية هي الأمسية التي يموت فيها أوف أخيراً. ولكنها بدلاً من ذلك أصبحت الأُمسية التي سبقت طلوع الفجر الذي استيقظ فيه ليس فقط مع هرّ في منزله، ولكن أيضاً مع شخص غير سويّ. كان هذا سيروق لصونيا على الأرجح، فقد كانت تحبُّ الفنادق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

33

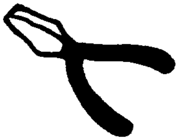

رجلٌ يُدعى أوڤ وجولة تفقديّة غير اعتياديّة

أحياناً يصعب تفسير سبب قيام بعض الرجال فجأةً بالأمور التي يفعلونها. فهم أحيانـاً يفعلـون تلـك الأمـور بالطبع لأنّهم يعلمون أنّهم سـيقومون بذلك عاجلاً أم آجلاً في كلّ الأحوال، وبالتالي يمكنهم أيضاً فعلها الآن ببسـاطة. وأحياناً أخرى، يكون العكس تماماً؛ أي لأنّهم يدركون أنّه وجب عليهم فعل ذلك منذ وقتٍ طويل. كان أوڤ على الأرجح يعرف منذ البداية ما عليه فعله، إلّا أنّ كلّ الناس في الصميم يكونـون متفائليـن فـي ما يخصّ تقييم الوقـت. فنحن نظنّ دائماً أنّنا نملك ما يكفي من الوقت للقيام ببعض الأمور مع أشخاصٍ آخرين. ولقول بعض الأمور لهم. ثمّ يحدث شيءٌ ما، فنقف هناك متمسّكين بكلماتٍ مثل «لَو».

وفيما كان ينزل السلالم في صباح اليوم التالي، توقّف في الرواق. إذ لم يعبق المنـزل بهـذه الرائحـة مُنـذ أن توفّيت صونيا. خطا بحـذرٍ الخطوات القليلة المتبقّية له نزولاً، وحطّ على الأرضيّة الخشبيّة ووقف عند عتبة المطبخ، بوضعيّة رجلٍ قد أمسك للتوّ بسارقٍ بالجرم المشهود.

«هل أنت من حمّص الخبز؟».

هزّ ميرساد رأسه بقلق، وقال:

«أجل... آمل ألّا تكون هناك مشكلة... عذراً. أقصد، هل مِن مانع؟».

لاحظ أوڤ أنّه حضّر القهوة أيضاً، وكان الهرّ على الأرض يأكل التونة. أومأ

أوف برأسه، ولكنه لم يجب عن السؤال.

«سنذهب أنا والهرّ في جولةٍ صغيرة في الأرجاء». قال موضحاً عوضاً عن ذلك.

«هل يمكنني أن أنضمّ إليكما؟».

نظر إليه أوف قليلاً؛ كما لو أنّ ميرساد قد استوقفه في ممرٍّ مقنطر للمشاة، متنكّراً في زيّ قرصان، وطلب منه أن يخمّن تحت أيٍّ من فناجين الشاي الثلاثة قد خبّأ العملة الفضّية.

«ربّما بإمكاني المساعدة». أكمل ميرساد وقد نفد صبره.

اتّجه أوف إلى الرواق، وحشر قدميه في قبقابه.

«إنّه بلدٌ الحرّيّات فيه مباحةٌ». تمتم بينما كان يفتح الباب ويدع الهرّ يخرج.

فسّر ميرساد ذلك كما لو أنّ أوف قال له: «بالطبع يمكنك!!». وبسرعة، ارتدى سترته وانتعل حذاءه ولحق بأوف.

«مرحباً!». صرخ جيمي حين بلغ الرصيف. ظهر وهو يلهث بقوّة خلف أوف في بذلة رياضيّة خضراء مخيفة، ضيّقة على جسده لدرجة تعجّب فيها أوف بدايةً حول ما إذا كانت لباساً فعلاً أو رسماً على الجسم.

«جيمي!». قال جيمي وهو يلهث ويمدّ يده إلى ميرساد.

بدا الهرّ وكأنّه يرغب في فرك جسمه بحنانٍ على رجلَي جيمي، ولكنه بدّل رأيه، كما لو أنه تذكّر آخر مرّة فعل فيها شيئاً مماثلاً فانتهى الأمر بجيمي في المستشفى. وعوضاً عن ذلك، اختار البديل الأفضل المتاح له وتدحرج على الثلج، فالتفت جيمي إلى أوف قائلاً:

«أراك تتجوّل في الأرجاء بحلول هذا الوقت عادة، لذا أردتُ أن أسألك إذا كنت تسمح لي بمرافقتك. لقد قرّرتُ البدء بممارسة الرياضة، أنتَ تعلم!».

وهزّ رأسه برضى عميق؛ لدرجة أن الدهن تحت ذقنه راح يتأرجح بين كتفيه مثل شراع سفينةٍ في ظروف مناخيّة عاصفة. بدا أوف متردّداً جدّاً.

«هل تستيقظ عادةً في هذا الوقت؟».

«تباً، لا يا رجل. لم أخلد إلى الفراش أصلاً!». قال ضاحكاً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لهذا السبب، قام هرّ وفتى بدين يعاني من فرط الحساسيّة وشخص غير سويّ ورجل يُدعى أوف بجولة تفقديّة في الأرجاء صباحَ ذلك اليوم.

شرح ميرساد باختصار كيف أنّه ووالده ليسا على وفاق، وأنّه يقيم مؤقّتاً لدى أوف، فيما عبّر جيمي عن شكّه في أنّ أوف يبقى مستيقظاً حتّى هذا الوقت من كلّ صباح.

«إذاً، لِمَ تعاركتَ مع الرجل العجوز؟». سأل جيمي.

«هذا ليس من شأنك!». ردّ أوف بنبرة عالية، فغمزه ميرساد شاكراً.

«لكنْ، لنكنْ واقعيّين يا رجل. هل تقوم بهذا كلّ صباح؟». سأل جيمي بابتهاج.

«أجل، للتأكد إن كانت قد حصلت أيّ عمليّةِ سطو».

«فعلاً! هل هناك الكثير من عمليّات السطو في الأرجاء؟».

«لا تكون هناك عمليّات سطو كثيرة من دون حدوث عمليّة أولى في الأساس». تذمّر أوف واتّجه نحو موقف سيّارات الضيوف.

نظر الهرّ إلى جيمي كما لو أنّه غير منبهر بنشاطه البدنيّ، فقلب جيمي شفته استياءً، ولمس بطنه وهو يعتقد أنّه قد خسر بعض الوزن.

«إذاً، هل سمعتَ بما حلّ بِرُون؟». قال وهو يسرّع خطواته خلف أوف في ما يشبه الهرولة.

فلم يجب أوف.

«سوف تأتي هيئة الخدمات الاجتماعيّة لأخذه. أنتَ تعرف». شرح جيمي حين لحق بهما.

فتح أوف مدوّنته، وبدأ بتدوين أرقام لوحات تسجيل السيّارات من دون التفوّه بأي كلمة، فاعتبر جيمي صمته كدعوة له ربّما لمواصلة حديثه.

«كما تعلم، خلاصة الموضوع أنّ أنيتا قدّمت طلباً للحصول على المزيد من المساعدة المنزليّة. فرون في حالةٍ يُرثى لها، وهي لم تَعُد تستطيع التعامل مع الوضع أكثر. لذلك، أجرت هيئة الخدمات الاجتماعيّة تحقيقاً، واتّصل بها أحدهم وقال لها إنّهم قرّروا أنها غير قادرة على القيام بذلك، وإنهم سيضعون رون في إحدى تلك المؤسّسات. عندها، قالت لهم أنيتا إنّ بإمكانهم نسيان هذا الأمر،

حتّى إنّها لم تَعُد تريد أيّ مساعدة منزليّة. لكنْ بعد ذلك أصبح ذاك الرجل عنيفاً معها، وبدأ بالتعامل معها بأسلوب غير لطيف؛ مواصلاً قوله لها إنّها لم تَعُد قادرة الآن على إيقاف مجرى التحقيق، وإنّها هي التي طلبت منهم النظر في الموضوع. والآن، اتُّخذ القرار على أساس التحقيق، وتوقّف كلّ شيء عند هذه النقطة. فكما تعرف، لا يهمّ ما تقوله، «لأنّ رجل الخدمات الاجتماعيّة مستمرٌّ في سعيه. أتعرف ما أقصده؟».

سكت جيمي وأومأ لميرساد على أمل الحصول على ردّة فعلٍ ما.

«إنه أمر غير لطيف...» أعلن ميرساد بتردّد.

«غير لطيفٍ البتّة!». وحرّك جيمي رأسه، فاهتزّ القسم العلويّ من جسمه.

وضع أوف قلمه ومدوّنته داخل جيب سترته، وسار متجهاً إلى غرفة التخزين.

«آه، سوف يستغرقون دهراً لاتّخاذ قرارات كهذه. فهم يقولون إنّهم سيأخذونه الآن، ولكنّهم لن يحرّكوا ساكناً قبل سنة أو اثنتين». قال متذمّراً. فهو يعرف كيف تعمل تلك البيروقراطيّة اللعينة.

«لكنّ... القرار قد اتُّخذ يا رجل». قال جيمي وهو يحكّ رأسه.

«إنه مجرّد حكمٍ لعين! سوف يستغرق تنفيذ الأمر سنوات!». قال أوف بغضب وهو يتجاوزه.

فنظر إليه جيمي في محاولةٍ لتقدير ما إذا كان اللحاق به يستحقّ العناء، ثم قال:

«لكنّها فعلتْ ذلك! كانت تكتب رسائل وأشياء لسنتين على التوالي!».

لم يتوقّف أوف عندما سمع ذلك، ولكنّه أبطأ سيره. وسمع صوت خطوات جيمي وقدماه ترميان بثقله على الثلج.

«لسنتين؟». سأل من دون أن يلتفت إلى الوراء.

«تقريباً». ردّ جيمي.

بدا أوف وكأنّه يعدّ الأشهر في رأسه، ثم قال باستخفاف:

«هذا كذب، وإلّا لكانت صونيا قد علمت بذلك».

«لم يكن يُسمَح لي بالتفوّه بأيّ شيء لِصونيا. إذ لم تشأ أنيتا ذلك. أنت تعرف...»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سكت جيمي، ونظر إلى الثلج في الأسفل. عندها، استدار أوف وهو يرفع حاجبيه.

«أعرف ماذا؟».

تنفّس جيمي بصعوبة، ثم قال بصوت منخفض:

«هي... فكّرت أنّ لديك ما يكفيك من المشاكل».

الصمت الذي تلا قوله ذلك كان طاغياً، فلم يرفع جيمي نظره، ولم ينطق أوف ببنت شفّة، بل دخل غرفة التخزين، ثم خرج، ثم دخل مرأب الدرّاجات الهوائيّة، ثم خرج. فجأة، بدا للرجلين أنّ قطعة البنس قد سقطت؛ إذ بعد سماعه كلمات جيمي شعر أوف بغضب عارم يشتدّ في داخله، وتزداد سرعته داخل صدره كالإعصار. فراح يضرب على الأبواب بعنفٍ متصاعد، ويركل العتبات. وعندما تمتم جيمي في النهاية قائلاً: «الآن لم تعُد باليد حيلة يا رجل، الآن سوف يضعون رون في مأوى. أنت تعلم». أغلق أوف أحد الأبواب بقوّة، فاهتزّت غرفة التخزين بأكملها. ثم وقف صامتاً، ومديراً ظهره لهما، وهو يتنهّد بصعوبة أكثر فأكثر.

«هل أنت... بخير؟». سأل ميرساد.

فاستدار أوف نحو جيمي، وقال بحنق:

«هل هكذا صاغتها؟ لم تشأ أن تطلب المساعدة من صونيا لأنّ لدينا ما يكفينا من المشاكل؟».

هزّ جيمي رأسه بقلق، وحدّق أوف إلى الثلج، وصدره يعلو وينخفض بسرعة تحت سترته. فكّر في ردّة فعل صونيا لو اكتشفت ذلك، وأدرك أنها لو عرفت أنّ أعزّ صديقةٍ لديها لم تطلب منها المساعدة لأنّ لديها– صونيا– «ما يكفيها من المشاكل» لَانتابتها الحسرة.

أحياناً، يصعب تفسير سبب قيام بعض الرجال فجأةً بالأمور التي يفعلونها. وأوف كان يعرف منذ البداية ما كان عليه فعله، ولمَن عليه تقديم المساعدة قبل أن يموت. لكنّنا دائماً نكون متفائلين في ما يخصّ تقييم الوقت، إذ نظنّ أنّ لدينا ما يكفي من الوقت للقيام ببعض الأمور مع أشخاصٍ آخرين، ولقول أمورٍ لهم.

لدينا الوقت لتلبية استغاثة.

مجدّداً، التفت أوف إلى جيمي بتجهّم وسأله:

«لِسنتين؟».

هزّ جيمي رأسه، فتنحنح أوف. ولأوّل مرّة، بدا أوف غير واثقٍ من نفسه، وتمتم:

«ظننتُ أنّها قد بدأت للتوّ. ظننتُ أنّ... لديّ المزيد من الوقت».

بدا جيمي كما لو أنّه يحاول أن يميّز لِمَن يوجّه أوف حديثه. فجأة رفع أوف نظره.

«وسوف يأتون لأخذ رون الآن؟ فعلاً؟ لا فساد بيروقراطيّ، ولا طعون في الأحكام وكلّ ذلك الهراء؟! هل أنت متأكّد من ذلك؟».

فهزّ جيمي رأسه مجدّداً، وفتح فمه ليقول شيئاً، لكنّ أوف بدأ بالابتعاد. تسلّل بين المنازل بحركة رجل على وشك الانتقام من ظلمٍ مميت في فيلم ويسترن. وتوقّف عند أسفل المنزل، حيث لا تزال المقطورة وسيّارة السكودا مركونتين، وراح يطرق على الباب بقوّة تصعب فيها معرفة ما إذا كان سيُفتح قبل أن يتحول إلى رقائق خشبيّة. وحين فتحت أنيتا الباب مصدومة، خطا أوف مباشرةً إلى داخل ردهة بيتها وسألها:

«هل بحوزتك الأوراق الخاصّة بالسلطات؟».

«أجل، لكنّني ظَنَنْـ...»

«أعطيني إيّاها!».

في وقتٍ لاحق، سوف تخبر أنيتا الجيران الباقين بأنّها لم ترَ أوف غاضباً لهذه الدرجة منذ عام 1977؛ عندما كان هناك كلامٌ حول عمليّة دمج بين شركتي صاب وڤولڤو.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

34

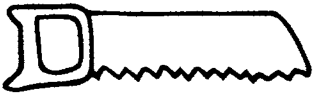

رجلٌ يُدعى أوڤ وفتى من المنزل المجاوِر

أحضر أوڤ معه كرسيّاً بلاستيكيّاً أزرق لغرزه في الثلج والجلوس عليه. فقد يستغرق الأمر وقتاً، وهو يعرف ذلك. إذ يحصل هذا الأمر دائماً عندما يكون لديه شيءٌ يريد إطلاع صونيا عليه ولا يعجبها. أزال كلّ الثلج عن شاهدة القبر بدراية، كي يستطيعا رؤية بعضهما بعضاً كما يجب.

في مدّةٍ لا تتعدّى الأربعين سنة، الكثير من الناس على اختلاف أنواعهم تسنّى لهم الوقت لتسجيل مرورهم أمام صفّ منازلهم. وقد سكن المنزل الذي يفصل بين عقارَي أوڤ وورون الكثير من الناس من طباع مختلفة، فمنهم الهادئون ومنهم الصاخبون والفضوليّون وثقيلو الظلّ، وبالكاد كانوا جديرين بالملاحظة. كما سكنت هناك عائلات كان أولادها المراهقون يبوّلون على السياج أحياناً، أو عائلات حاولت زرع شجيرات غير مرخّصٍ لها في الحديقة، وعائلات راودتها فكرة طلي بيتها باللون الزهري. وإذا كان هناك ما يتّفق عليه أوڤ وورون؛ بغضّ النظر عن عدد المرّات التي تناحرا فيها في ذلك الوقت، فهو أنّ أيّاً كان مَن يسكن أو سيسكن في المنزل المجاور لهما فهو يميل إلى أن يكون أحمقَ من دون نقاش.

في نهاية الثمانينيات، اشترى المنزل رجلٌ كان يبدو عليه أنّه مدير مصرف أو شيءٌ من هذا القبيل؛ كنوع من «الاستثمار»، وسمعه أوڤ يتباهى أمام الوكيل العقاري. وبدوره، قام بتأجير المنزل لسلسلة من المستأجرين في السنين التي تلت. وفي صيف إحدى تلك السنين، قام بتأجيره لثلاثة شباب تجرّأوا على محاولة إعادة تحديد المكان كمنطقة حرّة؛ حيث يحصل استعراض حقيقيّ لمدمني المخدّرات،

والعاهرات، والعناصر الإجراميّة. كانت الحفلات تقام على مدار الساعة، وزجاج قناني الشراب المكسورة يغطّي الممشى الضيّق بين المنازل ويبدو أشبه برقائق ورقيّة، والموسيقى تضجّ بصخبٍ سقطت على أثره مرّةً الصور المعلّقة على حائط غرفة جلوس أوف وصونيا.

وحين دخل عليهم أوف ليضع حدّاً لهذا الإزعاج، تهكّم عليه الشبّان. وعندما رفض المغادرة، هدّده أحدهم بخنجر. حينها حاولت صونيا جعلهم يرون الأمور بعين العقل، وفي اليوم التالي أطلقوا عليها لقب «حقيبة قديمة معطوبة». وفي المساء الذي تلا ذلك، جعلو الموسيقى تدوّي بصوتٍ صاخب أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وحين وقفت أنيتا في الخارج، في يأسٍ كامل من الوضع، وصرخت فيهم، رموا زجاجةً نحوها فاخترقت مباشرةً نافذة غرفة الجلوس في منزلهما هي ورون.

فكان ذلك بالتأكيد فكرة سيّئة جدّاً.

فعلى الفور، بدأ أوف العمل على خطط للانتقام، وذلك من خلال مراقبة الأعمال الماليّة الخاصّة بمالك المنزل. ثم اتّصل بمحامين وبمصلحة الضرائب لإيقاف رخصة إيجار المنزل، وعمد إلى المثابرة في هذه القضيّة حتّى لو كان مضطراً إلى «إيصالها إلى المحكمة العليا»، كما قال لصونيا. لكنْ لم يكنْ لديه الوقت الكافي لترجمة هذه الفكرة على أرض الواقع.

ففي وقتٍ متأخّر من إحدى الليالي، رأى رون يمشي باتّجاه موقف السيّارات حاملاً مفاتيح سيّارته. وعندما عاد، كان يحمل كيساً لم يتمكّن أوف من تحديد محتواه. وفي اليوم التالي، جاءت الشرطة وقبضت على الشبّان الثلاثة وكبّلتهم، بتهمة حيازة كمّية هائلة من المخدّرات التي وُجدت في سقيفة منزلهم؛ بعد تلقي الشرطة بلاغاً مجهول المصدر.

كان أوف ورون كلاهما واقفين في الشارع عندما حدث الأمر، فتلاقت نظراتهما، وحكّ أوف ذقنه.

«أنا، لا أعرف حتّى من أين أشتري المخدّرات في هذه البلدة». قال أوف.

«من الشارع خلف محطّة القطار». أجاب رون ويداه في جيبَي سرواله، ثم أضاف مبتسماً: «على الأقلّ، هذا ما سمعته».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هزّ أوف رأسه، ووقفا مبتسمين هناك في السكون لوقتٍ طويل.

وفي النهاية، سأل أوف: «كيف حال السيّارة معك؟».

فابتسم رون وأجاب: «مثل ساعةٍ سويسريّة».

بقيا على وفاقٍ جيّد لمدّة شهرين بعد ذلك. ثمّ تشاجرا مجدّداً بالطبع حول نظام التدفئة. لكنّ الوضع كان جميلاً عندما طال على هذا النحو؛ على حدّ قول أنيتا.

أتى مستأجرون وذهبوا في السنوات التي تلت، وأغلبهم قُوبلوا بكمٍّ مفاجئ من الرفق والقبول من جهة أوف ورون.

في صيف إحدى السنوات في منتصف التسعينيات، انتقلتْ للسكن هناك امرأة مع ولدٍ بدين في سنّ التاسعة تقريباً، وسرعان ما تعلّقت بهما صونيا وأنيتا. فقد هجرهما والد الصبيّ عندما كان ابنه طفلاً رضيعاً؛ كما أخبرت صونيا وأنيتا. رجلٌ ثخين العنق في الأربعين من عمره سكن معهما حينها، وحاولت المرأتان تجنّبه لأطول فترة ممكنة؛ كان حبيب تلك المرأة الجديد. نادراً ما كان يتواجد في المنزل، ومن ناحيتهما تجنّبت صونيا وأنيتا طرح الكثير من الأسئلة، وافترضتا أنّ المرأة رأت فيه خصالاً لم تفهماها ربّما. «لقد اعتنى بنا، وتعرفان كيف هو الوضع، ليس من السهل أن تكون المرأة أمّاً عزباء». قالت مبتسمة بشجاعة إلى حدٍّ ما، فيما تركت المرأتان من المنزلين المجاورين الأمر عند ذلك الحدّ.

في المرّة الأولى التي سمعتا فيها الرجل ثخين العنق يصرخ، ووصل إليهما الصوت عبر الجدران قرّرتا أنّه على كلّ شخص أن يهتمّ بشؤونه الخاصّة داخل بيته. وفي المرّة الثانية، فكّرتا في أنّ كلّ العائلات تتشاجر في ما بينها أحياناً، وأنّ ذلك ربّما لم يكن يتخطّى بجدّيّته الشجار.

وعندما غاب الرجل ثخين العنق مجدّداً، دعتْ صونيا المرأة والفتى الصغير إلى شرب القهوة. وحينها، شرحت المرأة بضحكة متكلّفة أنّ الكدمات سببها أنّها فتحت باب خزانة المطبخ بسرعةٍ فائقة. في ذلك المساء، التقى رون الرجل ثخين العنق في موقف السيّارات، وكان قد خرج من سيّارته بطريقة تشير بوضوح إلى أنه ثمل.

في الليلتين اللتين تلتا، سمعت المنازل المجاورة من كلتا الجهتين مصادفةً كيف كان الرجل يصرخ في الداخل هناك، والأشياء تُرمى على الأرض. وسمع الجميع المرأة وهي تبكي من شدة ألمها. وعندما عَبَرَ الجدران صوتُ نحيب الفتى البالغ من العمر تسع سنوات، متوسّلاً إيّاه للتوقّف، خرج أوف ووقف أمام منزله. أمّا رون فكان ينتظر.

كانا في خصمٍ أشرس وأعنف صراعاتهما في الفريق التوجيهي في جمعية السكان المقيمين. حتّى إنّهما لم يتحدّثا إلى بعضهما بعضاً منذ عامٍ تقريباً. حينها، اكتفى كلٌّ منهما بإلقاء نظرة سريعة على الآخر، ثمّ عادا إلى منزليهما من دون التفوّه بكلمة. بعد دقيقتين، التقيا بكامل لباسهما على الجبهة. قرعا الجرس، فهاجمهما المجرم بمجرّد أن فتح الباب، بيد أنّ أوف ضربه بقبضة يده على جسر أنفه. فقد الرجل توازنه ووقع على الأرض، ثم نهض وانتزع سكّيناً من المطبخ، وركض باتّجاه أوف. غير أنه لم يصل إلى هناك مطلقاً، إذ سحقته لكمة رون القاضية مثل مطرقة. ففي شبابه، كانت بنية رون ذاك لا يُستهان بها، ومن غير الحكمة التورّط في ملاكمة معه.

في اليوم التالي، رحل الرجل عن الحيّ ولم يَعُد إلى هناك قط. ومكثت المرأة لدى أنيتا ورون لمدة أسبوعين قبل أن تتجرأ على العودة إلى منزلها مع ابنها. ثمّ ذهب رون وأوف إلى البلدة وقصدا المصرف. وفي المساء، شرحت صونيا وأنيتا للمرأة أنّه بإمكانها اعتبار المبلغ المالي هدّيةً أو قرضاً؛ أيّاً كان ما تفضّله. لكنّ القبول به كان غير خاضع للنقاش. وهكذا كان. بقيت المرأة في المنزل مع ابنها الذي كان فتىً صغيراً وبديناً يهوى اللعب على الحاسوب، وكان يُدعى جيمي.

الآن، انحنى أوف وحدّق إلى القبر بجدّيّة.

«لقد فكّرتُ ببساطة أنّه كان لديّ المزيد من الوقت، بطريقةٍ ما. لفعل... كلّ شيء».

إنها لا تجيب.

«أعرف كيف تشعرين حيال افتعالي المشاكل صونيا. لكنْ هذه المرّة يجب أن تفهمي. إذ لا يمكن استخدام المنطق مع أمثال أولئك الناس».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لكز راحة يده بإبهامه. بقي القبر على حاله من دون أن تصدر عنه كلمة واحدة، لكنّ أوف لا يحتاج إلى كلمات لمعرفة ما كانت ستفكّر فيه. فلطالما كانت مقارَبة الصمت حيلتَها المفضّلة عندما كانت الشجارات تحصل بينهما. سواء أكانت حيّة أو ميتة.

في ذلك الصباح، اتّصل أوف بهيئة الخدمات الاجتماعيّة أو أيّاً كان اسمها. اتّصل من منزل پارڤانيه لأنّ خطّ هاتفه لم يَعُد يعمل، ونصحته پارڤانيه بأن يكون «ودوداً وليّناً». لم يبدأ الأمر على أحسن حال، لأنّه تمّ إيصاله «بالموظّف المسؤول»؛ رجل السيجارة في القميص الأبيض. أظهر الرجل درجةً واضحةً من الانفعال بخصوص سيّارة السكودا البيضاء الصغيرة التي كانت لا تزال مركونة أسفل الطريق أمام منزل رون وأنيتا. وبالطبع، كان يمكن لأوف أن يهيّئ لطريقة تفاوضٍ أفضل لو اعتذر منه على الفور، وحتّى ربّما لو اعترف بأسفه على وضع الرجل ذي القميص الأبيض عن قصد في هذا الموقف الخارج عن كلّ ما له علاقة بالسيّارات. ولكان ذلك بالتأكيد أفضل من الطريقة البديلة التي تُرجمت بالهمس له باستهجان: «إذاً، ربّما تعلّمت الآن قراءة اللافتات! جاهلٌ حقير!».

اقتضت خطوة أوف التالية إقناع الرجل بأنّه لا يجب وضع رون في مأوى. وأخبر الرجل أوف بأنّ قوله «جاهلٌ حقير!» كان خياراً سيّئاً للكلمات لطرح ذلك الموضوع. بعد ذلك، أُطلقت سلسلة طويلة من العبارات غير المهذّبة من الجهتين، قبل أن يعلن أوف بصريح العبارة أنّه لا يمكن أن تجري الأمور على هذا النحو. إذ لا يمكن ظهور أحدهم فجأةً، واقتلاعه الناس من بيوتهم ونقلهم إلى مؤسّسات؛ أيّاً كانت الطريقة، فقط بحجّة أنّ الذاكرة لديهم بدأت تضعف قليلاً. أجاب الرجل في الجهة المقابلة ببرودة قائلاً إنّه لا يهمّ كثيراً أين سيضعون رون حينها «في الوضع الذي كان عليه»، لأنّ الأمر بالنسبة إليه كان «سيشكّل على الأرجح فرقاً طفيفاً؛ نظراً إلى الحالة التي آلَ إليها». فردّ أوف عليه بسلسلة من الإهانات، ثمّ تلفّظ رجل القميص الأبيض بشيء سخيف جدّاً، إذ قال:

«لقد اتُّخذ القرار. كان التحقيق جارياً على مدى سنتين. ولا شيء بإمكانك فعله الآن، أوف. لا شيء. مطلقاً».

ثمّ أنهى الاتصال.

نظر أوف إلى پارڤانيه، ثمّ إلى پاتريك. وبعد ذلك، ضرب بعنف هاتف پارڤانيه الخلويّ على طاولة المطبخ، صارخاً أنّهم باتوا يحتاجون إلى «خطّة جديدة! على الفورا». بدت پارڤانيه غير راضية على الإطلاق، فيما هزّ پاتريك رأسه فوراً، وأمسك بعكّازيه وخرج بعجلة وهو يعرج في مشيته؛ كما لو كان ينتظر أن ينطق أوف بذلك. بعد خمس دقائق، لخيبة أمل أوف الشديدة، عاد ومعه ذلك المغفّل آندرز من المنزل المجاورِ، يرافقهما جيمي وهو مفعم بالابتهاج.

«ما الذي يفعله هذا هنا؟». قال أوف مشيراً إلى آندرز.

فأجاب پاتريك، ملمّحاً إلى الرجل المتأنّق، وهو يبدو راضياً جداً عن نفسه: «اعتقدتُ أنّك تريد خطّة».

وصرخ جيمي: «آندرز هو خطّتنا!».

نظر آندرز حوله في الرواق بقليلٍ من الغرابة، وهو مقتنع- ولو قليلاً حسبما كان يبدو- بردّة فعل أوف. بيد أنّ پاتريك وجيمي دفعاه بإصرار إلى غرفة الجلوس.

حثّه پاتريك بقوله: «هيّا، أخبره».

«بماذا يخبرني؟».

«حسناً، لقد سمعتُ أنّك تواجه بعض المشاكل مع صاحب تلك السكودا، أليس كذلك؟». شرع آندرز بكلامه موجّهاً نظرة خاطفة إلى پاتريك لا تخلو من الانفعال. فأومأ له أوف وقد نفد صبره كي يكمل ما لديه ليقوله.

«حسناً، لا أظنّ أنّني أخبرتك يوماً أيّ نوعٍ من الشركات أدير، هل فعلت؟». أكمل آندرز حديثه بتردّد.

فوضع أوف يديه في جيبَي سرواله، معتمداً وضعيّةً أكثر استرخاءً بعض الشيء. ثمّ أخبره آندرز. وحتّى أوف كان عليه الاعتراف بأنّها كانت أكثر من فرصة مناسبة.

«أين تحتفظ بتلك الشقراء الجميلة؟»، شرع قائلاً بعدما أنهى آندرز حديثه، ولكنّه عاد وكبح نفسه عندما ركلته پارڤانيه، فصحح كلامه قائلاً: «رفيقتك».

«آه، لقد افترقنا. رحلت من هنا». قال آندرز ملقياً نظرةً إلى حذائه.

عندئذٍ، كان عليه أن يشرح كيف أصبحت- على ما يبدو- تستاء قليلاً من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تناحر أوف المبالَغ فيه معها ومع الكلب. لكنّ انزعاجها من ذلك، كما أضاف، كان أخفّ وطأةً عليها مقارنةً مع انفعالها بشدّة عندما اكتشف آندرز أنّ أوف كان يطلق على كلبها لقب «كلب مهجّن»، ولم يستطع آندرز تمالك نفسه، فبدأ يضحك من دون توقف.

وهكذا، عندما ظهر رجل السيجارة الشهيرة والقميص الأبيض في شارعهم بعد ظهر ذلك اليوم، يرافقه ضابط شرطة، لمطالبة أوف بإطلاق سراح سيّارة السكودا البيضاء، كانت كل من الشاحنة والسكودا البيضاء قد اختفتا. وقف أوف خارج منزله ويداه مدسوستان بهدوء في جيبَي سرواله، فيما فقد خصمه رباطة جأشه كليّاً وبدأ يطلق عليه الشتائم. عندها، أصرّ أوف على أنّه لم تكن لديه أدنى فكرة عن كيفيّة حدوث ذلك، إلّا أنّه أشار بطريقة وديّة إلى أن لا شيء من ذلك كان سيحدث لو أنه احترم فقط اللافتة التي تقول بوضوح إنّ ركن السيّارات في تلك المنطقة محظور. كان من الواضح أنّه أهمل تفصيل أنّ آندرز كان يملك شركة لقطر المركبات، وأنّ إحدى شاحنات القطر لديه قد نقلت السكودا عند الظهيرة، ثمّ وضعتها في حفرة حصى كبيرة على بعد أربعين كيلومتراً خارج المدينة. وعندما سأل ضابط الشرطة بحذاقة عمّا إذا كان أوف فعلاً لم يرَ شيئاً، نظر أوف مباشرةً إلى عينَي رجل القميص الأبيض وأجاب:

«لا أعلم. ربّما نسيت. إذ يبدأ المرء بفقدان الذاكرة في مثل سنّي».

وعندما نظر الشرطي حوله، ثمّ تساءل لِمَ كان أوف يقف هنا في الشارع إذا لم يكن لديه ضلعٌ في اختفاء السكودا، اكتفى أوف بهزّ كتفيه بسذاجةٍ محدّقاً إلى رجل القميص الأبيض، ثم قال:

«ما من خبر جيّد بعدُ على التلفاز».

ظهر الغضب على وجه الرجل، إذ تلوّن وجهه وبات- إنْ صحّ الكلام- أكثر بياضاً من قميصه. استشاط غيظاً، وثار قائلاً إنّ الأمر «أبعد ما يكون عن الانتهاء». وبالطبع، هذا ما حصل. فبعد ساعة واحدة فقط، فتحت أنيتا الباب لساعٍ سلّمها برقيّة مسجّلة من هيئة الخدمات، موقّعة ومصدّقة، وفيها تحديد لساعة «النقل إلى بيت الرعاية» وتاريخه.

والآن، يقف أوف بالقرب من ضريح صونيا، ويحاول إيجاد طريقة لقول شيء ما يعبّر عن شدة أسفه.

«تُثار مشـاعرك بشـدّةٍ لعينة عندما أتعارك مع الناس، أعرف ذلك. لكنّ حقيقة الأمر هي كالتالي. سيكون عليك فقط الانتظار قليلاً لفترة أطوَل حتّى أُلاقيكِ. فليس من المناسب بالنسبة إليّ أن أموت حاليّاً».

ثمّ انتشل الأزهار الورديّة القديمة والمجلّدة من التراب، وزرع تلك الجديدة. وبعد ذلك نهض، وطوى كرسيه، وسار باتّجاه موقف السيّارات وهو يتمتم شيئاً ما يبدو أشبه بـقوله: «لأنّ هناك حرباً دائرة».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

35

رجلٌ يُدعى أوف
وعجز الخدمات الاجتماعيّة

عندما تهرع پارڤانيه والهلع يملأ عينيها مباشرةً إلى داخل رواق منزل أوف، وتكمل طريقها باتّجاه الحمّام من دون أن تتكبّد عناء قول «صباح الخير»، يتساءل أوف كيف أنّ شخصاً ما يصبح بحاجة ملحّة إلى قضاء حاجته على مسافة عشرين ثانية من منزله. لكن، «لا شيء يضاهي على الإطلاق وضع المرأة الحامل في حالاتها الطارئة»؛ كما أخبرته صونيا في إحدى المرّات. لذا، أبقى فمه مغلقاً.

قال الجيران إنّه بات في الآونة الأخيرة «شخصاً مختلفاً»، فهم لم يروه مطلقاً من قبل بهذا «الالتزام». لكنّ أوف شرح الأمر بانفعال قائلاً إن سبب شعورهم هذا هو فقط لأنّه لم يقحم نفسه البتّة في شؤونهم الخاصّة من قبل، ولكنه لطالما كان شخصاً «ملتزماً» لعيناً.

وقال پاتريك إنّ الطريقة التي يمشي فيها بين المنازل ويطرق فيها الأبواب طوال الوقت أشبه بطريقة «رجل آليّ من المستقبل، حانق جدّاً، ويسعى إلى الانتقام». فلم يفهم أوف ما عناه بذلك. ولكنّه في كلّ الأحوال أمضى في إحدى الليالي ساعاتٍ وهو جالس مع پارڤانيه وپاتريك والطفلتين، فيما حاول پاتريك جاهداً ردع أوف عن ترك بصماته على كامل شاشة الحاسوب كلّما أراد أن يريهم شيئاً. جيمي، وميرساد، وأدريان، وآندرز كانوا هناك أيضاً. حاول جيمي مراراً

جعل الكلّ يطلقون على مطبخ پارڤانيه وپاتريك اسم «نجمة الموت»، وعلى أوف «دارث أوف»[1]. لقد فكّروا في عددٍ لا يحصى من الخطط على مدى الأيّام الماضية الأخيرة– من ضمنها زرع الماريجوانا في سقيفة منزل رجل القميص الأبيض، كما كان رون سيقترح– لكنْ، بعد بضع ليالٍ، بدا على أوف الاستسلام، وهزّ رأسه بتجهّم، ثم طلب إذناً باستخدام الهاتف، وانسحب إلى الغرفة المجاورة لإجراء اتّصال.

لم يَرُق له فعل ذلك. لكنْ، عندما تكون هناك حرب دائرة، فستكون هناك حرب.

خرجت پارڤانيه من الحمّام، فبادرها أوف متعجّباً، كما لو كان يتوقّع أن يكون ذلك بمثابة استراحة بين الشوطين: «هل أنهيت؟».

هزّت رأسها. ولكنْ فيما كانا في طريقهما للخروج من الباب، لاحظت شيئاً في غرفة الجلوس فتوقّفت. كان أوف واقفاً عند العتبة، إلّا أنّه عرف جيّداً ما تحدّق إليه.

«إنّه... تبّاً! ماذا هناك بحقّ الله؟ إنّه ليس شيئاً مهمّاً». تمتم ملوّحاً لها بيده للخروج.

وعندما أبت أن تتحرّك، وجّه ركلة قويّة إلى زاوية إطار الباب.

«كنت فقط أجمع الغبار. لقد صقلته بورق الزجاج، وطليته مجدداً، ثمّ مرّرتُ طبقة أخرى من الطلاء عليه؛ هذا كلّ شيء. ليس بالأمر المهمّ اللعين». دمدم بغيظ.

«آه، أوف». همست پارڤانيه.

شغل أوف نفسه بالتحقّق من عتبة الباب وذلك بتوجيهه بضع ركلات إليها، ثم تمتم: «بإمكاننا فركه وإعادة طليه باللون الزهري. أقصد إذا كانت فتاة».

ثم تنحنح قبل أن يتابع:

«وحتّى إذا كان المولود صبيّاً يمكننا فعل ذلك؛ إذ يستطيع الصبية في أيّامنا

(1) دارث: هي تعريب كلمة Darth الإنكليزية، والتي تعني "سيّد قوّة الظلام". وقد استخدمت في تسمية شخصيات فيلم "ستار وورز".

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذه الحصول على اللون الزّهري، أليس كذلك؟».

نظرت پارڤانيه إلى مهد الطفل ذي اللون الأزرق الفاتح، ويدها تغطّي فمها.

«إذا كنتِ ستبدئين بالبكاء فلن تحصلي عليه». حذّرها أوف.

وحين بدأت بالبكاء رغم تحذيره، تنهّد أوف وهو يفكّر في سرّه أن «النساء مخبولات»، ثمّ أدار لها ظهره، وبدأ بالتوجّه إلى الشارع.

بعد نصف ساعة تقريباً، أطفأ رجل القميص الأبيض سيجارته بحذائه، وطرق بقوّة على باب أنيتا ورون. لقد اصطحب معه ثلاثة شباب يرتدون ثياب التمريض، كما لو كان يتوقّع مقاومةً عنيفة. وعندما فتحت أنيتا المسكينة الباب، بدا الخجل عارماً على وجوه الشباب الثلاثة أكثر من أيّ شيء آخر، لكنّ رجل القميص الأبيض خطا خطوةً نحوها وهو يلوّح بوثيقته في الهواء؛ كما لو أنه يحمل فأساً في يده.

«لقد حان الوقت». أخبرها بنفاد صبرٍ، وحاول دخول الرواق.

لكنّها وقفت في طريقه؛ بقدر ما يستطيع شخصٌ بمثل حجمها الوقوف في درب أحدهم.

«كلّا!». قالت من دون أن تتزحزح من مكانها إنشاً واحداً.

عندها، توقّف رجل القميص الأبيض ونظر إليها، ثم هزّ رأسه لها بكَلل وشدّ الجلد حول طرفَي أنفه.

«كانت أمامك سنتان للقيام بالأمر بالطريقة الأكثر سهولة أنيتا. أمّا الآن، فقد اتُّخذ القرار. وعند هذا الحدّ يقف كلّ شيء».

حاول أن يتجاوزها مجدّداً، ولكنّ أنيتا لم تبارح العتبة، صامدةً كتمثال حجريّ قديم.

أخذت نفساً عميقاً من دون أن تحيد بنظرها عن عينيه، وقالت له وهي تبكي وصوتها يرتجف من شدة الأسى:

«أيّ حبٍّ هذا أن تتخلّى عن شخص تحبه في وقت الشدّة؟ أن تتخلّى عنه تحت الضغط؟ أخبرني، أيّ حبٍّ هو هذا!؟».

عضّ الرجل شفتيه، فبدا عصبان مشدودان حول عظمتَي خدّيه، ثم قال:

«رون يقضي نصف وقته من دون أن يعرف أين هو حتى، والتحقيق أظهر أنّ...»

«لكن، **أنا أعرف!**». قاطعته أنيتا، وأشارت إلى الممرّضين الثلاثة وهي تصرخ في وجوههم باكيةً: «**أنا أعرف!**».

«ومَن سيعتني به يا أنيتا؟». سأل ببلاغة متكلّفة وهو يهزّ رأسه. ثمّ قام بخطوةٍ إلى الأمام وهو يومئ للممرّضين الثلاثة ليتبعوه إلى داخل المنزل.

«أنا سوف أعتني به!». أجابت أنيتا بنظرة يائسة.

اكتفى رجل القميص الأبيض بهزّ رأسه وهو يحاول أن يجد طريقاً للمرور. وفقط حينها رأى الظلّ وراءها.

«وأنا أيضاً». قال أوف.

«وأنا أيضاً». قالت پارڤانيه.

«وأنا». قال كل من پاتريك، وجيمي، وآندرز، وأدريان، وميرساد بصوت واحد فيما كانوا يشقّون طريقهم نحو الرواق حتّى كادوا يقعون فوق بعضهم بعضاً.

توقّف رجل القميص الأبيض عن الحركة، وضاقت عيناه.

فجأةً، ظهرت بجانبه امرأةٌ مرتدية سروال جينز ممزّقاً وسترة واقية كبيرة باللون الأخضر، وهي تحمل في يدها آلة تسجيل.

أعلنت لينا: «جئتُ من الجريدة المحلّية، وأودّ أن أطرح عليك بعض الأسئلة».

نظر رجل القميص الأبيض إليها مطوّلاً، ثمّ نقل نظره نحو أوف. حدّق الرجلان إلى بعضهما بعضاً بصمت، فيما أخرجت الصحافيّة لينا كومة أوراق من حقيبتها، وحشرتها بين ذراعيه قائلة:

«هذه لائحة بكلّ المرضى الذين كنت مكلّفاً بهم أنت وقسمك في السنوات الماضية الأخيرة؛ إنها تتضمن أسماء كلّ الأشخاص أمثال رون الذين أُخذوا إلى دار الرعاية، ووُضعوا في بيوت الراحة ضدّ رغبتهم ورغبة عائلاتهم، وكلّ الخروقات القانونيّة التي جرت في بيوت الراحة حيث كنتَ مكلّفاً بتشخيص الحالات، وكلّ النقاط حيث لم تُحترم القواعد والإجراءات الصحيحة التي لم يتمّ النظر فيها».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قالت ذلك بنبرةٍ بدت كما لو أنها تحمل مفاتيح سيّارة ربحتها للتوّ، ثمّ أضافت بابتسامة:

«الأمر العظيم بشأن التدقيق عن كثبٍ في المسائل البيروقراطيّة عندما تكون صحافيّاً، كما ترى، هو أنّ البيروقراطيّين أنفسهم يبرزون على رأس الناس الذين يخرقون قوانين البيروقراطيّة دائماً».

لم ينظر رجل القميص الأبيض ولو نظرة واحدة إليها، بل واصل التحديق إلى أوڤ. ولم تصدر أي كلمة من أيٍّ من الطرفين. وببطء، أغلق رجل القميص الأبيض فكّيه.

عندها، تنحنح پاتريك الذي كان يقف خلف أوڤ، وقفز متكئاً على عكّازيه إلى الشارع، مشيراً إلى كومة الأوراق الموضوعة بين ذراعي الرجل.

«لقد حصلنا كذلك على كشف حسابك المصرفيّ منذ سبع سنواتٍ وحتّى الآن، وعلى كلّ بطاقات النقل بالقطار وبطاقات السفر التي ابتعتها بواسطة بطاقتك المصرفيّة، وكلّ الفنادق التي مكثت فيها، وكلّ تاريخ بحثك عبر الإنترنت من حاسوب عملك، وكلّ المراسلات الإلكترونيّة؛ المهنيّة منها والشخصيّة...»

راحت عينا رجل القميص الأبيض تتحركان يميناً ويساراً، واشتد إطباقه فكّيه على بعضهما، وصار وجهه شاحباً.

«لن يكون هناك شيءٌ قد ترغب في إخفائه». قالت لينا مبتسمة بتكلف.

فأكد پاتريك: «لا شيء».

«لكنْ، أنت تعرف...»

«حين تبدأ بنبش ماضي أحدهم...»

فتابعت لينا: «... فستجد عادةً شيئاً كان سيفضّل الاحتفاظ به لنفسه».

«شيئاً سيفضّل... أن ينسى أمره». أوضح پاتريك وهو يومئ برأسه نحو غرفة الجلوس، حيث يبرز رأس رون من أحد المقاعد.

كان التلفزيون مشغَّلاً هناك، وعبرت الباب رائحة قهوة مخمّرة وطازجة. رفع پاتريك أحد عكّازيه، موجّهاً به لكزةً خفيفة إلى كومة الأوراق بين ذراعَي الرجل، حتّى تساقطت بعض ندف الثلج على قميص الرجل الأبيض.

«لـو كنـت مكانـك، كنت سـألقي– بصـورة خاصّة– نظرة علـى تاريخ البحث الإلكترونيّ لديّ». شرح له.

عندهـا، وقـف الجميـع هناك؛ أنيتـا وپارڤانيه وتلك الصحافيّـة لينا، وپاتريك، وأوف، وجيمي، وآندرز، ورجل القميص الأبيض، والممرّضون الثلاثة في نوعٍ من الصمت الذي يحدث فقط خلال الثواني التي تسبق اللحظة التي يجب فيها على كلّ اللاعبين وضع أوراقهم على الطاولة.

أخيراً، بدأ رجل القميص الأبيض ببطء بتصفّح الأوراق المطروحة بين يديه.

«من أين حصلتِ على كلّ هذا الكلام الفارغ؟». همس باستهجان، رافعاً كتفيه حتّى مستوى عنقه.

«مـن **الإنترنـت!**». صـرخ أوف بغضـب مفاجئ فيما كان يخـرج من منزل أنيتا ورون وقبضتا يديه قرب خصره.

رفع رجل القميص الأبيض نظره إليه مجدّداً، فيما تنحنحت لينا وأشارت إلى كومة الأوراق بنية المساعدة.

«ربّما ليس هناك أيّ شـيء مخالف للقانون في كلّ هذه التسـجيلات، إلّا أنّ مسـؤولة التحريـر أكثـر مـن متأكّـدة من أنّه فـي ظلّ الملاحقة الإعلاميّـة الدقيقة قد يسـتغرق خضـوع قسـمك لـكلّ الإجـراءات القانونيّة أشـهراً، وأعوامـاً ربّما...» ثم وضعت يدها برفقٍ مجدّداً على كتف الرجل وتابعت هامسـة له: «لذا، أظنّ أنّه من الأسهل لجميع المعنيّين أن ترحل في الحال».

ثمّ، ولدهشة أوف الصادقة، فعل الرجل المغلوب على أمره ما طُلب منه. إذ أدار لهم ظهره ورحل، وتبعه الممرّضون الثلاثة. اتّجه نحو أوّل الشـارع، واختفى كما تفعل الظلال عندما تبلغ الشمس أوجها في السماء؛ أو مثل الأنذال في خواتيم القصص.

هزّت لينا رأسها لأوف راضيةً عن نفسها، وقالت له: «لقد أخبرتك بأنّ لا أحد يملك الجرأة على مواجهة الصحافيّين!».

فحشر أوف يديه في جيبَي سرواله.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«لا تنسَ ما وعدتني به». وابتسمت له.

فتنهّد أوف.

«في المناسبة، هل قرأتَ الرسالة التي أرسلتها إليك؟».

فهزّ رأسه نافياً.

«قمْ بذلك!». أصرّت عليه.

فأجاب أوف بشيء قد يكون إمّا «أجل، أجل»، أو زفيرَ غضب يخرج عبر فتحتَي أنفه. إنه جوابٌ يصعب الحكم عليه.

قبل ساعة من مغادرة أوف المنزل، كان يجلس في غرفة الجلوس، ويتحدّث بهدوء وعلى انفراد مع رون لفترة طويلة. لأنّهما هو ورون بحاجةٍ إلى «التحدّث من دون تشويش»، كما شرح أوف بانفعال وهو يقود پارڤانيه وأنيتا وپاتريك إلى المطبخ.

لو لم تكن أنيتا على أفضل دراية بالأمر، لكانت قد أقسمت على أنّه في الدقائق التي تلت ذلك سمعت رون يضحك بصوتٍ عالٍ عدّة مرّات.

36

رجلٌ يُدعى أوف وزجاجة شراب

من الصعب أن يتقبل أحدهم فكرة أنّه على خطأ. وبالتحديد، إذا كان على خطأ لفترة طويلة من الزمن.

اعتادت صونيا على القول إنّ أوف لم يتقبّل فكرة أنّه كان على خطأ إلّا في مناسبة واحدة طوال سني زواجهما، وكان ذلك في أوائل الثمانينيات بعدما اتّفق معها على أمرٍ اتّضح لاحقاً أنّه غير سليم. أوف بنفسه أصرّ على أنّه كان كذبة، كذبةً لعينة. بحسب التعريف، لقد تقبّل فقط فكرة أنّها كانت هي المخطئة، وليس هو.

كانت تقول صونيا دائماً: «أن تحبّ شخصاً أشبه بالانتقال إلى منزل جديد. ففي البداية، تقع في حبّ كلّ الأشياء الجديدة، مندهشاً كلّ صباح من أنّ كلّ هذا يخصّك؛ كما لو كنت خائفاً من أن يأتي أحدهم فجأة ويقتحم الباب ليقول لك إنّ خطأً فظيعاً قد حصل، وإنّه لم يكن مقدّراً لك في الواقع العيش في مكان رائع كهذا. ثمّ على مرّ السنوات تتقشّر الجدران، ويتشقّق الخشب هنا وهناك، وتبدأ بحبّ ذلك البيت كثيراً؛ ليس بسبب كلّ حسناته، وإنّما بالأحرى بسبب علّاته. وشيئاً فشيئاً، تصبح على معرفةٍ بكلّ ركنٍ من أركانه وزاويةٍ من زواياه، وكيف تتجنّب نسيان المفتاح داخل القفل عندما يكون الطقس بارداً في الخارج، وأيّ من ألواح الأرضيّة يتحرك قليلاً عندما يدوس عليه أحدهم، أو بالضبط كيف تفتح باب خزانة الملابس من دون إحداث صرير. هذه هي الأسرار الصغيرة التي تجعل منه منزلك».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أوف، بالطبع، اعتقد أنّه يمثّل باب خزانة الملابس في هذا التشبيه. ومن وقتٍ إلى آخر، كان يسـمع صونيا تمتم عندما تغضب منه: «أحياناً أتسـاءل إن كان هناك أيّ شـيء يمكن فعله عندما تكون الأساسـات متزعزعة في الأصل». وكان يعرف تماماً ما كانت ترمي إليه.

«أقول فقط إنّه يعتمد من دون شكّ على مصروف محرّك الديزِل وكم يحرق في الكيلومتر الواحد». قالت پارڤانيه من دون تفكير، وهي تبطئ من سرعة السيّارة عند الإشارة الحمراء وتحاول، مُهَمهِمةً، تعديل وضعيّتها على مقعدها.

نظر أوف إليها بخيبة أمل لا حدود لها، كما لو أنّها لم تُنصِت إلى أيّ شـيء قاله لها سـابقاً. لقد بذل مجهوداً لتعليم هذه المرأة الحامل أساسـيّات اقتناء سـيّارة وشـروط ذلـك. لقـد شـرح لها أنّـه يجب تغيير السـيّارة كلّ ثلاث سـنوات لتجنّب خسارة المال. لقد مرّ بالصعوبات التي يعيها كلّ الأشخاص الذين لا يفقهون شيئاً، أيْ أنّه يجب القيادة على الأقلّ عشرين ألف كيلومتر في السنة لتوفير أكبر قدر من المـال، عـن طريـق اختيـار محـرّك الديزِل بدلاً من محرّك البنزيـن. وما الذي تفعله هي؟ تبدأ بالثرثرة، وتجادل كعادتها، وتناقش أموراً مثل «بالطبع أنت لا توفّر المال من خلال شراء سيّارة جديدة»، وأنّه يجب أن يعتمد ذلك على «سعر السيّارة»، ثمّ تسأل «لماذا؟».

«حسـناً». قالت پارڤانيه وهي تحرّك عينيها بطريقة جعلت أوف يشـكّ في أنّها لا تتقبّل حكمه في هذا الموضوع كما يُتوقَّع منها منطقيّاً.

بعد دقائق قليلة، أوقفت السـيّارة في الموقف في الجهة المقابلة من الشـارع، وقالت له: «سأنتظر هنا».

فأمرها أوف: «لا تلمسي أزرار الراديو».

«كما لو أنني كنت سأفعل!». شهقت مبتسمة بابتسامة بدأ أوف يتأفّف منها في الأسابيع القليلة الماضية.

ثم أضافت: «كان مرورك لزيارتنا البارحة أمراً رائعاً».

فردّ أوف بأحد تلك الأصوات التي لا تشبه الكلمات، فربّتت على ركبته.

«تفرح الفتاتان عندما تزورنا. إنهما تحبّانك!».

خرج أوف من السيّارة من دون أن يجيب. لم تكن وجبة الأمس سيّئة، وبإمكانه الدخول في التفاصيل للاعتراف بذلك؛ على الرغم من أنّ أوف لا يشعر بالحاجة إلى بدء مناقشة طويلة حول الطبخ، كما تفعل پارڤانيه. اللحمة والبطاطس والصلصة تتلاءم معاً تماماً. ولكنْ إذا أراد تعقيد الأمور كما تفعل هي، فقد يوافق على أنّ الأرزّ المطبوخ بالزعفران صالح للأكل. إنّه كذلك. لذا، تناول حصّتين منه. والهرّ حصل على حصّة ونصف.

بعد العشاء، فيما كان پاتريك يغتسل، طالبت طفلة السنوات الثلاث بأن يقرأ لها أوف قصّة المساء. وجد أوف التفاهم مع القزمة الصغيرة صعباً، لأنّه لا يبدو عليها أنّها تستوعب النقاش العاديّ. لذا، رافقها رغماً عنه عبر الرواق باتّجاه غرفتها، وجلس على حافّة سريرها وهو يقرأ لها «بحماسة أوف» المعتادة– كما وصفتها پارڤانيه مرّةً– بيد أنّ أوف لم يفهم حينها البتّة ما كانت تقصده بذلك. وعندما غفت الطفلة وقسمٌ من رأسها على ذراعه والقسم الآخر على الكتاب المفتوح، وضع أوف كليهما هي والهرّ في السرير، وأطفأ المصباح.

في طريق عودته عبر الرواق مرّ بالقرب من غرفة نوم ابنة السنوات السبع. كانت تجلس أمام حاسوبها بالطبع، وتنقر عليه وتواصل النقر. بدا ذلك ما قد يفعله كلّ الأولاد في هذه الأيام بحسب مفهوم أوف. لقد شرح له پاتريك أنّه حاول «إعطاءها ألعاباً جديدة، إلّا أنّها أبت اللعب إلّا بتلك اللعبة»، ما جعل أوف يميل أكثر إلى ابنة السنوات السبع وإلى لعبة حاسوبها. فقد أحبّ أوف الأشخاص الذين لا يفعلون ما يطلبه منهم پاتريك.

كانت الرسوم تملأ جدران غرفتها في كلّ مكان. وهي رسوم تصويريّة بالأبيض والأسود مخطّطة بقلم الرصاص، في معظمها. لم تكن سيّئة مطلقاً، باعتبار أنّها ابتُكرت في غياب القدرات الاستنتاجيّة، ومن خلال محرِّك وظيفيّ غير متطوّر لطفلةٍ لم تتخطَّ سبع سنوات؛ كان أوف على وشك الاعتراف بذلك. لم تكن أيّ منها تصوّر أناساً، وإنما بيوتاً فقط. ووجد أوف ذلك ممتعاً للغاية.

دخل الغرفة، ووقف بالقرب منها. رفعت نظرها عن الحاسوب بتعابير وجهٍ عنيدة لطالما رافقتها. وفي الواقع، لم تبدُ مسرورة جدّاً بوجوده. لكنْ عندما بقي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أوف حيث كان واقفاً، أشارت بإصبعها إلى صندوق مقلوبٍ رأساً على عقب على الأرض، ومصنوع من البلاستيك. وحين جلس أوف عليه، بدأت رويداً رويداً تشرح له أنّ اللعبة كانت حول بناء البيوت، ثمّ إنشاء مدنٍ حول البيوت.

«أحبّ المنازل». تمتمت بهدوء.

نظر إليها أوف، فبادلته النظرات. وضع أوف سبابته على الشاشة، تاركاً عليها بصمة إصبع كبيرة، ومشيراً إلى مساحة فارغة في المدينة، وسائلاً إيّاها عما سيحصل لو نقرت على تلك البقعة. عندها، حرّكت المؤشّر باتّجاهها ونقرت، وبسرعة البرق شيّد الحاسوب منزلاً هناك. بدا أوف متعجّباً بوضوح من الأمر، ثمّ حسّن وضعيّة جلوسه على الصندوق البلاستيكيّ وأشار إلى مساحة فارغة أخرى. وبعد ساعتين ونصف الساعة، دخلت پارڤانيه الغرفة بغضب، وهدّدتهما بسحب القابس في حال لم يتوقّفا فوراً عن فعل ما يفعلانه في هذا الوقت المتأخّر من الليل.

وبمجرّد أن وقف أوف في الرواق مستعدّاً للمغادرة، شدّت ابنة السنوات السبع أحد كمّي قميصه بحذر، وصوّبت إصبعها باتجاه رسمٍ على الحائط؛ تماماً بالقرب منه، وهمست له، كما لو أن ذلك سرّ بينها وبينه: «هذا منزلك».

هزّ أوف رأسه. ربّما لم تكن هاتان الطفلتان في النهاية من دون فائدة تماماً.

ترك پارڤانيه في موقف السيّارات، وعبر الشارع، وفتح الباب الزجاجيّ ودخل. المقهى فارغ. ومسخّن الهواء فوقه يختنق وكأنّه عابق بدخان السيجار. أمّا آمِيل فكان يقف خلف المنضدة في قميص ملطّخ، وهو يمسح الكؤوس بمنشفة بيضاء.

لقد غرق جسمه القصير الممتلئ في ثقله، فيما بدا على وجهه مزيج من الأسى العميق والغضب الذي لا يمكن مواساته؛ هذا المزيج الذي لا يفقهه إلّا رجالٌ من جيله ومن هذه البقعة من العالم. بقي أوف حيث هو، في وسط المقهى. تبادل الرجلان النظرات قرابة الدقيقة؛ أحدهما رجلٌ لا يستطيع إجبار نفسه على طرد شاب غير سوي من بيته، والآخر لا يستطيع كبح نفسه. وفي النهاية، هزّ أوف رأسه بتجهّم وجلس على أحد المقاعد.

وضع يديه فوق المنضدة، ووجّه إلى آمِيل نظرةً، ثم قال له:

«لن أرفض زجاجة الشراب تلك إذا كان العرض لا يزال سارياً».

ارتفع صدر آمِيل تحت قميصه الملطّخ وهبط بضع مرّات متتالية وهو يأخذ أنفاسه بتشنّج. في بادئ الأمر، بدا عليه وكأنّه يفكّر في فتح فمه، ولكنه سرعان ما أعاد التفكير في الأمر مجدّداً. أنهى مسح الكؤوس بصمتٍ، ثم لفّ المنشفة ووضعها بالقرب من آلة الإسبرسّو، وبعد ذلك اختفى في المطبخ من دون التلفّظ بكلمة. وعاد بعد قليل ومعه كأسان وزجاجة على ملصقها أحرفٌ لم يتمكّن أوف من قراءتها. وضعها على المنضدة بينهما.

من الصعب تقبُّل أحدهم فكرة أنّه على خطأ، وبالتحديد إذا كان على خطأ لفترة طويلة من الزمن.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

37

رجلٌ يُدعى أوف وأنذالٌ كُثر يحشرون أنوفهم في ما لا يخصّهم

«أنا آسف على ذلك». أصرّ أوف وهو يزيل الثلج عن الضريح. «لكنّك تعرفين كيف هي الأمور. لم يَعُد الناس يحترمون مطلقاً حرمة الآخرين الخاصّة. فهم يقتحمون منزلك من دون قرع الباب، ويسبّبون لأنفسهم شجاراً لا ينتهي. حتى إنه لا يمكنك الجلوس على كرسيّ المرحاض بسلام». شرح لها فيما كان يقتلع الأزهار المجلّدة من الأرض ويغرس تلك الجديدة في الثلج.

نظر إليها وكأنّه يتوقّع منها أن تعبّر عن موافقتها على ما يقوله. ولكنّها لم تفعل بالطبع. جلس الهرّ بالقرب من أوف على الثلج، وهو يبدو كما لو أنّه موافق تماماً على ما قاله للتوّ. وخصوصاً في ما يتعلق بعدم قدرة المرء على قضاء حاجته بسلام.

لقد مرّت لينا بمنزل أوف في الصباح لتسلّمه نسخة عن جريدة اليوم. كان يبدو في صورته الظاهرة على الصفحة الأولى كنموذج العجوز الحقير الغاضب. لقد التزم بوعده، وسمح لها بإجراء مقابلة معه، ولكنّه لم يبتسم للكاميرا كالقرد؛ وقد أطلعهم على ذلك مسبقاً وبصريح العبارة.

«إنّها مقابلة عظيمة!». أصرّت بفخر.

لم يُجِب أوف، ولكن ذلك لم يعنِ لها شيئاً على ما يبدو. بدت نافذة الصبر

وسريعة الخطى، فيما كانت تسترق النظر إلى ساعتها وكأنّها على عجلةٍ من أمرها.
«لا أريد أن أعطّلك». تمتم أوف.
فضحكت ضحكة مراهقين مكبوتة رداً على ذلك، ثم قالت:
«أنا وآندرز ذاهبان للتزلّج عند البحيرة!».
اكتفى أوف بالتعبير بإيماءة، معتبراً ذلك تأكيداً على أنّ الحديث قد انتهى، ثمّ أغلق الباب. وضع الجريدة تحت ممسحة الأرجل.
عاد إلى المطبخ، وبدأ بجمع كلّ الصحف الإعلانيّة وتلك المجّانيّة التي تركها عنده أدريان مع بريد اليوم (لقد نجحت صونيا في تعليم الحقير كيف يقرأ شكسبير، ولكنّه على ما يبدو لم يكن يفهم لافتة عليها ثلاث كلمات تقول **لا بريد ترويجيّ**).
وفي أسفل كومة الأوراق، وجد رسالة من لينا؛ تلك التي سلّمه إيّاها أدريان في المرّة الأولى حين قرع جرس بابه.
وقتها رن الفتى الجرس على الأقلّ، أمّا اليوم، فدخل البيت وخرج وكأنّه يعيش فيه! تذمّر أوف وهو يرفع الرسالة باتجاه مصباح المطبخ؛ كَمنْ يتفقّد ورقة نقديّة. ثمّ أخرج سكّين طعام من درج المطبخ؛ على الرغم من أنّ صونيا كان يجنّ جنونها كلّ مرّة كان يستخدم فيها سكّين طعام لفتح المغلّف بدلاً من استخدام فتّاحة الرسائل.

عزيزي أوف،

أرجو أن تعذر اتّصالي بك على هذا النحو. أخبرتني لينا من الجريدة أنّك لا تريد أن تعير المسألة اهتماماً أكثر ممّا تستحقّه، غير أنّها تكرّمت وأعطتني عنوانك، لأنّ هذه المسألة بالنسبة إليّ تستحقّ كلّ الاهتمام، ولا أريد أن أكون ذلك الشخص الذي لا يقولها لك بصراحة، أوف. أحترم أنّك لا ترغب في أن أشكرك شخصيّاً، لكنْ على الأقلّ أودّ أن أقدّمك إلى بضعة أشخاصٍ سيكونون دائماً ممتنّين لشجاعتك ونكرانك للذات. أمثالك باتوا نادري الوجود في أيّامنا هذه. الشكر كلمة لا تكفي للتعبير عن مضمونها.

كانت موقّعة بإمضاء رجل البذلة السوداء والمعطف الرماديّ؛ ذلك الذي انتشله عن الطريق بعدما فقد وعيه. أخبرت لينا أوف أنّ الإغماء نتج عن نوع من المرض المعقّد في الدماغ. ولو لم يكتشفوه ويبدأوا بعلاجه وقتها لَسلبه حياته في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غضـون بضعـة أعـوام. «إذاً، بطريقةٍ أو بأخرى أنقذتَ حياته مرّتين». قالت لينا بنبرة الصوت المنفعلة تلك التي جعلت أوڤ يندم قليلاً على عدم تركها محجوزة داخل المرأب فيما كانت الفرصة لا تزال سانحة له.

طوى الرسـالة وأعادها إلى المغلّف، ثم أمسـك بالصورة الفوتوغرافيّة. ثلاثة أولاد، كبيرهم في سنّ المراهقة، والآخران تقريباً في عمر ابنة پارڤانيه الكبرى، كانوا ينظرون إليه. أو بالأحرى، لم يكونوا فعلاً ينظرون، بل كانوا وكأنّهم مستلقون على كومـة أغـراض، وكـلٌّ منهم يحمل بندقيّة ماء، وهم جميعاً يضحكون فظهروا عمليّاً كما لو أنهم يصرخون. وخلفهم كانت تقف امرأة شـقراء في الخامسـة والأربعين من عمرها، ذات ابتسـامة عريضة، مباعدة ذراعيْها اللتين بدتا كجناحَي طائر كبير، وحاملـةً دلـواً يفيـض بالمـاء في كلّ يد. وعند أسـفل كومـة الأغراض كان صاحب البذلة السوداء متمدداً، ولكنه مرتدٍ قميص بولو أزرق اللون، ومحاولاً عبثاً أن يقي نفسه من شلّال المياه الذي ينزل فوق رأسه.

رمى أوڤ الرسالة بعيداً مع بقيّة الأوراق الإعلانيّة، وربط الكيس، ثم وضعه قـرب البـاب الأمامـيّ. وبعـد ذلك، عاد إلى المطبخ، وأخرج حجراً مغناطيسـياً من الـدُرج السـفلي وعلّـق الصـورة على الثلّاجة. بالضبط إلى جانب الرسـم الصاخب بالألوان الذي صنعته له طفلة السنوات الثلاث عندما كانوا عائدين من المستشفى.

مسح أوڤ بيده الضريح مجدّداً، على الرغم من أنّه قد أزال عنه للتوّ كلّ الثلج الذي يمكن إزالته.

«حسـناً، أجل، أخبرتهم بأنّ أحدنا قد يرغب في القليل من السـكينة والهدوء، مثل أيّ كائن بشريّ طبيعيّ. ولكنّهم لا يصغون». تنهّد ملوّحاً بذراعيه بكللٍ.

«مرحباً، صونيا». قالت پارڤانيه خلفه محركة يديها بابتهاج، فانزلق قفّازاها من يديها على أثر ذلك.

«مالحباً!». صاحت طفلة السنوات الثلاث بفرح.

«مرحباً، من المفترض أن تقولي مرحبا». صحّحت لها ابنة السنوات السبع.

«مرحبـاً، صونيـا». قـال پاتريـك، وجيمـي، وأدريـان، وميرسـاد وهـم يهزّون

رؤوسهم تباعاً.

فنفض أوف الثلج عن حذائه وهو يهزّ رأسه ناخراً وناظراً إلى الهرّ الواقف بالقرب منه.

«أجل. والهرّ سبق لكم أن تعرّفتم إليه».

أصبح بطن پارڤانيه الآن كبيراً؛ لدرجة أنها صارت تبدو كسلحفاةٍ ضخمة عندما تسحب جسمها إلى الأسفل في وضعيّة القرفصاء. وضعت إحدى يديها على الضريح، أما الأُخرى فظلت متشبّثة بذراع پاتريك.

«هذه الزهرة من پاتريك والأولاد ومنّي». وجّهت پارڤانيه كلامها إلى الضريح بابتسامةٍ وديّة.

ثمّ رفعت زهرة أخرى وأضافت:

«وهذه من أنيتا ورون. يإنهما يرسلان إليك الكثير من الحبّ».

استدار الجمع الغفير للعودة إلى موقف السيّارات، لكنّ پارڤانيه بقيت أمام الضريح. وعندما رغب أوف في معرفة السبب، قالت له ببساطة وبابتسامةٍ جعلت أوف راغباً في رمي الأشياء عليها: «لن تعرف أبداً أيّها المجنون!». لم يفكر في رمي شيء صلب، بل شيء رمزيّ.

ردّ عليها بصوت متذمّر. وبعد تفكيره مطولاً في سره، أدرك أنّ النقاش مع كلتا المرأتين في الوقت ذاته سيكون زائداً عن حدّه منذ البداية. لذا، بدأ يعود أدراجه إلى سيّارة الصاب.

«حديث نساء». قالت پارڤانيه بإيجاز عندما عادت أخيراً إلى موقف السيّارات وجلست على مقعد السائق. لم يفهم أوف ما عنته بهذا الكلام، ولكنه قرّر أن يتجاهل الأمر. شقيقة ناسانين الكبرى ساعدتها في ربط حزام الأمان على المقعد الخلفيّ. في هذه الأثناء، تمكّن جيمي وميرساد وپاتريك من حشر أنفسهم في سيّارة أدريان الجديدة أمامهم، والتي كانت من نوع تويوتا. وهي بالكاد الخيار الأمثل بالنسبة إلى شخصٍ سليم العقل، كما لفت أوف انتباه أدريان عدّة مرّات فيما كانا هناك لدى الوكيل. لكنها على الأقل لم تكن فرنسيّة الصنع. هذا وتمكّن أوف من الحصول على سعر أرخص بثمانية آلاف كرونة، وحرص على أن يحظى الفتى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بإطارات للشتاء من دون زيادة في السعر. فبدت مقبولة، على الرغم من كلّ شيء.

عندما وصل أوف إلى الوكالة، كان الفتى اللعين يفكر في ابتياع سيّارة هيونداي. لكان الوضع قد أصبح أكثر سوءاً.

ما إنْ وصلوا إلى شارعهم، حتّى تفرّقوا كلٌّ في اتّجاه. أوف وميرساد لوّحا بيديهما إلى پارڤانيه وپاتريك وجيمي والفتاتين، ثم اختفيا عند الناصية بالقرب من عتبة منزل أوف، يرافقهما الهر.

يصعب توقع الوقت الذي أمضاه الرجل القصير الممتلئ خارج منزل أوف؛ ربّما طوال فترة الصباح. كانت لديه هيئة حارسٍ مستقيم البنية مزروعٍ في مكانٍ ما في الحقول، في البرّيّة، كما لو أنّه مقطوعٌ من جذع شجرةٍ ثخين، ودرجة الحرارة المتدنّية تحت الصفر لا تعني له شيئاً. لكنْ عندما ظهر ميرساد في أوّل الشارع ولمح الرجل القصير الممتلئ طيفه، دبّت فيه الحياة مجدّداً بلمحة بصر.

«مرحباً». قال ممدِّداً جسمه ورافعاً ثقله إلى الوراء.

«مرحباً، أبي». تمتم ميرساد.

في تلك الليلة، تناول أوف العشاء مع پارڤانيه وپاتريك، فيما دار حديثٌ بين الأب وابنه حول خيبات الآمال والرجولة بلهجتين مختلفتين داخل مطبخ أوف. ربّما كان أكثر ما تطرّقا إليه هو الحديث عن الشجاعة. كانت صونيا ستحب ذلك؛ فأوف يعرف عنها الكثير. لكنّه حاول عدم الابتسام كثيراً كي لا تلاحظ پارڤانيه ذلك.

وقبل أن تخلد ابنة السنوات السبع إلى النوم، دسّت ورقةً في يد أوف مكتوباً عليها «دعوة إلى حفلة ذكرى ميلاد». قرأها أوف كما لو أنّها نقلٌ شرعيّ للحقوق في عقد إيجار.

ثم قال أخيراً بانفعال: «فهمت. وبالتالي، أتوقّع أنّك تريدين هديّة؟».

فأخفضت نظرها إلى الأرض، وهزّت رأسها قائلة:

«ليس عليك أن تبتاع لي شيئاً. أريد شيئاً واحداً في كلّ الأحوال».

طوى أوف ورقة الدعوة ووضعها في جيب سرواله الخلفيّ. ثمّ، وبحركةٍ تنمّ

عن سلطته، ضغط راحتَي يديه على خصره وقال:

«حسناً؟».

«قالت ماما إنّه غالي الثمن في كلّ الأحوال، لذا لا يهمّ». عبّرت من دون أن ترفع نظرها، ثمّ هزّت رأسها مجدّداً.

فأومأ لها أوف بتعبيرٍ تآمريّ، مثل مجرم قد أرسل للتوّ إشارة إلى مجرمٍ آخر يخبره من خلالها أنّ الهاتف الذي يستخدمانه مراقَب. التفت كلاهما حولهما في الرواق للتأكّد من أن والدتها ووالدها لا يسترقان السمع من إحدى الزوايا ويتنصّتان خلسةً عليهما، ثمّ انحنى أوف نحوها، فيما جعلت الفتاة يديها على شكل قمع حول فمها وهمست في أذنه:

«آيباد (iPad)».

بدا أوف وكأنّه سمعها تقول للتوّ: «آيقالبلتهخولستحي!».

«إنّه نوعٌ من الحواسيب. هناك برامج رسم خاصّة به؛ للأطفال». همست بصوتٍ أعلى، وشيءٌ ما يلمع في عينيها.

شيءٌ يعرفه أوف خير معرفةٍ.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

38

رجلٌ يُدعى أوڤ ونهاية قصّة

عموماً، هناك نوعان من الأشخاص؛ أولئك الذين يفهمون مدى منفعة الكابلات البيضاء، وأولئك الذين لا يفهمون ذلك. وجيمي ينتمي إلى الفئة الأولى. فهو يعشق الكابلات البيضاء، والهواتف البيضاء، وأجهزة شاشات الحاسوب البيضاء مع حبّة فواكه على جهتها الخلفية. هذا بإيجاز خلاصة ما استوعبه أوڤ أثناء رحلته في السيّارة في طريقه إلى المدينة، فيما جيمي يثرثر بحماسة حول أشياء يجب على كلّ شخصٍ عقلانيّ أن يوليها اهتمامه؛ إلى أن غرق أوڤ أخيراً في حالةٍ تأمّليّة عميقة، تحوّلت معها ثرثرة الفتى البدين إلى همساتٍ غير واضحة في أذنيه.

ما إن اقتحم الشابّ مقعد الركّاب في سيّارة الصاب حاملاً سندويشاً كبيرة، حتّى تمنّى أوڤ بوضوح لو أنّه لم يطلب مساعدته في هذا الخصوص. فالأمور لا تسير على نحو أفضل بينما يهيم جيمي «لتفقّد بعض الإصدارات الجديدة» بمجرّد دخولهما المتجر.

إذا كنت تريد إنهاء أمرٍ ما، فعليك أن تقوم به بنفسك كالعادة؛ هذا ما أكّده أوڤ لنفسه فيما كان يسير وحيداً باتّجاه صندوق المحاسبة. وليس قبل أن يهدر صائحاً: «هل خضعتَ لعمليّة جراحيّة في دماغك أو ماذا!؟» مخاطباً الشابّ الذي يحاول أن يريه مجموعة من أجهزة الحاسوب المحمولة المتوفّرة في المتجر، إلى أن أتى جيمي مسرعاً لمساعدته. ومن ثمّ لم يصبح أوڤ وإنّما العامل في المتجر بحاجة إلى المساعدة.

«نحن معاً». قال جيمي للمساعد وهو يومئ له بنظرة خاطفة هي بمثابة

مصافحة سرّيّة كما لو أنها لإيصال الرسالة: «لا تقلق، أنا واحدٌ منكم!».

عندها، أخذ مساعد المبيعات نفساً طويلاً مكبوتاً، وأشار إلى أوف قائلاً: «أحاول مساعدته، ولكن...»

«أنت تحاول فقط خداعي **بالحماقات**، هذا ما تفعله!». صرخ أوف في وجهه من دون السماح له بإنهاء حديثه، مهدّداً إيّاه بشيء انتزعه بعفويّة من على أقرب رفٍّ.

لم يعرف أوف بالضبط ما هو ذلك الشيء، إلّا أنّه بدا كقابس كهربائيّ أبيض وكشيءٍ بإمكانه رميه بقوّة على مساعد المبيعات إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

نظر مساعد المبيعات إلى جيمي وعيناه ترتعشان، وهو أمرٌ بدا أنّ أوف يبرع في بثّه في الأشخاص الذين يتواصل معهم بصرياً؛ هذا شيءٌ مألوف جداً لديه.

«لم يقصد أيّ أذى يا صاح». حاول جيمي أن يقول له بلطف.

«حاولت أن أريه جهاز ماك بوك (MacBook)، وإذ به يسألني عن نوع السيّارات التي أقودها». انفجر مساعد المبيعات بالكلام وهو يبدو مجروحاً بصدق.

«إنّه سؤال بديهيّ». تمتم أوف وهو ينظر إلى جيمي بحزم.

«لا أملك سيّارة! لأنّني لا أظنّها ضروريّة، ولأنّني أفضّل استخدام وسائل النقل الأقلّ ضرراً على البيئة من غيرها!». قال مساعد المبيعات بنبرة صوت تتأرجح بين الغضب والتقوقع.

فنظر أوف إلى جيمي، وأبعد يديه عن بعضهما؛ كما لو أنّ ذلك يكفي لشرح كلّ شيء.

«لا يمكنك التواصل بمنطق مع شخصٍ كهذا». قال ذلك متوقّعاً بوضوح دعماً فوريّاً له. «في المناسبة، أين كنت بحقّ الله؟».

«كنت فقط أتفقّد شاشات الحاسوب هناك. أنت تعرف». شرح جيمي.

«هل ستشتري شاشة حاسوب؟». سأله أوف.

«كلّا». أجاب جيمي وهو ينظر إلى أوف كما لو كان فعلاً سؤالاً غريباً، تقريباً بالطريقة نفسها التي سألته بها صونيا: «ما علاقة ذلك بالأمر؟»، عندما سألها أوف في إحدى المرّات إذا كانت «تحتاج» فعلاً إلى زوج آخر من الأحذية.

حاول مساعد المبيعات أن يستدير وينصرف خلسةً، إلّا أنّ أوف سرعان ما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اعترض طريقه برجله لإيقافه.

«إلى أين تذهب؟ لم ننتهِ هنا بعد».

بدا مساعد المبيعات غير مسرورٍ الآن، فربّت جيمي على كتفه لتشجيعه.

«جاء أوف فقط بحثاً عن آيباد (iPad)، هل يمكنك مساعدتنا في هذا الخصوص؟».

وجّه مساعد المبيعات لأوف نظرةً يعتريها الغضب، ثم أجاب:

«حسناً، لكنّني كنت أحاول أن أسأله منذ قليل عن النموذج الذي يريده؟ 16، 32 أو 64جيجابايت؟».

نظر أوف إلى مساعد المبيعات كما لو أنّه يشعر بأنّ على الأخير التوقّف عن جمع الأحرف عشوائيّاً على لسانه.

«هذه نسخ مختلفة مع سعات تخزين مختلفة». ترجم جيمي لأوف كما لو أنّه مترجم لدى قسم الهجرة.

«وأفترض أنّهم يريدون مبلغاً إضافيّاً لعيناً من المال». ردّ أوف بتذمّر.

فعبّر له جيمي بإيماءة عن استيعابه لِما قاله للتوّ، واستدار نحو مساعد المبيعات.

«أظنّ أنّ أوف يريد أن يعرف أكثر بشأن الفروقات بين النماذج المختلفة».

تنهّد مساعد المبيعات وقال:

«حسناً، هل تريد النموذج العاديّ أو نموذج الـ3G؟».

التفت جيمي إلى أوف، وسأله:

«هل سيُستخدم في الأساس في المنزل أو ستستعمله في الخارج أيضاً؟».

صوّب أوف إصبعه مباشرةً نحو مساعد المبيعات، وقال:

«هاي، أريدها أن تحصل على **أفضل واحد!** هل هذا مفهوم؟».

فقام مساعد المبيعات بخطوة إلى الوراء يشوبها التوتّر، وابتسم جيمي وباعد ذراعيه الضخمتين كما لو أنه يهيّئ نفسه لعناقٍ كبير.

«لِنقلْ 3G، 128– جيجا، مع كلّ الإكسسوارات المتوفّرة لديك. وهل يمكنك أن تضيف إليها كابلاً؟».

بعد بضع دقائق، انتشل أوف الكيس مع الآيباد (iPad) عن المنضدة، متمتماً شيئاً ما مفاده «ثمانية آلاف ومئتان وخمس وتسعون كرونة، ولا يضعون معه لوحة مفاتيح!»، تبعتها ألفاظ مثل «لصوص» و«نشّالون» وكلمات بذيئة مختلفة.

وهكذا، انتهى الأمر بحصول ابنة السنوات السبع في ذلك المساء على آيباد (iPad) من أوف، وعلى إرشادات من جيمي.

وقفت في الرواق؛ بالضبط خلف الباب، غير متأكّدة تماماً ممّا ستفعله بكلّ تلك المعلومات. وفي النهاية، هزّت رأسها ببساطة وقالت: «جميلٌ حقّاً... شكراً».

أمّا جيمي فعبّر عن شعوره برحابة صدر.

«هل لديكم أيّ وجبات خفيفة؟».

أشارت الفتاة إلى غرفة الجلوس الممتلئة بالناس. وفي وسط الغرفة، كان هناك قالب حلوى عليه ثماني شموع، فاتّجه الشاب ممتلئ البنية إلى هناك على الفور. ظلت الفتاة التي تبلغ الآن من العمر ثمانية أعوام في الرواق، وهي تلمس علبة الآيباد (iPad) بدهشة، وكأنّها لا تجرؤ على تصديق أنّها تحملها فعليّاً بين يديها. وانحنى أوف نحوها قائلاً لها بصوت منخفض:

«هذا ما كنت أشعر به كلّ مرّة كنت أشتري فيها سيّارة جديدة».

نظرت حولها للتأكّد من أنّ أحداً لا يراها، ثمّ ابتسمت له وعانقته، وبعد ذلك همست له وهي تركض باتّجاه غرفتها: «شكراً، يا جدّي».

وقف أوف في الرواق بهدوء، وضغط على مفاتيح بيته داخل راحة إحدى يديه. مرّ باتريك بالقرب منه وهو يعرج على عكّازيه، ويلحق بابنة السنوات الثماني. لقد كُلّف على ما يبدو بمهمّة السهرة الصعبة؛ بأن يقنع ابنته بأنّها ستمرح أكثر إذا جلستْ هناك مرتديةً فستاناً، وأكلت قطعةً من قالب الحلوى مع أشخاصٍ راشدين مملّين بدلاً من بقائها في غرفتها واستماعها إلى موسيقى البوب وتحميلها تطبيقات على جهازها الجديد. بقي أوف في الرواق وهو لا يزال يرتدي سترته ويحدّق إلى الأرض لنحو عشر دقائق.

«هل أنتَ بخير؟».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نـزل عليـه صـوت پارڤانيـه برفق وكأنّه يخرج مـن حلمٍ عميق. كانت تقف في مدخل غرفة الجلوس ويداها على بطنها المكوّر، تمسك به أمامها كما لو كان سلّة غسيل كبيرة، فرفع أوف نظره إليها والضياع بادٍ في عينيه.

«أجل، أجل. بالطبع، أنا بخير».

«هل تريد الدخول وتناول قطعة من الحلوى؟».

«كلّا... كلّا. لا أحبّ قوالب الحلوى. سوف أقوم فقط بنزهة صغيرة مع الهرّ».

رمقته عينا پارڤانيه البنّيتان الكبيرتان بتلك النظرة الثاقبة، كما تفعلان أكثر فأكثر غالباً هذه الأيّام؛ تلك النظرة التي تشعره دائماً بالاضطراب الشديد.

«حسـناً»، قالت أخيراً من دون أن يبدو أيّ اقتناع في نبرة صوتها، ثم تابعت: «هل ستعطيني درساً في القيادة غداً؟ سأقرع بابك عند الثامنة».

هزّ أوف رأسه، فيما تجوّل الهرّ في الرواق وفتات الحلوى عالق بين شاربيه.

«هل انتهيت الآن؟». سأله أوف، فبدا الهرّ مستعدّاً لتأكيد ذلك. وجّه أوف نظرة سريعة إلى پارڤانيه، وحرّك مفاتيحه قليلاً، ووافق بصوتٍ منخفض:

«حسناً، غداً صباحاً عند الساعة الثامنة».

كـان ظـلام الشـتاء الحالـك قد حلّ عندما خـرج أوف والهرّ باتّجاه الممشـى الضيّـق الـذي يربـط المنزلين ببعضهما. تدفّقت أصوات الضحك والموسـيقى إلى الخارج مثل سـجّادة كبيرة تبعث الدفء بين الجدران. كانت صونيا سـتحب ذلك بالتأكيد؛ فكّر أوف في سرّه. كانت ستحب ما يحصل في هذا المكان منذ قدوم هذه الأجنبيّة الحامل المجنونة وعائلتها صعبة المراس تماماً. وكانت سـتضحك كثيراً. يا إلهي، كم اشتاق أوف إلى سماع تلك الضحكة!

صعد باتّجاه موقف السـيّارات برفقة الهرّ. تحقّق من كلّ اللافتات عن طريق ركلهـا جيّـداً، ثـم هـزّ بخفّـة أبواب المـرآب، ودار حول موقف السـيّارات، ثمّ عاد أدراجه. تحقّق من غرفة التخزين. وفي طريق عودتهما بين المنازل بالقرب من عتبة منزل أوف، رأى أوف شيئاً يتحرّك قرب المنزل الواقع في آخر صفّ البيوت، تماماً حيـث منـزل پارڤانيـه وپاتريـك. في بادئ الأمر، ظـنّ أوف أنّه أحد ضيوف الحفلة، ولكنه سرعان ما لاحظ أنّ الظلّ يتحرّك بمحاذاة سقيفة المنزل القاتم التابع لعائلة

إعادة التدوير. وعلى حدّ علم أوف، كانوا لا يزالون في تايلند. أمعن النظر إلى المكان المظلم للتأكّد من أنّ الظلال لا تغشّه، ولبضع ثوانٍ بالفعل لم يرَ شيئاً. لكنْ بعد ذلك، فقط حين استعدّ لتقبّل فكرة أنّ بصره لم يَعُد كما في السابق، ظهر الظلّ مجدّداً، وخلفه ظلّان آخران. ثمّ سمع الصوت الذي لا يمكن إخطاؤه، والناتج عن ضرب أحدهم زجاج النافذة بواسطة مطرقة مغلّفة بشريط لاصق؛ لكي يكون بالإمكان تخفيف الضجّة التي ستصدر لدى تحطّم الزجاج. عرف أوف بالضبط ذلك الصوت؛ فقد تعلّم القيام بذلك في ممرّ سكك الحديد عندما كان عليهم التخلص من بقايا زجاج النوافذ المكسور في القطار من دون أن يقطعوا أصابعهم.

«هاي، ماذا تفعلون؟». صرخ عبر الظلام.

فتوقّفت الظلال عند أسفل المنزل عن الحركة، ثم سمع أوف أصواتاً.

«هاي أنتم!». صاح فيهم وهو يبدأ بالركض باتجاههم.

رأى أحدهم يخطو بضع خطوات باتّجاهه، وسمع الآخر يصرخ. زاد أوف سرعته وهاجمهم ككبشٍ بشريّ. وتسنّى له القليل من الوقت للتفكير في سره في أنّه كان عليه إحضار شيء من مرأبه ليقاتل به، لكنّ الوقت تأخّر الآن. ومن زاوية عينه لاحظ أحدهم وهو يلوّح بشيء طويل ورفيع، وبالتالي قرّر أوف أنّ عليه ضرب ذلك النذل أوّلاً.

وعندما شعر بطعنة في صدره، فكّر في بادئ الأمر في أنّ أحدهم قد تدبّر أمر الاعتداء عليه من الخلف، وضربه بقوّة على ظهره. لكنْ بعد ذلك شعر بطعنة أخرى أسوأ من أيّ وقت مضى؛ كما لو أنّ أحدهم كان يثقبه من فروة رأسه، بطريقة منهجيّة، وبحدّ السيف، مخترقاً مباشرةً كامل جسمه. لهث أوف محاولاً التقاط أنفاسه، ولكنْ لم تَعُد لديه أنفاس. وقع على الأرض وهو يستعدّ لإكمال خطوته إلى الأمام، ثم سقط بكامل ثقله على الثلج. أحسّ بألم خفيف في خدّه وهو يخدش الجليد، وشعر كيف يكون سحق صدره من الداخل بضربةٍ قويّة لا ترحم؛ إنه أشبه بسحق علبة طعام من الألومنيوم بواسطة اليد.

سمع أوف خطوات اللصوص المهرولة على الثلج، وأدرك أنّهم يفرّون. لم يعرف كم من الثواني قد مرّت، ولكنّ الألم في رأسه كان لا يُحتمل. أراد أن يصرخ،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولكن لا يوجد أوكسجين في رئتيه. كلّ ما سمعه هو صوت پارڤانيه البعيد الذي وصل إليه بصعوبة بسبب صخب الدم المتدفّق في أذنيه. أحسّ بترنّح خطواتها عندما تعثّرت وانزلقت على الثلج، بجسمها غير المتوازن فوق رجليها الصغيرتين. آخر شيء تسنّى لأوف التفكير فيه قبل أن يدخل كلّ شيء في الظلام هو جعلها تَعِده بأنّها لن تسمح لسيّارة الإسعاف بالمرور بين المنازل.

لأنّ مرور المركبات أمر محظور في المناطق السكنيّة.

39

ص

رجلٌ يُدعى أوڤ

إنّ الموت أمرٌ غريب. إذ يقضي الناس حياتهم بكاملها كما لو أنّه غير موجود، ومع ذلك هو في الغالب أحد أعظم المحفّزات على العيش. بعضنا يصبح- مع مرور الوقت- أكثر إدراكاً لوجوده؛ لدرجةٍ نعيش فيها بصعوبة أكبر، وبعناد أشدّ، وبغضبٍ أكثر إلحاحاً. والبعض الآخر يحتاج إلى حضوره الدائم كي يدرك نقيضه. فيما هناك فئةٌ أخرى تصبح جدّ مشغولة به؛ حتّى إنّها تقصد غرفة الانتظار قبل وقتٍ طويل من إعلان مجيئه. نخافه، ومع ذلك، يخاف معظمنا أكثر من أيّ شيء آخر أن يأخذ شخصاً آخر بدلاً من أن يأخذنا. وذلك لأنّ أعظم خوفٍ من الموت هو أنّه سيمرّ دائماً بالقرب منّا، وسيتركنا هناك وحيدين.

لطالما قال الناس عن أوڤ إنّه «عنيف»، ولكنّه لم يكن عنيفاً البتّة. فهو فقط لم يكن يتجوّل في الأرجاء ويبتسم بسذاجة طوال الوقت. هل يعني ذلك أنّه يجب معاملته على أنّه مجرم؟! كان يصعب على أوڤ التفكير بهذه الطريقة. وهناك شيءٌ ما في داخل الإنسان يتقطّع ويتحوّل إلى أشلاء عندما يتوجب عليه دفن الشخص الوحيد الذي فهمه على الإطلاق. وليس هناك وقتٌ لمداواة جرحٍ كهذا.

إنّ الوقت أمرٌ مثير للفضول؛ فمعظمنا لا يعيش إلّا الوقت الذي يرى نهايته قبالته. بضعة أيّام، أو أسابيع، أو أعوام. إحدى أكثر اللحظات إثارة للألم في حياة الإنسان قد تنبع من حدسه بأنّه بلغ سنّاً حيث هناك ما يمكن العودة إليه في الوراء أكثر مما يمكن التطلّع إليه. وعندما تصغر المسافة التي تفصل أحدهم عن نهاية الوقت، هناك أشياء أخرى تفرض العيش من أجلها، الذكريات ربّما؛ استراحات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما بعد الظهيرة في الشمس ويد أحدهم مشبوكة بيد الآخر، وعبير مشتل زهور في موسم تفتّح البراعم، وجلسات يوم الأحد في المقهى، وأحفاد ربّما. يجد أحدنا طريقة للعيش في سبيل مستقبل شخصٍ آخر. ولم تكن حال أوف أنه مات هو أيضاً عندما ودّعته صونيا، بل ببساطة توقّف عن العيش.

إنّ الأسى أمرٌ غريب.

عندما رفض الفريق الطبّي في المستشفى السماح لپارڤانيه بمرافقة أوف إلى غرفة العمليّات، تطلّب الأمر بذل جهود مشتركة من پاتريك، وجيمي، وآندرز، وأدريان، وميرساد، وأربع ممرّضات لكبحها فيما قبضتا يديها تحلّقان في الأجواء. وعندما نصحها طبيبٌ بأخذ حملها بالاعتبار، ونبّهها إلى ضرورة الجلوس و«أخذ الأمور برويّة»، قلبتْ پارڤانيه أحد المقاعد الخشبيّة في غرفة الانتظار. وعندما خرج طبيبٌ آخر عبر أحد الأبواب، وتعابير وجهه حياديّة، وقال بجفاء: «حضّروا أنفسكم للأسوأ»، صرخت بأعلى صوتها، وانهارت على الأرض مثل إناء خزفٍ محطّم، ووجهها يختفي بين يديها.

إنّ الحبّ أمرٌ غريب، فهو يفاجئك من دون استئذان.

عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً، أتت ممرّضة لاصطحابها. إذ كانت قد رفضت مغادرة غرفة الانتظار، وكان شعرها في فوضى عارمة، وعيناها حمراوين، وعلى وجهها دموع جافّة تركت وراءها خطوطاً سوداء بسبب الماسكارا (طلاء الرموش). وعندما دخلت الغرفة الصغيرة في أسفل الرواق، بدت في البداية ضعيفة جداً، لدرجة أن الممرّضة اندفعت نحوها للحؤول دون وقوعها على الأرض وهي تعبر العتبة. أسعفت پارڤانيه نفسها بالاستناد إلى إطار الباب، ثم أخذت نفساً عميقاً، وابتسمت للممرّضة ابتسامةً متكلّفة تماماً وهي تؤكّد لها أنّها «بخير». قامت بخطوة داخل الغرفة وبقيت هناك لبرهة، كما لو أنّها المرّة الأولى في تلك الليلة التي يتاح لها فيها استيعاب حجم ما حصل.

ثمّ اتجهت نحو السرير ووقفت بمحاذاته والدموع تنهمر من مقلتيها. وبواسطة كلتا راحتَي يديها ضربت ذراع أوف بقوّة، قائلة له وهي تنتحب:

« لن تموت بين يديّ يا أوف. لا تفكّر حتّى في ذلك». فتحركت أصابع أوف بضعف، وعندها جمعتها بين راحتَي يديها ووضعت جبينها على راحة يده.

«أظنّ أنه من الأفضل أن تهدّئي من روعك يا امرأة». همس أوف بصوتٍ أجشّ.

فضربته على ذراعه مجدّداً. ومن ثمّ رأى أنه من الحكمة التزام الصمت لبعض الوقت. لكنّها ظلت هناك ممسكةً بيده ومنهارةً على الكرسيّ، وهناك مزيج من الانفعال والتعاطف والرعب الكلّي بادٍ في عينيها البنّيّتين الكبيرتين. حينها، رفع يده الأخرى وداعب شعرها. كانت هناك أنابيب تخرج من أنفه، فيما صدره يتحرّك بجهدٍ تحت الأغطية؛ كما لو أنّ كلّ نفس يتنفّسه خفقةٌ طويلة من الألم. وخرجت كلماته من فمه مصحوبةً بصفير:

«لم تسمحي لأولئك الحمقى بأن يحضروا سيّارة إسعاف إلى المنطقة السكنيّة، أليس كذلك؟».

استغرق الأمر حوالي أربعين دقيقة قبل أن تتجرّأ أيٌّ من الممرّضات أخيراً على العودة إلى الغرفة. وبعد لحظاتٍ قليلة، دخل الغرفة طبيبٌ شابّ يضع نظارة، وينتعل خفّاً، ومن وجهة نظر أوف؛ يملك طلّة فريدةً بالنسبة إلى شخصٍ في مثل سنه. وقف الطبيب وهو شبه غافٍ بمحاذاة السرير، ثم قال بتذمّر وهو يوجّه إلى پارڤانيه نظرة محيِّرة:

«بارر... نا...»

«پارڤانيه». صحّحت له.

لم يبدُ الطبيب معنيّاً بالتحديد بما قيل له للتوّ.

«اسمك مُدرَج هنا بصفتك «أقرب الأقرباء». قال ملقياً نظرة خاطفة على هذه المرأة الإيرانيّة التي كانت في العقد الثالث من عمرها بشكلٍ لافت، وعلى الرجل السويدي غير الإيرانيّ بشكل لافت.

وعندما لم يبذل أيٌّ منهما أدنى جهد لشرح الوضع له، سوى دفع پارڤانيه أوف قليلاً وبلطف وقهقهتها وهي تقول: «آاه، أقرب الأقرباء!». وجواب أوف: «اصمتي، هلّا تفعلين!»، تنهّد الطبيب وواصل كلامه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«يعاني أوف من مشكلة في القلب...»، شرع بالكلام بصوتٍ هادئ، مُتبِعاً ذلك بسلسلة من الألفاظ التي لا يُتوقَّع من أي كائن بشريّ لم يخضع لتدريب طبّي لما يزيد عن عشر سنوات أو يعانِ من إدمانٍ كاملٍ وغير صحيّ على نوعٍ محدّد من المسلسلات التلفزيونيّة أن يفهم شيئاً منها.

وحين وجّهت إليه پارڤانيه نظرةً محمّلة بصفٍّ طويل من علامات الاستفهام وعلامات التعجّب، تنهّد الطبيب مجدّداً بتلك الطريقة التي غالباً ما يعبّر بها الأطبّاء الشباب ذوو النظّارات والأخفاف والتصلّب الشديد عندما يواجهون أناساً لا يملكون حتّى أدنى حد من اللباقة اللعينة المتعارَف عليها.

«قلبه كبير جدّاً». أعلن الطبيب ببلادة.

حدّقت پارڤانيه إلى الطبيب لوقتٍ طويلٍ جدّاً، ثمّ نظرت إلى أوف المستلقي على السرير بقلقٍ شديد، ثمّ نظرت إلى الطبيب مجدّداً كما لو أنّها تنتظر منه أن يباعد ذراعيه ويبدأ بالقيام بحركات رقصة الجاز بأصابعه ويصرخ: «كنت أمزح فقط!».

وعندما لم يفعل ذلك، بدأت بالضحك. في البداية، كان الأمر يشبه السعال، ثمّ صار كما لو أنّها تحاول منع نفسها من العطس. وبعد وقتٍ قصير، تحوّل إلى نوبة ضحك صاخبة لا تنتهي. أمسكت بطرف السرير، ولوّحت بيدها أمام وجهها في محاولةٍ منها لإيقاف نفسها عن الضحك، لكنّ ذلك لم ينفع. ثمّ تحوّلت ضحكتها أخيراً إلى قهقهة مدوّية ومتسلسلة خرجت من أعماقها وانفجرت ليتردّد صداها خارج الغرفة ويجعل الممرّضات في الرواق يحشرن رؤوسهنّ عبر فتحة الباب ويتعجّبن: «ماذا يحدث هنا؟».

«هل ترى ما عليّ أن أتحمّله؟». همس أوف بسأمٍ للطبيب، وهو ينظر في كلّ الاتّجاهات، فيما قامت پارڤانيه، وهي غارقة في نوبة ضحك هستيرية، بضغط وجهها على إحدى الوسائد.

نظر الطبيب إلى پارڤانيه كما لو أنه لم يتمّ مطلقاً إجراء ندوة طبّيّة حول كيفيّة التعامل مع هذا النوع من الظروف، ثم تنحنح أخيراً بصوتٍ عالٍ، وضرب الأرض بإحدى قدميه بحركةٍ سريعة لتذكيرهما بسلطته، وكي يتمكّن من متابعة الكلام. وبالطبع، لم ينفع معها الأمر كثيراً، لكنْ بعد محاولاتٍ عديدة، استعادت پارڤانيه

اتّزانها بما يكفي لتتمكّن من القول: «قلب أوف كبير جدّاً؛ أظنّ أنّني سأموت».

«أنا الذي أموت بحقّ الله!». اعترض أوف.

فهزّت پارڤانيه رأسها، وابتسمت للطبيب بحرارة، ثم سألته:

«هل هذا كلّ شيء؟».

أغلق الطبيب ملفّه بحالةٍ من الاستسلام وقال:

«إذا تناول دواءه فستتمكن من السيطرة على الوضع. لكنْ يصعب التوقع في مسائل كهذه. فقد يستغرق الأمر بضعة أشهر أو بضعة أعوام».

أومأت له پارڤانيه بحركة تدلّ على الرفض.

«آه، لا تقلق بذلك الشأن. فأوف **حثالةُ الحثالة** في ما يتعلّق بالموت!».

وبدا أوف كما لو أنّه أُهين كثيراً من جرّاء ذلك الكلام.

بعد أربعة أيّام، ترنّح أوف فوق الثلج وهو يسير باتّجاه منزله. كان يتّكئ من جهة على پارڤانيه، ومن الجهة الأخرى على پاتريك. أحدهما يسير متكئاً على عكّازيه، والأخرى حاملٌ. هذا هو الدعم الذي تحصل عليه؛ فكّر في سرّه من دون أن يجرؤ على البوح بما يفكر فيه؛ إذ انتابت پارڤانيه للتوّ نوبة غضب عندما لم يسمح لها أوف بإرجاع سيّارة الصاب إلى الخلف بين المنزلين، قبل بضع دقائق، وصرخت في وجهه: «**أعرف، أوف!** حسناً! **أعرف!** إذا قلت ذلك مرّةً أخرى، فأقسم بالله إنّني سأضرم النار في لافتتك اللعينة!». الأمر الذي رآه أوف دراما مبالغاً فيها بعض الشيء؛ وهذا أقلّ ما يمكن قوله.

كان الثلج يصدر صريراً تحت حذائه. وكانت النوافذ تسمح للضوء بدخول المنزل، فيما الهرّ يقف عند عتبة الباب منتظراً. وهناك رسوم تفترش طاولة المطبخ.

«لقد رسمتْها لك الفتاتان». قالت پارڤانيه وهي تضع المفتاح الاحتياطي داخل السلّة بالقرب من الهاتف.

وعندما رأت أوف يقرأ الكلمات في أسفل زاوية أحد الرسوم، بدت منزعجة بعض الشيء.

«إنّهما... أنا آسفة يا أوف، لا تُعِر ما كتبتاه اهتماماً! تعرف كيف هم الأولاد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

توفّي أبي في إيران، ولم تحظيا قطّ بـ... أنت تعرف...»

تجاهل أوف ما قالته للتوّ، واكتفى بأخذ الرسوم والاتجاه نحو دُرج المطبخ، ثم قال:

«يمكنهما مناداتي بما يحلو لهما. ليس من الضروري أن تحشري أنفك اللعين في ذلك».

ثمّ علّق الرسوم واحدةً تلو الأخرى على الثلّاجة. وتلك التي تحمل عبارة «إلى جدّي» حظيت بأعلى موقع. حاولت تجنّب الابتسام، ولكنها لم تنجح في ذلك، فتمتم أوف وهو يَعرِج باتّجاه السلالم:

«توقّفي عن الضحك وحضّري القهوة عوضاً عن ذلك. سوف أُحضِر صناديق نقل الأمتعة من العلّيّة».

إذاً، في ذلك المساء، ساعدته پارڤانيه والفتاتان في تنظيف البيت. لفّوا كلّ غرض يخصّ صونيا على حدة بورق الجرائد، ثم وضّبوا كلّ ملابسها في العلب بعناية. ذكرى واحدة دفعةً واحدة. وعند الساعة التاسعة والنصف، بعد أن أنهوا كلّ عملهم وغفت الفتاتان على أريكة أوف، وآثار الحبر من أوراق الجرائد على أصابعهما وآثار مثلجات الشوكولاته على زوايا ثغريهما، فجأةً أمسكت پارڤانيه بذراع أوف من الأعلى كمخلبٍ شرس من المعدن. وحين تمتم أوف «آخ!»، قالت في المقابل «صه!».

ومن ثمّ كان عليهما العودة إلى المستشفى مجدّداً.

إنّه صبيّ.

رجلٌ يُدعى أوف والخاتمة

إنّ الحياة أمرٌ مثير للفضول.

رحـل الشـتاء وأطـلّ الربيـع، ونجحت پارڤانيه في اختبـار القيادة. وعلّم أوف أدريـان كيـف يغيّـر عجـلات السـيّارة. ربما ابتاع الفتى سـيّارة تويوتـا، ولكنّ ذلك لا يعنـي أنّـه ليـس بحاجـةٍ **البتّـة** إلـى المسـاعدة؛ شـرح أوف ذلـك لصونيـا عندما زارهـا فـي أحـد الآحـاد في أبريل. ثمّ أراها بضـع صور لطفل پارڤانيه الصغير. كان يبلـغ مـن العمر أربعة أشـهر، وبسـمنة مولود الفقمة. لقد حـاول پاتريك أن يجرّب تصويره باستعمال إحدى كاميرات الهواتف الخلويّة تلك، بيد أنّ أوف لم يكن يثق فيهـا. وإذا بـه يتجـوّل حامـلاً داخـل محفظته رزمة صور لـه مطبوعة بدلاً من ذلك، وموصولة ببعضها بعضاً بواسطة شريط لاصق. كان يريها لكلّ شخصٍ يلتقيه؛ وحتّى للأشخاص الذين يعملون في مشتل الزهور.

رحل الربيع وأطلّ الصيف، وبمرور الوقت بدأ الخريف، وانتقلت الصحافيّة المزعجة لينا للسكن في شـارعهم مع فتى سـيّارة الأودي. نقل أوف شـاحنة الڤان التابعة له من مكانها؛ فهو لا يثق مطلقاً بقدرة ذينك الأحمقين على الرجوع بالسيّارة إلى الخلف بين المنزلين من دون أن يحطّما صندوق بريده.

عوّض ميرسـاد ووالده عن الماضي؛ وانتقل ميرسـاد للعيش مع جيمي الذي كان لا يزال يسـكن في منزل أمّه. وأطلق آمِيل اسـم جيمي على إحدى سندويشـاته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عربوناً للشكر؛ الأمر الذي اعتبره جيمي أعظم هديّة حصل عليها على الإطلاق.

لم يتحسّن وضع رون؛ ففي بعض الفترات يكون غير مرتاح، ويستمر ذلك لأيّام متواصلة. لكنْ في كلّ مرّة يزوره فيها أوف، تملأ بسمة الابتهاج كامل وجهه؛ من دون استثناء.

ازداد بناء البيوت في المنطقة أكثر فأكثر. وخلال بضعة أعوام، تحوّلت من منطقة نائية إلى شارع مدنيّ. الشيء الذي لم يسهّل على باتريك– على نحوٍ بيِّن– أمر فتح النوافذ أو تركيب خزائن الملابس من ماركة «إيكيا» (IKEA). في صباح أحد الأيّام، ظهر أمام عتبة منزل أوف رجلان في مثل سنّه تقريباً، يبدو عليهما أيضاً عدم رضاهما على الوضع. كان كلاهما يملكان منزلين على بعد بضعة شوارع نزولاً، كما شرحا له. كانا في صدد ترميمهما، ولكنّهما دخلا في مشاكل في ما يتعلق بالعَوارضِ فوق الجدران الفاصلة، ولم يعرفا ما عليهما فعله. لكنّ أوف يعرف، بالطبع. تمتم بشيء ما يشبه قليلاً كلمة «أحمقان»، ثم ذهب إلى المكان ليريهما الحلّ. وفي اليوم التالي، ظهر جارٌ آخر. وفي اليوم الذي تلاه، جارٌ آخر، ثمّ جارٌ آخر. وخلال بضعة أشهر، كان أوف قد قصد كلّ الأماكن؛ يصلح هذا وذاك في كلّ منزل تقريباً على مساحة أربعة شوارع محيطة. وعلى ما يبدو، هو دائماً يتذمّر من قلّة كفاءة الناس. لكنه حين يجلس بمفرده أمام ضريح صونيا في إحدى المناسبات، كان يتمتم قائلاً: «أحياناً، من الجميل جدّاً أن يكون هناك ما يشغل المرء خلال النهار».

احتفلت ابنتا پارڤانيه بذكرى ميلاديهما. وقبل أن يتمكّن أحدهم من شرح كيف حدث ذلك، باتت طفلة السنوات الثلاث تبلغ السادسة من عمرها؛ بتلك الطريقة التي تميّز الأولاد. ورافقها أوف في أوّل يومٍ لها إلى المدرسة. علّمته كيف يُدخل تعابير الوجوه في الرسائل النصّيّة القصيرة، وجعلها تعده بألّا تخبر پاتريك بأنّه ابتاع لنفسه هاتفاً جوّالاً. وابنة السنوات الثماني بلغت العاشرة من عمرها، وأقامت حفلة البيجاما الأولى لها. أما شقيقها الأصغر فكان يوزّع ألعابه في كامل أرجاء مطبخ أوف، ويبني له أوف بركةً صغيرة في الفناء الخارجي. لكن عندما

كـان أحدهـم يطلق عليها اسـم «البركة الصغيـرة»، كان أوف يصرخ بتذمّر: «إنّها في الواقع بركة سـباحة، أليسـت كذلك!». انتُخب آندرز مجدّداً رئيسـاً لجمعية السكان المقيمين، واشترت پارڤانيه جزّازة أعشاب جديدة لجزّ العشب خلف المنازل.

أكثر من مرّةٍ رحل الصيف وأطلّ الخريف، ورحل الخريف وأطلّ الشتاء. وفي صبـاح يـوم أحـدٍ جليـديّ من شـهر نوفمبر، بعد أربعة أعـوامٍ تقريباً منذ أن أرجعت پارڤانيـه وپاتريـك مقطورتهمـا تلـك إلى الخلف لتصطدم بصنـدوق البريد الخاص بأوف، اسـتفاقت پارڤانيه وهي تشـعر وكأنّ أحدهم قد وضع للتوّ يداً مجلّدة على جبينها. نهضت ونظرت إلى خارج نافذة غرفة نومها، ثم تفقّدت الوقت. إنّها الساعة الثامنة والربع. لم يُزَل الثلج بعد من أمام منزل أوف.

ركضت عبر الشـارع الضيّق بثياب نومها وخفَّيها، وهي تنادي باسـمه. فتحت الباب بواسـطة المفتاح الاحتياطي الذي أعطاها إيّاه، وهرعت إلى غرفة الجلوس. تعثّـرت علـى السـلالم بخفّيهـا المبلّلين، وفيما كانت تضع يدها على قلبها، شـقّت طريقها إلى غرفته.

بدا أوف وكأنّه ينام في سباتٍ عميق. لم ترَ وجهه بهذه السكينة من قبل. كان الهر متمدّداً بجانبه ورأسـه الصغير يسـتريح برفقٍ على راحة يد أوف. وعندما لمح پارڤانيه، نهض ببطء شديد؛ كما لو أنّه حينها فقط تقبّل كلّياً ما حدث؛ ثمّ صعد إلى حضنها. جلسـا معاً على حافّة السـرير، وراحت پارڤانيه تداعب خصل شـعر أوف؛ إلى أن دخل فريق الإسعاف إلى هناك. وبكلماتٍ وإيماءات ناعمة ولطيفة، شرحوا لها أنّ عليهم أخذ الجثمان. تنحت جانباً بعد أن همست في أذنه: «أَرسل حبّي إلى صونيا، واشكرها على القرض». وبعدها، أخذت المغلّف الكبير عن منضدة السرير والمكتوب عليه بخطّ اليد «إلى پارڤانيه»، ونزلت السلالم من جديد.

كان المغلف مليئاً بالوثائق والشهادات، وخرائط المنزل الأصليّة، وكتيّب دليل اسـتخدام مشـغّل الفيديو، وكتيّب خدمة سـيّارة الصاب. كما تضمن أرقام الحساب المصرفيّ ووثائق بوليصة التأمين، ورقم هاتف محامٍ كلّفه أوف «لإدراة كلّ شؤونه». حياةٌ بأكملها كانت مجموعة ومُدرَجة في ملفّات. إقفال حسـابات. تعلوها رسـالة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

موجّهة إليها. جلست إلى طاولة المطبخ لقراءتها. لم تكن طويلة؛ كما لو أن أوڤ عرف أنّها ستبلّلها بالدموع قبل أن تصل إلى نهايتها.

أدريان سيحصل على سيّارة الصاب. وكلّ شيء آخر هو لكِ لتعتني به. لديك مفاتيح المنزل. الهرّ يأكل سمك التونة مرّتين في اليوم، ولا يحبّ أن يقضي حاجته في منازل الآخرين. أرجوك احترمي ذلك. هناك محامٍ في المدينة يملك كلّ الأوراق المصرفيّة وما شابه ذلك. هناك حساب بقيمة 11 563 013 كروناً و 67 قرشاً من والد صونيا. كان الرجل العجوز يملك أسهماً ماليّة، وكان بخيلاً للغاية. أنا وصونيا لم نعرف ماذا نفعل بها. يجب أن يحصل كلٌّ من أولادك على مليون عندما يبلغون الثامنة عشرة من العمر، وفتاة جيمي على المبلغ نفسه، والباقي لكِ. لكنْ رجاءً لا تدعي پاتريك يتصرّف بها على الإطلاق. كانت صونيا ستحبك بالتأكيد. لا تسمحي للجيران الجدد بالقيادة داخل المنطقة السكنيّة.

أوڤ

وفي أسفل الورقة، كتب بأحرف كبيرة «**أنتِ لستِ حمقاء بالكامل!**». تلاها تعبير وجهٍ ضاحك، على غرار ما علّمته إيّاه ناسانين.

كانت هناك تعليمات واضحة عن الدفن الذي لا يجب- تحت أيّ ظرفٍ كان- «أن يُحدِث ضجّةً لعينة». لم يرد أوڤ أيّ مراسم، بل أراد فقط أن يوضع تحت التراب بجانب صونيا؛ هذا كلّ شيء. «لا أناس، ولا عبث في هذا الشأن!». أعلن بصرامة ووضوح لپارڤانيه.

أكثر من ثلاثمئة شخص حضروا الدفن.

عندما دخل پاتريك وپارڤانيه والفتاتان، كان هناك صفٌّ من الناس يمتد على طول الجدران والمماشي. الكلّ يحملون شموعاً مضاءة محفورة عليها عبارة «جمعيّة صونيا». لأنّ هذا ما نوَت پارڤانيه استثمار مال أوڤ فيه: جمعيّة خيريّة للأيتام. كانت عيناها غارقتين في الدموع، وحلقها جافّاً لدرجةٍ لا تزال تشعر فيها

منذ عدّة أيّام كما لو أنّها تلهث بشدّة. مشهد الشموع المضاءة خفّف شيئاً من وطأة ضيق تنفّسها. وعندما رأى پاتريك كلّ الأشخاص الذين جاءوا لوداع أوڤ، دفعها بكوعه برفقٍ وابتسم بكلّ رضى.

«صه! كان أوڤ سيكره هذا الوضع، أليس كذلك؟».

فضحكت؛ لأنّه كان سيكرهه بالفعل.

في المساء، أخذت زوجين في عمر الشباب متزوّجين حديثاً في جولة في منزل أوڤ وصونيا. المرأة حامل، وعيناها تبرقان فيما هي تسير بين الغرف؛ بالطريقة التي تبرق فيها عينا امرأة تتخيّل ذكريات طفلها في المستقبل وهي تفترش الأرض هناك. أمّا زوجها، فيبدو بوضوح أقلّ سروراً بكثير منها في ما يتعلّق بالمكان. كان يرتدي سروال نجّار، وغالباً ما كان يتجوّل في الأرجاء ويركل حافات الألواح بارتياب وانزعاج. عرفت پارڤانيه أنّ ذلك لن يُحدث أيّ فرق بالتأكيد، ورأت في عينَي الفتاة أنّ القرار قد اتُّخذ. لكنْ، عندما سأل الشاب بنبرةٍ متجهّمة عن «ذلك المرأب» المذكور في الإعلان، نظرت إليه پارڤانيه من الأسفل إلى الأعلى بتمعن، ثم أومأت له بجفاف وسألته عن نوع السيّارة التي يقودها. تأهّب الشاب للمرّة الأولى، وابتسم ابتسامةً خفيّة قدر الإمكان، ونظر إلى عينيها مباشرةً؛ بذلك الفخر الذي لا يُقهَر والذي لا تحتويه إلا كلمة واحدة:

«صاب».

انتهى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رَجُلٌ يُدعى أوڤ

فريدريك باكمان

فتح أوف الستائر الخضراء بسرعة، والتي ضغطت عليه زوجته لسنوات عديدة وبإلحاح لجوج ليغيّرها. رأى امرأة قصيرة، سوداء الشعر، ومن الواضح أنها أجنبية، يُناهز عمرها الثلاثين عاماً. كانت تقف هناك، وتومئ بغضب لرجل أشقر وضخم في مثل سنها، طويل القامة، ومحشور على مقعد السائق في سيارة يابانية صغيرة وسخيفة تجرّ مقطورة، وتحتكّ الآن بالجدار الخارجي لمنزل أوف.

ويبدو أن الرجل يريد أن يُفهِم المرأة عن طريق الإيماءات والإشارات الخفية أن هذا الأمر ليس تماماً بالسهولة التي تعتقدها. فيما بدت المرأة– بإيماءات واضحة بعض الشيء– وكأنها تريد أن تُبلغه أن ذلك قد تكون له علاقة بغبائه.

«اللعنة، سأكون...» توعّد أوف من وراء النافذة بينما كانت عجلات المقطورة تتحرك على أزهاره. وبعد بضع ثوان، بدا باب منزله وكأنه فُتِحَ من تلقاء نفسه، وكأنّه يخشى أن يمرَّ أوف مباشرة عبره.

«ما الذي تفعلينه بحقّ الله!؟». صرخ أوف في وجه المرأة.

فأجابته صارخة: «هذا ما أسأل نفسي عنه!».

فقَدَ أوف توازنه لبضع لحظات وهو ينظر إليها نظرة ساخطة، فيما كانت تبادله النظرة نفسها.

«لا يمكنك قيادة سيارة هنا! ألا تحسنين القراءة؟».

تقدّمت المرأة الأجنبية الصغيرة بضع خطوات نحوه، وعندها فقط لاحظ أوف أنها إما حامل أو تعاني ممّا قد يصنّفه أوف السمنة المفرطة.

مكتبة بغداد

«لست أنا من يقود السيارة، أليس كذلك؟».

حدّق أوف إلى وجهها بصمت لبضع ثوان، ثم التفت إلى زوجها الذي تمكّن للتو من انتزاع نفسه من السيارة اليابانية. واقترب منهما ويداه مرتفعتان بصراحة في الهواء، وهناك ابتسامة اعتذارٍ مُلصَقة على وجهه. كان يرتدي سترة محبوكة، وتبدو وقفته وكأنها تشير إلى وجود نقص واضح في الكالسيوم لديه. طول قامته قد يصل إلى المترين، ويشعر أوف بتشكيك فطري تجاه جميع الناس الذين يتخطّى طول قامتهم متراً وخمسة وثمانين سنتمتراً؛ إذ لا يمكن أن يصل الدم فعلاً إلى أدمغتهم.

استفسر أوف: «ومن تكون أنتَ؟».

فقال الرجل النحيف بفصاحة: «أنا السائق».

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

الدار العربية للعلوم ناشرون
جائزة النشر والتقنيات الثقافية
2015

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات.كوم
www.nwf.com

ISBN 978-614-01-1803-4
9 786140 118034

facebook.com/ASPArabic
twitter.com/ASPArabic
www.aspbooks.com
asparabic